السيد حافظ

قهوة سادة.. قهوة زيادة

الجزء الأول

الرؤية الثانية - مزيدة ومنقحة

السباعية الروائية

مسررواية

الكتاب : قهوة سادة – قهوة زيادة – الجزء الأول – الرؤية الثانية – مزيدة ومنقحة

الكاتب : السيد حافظ

الناشر : دار الطباعة الحرة للطباعة والنشر

تليفون : ٤٨٦٠٠١٢ / ٠٣

الطبعة الثانية : القاهرة ٢٠٢٣

رقم الإيداع : ٧٣٧٠ / ٢٠١٧

دار الكتب والوثائق القومية

إدارة الإيداع القانونى

الترقيم الدولى : I.S.B.N 877 – 01 – 5634 - 5

الغلاف :

تصميم وإخراج : خالد شعبان

سباعية السيد حافظ الروائية

قـــهــــــوة سـ ــــــــــادة

كـــابـــتشـــيـــنـــو

ليالى دبى شاي أخضر شاي بالياسمين

كــل مــن عــلـيـهـا خـــــان

حــتى يــطـمـئـــن قــلـبـــى

مـــا أنـــا بـــكـــاتـــب

لـــو لـــــم أعشـــقــهــا

ملاحظة مهمة لك صديقى القارئ:

أولا: هذه سردية، وليست رواية عادية ولكنها مسررواية أى رواية تأخذ المسرح معها فى عناق وتلاحم، وهو حلم "توفيق الحكيم" فى بنك القلق وكذلك كان حلم يوسف إدريس فى "نيويورك ٨٠" وهى ليست حلمى الآن، بل هى مشروعى.. أنت بين يديك الجزء الأول من مشروعى، وبعد عشرات الصفحات تقابل الجزء الثانى.. وتنتظر الجزء الثالث، وهكذا.. فتعطر وتأهب واشرب قهوتك واخلع نعليك واسترخ وتنبه؛ فأنت شريكى وصديقى.. هيا بنا نرحل معًا عبر الحكاية..

ثانيا: هذا المشروع هو منفصل متصل يعنى أن كل جزء منفصل، وأيضًا متصل بالأجزاء الأخرى؛ لأن لى خبرة متواضعة فى الكتابة للمنفصل المتصل فى الدراما..

ثالثا: استعد صديقى وشريكى القارئ فى هذه المسرواية أنى سوف أقوم فيها بتصحيح التاريخ المزور والمسكوت عنه فى حياتنا بدءًا فى هذا الجزء من إخناتون، وفى كل جزء سأقوم بهذا لأننا قمنا بتزوير التاريخ وقدمناه للناس، وأنا مثلك درست التاريخ المزور فى المدرسة وحتى الآن.. ولكنى بحثت وقرأت وصححت لعلى أنفع الناس وأكشف الغمامة عن عيونهم وأن يشغلوا عقولهم..

منذ ٥ سنوات صدرت الطبعة الأولى، لكن بعد ٥ سنوات معلوماتى وقراءتى زادت لذلك كان ولابد أن أقدم عملًا جديدًا أكثر معرفة وأكثر خبرة فى التكنيك

حاول أن تمر نحو النور فعشاق الظلام كثر..

وأخدر نفسى كل ليلة بصوت عبد الحليم وفيروز.. هل أنا من سلالة النور، وأنت المجهول؟

(بعد عصر الأهرامات فى مصر جاء عهد الانحطاط، وجاء أمنمحات الأول كى يواجه هذا الانحطاط الأخلاقى والاجتماعى والعام، لكنه وجد عدم ارتياح من المصريين له حيث أن قلوبهم ارتاحت إلى الفوضى والفساد اللذين هوى إلى حضيضهما الشعب المصرى خلال عدة أجيال بل قرون حتى أنقذهم أمنمحات من ذلك فى تلك الفترة، وكان شعاره

إصلاح النظام المالى فى مصر والقضاء على الفساد بالعدل، وقال إن مهابة الحاكم تأتى من تطبيقه العدل)

جيمس برستيد "كتاب فجر الضمير" صفحة.. ٢١٩ خللى بالكم من كلمة أن قلوب المصريين ارتاحت إلى الفوضى والفساد من ٤ آلاف سنة قبل الميلاد.

يا أيُّها العابرون على ذكرى طفولتي ألقوا عليها الورد والابتسام..

الكاتب

وأنسـى
أنَّ النسـاء جسـدٌ
من لحم ودم
وأتذكر
أنهن عطـر لـه روح
ويجرحنى صدى صوتك فى ذكرياتى؛ فكيف يكون حالى؟
مر الفرح على بابى وجد الحزن حجز كل الأمكنة

السيد حافظ

شكر وتقدير

إلى المبدعين والباحثين والنقاد الذين ساهموا بدراساتهم القيمة حول هذه المسررواية

أ. أحمد فضل شبلول (مصر)
د. أمجد ريان (مصر)
د. جميلة رحماني (المغرب)
د. حنان حطاب (الجزائر)
أ. دينا نبيل (مصر)
أ. عواطف الزين (لبنان)
أ. فهمي إبراهيم (مصر)
أ.د. كمال الدين عيد (مصر)
د. لبلبة فتحي خليفة (مصر)
د. وفاء كمالو (مصر)

إهـــــداء

إلى عينيك الحزينتين..

إلى كـفيكِ.. يا بلادي المقهورة الجميلة

إلى حب أعيشه، ولا يهجر أحلامى وتمرد بلا سبب ليكون حبا لا يعرف الانتهاء..

إلى ابنـي محمد الرائع "أبو كادى وفريهان"

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا

صدق الله العظيم

﴿الإسراء : ٨٥﴾

قال "فتحى رضوان خليل" أحد أبطال هذه المسررواية:

لا تعتبى عليَّ؛ فقلبى وعمرى ورزقى وحلمى ليس بيدى.. لا تعتبى علّي فأنا بقايا فارس وحديقة أنغام لم يسمعها إلا قلة.. ألم أخبرك يا صغيرتى أنك شعلة فى الروح حين تظلم، ولا أدرى يدي من رجلى، ولا يسارى من يمينى.. لا تعتبى عليَّ ودلليني، ودلينى على مسكن روحى لروحك واغسلى قلبك بيدي.. لا تعتبى عليَّ، وأنا من يسقط من حروفى ألف شاعر وألف ألف كاتب مسرحى وروائى، وألف ألف ألف ألف أنثى جميلة تافهة، ويهاجمنى ألف دعى وصحفى وأشباه كتاب وألف سياسى جاهل..

أنا لا يعرفنى حقًا إلا من استظل بظل نبى،وتعطّر فى الفجر بسورة النور، وهو بهى.. ومن مرق واخترق التاريخ بوعى إنسانى غير عادى.. أنا لا يعرفنى إلا أنثى لا تشبه أحدًا.. أنثى تشبه الهمس الخفى، وليس لها مثيل ولا شبيه ولا سمي، وأنا المغرور والمقهور والمكسور والمحشور والمسحوق والمنثور على الصفحات لشعب لا يقرأ، وأنتِ خير النساء.. لا تعتبى علّي لا تعتبى علّي

قالت "سهر" إحدى بطلات هذه السردية المسرواية:

آه.. أستاذ كاظم.. أهرب من سحر عينيك تأسرنى ابتسامتك فى معتقل أنا احبك لامفر ..

لك فى قلبى وردة حزينة فقدت عطرها مع مرور الوقت وابتعاد المسافات

الجزء الأول

قهوة سادة

الفصل الأول

عشق لا يعرف الانتهاء

حكاية "سهر"
الروح السابعة

بقعة دم على قميص نوم "سهر"

خافت.. ارتعدت.. بكت... جاءت الأم مهرولة؛ وجدت بقعة دم حمراء فى ثوبها.. زغردت الأم، ثم ارتعدت.. لقد بلغت "سهر".. نضجت اليمامة.. الحمامة.. الوردة.. تفتحت مبكرًا.. أصبحت طفلتها أنثى.. طفلتها ذات الاثنى عشر عامًا.

رأت اباها يبكى يومى ٨ و ٩ يونيو، وهو يرى عبد الناصر يتنحى.. ذهبت أمها بها إلى "شهرزاد"، وقالت لها:

البنت صارت أنثى..

زغردت "شهرزاد" العجوز الجميلة الساحرة، نثرت عليها بخورًا به حبهان وعين الشيطان حرقتها فى النار، وقرأت لها بعض ما تيسر من القرآن والدعاء والتعويذات والمعوذتين، وبسر الدعاء للبنات

مر يوم، يومان. عام، ربما عامان

تحرك نهدها في الفراش بقلق قامت إلى النافذة فتحتها وجدت عصفورًا يرتعش.. أمسكته.. احتضنته.. انتفض نهدها الأيمن.. أدخلت العصفور فى صدرها تدفئه.. انتعش نهدها الايسر، وطرب..

"سهر".. اسم يعرفه الليل والبحر والشجر وأحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين والمحلات فى الجبل فى بلاد الشام..

"سهر".. ابنة السابعة عشر ربيعًا التي كلما سارت في الأزقة أو الشارع يبعث نهداها في قلوب الرجال إشارات كهرومغناطيسية بفرح.. هي تعرف أن الله جميل وأحيانا يمنح أنثى من روحه ومن وجهه ألقاً؟.. قال عجوز يسكن بجوارهم كلما رآها:

سبحان الله الذي خلق!!

قال أبوها:

متى يأتي عريس يناسبها، وينقذ أباها من كل هذا القلق؟

أخذت العصفور فى حضنها ونامت، وتدفأ المجرم الصغير، ونام بين النهدين يحلم ويسأل الله أن يتحول إنسيًّا، ولو ليلة.. ساعتين.. ساعة.. نصف ساعة.. دقائق.. لكن لا فائدة.. تقدم ببطء من شفتيها ونال قبلة فتحت عينيها.. "أي أي".. ضحكت.. ضمته وضمته مرة أخرى إلى نهديها وشدت اللحاف..

بطل شقاوة ونام..

لم ينم العصفور، وطاف بخياله ألف حلم.. آه لو كان بشرًا لطاف بها في الفراش حول الكرة الأرضية واغتصبها ألف مرة، وتزوجها رغمًا عن أنف كل البشر..

آه لو تحولت "سهر" إلى عصفور لحلت المشكلة فى الحال.. آه لو؟؟

تمددت "سهر".. نزل شعرها على كتفيها فظللت العصفور.. شعرها غابة من الحرير من العطر تغطيه.. هذا العطر لم يشمه من قبل العصفور لا على الزهور ولا البحور ولا الغابات ولا أى بشر..

يقول أحد الأثرياء فى المنطقة التي تسكن بها "سهر":

أقسم بالله أنا على استعداد أن أدفع وزنها ذهبًا..

لكن العرَّافة "شهرزاد" قالت لأبيها:

- لا... ابنتك ستسافر إلى بلاد النفط بلاد الذهب من الإمارات وتتزوج من رجل ثرى، وتفتح لها المدن ألف نافذة نور، وستتمرغ فى الذهب..

الأب ينتظر أن يأتي هذا الفارس القادم الرحَّالة؛ لترحل معه "سهر" على سفينته، ويكون علم السفينة التى تركبها "شمس وقمر".. كما قالت العرَّافة العجوز "شهرزاد"..

"شهرزاد" تعرف قصة لسان امرأة مسماة بالألفية جامعها ألف رجل؛ فحكت عن كل رجل منهم أشكالًا مختلفة وأوضاعًا مشتتة، وهى تعرف مدينة العلو والإيضاح في أسرار الليل.. بعض النسوة الشريرات قلن إنها هي التى عرفت ألف رجل.. تجلس النساء تحت ركبتها يشكين من ضعف الرجال الجنسى وجهلهم بالتعامل معهن.

فقط هى "شهرزاد" التى تعرف، وتنصح بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحة او قهوة سادة قبل الجماع بنصف ساعة حتى ينجبن ذكرًا، وكانت تعرف للنكاح مائة اسم، فتجلس النساء أمامها فى ذهول.. كانت تقول أن النكاح له أسماء كثيرة؛ فالحصان ُيسمى كام، وعاظل الكلب: أي نكح الكلبة، ونزا التيس: أي نكح التيسة، وقمط الديك: أي نكح الدجاجة، وسفد الطائر: أي مارس الجنس.. وعندما تشكو أنثى من الرجل من كثرة الجنس تقول لها هو الدعس.. والهك والهق شدة النكاح.. والرجل الذى يكثر من النكاح تقول مثل العصفور تقول عنه "رصاع"..

كانت تعلم النسوة كيف تكون الأوضاع التى تثير المتعة أكثر، ولم لا!! إنها "شهرزاد" وكانت تمرح مع النسوة أثناء شرب "المتى" (هو مشروب تشربه بعض الجاليات العربية، وُيشرب فى أمريكا اللاتينية وكان يشربه جيفارا).. تقول شهزاد للنسوة: ذكر البعير يقال له (مقلم) وللفرس جرادن، وغرمول الحمار، وقضيب التيس، وعقدة الكلب، ونزك الضب، وقضيب الذبابة سموه (متك).. تضحك النسوة ويلتففن حولها فى ذهول

كانت "شهرزاد" قد ورثت عن أبيها مكتبة بها كُتُب الشيخ الإمام جلال الدين السيوطى، وكتاب ابن حزم "طوق الحمامة" فى فن النكاح.. لم تقل سر علمها بالعشق والغرام.. والنساء يجلسن فى ذهول أمام علمها قالوا إنها امرأة قديسة وقلن أيضاً عنها لعوًبا.. قلن: تزوجت من ألف رجل.. قلن وقلن وقلن، والناس دوًما تقول..

ولدت "سهر" في يوم ١٢ رجب ١٣٧٧هـ - ١ فبراير ١٩٥٨م، يوم أن تم الاتفاق على الوحدة بين مصر وسوريا، والتي أطلق عليها اسم «وحدة ما يغلبها غلّاب» وأصبح الاسم الجديد لمصر وسوريا "الجمهورية العربية المتحدة"، وأصبح "عبد الناصر" الزعيم لكلا البلدين، وأًطلق على "شكري القوتلي" اسم «المواطن العربي الأول»، ولم يقم بأي عمل سواءً كان رسمًيا أم غير رسمي، وهكذا قام حلف من نوع جديد لا هو من حلف الفضول ولا حلف بغداد ولا حتى حلف وارسو أو الأطلنطي، بل حلف أساسه قومي عصبي لتلبية طموحات جامحة لزعيم عربي، والعجيب أن هذه الوحدة التي قيل إنها

وحدة ما يغلبها غلَّاب لم تستمر سوى أربع سنوات، ثم انفكت. فرح أبو "سهر"كثيًرا عند قيام الوحدة وبكى أكثر عند الانفصال كطفل فقد أباه.. كان حب الشوام لعبد الناصر أسطوريًا رغم الانفصال..

أم "سهر" أنثى جميلة تدعى سلمى.. تؤمن بكلام "شهرزاد" العرَّافة التي تسكن في كوخ بعيد.. "شهرزاد" اللغز لم تتزوج، ولكن سُميت باسم "شهرزاد" لأنها أسعدت أناساً كثيرين بقراءة كفوفهم.. "شهرزاد" على ذقنها وشم أخضر.. هى بيضاء.. عيناها زرقاوان.. قالوا من جمالها تزوجها جني جميل، ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها.

وقالوا عنها: عرَّافة الجن.. يمدها عشيقها الجني بالسر، وأسرار كل البشر..

"شهرزاد" تحب "سهر" لأنها تذكرها بشبابها، تذكرها بالجمال الذى فتن العقول فى شجن، وألهب خيال الرجال.. شهرزاد ألهب خيالها رجل واحد اسمه "حامد الصقر" الذى يقف على كتفه صقر، وهرب من القرية إلى فنزويلا..

شهرزاد تحب سهر، وعطر عرق "سهر" الذي لم يعرف سره أحد لا جن ولا بشر.. "شهرزاد" تعرف أنَّ السر في العرق وأنه عطر لا يوجد في أى أنثى إلا ما ندر.. سبحان ربى من خلق، ولا يوجد أحد فى الضاحية، أو البلاد مثل "سهر"

"شهرزاد" تعلم ما قاله الشيخ السيوطى أن يدعك الرجل حلمتي ثدي الأنثى فإن حلمتها هيَّجها هياجًا شديدًا وانقطع اللبن عن الثدى دليل على أن بين الثدي والرحم اتصالًا.. كانت النساء تسرعن إليها لتعرف سر الجماع، والرجال يحاولون الحصول على نصيحة منها مقابل سلة تفاح أو زيتون أو بعض الليرات؛ فكانت تأخذها بشموخ وكبرياء لأنها الوحيدة التي تحفظ نصائح السيوطي.. وعندما تعلم "شهرزاد" أن رجلًا من الحي أو القرى أو المدن القريبة تجرأ وطلب يد "سهر" أو اقترب منها تهجم عليه فتقرأ له كفيه وتقول محذرة:

- لا تقترب من "سهر" إنها عشيقة القمر، ومن يتزوجها يصاب بالعمى..

وكان الكثيرون يصدقونها ويهربون، إلا بعضهم كان يحاول مرة أخرى ولكن على حذر..

نهضت "سهر" في الصباح، وجدت العصفور لم ينم طوال الليل، بل ظل واقفًا متوثبًا أمامها يراقبها طوال الليل وهى نائمة.. نظرت فى عينيه وجدت صورتها.. خافت.. ارتعدت.. ظنته جنيًا جاء فى شكل عصفور.. قالت:

- من أنت؟.. جني؟ أم إنسان مسحور؟

كل صباح تنظر "سهر" فى المرآة.. تنظر فى عينيها.. يرتعش رمشها، تجد فتنة مختزنة لو وزعت على النساء العابرات في مدن الجمال لفتن رجال العالم العابرين على جسور العشق.. وفى أقل من نصف ساعة تكون قد أنهت غسيل وجهها وإطعام الدجاج والديوك والبغل والحصان.. وتلقي ببعض الغلات إلى العصافير والحمام واليمام، وتتجه إلى المدرسة.. ألم يكن من الممكن أن تجرى الحياة على الأرض بلا كراهية وحسد وحقد وغيرة حتى تتمكن تلك الأميرة الصغيرة من التقدم نحو الفرح؟.. الأقزام كثيرون والعمالقة قلة، وهى تحلم برجل عملاق..

***

كاظم.. معلم اللغة العربية فى مدرسة "سهر" ٣٠ سنة أشقر وسيم.. كان العاشق لها فى صمت يحب كل الصباحات كى يراها.. كان يريد أن يتنفس وجودها فى الفصل فى المدرسة فى الحى فى القرية فى الكون. ينظر إلى "سهر" يشم عطرها عن بعد فيقترب ويبتعد بين الصفوف فى الفصل كأنه يدنو ويهرب من سجن عطرها ويسأل البنات، ويسألها وكلما أخطأت "سهر" أعطاها فرصة.. نعم.. أليس عندما يخطىء من نحبه نعطيه فرصة أخرى؟. وإذا أخطأنا فيما نحب نطلب نحن فرصة، وكل إنسان يحلم بفرصة، وكل حبيب يحلم بفرصة.. أليس الله يمنحنا الفرص الكبرى والصغرى، وأحيانًا يعطى بعض البشر إمكانية منح الآخرين فرصة؟.. هل تمنحينني فرصة أيتها الصغيرة "سهر" يا ابنة السبعة عشر ربيعًا..

قال لـ "سهر" وهو يمر بين الصفوف:

- اجعلى ولى أمرك يأتينى ضرورى.. كان يريد أن يتعرف على أهلها

احمرَّ وجهها.. ترى لماذا ولى أمري، ومن ولي أمرها أبوها أم أمها؟ أم أخوها؟؟
آه يا "سهر"..
فى مقاومة ما يستحق المقاومة كتبتُ على الماء وريش الطيور والحجر.. حبك قدر..
في مقاومة ما يستحق المقاومة زرعت الريحان والتمر والليمون والياسمين على جسر كلامى وأذبته فى غدير عشقي لك.. فى مقاومة ما يستحق المقاومة أهديت بعض كلماتي لنساء لم أعرف أسماءهن، وربما قابلتهن أو لم أقابلهن وركضت خلفهن خطوتين وتركتهن على ألف فرسخ خلفي فى دوَّامات حائرة.
آه يا "سهر"..
راح يجهز مشروب "المتَّى" وهو يسير فى الغرفة.. الشتاء بارد فى الجبل، وصورة "سهر" لا تفارقه، والدفء ضروري فى مثل تلك الليالي.. قال له عمه عبر الهاتف: ممكن أن يجري له فى وساطة حتى يتم نقله إلى العمل فى مدرسة فى العاصمة دمشق .. هل يرحل ويترك "سهر"..
الليل والعشق و"المتى".. الليل وأنت يا "سهر"..
آه يا "سهر"..
يتذكر حين يمر إلى جوارها فى طابور الصباح وهو يحاول أن يجعل الأمر يبدو طبيعيًا.. تقف في الصف في فناء المدرسة تحمل فوق كتفيها حقيبتها.. ترى ماذا تحمل في حقيبتها؟؟.. كل تلميذ أو تلميذة يحمل حقيبة على كتفه بها حزن أبيها وأمها وأسرتها وأحلامها.. هي تسبح طوال الحصة في الماضي والحاضر والمستقبل.. والذاكرة أحيانًا لا تحتمل كثرة أحلامنا وذكرياتنا وأوجاعنا.. ترى ماذا تحمل "سهر" فى حقيبتها غير جمال حروفها ونبض قلبها وقلوب رجال يعشقون عطرها؟.. ترى ماذا تحمل من أسرار وأفكار ومشاعر في تلك الحقيبة التى بيديها؟؟

لا تتركيني بين ظنوني القاتلة.. أنا قلبي عصفور يطرب كل الطيور، ولكن اللحن من قلبك أنت وروحك أنت وعطرك أنت.. غيابك موت بطيء.. لا تتركي ظنونك تهشم أحلامنا؛ فأحلام العشاق أجنحة الفراشات وجناح الظنون نار تحرق قلوبنا..

سيدتى أنتِ.. أنا أهزم كل الأشياء إلا الظن والشك فهو يبيد كل الفرسان والبشر.. أحبك نعم، وأنا عصفور وأنا قلب عصفور لا أحتمل الظنون..

قرأ كاظم خطابات من أبيه يدعوه أن يأتي، وأن يترك وظيفة التدريس فى السويداء والجبل، لكنه لن يترك الجبل ويذهب إلى العاصمة.. هل يترك قلبه هنا ومشاعر حب لم يعرفها ولم يقابلها من قبل؟.. قال لأبيه في رسالة أن حياة الجبل أجمل.. إنَّ أباه يجهز له عروسًا جميلة هى ابنة العم، لكن القلب وما هوى وما هوى غير "سهر"

آه يا "سهر"

لا تبقي بعيدًا ففي فؤادى وردة منك، ذبلت عيون الرجال من البكاء فى عشقك.. لا تبقي في الروح إلا مسافة بين الحلم والعلم.. لا تبقي بين ذاكرتي والقلب إلا وردة.. لا تبقي طوال اليوم توشوشيني فى النوم واليقظة.. لتبقي راحتي وواحتي وهزيمتي فقد هزمتني أيام العمر.. هل سأضمك وأحبك وأترك على سرير أحلامك عطري طوال العمر..

كراسة "سهر" أمامه.. كل سطر في التعبير الإنشائي يوشوش له بحكايا ليل "سهر" وفجر "سهر" وصبح "سهر"... وكل ثلاثة سطور بلون مختلف.. أحمر.. أزرق.. أسود.. وأحيانًا لون رابع أخضر.. وفي بداية الكراسة رسمت فراشات ووضعت صورًا لزهور كأنها رسالة حب بلا عنوان لا يفهمها إلا كاظم العاشق الولهان..

ويظل السؤال.. لماذا لا أحب المدرسة إلا من أجل "سهر"؟ هل العيب فى المدرسة؟ أم الطلبة؟ أم النظام؟.. الصغار ناقمون.. الكبار ناقمون.. والنظام أخرس أبكم.. حبر على ورق.. المدرسون لا ينشغلون بالمستقبل فهم محاصرون أو موهومون بأنهم صناع المستقبل؟؟ والطلاب مشدودون بالأحلام.. الرتابة فى حياة المدرس تحاصره.. يشرح نفس الدرس فى كل الفصول، نفس الكلام من شهر لشهر، من عام إلى عام ويظل

يدور.. ينسى المدرس طلابه وطالباته ولا ينسى أبدًا المشاغب أو المشاغبة أو المتفوق أو المتفوقة أو الغبى بشدة أو الغبية.. لكن من ينسى عيون وسحر "سهر". لا أعتقد..
آه يا "سهر".. أحبك في الدقيقة بعدد دقات قلوب نساء الأرض؛ فاجمعى واطرحى واقسمى عددهن فى بقاع الأرض
آه يا "سهر".. ثلاثة حروف نسيتها حين عرفتك "ألف نون ألف"

***

كاظم.. لم يلمس امرأة فى حياته، لم يضاجع أنثى، ولكن أمامه الكتب تشرح ما هو الجنس.. يعّرف الجنس بأنه: (جملة الخصائص التشكّيلية والفسيولوجية العضوية التي تؤمن التكاثر الذي يتلخص جوهره بالتلقيح في نهاية المطاف).. وهو كذلك: ((غريزة في الإنسان مثل غيرها من الغرائز التي تتحكم به والتي من أهمها الأكل، والنوم، وكل هذه الغرائز تهدف إلى غاية واحدة هي بقاء حياة الإنسان على الأرض)).
هذان التعريفان يتسقان فى معنيهما فى كل الأديان السماوية والوضعية، إذ أن غاية الجنس هو تكاثر النوع.. يقول كولن ولسون: (الجنس هو أحد أقوى الرغبات التي يجربها الإنسان).. يقول فرويد: (ينفصل الجنس أولا عن ارتباطه الصميمي بالأعضاء التناسلية وينظر إليه كوظيفة جسدية عامة تبغى المتعة ومن خلال ذلك فقط تسهم فى إعادة إنتاج النوع). والجنس ينقسم من حيث المعنى إلى قسمين: الأول معناه العام، والثاني معناه الخاص؛ فالمعنى العام للجنس هو: الذكورة والأنوثة، أى معناه البيولوجى، أما معناه الخاص فهو: الممارسة الجنسية، وما يحاط بها - بدءًا وانتهاءً - من أحاسيس ومشاعر انجذاب إلى الآخر، وما يتداخل معهما من أفعال، أى المعنى الاجتماعي.
وإن تأكيد فرويد على أن الأحاسيس الجنسية لا تنحصر مطلقاً بالتناسلية، صحيح إلى حد ما عندما ننظر إلى دور الكثير من المناطق المثيرة للجنس في الجسم البشري – خاصة الأنثوي، ويُعرف أن الكُتاب العرب الذين كتبوا لنا هذا الكم الهائل من المؤلفات،

ناقشوا وظيفة تلك المناطق على أنها مكملات للعملية الجنسية التي ستؤدي إلى خلق النوع.

ويعرف أن الدراسات العربية والغربية – على حد السواء - قد درست الجنس على أنه يهدف إلى حفظ النوع، إلا أنها تناولته أيضًا على أنه علاقة اجتماعية لا تحكمها هذه الغاية. والجنس يعني النوع، يقول العرب: من جنس الشعر، أي من نوع الشعر. (كقولنا الإنسان والحيوان جنس، إذ أن الإنسان جنس). ومن الكتب المصنفة فيه كتاب "الألفية والشلفية"..

قال أبو الخير: "يُحكى أن ملكًا بطلت عنه قوة المباشرة بالكلية وعجز الأطباء عن معالجتها بالأدوية فاخترعوا حكايات على لسان امرأة مسماة بالألفية لأنها جامعها ألف رجل فحكت عن كل منهم أشكالًا مختلفة وأوضاعًا مشتتة فعادت باستماعها قوة الملك وشفي".. ومثله في "مدينة العلوم والإيضاح في أسرار النكاح" أي في الباه للشيخ عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشيرازي.. والباءة بالمد: (الموضع الذي تبوء إليه الإبل ثم جعل عبارة عن المنزل ثم كني به عن الجماع لأنه لا يكون غالًبا إلا في الباءة أو لأن الرجل يتبوأ من أهله أي يتمكن كما يتبوأ من داره، وقوله عليه الصلاة والسلام "من استطاع منكم الباءة" على حذف مضاف وتقديره من وجد مؤن النكاح فليتزوج)..

الباءة مثل الباعة والباء النكاح وسمى النكاح باءة.. باءة إذا أعرس، وفى حديث النبي "من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له لوجاء" أراد بالباءة النكاح والتزويج، ويقال: فلان حريص على الباءة؛ أي على النكاح.

والباه كلها مقولات ابن الأنباري الباء النكاح.. يقال فلان حريص على الباء والباءة، والباه بالهاء والقصر أي على النكاح والباءة الواحدة والباء الجمع وتجمع الباءة على الباءات.. قال الشاعر "يا أيها الراكب ذو الثبات إن كنت تبغي صاحب الباءات فاعمد إلى هاتيكم الأبيات".. وفي الحديث عليكم بالباءة يعني النكاح والتزويج ومنه الحديث الآخر إن امرأة مات عنها زوجها فمر بها رجل وقد تزينت للباءة وبوىء الرجل نكح.

يغلق كاظم الكتب وينام يحلم بالجنس والباء والنساء وسهر..

نام العصفور على كف "سهر" وتسلل فى الليل لينام بين ثدييها.. وبكى فرحا وزقزق.

شعرت بكلامه ولم تفهم حواره.. دق قلبها دقة.. دقتين.. حن القلب وضعته على النافدة كي يطير.. لم يطر..

قرر العصفور أن يجعل نافدة "سهر" سكنًا له، حتى يكون قريًبا منها.. ويتسلل ليلاً إلى غرفتها..

في الصباح مثل كل صباح تِشِّم"سهر" عن ساعديها، وتبدأ في لم فراش البيت كما تطلب أمها وتضعه على سطح المنزل في الشمس.. وكالعادة تمر العصافير والحمام من فوق منزلها كأنها تلقى السلام عليها، وهم يشمون عطرها الذى فى الجو ينتشر إذا ظهرت "سهر"..

كانت أم "سهر" تخاف عليها.. ذهبت "سهر" إلى أمها وأخبرتها بأن المدرس يطلب ولى الأمر.. قالت الأم هامسة:

- ماذا فعلت يا بنت؟
- لا شئ يا أمى.. والله..

تذهب الأمهات للمدرسة عادة للاستفسار عن الأبناء، أما الأباء يذهبون فى حالة واحدة وهى ضرب المدرس أو المدرسة إذا تجاوزوا الحد مع أولادهم.. أو باستدعاء من أحد المدرسين لهم للأهمية..

راحت الأم مع سهر إلى المدرسة، وكانت المفاجأة أن المدرس كاظم قال له مرتبكا:

- ديرى بالك على "سهر" لأنها ستصبح متفوقة وسيصبح لها شأن كبير، ولا تفعلى مثل أهل البنات اللائى يمنعن بناتهن عن التعليم فى منتصف الطريق..

كان يود أن يقول لها أنه يحب ابنتها ويريد الزواج منها، وأنه يعشق عطرها.

المدرسة تكحل عيوننا بالدهشة دوًما، والغباء أحيانًا، ومدرسة البنات تكحل عيوننا ببعض الفتيات الجميلات وبأصوات بعضهن التى تكون مثل أصوات العصافير.

حصة اللغة العربية هى الجحيم للطالبات، وكذلك حصة التربية الرياضية إلا "سهر" تحب اللغة الإنجليزية والتربية الرياضية.. أحبت "سهر" اللغة العربية والجغرافيا والتاريخ.. ذاكرة التاريخ تغذيها بالوهج والخيال وخاصة سلطان باشا الأطرش..
قالت شهرزاد وهى تمشط شعر "سهر" ذات مساء فى بيت "سهر" العشق يا "سهر" سر الحياة.. العشق واحة الروح.. لا تعرف "سهر" سر حب "شهرزاد" العرافة لها؟.. ولا تعرف لماذا هى أيضاً تحبها..
حب خفى متبادل بين الاثنتين كل منهما تحمل جمالًا وسرًّا من العشق نحو الرجال.. كانت شهرزاد تنصحها قائلة:

- إن الرجل يكره الفم العفن؛ يجب أن تأكلى حلوى، شيكولاتة، مهلبية أو لقمة قشطة بالعسل قبل القبلات، لأن الأنثى التى يعشقها الرجل يجب أن تكون عطرة الشفتين، وأنت القمر يجب أن تكونى ذهبية الشفتين.. اسمعى يا سهر: إن النهدين تفاحتان، طفلان يسبحان على بحر شفاه فتعلَّمى السباحة فوق شفاه الرجال، وإن عناق الرجل شمس مشعشعة مشمسة تسري في الجسد بسرعة الضوء، وإن خلع الملابس للأنثى فى العشق ليس دفعة أو مرة واحدة، بل قطعة قطعة، كأمواج من الزبدة تسيح فى حرارة غريزة الرجال.. وأن الجنس على ريش نعام هو الأحلى، وأحيانا على نجيلة خضراء، أو فى لحظة الجنون على رمال البحر البيضاء.. إن الجنس يروى جفاف الجسد، والإغراء ليس حركات بل فضاءااات.. أن تكونى بالقرب من الغاوي غواية تشع ثلجًا يطفىء لهيبه شبقًا، وبعيدة فى نفس الوقت نجمًا فى فضاء يطوي قلب الرجل.. يتدحرج الرجل بمشاعره نحوك فى رجاء وإعياء.. يحترق بشهوته فى خلاء وحدته مدفوعًا أن

تحج روحه لك فى كل صباح ومساء .. يتحوَّل قلب الرجل إلى قمر يطلب أشعتك؛ فيصير فى أحضانك كوردة صفراء.. حمراء.. قرمزية.. يكون بين يديك خاتمًا وضاءً.. كونى فى عشقك طاهرة وساحرة ونظرة رمشيك خفية بريئة كفتاة عذراء.. نظرة هى طير يسرح فتسرح معه كل العيون وتقفز القلوب له فى السماء. اجعلى ابتسامتك سؤالًا بلا جواب وضحكة فرحك نغمًا وغناءً..

ضحكت سهر وقالت لـ شهرزاد

- آه منك

- إنَّ عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار، وهواء بحر عشقك نار فى روح الرجال.. اجعلى قلوبهم تطير وتصعد حتى سابع سماء.. إن عشقك سيهزم الرجال وهوى قلبك لن يعرف هزيمة.. أنتِ بحر يهدهد القلوب قبل العيون، وصوتك به نبرة خفية تتحرك فتحرك ظلمة الروح للنور.. قبلاتك سكر ولؤلؤ خفى لا يتذوقه إلا رجل يعبر بحرك بالطيران ويدق قلبك بجناحه المكسور وبدقة قلبك له تصبحين وطنا للعشق..

- وأنتِ جميلة يا "شهرزاد".. يخيفينى كلامك من الرجال.. من العشق.. من الهوى.. لماذا لم تتزوجى وأنتِ جميلة؟؟

ضحكت "شهرزاد" قالت:

- كنت جميلة جدًّا.. الجمال ابتلاء والقبح أيضاً ابتلاء.. كنت مثلك ألهب خيال الرجال.. كان ربى عظيمًا جدًّا.. كان قلبى ينتظر أن يصحو قرينه، لكن قرين قلبى كان يضل الطريق طوال العمر وقلبى لا يتزحزح واقفًا على رصيف الحب ينتظره.. لقد تعودت الوحدة.. تعودت الانتظار، ولكنى أحيانًا فى الليل وأنا أسعل أشعر بالوحدة والرغبة فى أن يرافقنى زوج رجل أعشقه أحبه أولا قبل أن أتزوجه.. يطاردنى كل الرجال بذكائهم وغبائهم.. أتقلب فى الفراش أصحو فى منتصف الليل أخرج من الدار أراقب الأشجار وهى تعانق الريح.. الليل قاس لا

يرحم.. وعلى الجبل تشاهدين الليل عاريًا يشرع قوانينه وشخصيته.. أفكر أن أصرخ: ترى لو صرخت فمن يا ترى يسمعنى؟ الملائكة.. الجبال.. الأشجار.. تمنيت لو ضمنى أحدهم فجأة إلى صدره.. لو فعل سوف يذيبنى ويفنينى بوجوده القوى.. أشعر بقلوب الملائكة مفزوعة من أجلى.. إنى أتطلع كل يوم إلى الانتظار واللقاء.. قلبى وحيد في سأم..

أمسكت "سهر" بيديها..

- أنا أرى الليل فى المساء على الجبل طفلًا يحمل فانوسًا يضيء به قمر..

نظرت لها "شهرزاد" قائلة:

- يا حبة القلب.. إياكِ والمختار بسَّام إنه زير نساء.. أحيانًا يمر عليَّ فى المساء يحمل بعض الحطب واللوز ويود أن يدخل البيت أمنعه من على الباب.. يترك الأشياء التي يحملها ويعود خائبًا.. كل شيء حولى يؤذن بأن حبيبى قرب موعد قدومه، وأنت سيأتى عريسك إليكِ.. قريبًا.

خافت "سهر" أن تبوح لها بأنها تخشى أن يكون جمالها نقمة فلا تتزوج مثلها وتصير حديث الناس.. الزواج هو الخلاص والنجاة لكثير من البنات.. تبتهج البنات بالوهم أن العريس هو الفارس القادم يخطفهن على حصانه الأبيض أو الأسود أو البنى.. يجرى بهن بعيدًا قد يكون الحصان أعمى فلا يعرف مكان قصر أحلامهن؛ فيجدن أنفسهن فى كوخ أو فى الفراغ صحراء جرداء، فيبحثن عن حلمهن ولا يجدنه أبداً.. فتكون الأماكن نصبًا تذكاريًّا للأحلام المؤجلة أو المهزومة مثل المدرسة القديمة.. أو أول مسكن للعائلة.. أو أول فستان ارتدينه ويفاجأن أنهن لابد وأن يمتن..

كاظم.. معلم "سهر".. كان يحلم بأن يكون سياسيًا فصار معلمًا.. المعلمون سيئو المستوى.. مثقفونا سيئو المستوى.. قادتنا سيئو المستوى.. المجتمع يفرز جهلًا وتخلفًا.. الكراهية تنتشر.. الحقد.. التدنى الفكرى.. المواطن اليهودى لديه حلم بالعودة إلى أرض الميعاد إسرائيل.. الناس تحب حلمًا بالعودة لوطن مفقود، ونجحت إسرائيل فى

جعل هذا الحلم لكل مواطن يهودى.. الفلسطينى يحلم بالعودة لأرض الوطن فلسطين.. ما معنى المواطنة؟ هل هي فطرية أم مكتسبة؟ إذا كانت فطرية كيف تنزع منا بواسطة الحكام؟.. إذا كانت مكتسبة من أين نرضعها من الدساتير أم من القانون أم من النظام أم من الدولة؟؟.. لا أدرى؟؟.. الإسرائيليون والفلسطينيون حلمهم بوطن على قطعة أرض واحدة.. مَن المصيب ومن الكاذب؟.. الاثنان على صدق.. هكذا يقول التاريخ.. الاثنان عاشا على هذه الأرض منذ آلاف السنين.. هل المشكلة فى اسم الدولة تكون فلسطين أم تكون إسرائيل؟.. هل المشكلة صنعها الأنبياء: سليمان وداود وموسى.. أم صنعها الأشقياء من الزعماء من الطرفين عرب وإسرائيليين.. أم صنعها وعد بلفور.. يؤمن كاظم بأن الدولة يمكن أن تكون للاثنين يحكمها نظام علمانى اشتراكى والدين لله..

آه يا كاظم.. الحكومات العربية نجحت فى جعل المواطن العربى يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر له.. وطن آخر فى أوروبا أو أمريكا، وأنت يا كاظم واحد منهم.. يقول الإمام على رضى الله عنه: "الفقر فى الوطن غربة والغنى في الغربة وطن".. نحن العرب سيئو المستوى.. كان يؤمن بقول افلاطون من يعزف عن المشاركة فى الحياة السياسية يستحق العقاب بأن يحكمه جاهل أو لا يرعى شؤونه ويتجاهله ديكتاتور، ونحن العرب هكذا..

آه يا كاظم.. بعثرت أحلامك بالوطن وسجنته بين الفصول وبين عقول التلاميذ ستلقى بأحلامك عامًا بعد عام وتظل معلمًا مدرسًا مسجونًا.. هل المدرسون آثار خالدة والتلاميذ سائحون يعبرون ويمضون للحياة والأثر يبقى فى انتظار السائحين. لم أفلح فى حب الرياضة أو لعب الطاولة أو الدومنيو أو الشطرنج.. نعم أنا معارض للنظام.. نعم المواطن العربى لا يستطيع أن يفتح فمه ويقول: آه.. إلا عند طبيب الأسنان، وتقول: لماذا قتل على بن أبى طالب؟؟ ولماذا قتل الخلفاء الراشدون الثلاثة؟؟.. لماذا..؟

الفصل الثانى

ليت لى ألف عين

يقول الشاعر

ليت لى الف عين

ترى كل ما يعرض على الوجود

من عجائب وطرائف،

وليتني أبقى تائقًا إلى مرأى

ما خفي عني

من أسرار

ومكنونات.."

جبران خليل جبران.

***

يونيو... ١٩٦٧

فتحى رضوان.. حبيب "سهر" في المستقبل

كنت أسكر وأغنى حين أسمع كلمة وطنى، والآن أبكى عليه كلما قرأت عنه ونبشت فى ذاكرة الناريخ.. الخطيئة أن نخاف الحب.. لم يعد موج بحر الاسكندرية يكفى غسل احزانى..

كأنى كنت أعرفك ولمست روحك وطفت بك الكعبة والجنة والنار والماء والهواء والأرض والسماء.. كأنى كنت أعرفك ورقة بيضاء تطلبنى تغوينى أكتبها كأنى كنت أعرفك قهوة مرة عذبة ورائحة ود ويود.. كأنى كنت أعرفك آية من سورة الرحمن من القرآن لم ينقلها جبريل لخاتم المرسلين، وسامحه رب العالمين؛ فحولك ربى أنثى لى.. كأنى كنت أعرفك.. افترشى صدرى بستان لك وتنهدى وتمددى كزهرة نرجس..

***

كتبت خطًابا إلى "ناهد حجازى" تلك الأنثى التى لا تشبه نساء الأرض:

عذًرا سيدتى.. ماذا أكتب عن حرب أكنوبر ١٩٧٣؟.. رأيت الوطن يضاجع الفقراء ويقدمهم ضحايا وشهداء فى سيناء، وعندما انتصروا ترك لهم سرواله الداخلى ليصنعوا منه أوسمة وشهادت تقدير وإعلام أما الأغنياء جلسوا على عرش مصر وباعوها لكل الغرباء باسم الانفتاح والانفشاخ والخصخصة والمصمصة، ونشروا للشباب حبوب الهلوسة.. وطنى لا يحب الفقراء.. وطنى نذل مع الشهداء والشرفاء، وأنا برىء وتادم لأنى كنت من الأغبياء الفقراء وأنت خير النساء.. لا تعتبى علّي.. عندما تكذب علّي امرأة تسقط شهادة ميلاد حبها معى، وتصبح فى نار النسيان، وتكون فى مزبلة التاريخ وتنفى فى الذاكرة.. كثير من أسماء النساء اختلطت فى ذهنى أصبح الحرف الأول بدلا من الأخير؛ فأصبحت الأسماء متشابهة ضجر.. الحب الحقيقى تطهير وتنوير لا يعرف الكذب والتزوير .. الحب رئيس جمهورية النقاء يعرف العلو، الحب يكره المزورين والكذابين.. خائفة من أن تقعى على فراش عشقى وردة أتنفسك وألمسك وأذوب.. لا

تفزعى فى منزلى وعلى الفراش وفى كل الأمكنة أشياء كثيرة مذهلة.. لقد هطلت علّي السماء ذات مساء بحلمات نساء وأفخاذ رائعة.. أنا من سيدخل بك فردوس المتعة المطلقة من ثقب الظلمة إلى النور وأترك قوافل النور وأشد ظهرك للوجع اللذيذ.. أنا غياب الحضور.. أنا جبل يذوب من الحب فيغرق الكون أفكارا وعصافير وتسابيح فتموت شهوات النزوات وتبقى صلوات حب للخلود..

سوف أغنى واشترى الزهور مرة أخرى حين أجدك يا وطنى بلا شرطى، وقاضى فاسد وإعلامى مخصى مأجور.. لكننى الآن حزين وفى ذهول كل هؤلاء ضدك يا وطنى المحروم.. كل ما حولى قبيح: الشارع، الوطن، التاريخ.. نهود نساء مترهلة يأسًا وشوارب رجال مرتخية هزيمة إلا ثلاث وردات فى نافذتى: فل، وياسمين، وجورى.. إنى أرى جمال الكون وأرى الله فى ثلاث وردات فى نافذتى.. أيتها الشوارع الملوثة بدماء غبائنا.. نحن بلهاء لا نعرف الفرق بين الديمقراطية والفوضى.. ورجالنا لا يعرفون الفرق بين القبلة والوردة والهمسة، ونساؤنا لا يعرفن معنى الحضن والدفء والرقة لأننا لم نعد بشرًا.. بل كأننا شعب وكأننا وطن..

***

فتحى رضوان

جلس فتحى رضوان فى البالكون بعد كتابة الرسالة شاب (١٨ سنة) مصرى الملامح، عربى الفكر، عالمى الإحساس بالجمال، يذاكر الثانوية العامة "أدبى"..

أحببت الجغرافيا والتاريخ.. كنت أكره الرياضيات كنت بليدًا فى الرياضيات المثلث والمكعب والدائرة ونصف قطر، والكيمياء، والفيزياء، مع رغبة دفينة أن أفهم سر الذرة.. كنت أكره النحو: الفاعل والمفعول، الخبر المتأخر.. واللغة الإنجليزية كذلك.. حلمى أن ألتحق بقسم الحضارة والآثار، أحلم بهذا القسم كى أسافر وأجوب العالم كل العالم..

كانت رغيدة (١٨ سنة) بيضاء عيناها زرقاوان، شعرها أشقر، متفتحة الأنوثة بشبق جنونى.. رغيدة زوجة محمد الطويل (٣٥ سنة موظف فى محلات صيدناوى يجهل العشق والنساء يضاجعها كالحمار وينام).. رغيدة تشعر بالوحدة بين الأربعة جدران.. الوحدة تفتح الباب لشيطان الشهوات. الوحدة تزرع فى العقل حقول التفاهات.. وبسبب الوحدة تشاغل رغيدة جارها فتحى من بالكون بيتها الذي يقع فى الشارع المقابل لها.. وتراه ويراها كأن ما بينهما ليس شارعاً إنما بحر من الشبق أو بحر من الرغبة.. الرغبات أمواج.. الرغبات تدمرنا.. تنعشنا.. تغير كيمياء القلب والفكر والدم والمزاج.. كانت رغيدة تخلع ملابسها عارية فى الحجرة أمامه.. ود أن يقفز على حجرتها..

آه لو لى جناحان.. جسد مطاطى يمتد لشارعها لبعثت به إليها لأطفئ ما فى القلب والجسد من لهيبى ولهيبها.. ضحك وهى ترقص أمامه عارية.. وجاءت أمه إلى البلكون قالت:

- ادخل نام لك ساعة يا حبة عينى أنت صاحى من صلاة الفجر بتذاكر عشان تعرف تكمل اليوم..
- بعد ساعة صحينى يكون الجيش المصرى دخل تل أبيب، وعبد الناصر بيخطب هناك.. زى ما قال أحمد سعيد فى صوت العرب

ولد "فتحى رضوان خليل" فى نفس اليوم الذى استشهد فيه فى فلسطين البطل أحمد عبد العزيز قائد قوات مصر فى حرب ١٩٤٨.. ولد فى يوم الأحد ٢٣ أغسطس ١٩٤٨.. فى نفس اليوم دعي أحمد عبد العزيز لحضور المؤتمر مرة أخرى بعد تقديم الاعتذار له، وفى المؤتمر أصر أحمد على تسجيل العدوان اليهودي على أموال وأرواح العرب، وكان يمثل اليهود فى ذلك المؤتمر موشيه ديان. وبعد مباحثات مطولة انتهى الاجتماع بقرارات تقضى بسحب القوات اليهودية خلال ٢٤ ساعة من المناطق التى احتلتها إسرائيل، ووقف إطلاق النار على طول الجبهة فورًا ومطالبة حكومات الدول بالنظر فى موضوع

خلق منطقة منزوعة السلاح. وبعد الاجتماع عاد أحمد عبد العزيز إلى موقعه وتناول غداءه، وأصر على التوجه مباشرة إلى مقر القيادة العامة فى غزة لإبلاغهم بما حدث بالمؤتمر وذلك على الرغم من مناشدة رجال أحمد عبد العزيز بعدم السفر ليلًا وتأجيل ذلك للصباح الباكر إلا أنه أصر على ذلك واصطحب معه الصاغ صلاح سالم الذى قاد سيارته بدلًا من السائق الذى جلس فى الخلف وكان معهما الضابط الوردانى أحد رجال أحمد عبد العزيز المقربين.

كان لا يعرف كلمة السر التى كانت فى تلك الليلة فى (غزة) أثناء حرب ١٩٤٨ سأله الجندى كلمة السر فقال لا أعرف؛ قتله الجندى الغبى فى الحال.. ويقول صلاح سالم فى مذكراته (عندما اقتربت السيارة من بلدة (عراق المنشية) التى تبعد عن الفالوجا نحو ٢ كيلومترًا سمع صوت طلق ناري خارجًا من أحد خنادق البلدة وسمع فى الوقت نفسه أنين أحمد عبد العزيز الذى ارتمى على صلاح سالم ممسكًا بذراعه (حسب رواية صلاح سالم فيما بعد) وحاول صلاح سالم ومن معه بالسيارة حمله إلى مستشفى ميدانى بالفالوجا لكن قبل وصوله إلى المستشفى كان أحمد عبد العزيز قد فارق الحياة فى ليلة ٢٣ أغسطس ١٩٤٨ عن عمر لا يزيد على ٤١ عاما...

***

منذ ٦ سنوات ظهرت شعرتان سوداوان عند عضو فتحي الذكري.. كان عمره ١٢ سنة، خرج من الحمام مفزوعًا وجرى إلى جده أبوزيد الذى كان فى زيارة للإسكندرية.. صاح بفزع: "جدى ظهرت شعرتان عند قضيبى".. ضحك الجد وقال: "لقد بلغت وكبرت.. صرت رجلًا..."

نام فتحى وحلم وهو نائم برغيدة وهو يضمها ويفتك بها بقبلاته الحارة.. استيقظ بعد ساعة على خبر أن الجيش المصرى انسحب لخط الدفاع الثانى.. بعد ٦ أيام سأل نفسه: هل هى حرب ٦ أيام أم كانت حرب ٦ ساعات؟ ولكنه أبدا لم يدر أن هذا السؤال لم يجب عليه حتى بعد ٥٠ سنة

يوم ٨ يونيو الساعة ٦ مساء كان هناك خطاب مهم للرئيس جمال عبد الناصر. لكن محسن ابن خالتي "أم محسن"، وهو أيضاً ابن الجيران كان مريضًا ولابد أن أذهب به للدكتور "شنودة جرجس" أشهر طبيب فى الحى (كنت طوال حياتى لا أعرف فرقًا بين المسلم والمسيحى فى مصر إلا فى حصة الدين فى المدرسة.. كان الطلاب المسيحيون يتركون الفصل وقت حصة الدين وينتقلون إلى فصل آخر) عندما دخلنا العيادة وجدناها مكتظة.. أشاهد عبد الناصر يخطب الآن فى التلفزيون وأنا فى العيادة..

فوجئت بأن عبد الناصر يعلن تنحيه فى خطابه.. خرجت من العيادة مسرعًا وتركت "محسن" ابن خالتى "أم محسن" يتلوى من الألم.. جريت نحو الشارع.. إلى أين أذهب؟؟ عبد الناصر تنحى..

بمجرد نزولى الشارع خرج الناس من المقاهى فى محرم بك.. تذكرت أوجاعى وأسئلتي التي سألتها فى منظمة الشباب فى معسكر حلوان عن إسرائيل.. هل إسرائيل واهية؟ هل إسرائيل حقًا ضعيفة؟ كيف يكتبون في إسرائيل وكيف يفكرون؟ حاكمتني يومها القيادة السياسية فى منظمة الشباب محاكمة تنظيمية.. وجدتنى أثناء المحاكمة أبكى لأنى سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبي.. وجدتنى مواطناً بلا وطن.. وجدتنى مشروع كاتب فى وطن أ ّمى، ومثقفًا وسط أدعياء، وطيًبا وسط أشرار.. وجدتنى حلًما يمسح مؤخرة الوطن الذى يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو الذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وباشوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان.. وجدتنى بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء.. وجدتنى أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه.. إذا مر قلبى على بابكم أخبرونى فقد ذهب يبحث عن وطن ليتدفأ به فى هذا الشتاء..

آه.. أشرقت فى نفسى لحظة اكتشفت فيها أن الوجع ليس له هوية، وليس له ميناء اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء.. ألقيت أشواقى على أحرف اسمك يا وطني؛

فتحولت على الورق إلى ثلاث زهرات ذابلة.. الوطن يذبل ويموت كالزهور ثم يحيا بعد أن نلقى فيه ببذور عشق جديدة..

آه.. خرجت من المظاهرات التى جرفتنى إلى ميدان المنشية وأنا محمول فوق الأعناق.. تردد الجماهير خلفى هتافى: "يا بو خالد يا حبيب بكرة ندخل تل أبيب"

آه.. طز.. طز.. طز.. لا تل أبيب ولا تل زبيب ولا تل نبيذ..ولاّ احنا شعب عبيط.. نعم احنا شعب عبيط.. هى فين تل أبيب يا ولاد الحلال لقد تاه منا العنوان؟

آه.. ذهبت إلى البحر وحملت بندقية للدفاع عن الوطن.. قالوا إن إسرائيل ستغزونا من البحر بالضفادع البشرية؛ فتطوعت لأكون فدائيا، وأبلغت عم المحبش الذى كان يمر بالصدفة وأنا فى طابور التسجيل فى قسم بوليس محرم بك..

(المحبش ٥٠ عاما.. قوي البنية.. صوته جهورى مثل أبى.. سائق فى وزارة الصحة.. يسكن العمارة المقابلة لبيتنا.. فى شقة على السطح.. تعود الغداء مع زوجته عطيات والوقوف على سور السطح بعد الغداء.. يأتى من العمل (الدوام) بعد الانتهاء من عمله وتناول الطعام يقف بالساعات على سور السطح يراقب شقق بيتنا العشرة المطلة على الشارع فيكشف من أعلى إلى أسفل كل الشقق ويراقبها خاصة حركات النساء والبنات.. الرجال.. ولا يخجل.. لا يحب التلفزيون.. يحب تليفزيون الواقع؛ كل العائلات أمامه.. يحب أن يراقب الكل.. قام أبى بتركيب حاجز أرابيسك في بلكونة شقتنا حتى لا يكشفنا عم المحبش.. وقال:

- دا راجل ناقص واقف طزل النهار يتفرج على الشقق والنسوان..

فى بيتنا عائلتان مسيحيتان: عائلة أم جرجس التى فى الشقة المقابلة لنا، وعائلة تسكن تحتها هى عائلة عايدة والأستاذ منسى زوجها المدرس.. عايدة مهرة تتمايل بشعرها.. عايدة جسدها مشتعل فى كل الفصول الأربعة عارية الصدر والذراعين فى كل الفصول الأربعة وعلى الرغم من برد الإسكندرية الغبى القاتل.. المحبش يراقب عايدة بشغف.. قامت.. نامت.. قعدت.. أكلت.. شربت.

كنت آنذاك فى الصف الثالث بالمرحلة الابتدائية.. فوق بالكون عايدة بالكون أم جرجس.. أم جرجس ابنها الكبير جرجس يعمل فى محل ذهب وابنها الأصغر منه روماني يعمل فى محل فضة وابنتها الكبرى مارى أجمل بنات محرم بك بلا جدال.. نفحة من نساء الجنة على الأرض.. أختها الأصغر نوال شقراء مثل الأمريكان.. من أى صعيد جاء نعمة الله زوج أم جرجس.. نعمة الله كان خبازا فى مخبز فى محرم بك.. من أين جاءت هذه الأسرة الجميلة البنات كالأميرات؟ هل أسرتهن من بقايا سلالة أسرة رومانية؟ حلمت أم جرجس بزواج نوال من سفير أو وزير لكن القدر جعلها تتزوج من إسكافى مسيحى من القاهرة أما مارى تزوجت من ترزى.. المسيحيات المصريات جمالهن أكثر تميزًا كأن المسيح أعطى كل النساء المسيحيات بعضًا من نوره؛ فصار لهن حضور وبهاء مميز عن الجميع عبر كل زمان ومكان.. لقد أحب سيدنا محمد، مارى القبطية زوجته وأوصى المسلمين بأهل مصر خيرًا، كما ورد الكثير من الأحداث التي وقعت على أرض مصر وذكرتها القصص القرآنية؛ فقال فيها الله جلت قدرته: "وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد.. فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها.. قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير.. اهبطوا مصراً فإن لكم ما سألتم.. وضربتم عليهم الذلة والمسكنة.. وباءوا بغضب من الله.. ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله.. ويقتلون النبيين بغير الحق.. ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" سورة البقرة.. وقال: (ادخلوها بسلام آمنين) (سورة الحجر).. إذًا اليهود كانوا بمصر الفرعونية.. إذًا خرجوا منها وطلبوا وحلموا بالعودة إليها.. يا إلهى أريد أن أفهم.. وخرجوا عند جبل الطور أى سيناء..

اليهود فى ٥ يونيو ١٩٦٧ هل أتوا إلى مصر من أجل فولها وثومها وعدسها أم من أجل رد الاعتبار لأجدادهم الذين عبروا مع موسى البحر وغرق الفرعون وهو يطاردهم بأمر الله.. غرق من غضبة رب العالمين..

كما ورد في بعض الأحاديث النبوية، ومنها قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أوصيكم بأهل مصر خيرًا.. وقال ابن كثير فى التفسير لهذا الحديث إن أهل مصر كثيرو الكلام لا تحاسبوهم على ما يقولون أو يفعلون.. وقال عنها سيدنا عمرو بن العاص رضى الله عنه: شعب مصر تجمعه صافرة وتفرقه عصا، وقال عنها ابن خلدون: أهل مصر كأنما فرغوا من يوم الحساب! وسبحان الله العظيم

لا أعرف لماذا ارتبط مصير مصر بالجزيرة العربية بالذات؟.. فسيدنا إبراهيم عليه السلام تزوج من أميرة مصرية هى السيدة هاجر.. كما أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تزوج من مارية القبطية مصرية، وأنجب منها ابنه إبراهيم.. وقال الإمام الشافعى رحمه الله الكثير فى مصر ومنها ما يروى عنه أنه قال.. من لم يتزوج من مصر فلم يكمل نصف دينه..

وقال عمرو بن العاص حين سأله الخليفة الإسلامى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه..قائلاً : صف لى مصر يا عمرو.. فقال: مما قال عن مصر ترابها ذهب وأرضها خصب ورجالها لمن غلب.. ونساؤها لعب!

وسأل عمر بن الخطاب حكيمًا رحالًا عن أهل مصر فقال: "وأما أرض مصر فأرض قوراء غوراء.. ديار الفراعنة ومنازل الجبابرة.. تحمد بفضل نيلها.. وذمها أكثر من مدحها.. هواؤها راكد.. وحرها زائد.. وشرها وارد.. تكدر الألوان.. وتخيب الفطن.. (أى تقتل المبدع).. وتكثر فيها الإحن (أى الحقد) وهى معدن الذهب والجواهر والزمرد والأموال وغارس الغلات.. غير أنها تسمم الأبدان.. وتسود الأبشار (جمع بشرة الجلد) وتنمو فيها الأعمار.. وفى أهلها مكر ورياء، وخبث ودهاء وخديعة.. إلا أنها بلد مكسب لا بلد مسكن.. لترادف فتنها واتصال شروها ولمصر علاقة مع الحجاز.. والحجاز حاجز بين الشام واليمن.. والحجاز هواؤه مرور وليله سهور فيجف الجسم ويخفف الأدمغة ويشجع القلوب ويثبط الهمم ويبعث على الإحن (الحقد) وهو بلد محل قحط وضنك.." (كتاب مروج الذهب ومعادن الجواهر ص ٣٧١ الجزء الأول)

وقال المقريزى فى كتاب "المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والاثار".. القاهرة ج١ ص ٧٩-٨٠ (قال العقل أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك.. وقال الشتاء: أنا لاحق بالبادية، فقالت الصحة وأنا معك.. وقال الخصب: أنا لاحق بمصر؛ فقال الذل والهوان: وأنا معك)

وقال أبو الحسن على بن حسين على المسعودى فى كتاب (مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة ١٩٤٨ ج٢ ص ٦٢): "فى أهل مصر مكر ورياء وخبث ودهاء وخديعة وفى أهلها صخب، وطاعتهم رهب، وسلامهم شغب، وحروبهم حرب (أى سلب ونهب) وهى لمن ومع من غلب"

ومما يروى عن مصر أن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شئ لشئ فقال الغنى أنا لاحق بمصر.. فقال الذل وأنا معك.. كما ورد ذلك عن المقريزى قال عنها أنها بلد مكسب..

وقال عنها الدكتور جمال حمدان فى كتابه مختارات من شخصية مصر: "نحن كشعب لابد لنا بصراحة أن نعترف.. لا نحب فقط أن نمجد ونطرى أنفسنا بحق وبغير حق.. ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يرضينا ويعجبنا.. أو يرضى إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية.. بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا.. ونرفض بإيباء أن نواجهها أو نواجه بها.. ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة على وجه الأرض إلا وننسبها إلى أنفسنا ونلصقها بها.. وأيما رذيلة أو عيب فينا.. إن هى وجدت على الإطلاق.. فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف.. وإن اعترفنا بها على مضض واستثناء.. فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة القانعة أو المقنعة!

وقال جمال حمدان أيضا: "إن مصر مخلوق فريد فذ حقيقة فهى بطريقة ما تنتمى إلى كل مكان دون أن تكون هناك تماما؛ فهى بالجغرافيا تقع فى أفريقيا، ولكنها تمت أيضاً إلى أسيا بالتاريخ.. فرعونية الجد ولكنها عربية الأب، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر، ولكنها بسواحلها قوة بحر.. وبذلك تضع قدماً فى الأرض وقدماً فى الماء.. وهى بجسمها

النحيل تبدو مخلوقا أقل من قوى.. ولكن برسالتها التاريخية الطموح تحمل رأسًا أكثر من ضخم.. وهى توشك بعد هذا كله أن تكون مركزًا مشتركًا لثلاث دوائر مختلفة؛ فهى قلب العالم العربى وواسطة العالم الإسلامى وحجر الزاوية فى العالم الأفريقى)

آه يا فتحى.. هى مصر قدرى وقدر لا مفر منه بشره وخيره.. هذه الحالة من الارتباك العقلى لدى المثقفين وجنون العظمة الذى أصابهم هو رد فعل طبيعى على هزيمتهم وسرقة أحلامهم وضبابية العدو الوهمى وخياناتهم لبعضهم وأنفسهم ووطنهم وخيانة الوطن والفكر لهم.. قال ابن عطاء الله السكندرى (من علامات موت القلب عدم الحزن على ما فاتك من المواقف .. وترك الندم على ما فعلته) رضى الله عنه.. أعتقد ان وجودك فى هذا الكون نفحة عطر وقبسة عشق وجنون و...

الفصل الثالث

الكتابة الجميلة جريمة وغريبة

فتحى رضوان خليل

وأظل أحلم طول العمر بأن أعيش فى فرنسا، وأن أكتب باللغة الفرنسية مباشرة لا العربية.. والحلم يبعد ويبعد وأظل على رصيفللحلم شقيًا وبالحلم مكتف بعد أن خاب سعيى.. فى المساء تحتلنى وردة فى الروح لا لون لها ورائحتها بين السماء والأرض لا يدركها إلا العارفون والواصلون والكاشفون، وأنتَ حبيبتى. الكتابة مثل امرأة مزاجية تلعب بقلبك وفكرك طوال الوقت أو تغيب عنك وتختفى فى الزحام غاضبة منك ثم تبرق وتشرق لك وتتأبط ذراعيك وتشم عطرها وتنتشى..

كنت أحلم وأنا فى الدراسة أن أكون الأول، لكن لم يحدث أبدًا.. أذكر أن مرة واحدة كنت الأول وأنا فى مدرسة النهضة النوبية الابتدائية، وكنت فى الحادية عشرة من العمر كنت أكره الرياضيات بشكل ملحوظ: الضرب والقسمة والطرح.. أبى يريد تعليمى إياها لزوم التجارة، ولابد من مدرس خاص يعلمنى إياها.. فكر فى مدرس وفكرت أمى فى عايدة **ابنة خالة أم جرجس زوجة منسى أفندى المدرس الذى طلب من أبى لمبة كهرباء وافق أبى.. قال منسى أفندى:**

- **تاخد منى كام ياحج؟**
- **علم فتحى القراية والكتابة واديله درس تقوية فى القراءة والكتابة والحساب...**

نقلونى إلى مدرسة النهضة العلمية فى حي راغب باشا تحت رعاية الأستاذ منسى لأكون تحت بصره.. في المدرسة يوزعون علينا المعونة الامريكية كل طالب علبة مسلى وعلبة حليب جاف، وكل يوم وجبة باكو بسكويت وبلح وفول بالسمن أحيانًا..

تحت بالكونة عايدة **بلكونة يسكن المعلم سعد الترزى.. أخته** هانم **١٦ سنة جميلة كانت تحب الجلوس مع** عايدة**.. كنت أثناء الدرس أنظر إلى مؤخرات جارتينا (عايدة وهانم)**

تقف كل منهن فى البالكون بجوار بعضهما تتهامسن بينما المحبش ينظر من أعلى إلى نهودهن.. ذات يوم أخذت سندوتش حلاوة طحينية وحملت الكراسة ونزلت للدرس عند الأستاذ منسى فقال لى:

- بتاكل ايه يا فتحى؟
- سندوتش حلاوة يا أستاذ..
- اطلع اعملى سندوتش أنا كمان..

صعدت.. قلت لأمى:

- اعملى سندوتش للأستاذ منسى

فعملت سندوتش فأكله وقال:

- كل يوم ابقى هات لى سندوتش معاك...

عايدة وهانم، حلم يراود المحبش كل ليلة؛ فهانم فتاة عذراء فى سن الربيع، وعايدة امرأة ناضجة مثل تفاحة حمراء.. كأن المحبش يقول في نفسه "يارب أنا ظمآن والماء ينساب أمامى".. ذات مرة صاح المحبش من فوق السطح بصوت يفضح الكون كأنه زلزال وقال:

- إيه المسخرة دى اللى عند عايدة ومنسى وقف يا ولد احنا مش قوادين..

ونزل من بيته إلى بيتنا، واقتحم شقة عايدة.. كان تلميذ فى الإعدادى قريب عايدة مزح مع هانم ودفعها على السرير فظن المحبش أن الولد يحاول أن يغتصبها؛ فصاح المحبش وهاج وماج واقتحم شقة عايدة وقال:

- حأبلغ المعلم سعد أخو هانم، وازاى الحاج رضوان يوافق على الكلام ده؟

وبعد تحقيق وتمحيص تبين أن عايدة يزورها ابن خالتها وهو طبعا مسيحى وهانم مسلمة.. عندها حاول المحبش أن يثير فتنة طائفية ويشيع أن عايدة تسهل علاقة حب بين شاب مسيحى وفتاة مسلمة، قال أبى الحاج رضوان:

- بلاش كلام فارغ...

ثم قال للمعلم سعد:

- **زوِّج اختك يا معلم سعد**

وفشلت محاولة المحبش لإثارة الفتنة الطائفية، وانتقلت عايدة بجمالها إلى مكان آخر، حى آخر، وبيت آخر ليسطع نورها هناك، ويختفى ضوء أنثى جميلة من بيتنا ومن حارتنا ومن محرم بك.. أما هانم زوَّجها أخوها المعلم سعد من إسكافى حتى يلم الفضيحة الوهمية التى صنعها المحبش.. تزوجت أجمل بنتين فى الحارة والشارع (هانم ونوال) من إسكافية.. لقد حبس الإسكافية الجميلات فى أحذيتهن.. وهجر الجمال بيتنا وحارتنا وأصبحت حارتنا ونحن يتامى الجمال النسوى الرائع اللازم للحياة..

***

قابلت المحبش **جارنا، وهو يسير بجانب قسم الشرطة؛ قلت له وأنا أقف فى صف المتطوعين:**

- **عم** المحبش **قل لأمى أنى قررت أن أكون فدائيًا لأحمى مصر من الغزو الإسرائيلى الذى قتل ٢٠ ألف جنديًا مصريًا فى ست ساعات واحتل السويس والإسماعيلية وبورسعيد وضفة القناة.. والإسكندرية أيضًا مهددة بالاحتلال عن طريق البحر.. قالوا الإسكندرية مهددة بغزو ضفادع بشرية إسرائيلية**

أعطونى أنا والشباب المتطوع كل واحد بندقية (ترجع إلى عهد الملك فؤاد وهي من بقايا أسلحة الجيش الإنجليزي) ثقيلة جدًّا كأنها جبل نحمله على كواهلنا لقد ورمت أكتافنا ونحن لا ندري من كثرة الحماس، ولقد رأينا على كعب البندقية كلمة "جيش مصر – الملك فؤاد" أي عام ١٩٣٥.. كيف يقاوم جيشنا إسرائيل في ١٩٦٧ بأسلحة صنعت عام ١٩٣٥.. سألت نفسي هذا السؤال وأنا أسير من ساحة الاستاد في حي محرم بك إلى شاطىء الأزاريطة في حي محطة الرمل..

توجهوا بنا من استاد الاسكندرية إلى البحر دون طعام أو ماء، ونحن حاملين تلك البندقية الثقيلة جدًّا التي تحتوي على ثلاث طلقات لنراقب البحر وندحر إسرائيل.. شاهدت صديقى محمد حسونة على البحر يمر صدفة.. حقًا.. أنا رجل من أهل الصدفة.. كل

حياتى صدفة.. صرخت فى وجه محمد حسونة صديقى: "لا أقبل أن تحتل إسرائيل الإسكندرية.. هذه إسكندريتى.. وهذا البحر لى".. ألقيت بقلبى وروحى على أمواج بحر الإسكندرية فبكت.. وهمست كل الأمواج لى بوجع كل العاشقين.. عشاق الوطن وعشاق العشق والحياة.. فى المساء سرحونا واخذوا البنادق.. قالوا الجيش سيتولى الأمر.. ونحن سنتدرب على السلاح فى معسكرات.. حب الوطن أكبر خطيئة لأنه كائن هلامى يسكننا، ولو علمنا أن الله يرث الأرض وما عليها لعشقنا الله فقط.. هُزَمت سوريا أيضاً واحتل الإسرائيليون الجولان والضفة الغربية من الأردن..

قال الأستاذ هيكل: إن الملك حسين خان عبد الناصر والأسد، وأبلغ إسرائيل بموعد الحرب وساعة الصفر.. وكتبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل أيضًا في مذكراتها نفس الكلام.. الجيش السورى خلع سراويله وترك الجولان.. والجيش المصرى خلع سراويله وترك سيناء وغزة والعريش.. والجيش الأردنى خلع سراويله وترك الضفة.. هل الجيش العربى جيش من صلصال وورق مقوى؟.. أمجاد يا عرب أمجاد.. كلام قوّادين.. والجيش الإسرائيلى السرى خلع سراويله أمام هتلر وحرق هتلر اليهود فى المحرقة.. والجيش الألمانى خلع سراويله أمام الجيش الأمريكى والإنجليزى فى الحرب العالمية الثانية.. والجيش الأمريكى خلع سراويله أمام الجيش الفيتنامى تحت قيادة هوشى منه.. والجيش الفيتنامى خلع سراويله بعد الحرب وقرر التمتع بالقمار والملابس والاستيراد والتصدير وممارسة البغاء.. إنها حرب السراويل.. العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صبحًا ومساءً..

إسرائيل حقيقة وليست وهمًا كما قالوا.. هزمت ثلاثة جيوش عربية فى ٦ ساعات مصر وسوريا والأردن!! قالوا أمريكا ساعدتها؟؟ قالو إحنا مش قد الأمريكان وإحنا مش قد الباذنجان ولا قد تنظيف الشوارع من القذارة..

منذ نشأة القاهرة فى العهد الفاطمى فى خامس يوم بعد افتتاحها زارها المعز لدين الله الفاطمى فوجدها متسخة مزدحمة متربة، وإلى الأن متسخة ومزدحمة ومتربة كما قال

الجبرتى.. نعم حتى الآن.. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة؟؟!!

العربى لا يفلح فى شئ إلا مضاجعة النساء.. هذه أيضاً مقولة ثبت فشلها بعد أن كتبت القحبات الأجنبيات الأوربيات مذكراتهن مع العرب فى الفراش؛ فكانت سمعة العربى فى فراش الجنس صدفة وليست حرفة فمستواه ضعيف ومترد وهمجى مثل الكلاب.. المرة الوحيدة التى حاول فيها إنجاح جيش مصر كانت بكرباج محمد على الذى دربهم على القتال.. وضعوا فى أذن الفلاح المصرى اليمنى بصلة واليسرى قطعة قطن حتى يعرف اليمين من اليسار؛ فكانوا يقولون لف باتجاه أذنك التى بها البصلة أو القطنة ولكن لم يتعلم المصريون فن القتال مع قائده التركى الألبانى العظيم إبراهيم بن محمد على وهزم الدنيا كلها..

وقال عمر مكرم لمحمد على: لماذا رفضت الفرقة المصرية فى الجيش؟ قال: المصريون يدفعون ثمن العلف للخيول فقط مثلما أيام المماليك (اى يدفعون ضرائب فقط) وحتى ١٩٥٦ لم يكن لدينا جيش مصري.

بكى صلاح جاهين.. ظن أنه خدع الجماهير وكتب لهم أغنية "صورة صورة" وكتب على رأس بستان الاشتراكية وتفتت قلبه ألحانًا.. مليون قطعة شعر ومليون لحن، وأطلق المصريون النكات.. منها واحدة خلفت عيل بعد ٣ سنين بدأ يمشى للخلف وليس للأمام فذهبت به للطبيب الذى ضحك قائلا لها ما تخافيش.. بيمشى للوراء لأنه سيصبح ضابط جيش..

قتل الإسرائيليون آلاف الأسرى من الجيش المصرى فى سيناء.. قتل وحرق هتلر آلاف اليهود فى المحرقة... قتل الامريكان آلاف الآلاف فى هيروشيما باليابان بقنبلة ذرية.. قتل الفدائيون الفلسطينيون مئات اليهود.. قتل اليهود مئات وآلاف الفلسطينيين..

أعلن أنا "فتحى رضوان خليل" **حتى لو هزمتنا إسرائيل والعالم كله والأمريكان لن أهزم أبدا أبدا.. أنا روح وصمود هذا الشعب المصرى العربى العنيد العبيط البليد التليد الغريب العجيب الحبيب الذى باسمه ومن روحه أستضيء وأبعث فى الكلمات ورد الحياة..**

أنا رجل من أهل الصدفة.. ليس عندى مهارة ولا فكرة.. ولا أجندة أعمال السحر.. ولا قدرة على تغيير الأيام فحبك سيدتى فى حياتى ليس له عنوان وحب الجمال ليس حرفة لأنه فى زمن الندرة.. مدى يديك الدافئة العطرة احتضنى كفوفى الباردة المتلهفة يا قطتى أحيانا وأحيانا أنت نمرة.. كلما حاصرنى حب الوطن بنيران وأسهم حقده وحاول قتلى هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جروحى قررت أن أكتب مذكرات شاب فى العشرين رواية ولم لا؟

***

يوم الجمعة الأول:

الصباح أغنية عذبة الأنغام.. جاء كعادته بأشعته الذهبية يتسلق أهداب الكون.. يختال في الدروب.. هذه بداية رحلته.. لينتهي هو فى الغروب.. أخذت أشعة الشمس تتسلق جدار نافذتى وترمى البقع الذهبية فى أركان الغرفة.. إنها غرفتى.. استيقظت.. تحركت ببطء.. سرت بخطوات ثقيلة مبعثرة فى أرجاء الغرفة.. كنت أتحرك ولا أعرف ماذا أريد؟ قررت أخيراً أن أفتح الباب.. باب الغرفة.. لقد نسيت أن للغرفة بأًبا.. شعرت بقلق عميق فى أعماقى.. يحرك اشتياقى لشىء ما.. لا أعرفه.. تجهله نفسى.. تسللت داخل أعماقى أحاول أن أهدئ من هذا التوتر، لكنى وجدت أن أعصابى مشدودة.. مشحونة بقلق شاحب اللون.. أخذت أحاول أن أهدئ التوتر.. لكنى وجدت متاهات الألم قد نحتت فّى أشياء غامضة.. ماذا أفعل؟.. لا شئ سوى الهروب.. لا يمكن لا أدرى لا أعرف ما العمل؟ ما الخلاص؟؟

أخذت أخلع ملابس النوم استعدادًا لكى أرتدى ملابس الخروج.. ملابس الهروب.. كل شئ فّي يهدأ عندما أستغرق فى النوم ما عدا أعماقى التى لا تهدأ كدوامة نهر مجنون

الأنفاس متخبطة المزاج.. آه يا جسدى النحيل.. أنت دائمًا تجعلنى ألعوبة الرياح ونزلات البرد.. انتهيت من ارتداء ملابسى.. فتحت النافذة لأستقبل الصباح وقبلات نسيم البحر المفعمة بأغنيات الطيور الضالة الحزينة التى تبحث بين الأمواج.. تبحث عن عروس البحر التائهة..

وضعت بقايا طعام الأمس أمامى وجلست أكل.. هكذا العزاب فى معظم حياتهم يضعون بقايا طعام العشاء أمامهم حتى لا يفكرون فيما سيأكلون أو يشربون فى الصباح.. فجأة وجدت يدى تبطئ فى الأكل.. لقد اعتدت أن تمتد يدى إلى الطعام بسرعة.. لابد أن أحدًا يراقبها.. أخذت أبحث فى الغرفة.. نظرت إلى السقف لم أجد شيئاً.. نظرت إلى أحد الأركان.. وجدت أن الذباب يلهو فى قطعة عظم ملقاة.. نظرت بسرعة إلى النافذة وجدت رجلاً واقفاً أمامى يطل علّى من سطح أحد المنازل.. قصير لا يرتدى جاكت بيجامة.. فانلة سواريه.. حاولت أن أستغرق فى الطعام ولا أنتبه إليه وجدت عينيه أمامى على الرغيف الثانى.. حاولت أن أطردهما رفضتا أن تتحركا.. قررت أن أبصق عليهما لكنهما رفضتا.. وفعلاً بصقت.. هذا الرجل يقف دائمًا هكذا.. يطل علّى. لماذا يراقبنى هذا الرجل ومن يكون؟.. أهبط الآن من على السلم.. أنا ممن يصنعون ضوضاء أثناء صعودهم وهبوطهم.. دائمًا أريد أن أشعر أننى من الأحياء.. أو أثبت لنفسى أني شئ على الأرض.. خطوات فى الشارع.. شارع إبراهيم رأفت بحي جليم.. إنه المكان الذى يحتوينى ولا أحتويه.. إنه منزلى.. ليس ملكى أنا مستأجر شقة مفروشة.. الإسكندرية مدينة الشقق المفروشة.. هكذا جعلها البحر.. كل المدن الساحلية شقق مفروشة وأُناس يرحلون.. وقفت على محطة الترام.. درجة ثانية ركوبى المعتاد.. أنا أحمل اشتراكًا.. كان الناس منتعشين.. نعم فاليوم يوم الجمعة.. ركبت الترام.. ركب معي في نفس العربة رجل ومعه زوجته.. أما أنا فليس لي زوجة مثل كل من ركبوا معي في ذلك الصبح حتى أشعر بالانتعاش..

مر الكمسارى فى عربة الترام التي أستقلها.

- تذاكر.. تذاكر يا أستاذ

لم أرد عليه.. مد يده وأخذ يهز كتفى

- تذاكر يا أستاذ

أخرجت الاشتراك بصمت.. نظر له وهو يحاول بجهد كبير أن يرى ملامح صورتى ليتحقق من أنني صاحب الاشتراك..

ترام الرمل، غير ترام البلد، ركاب ترام البلد نجارون.. حدادون.. بائعون.. بائعو أوراق الحظ ورق اليانصيب.. عشوائيون.. بقايا المجتمع.. الفقراء بعضهم لا يحمل شهادة ميلاد وبعضهم لا يحمل هوية.. لا يحلمون إلا برغيف الخبز ولا يعرفون وزيرًا ولا يعلمون من يحكم البلاد هل الملك فاروق أم عبد الناصر أم أنا.. ترام البلد.. رجال بملابس بلدية زى ريفنا الأصيل.. نساء يرتدين ملابس غير التى نراها فى ترام الرمل.. رائحة الركاب منفرة.. أعتقد أنهم لا يستحمون إلا مرة كل شهر، أو عندما يمارسون الجنس بالصدفة فيستحمون في الطشت وتلقي النساء ماء الطشت في الحارة في الصباح حتى يعلن أنهن مارسن الجنس واستحممن، وعادة ما تقول النساء لمن تلقي الماء: "حمام الهنا يا حبيبتي"..

أما ترام الرمل.. رجال ياقات "فان هوزن".. ملابس ذات رائحة جميلة تشعرك بأنك فى إحدى مدن أوروبا.. لهم وقار أبله..

ضوضاء ترام البلد شديدة.. تشعرك بالحياة.. باعة متجولون.. يتحدث كل منهم إلى الآخر بصوت عال، أو يفتعلون مشاجرة من أجل رجل حاول التحرش الجنسي بأنثى في الزحام.. والكل يدَّعى الفضيلة ولكنها كاذبة في أغلب الأحوال.. إنها تدخل في باب شهامة أهل البلد والحقيقة ليست كذلك إنهم ينفثون عن الإحباط كأنهم ليسوا أبناء الله على الأرض بل أبناء الشيطان الفقر الذي وأد أحلامهم فصاروا أعداء بعضهم بلا سبب..

أما ضوضاء ترام الرمل مذبوحة.. صمت مطبق.. بشر لا يتحدثون.. بل عيون تتحسس ملابس بعضها.. فتاة تنظر لفتاة أو فتى بملابس أنيقة..

دخل العربة شخص أعرفه، ولكنى نسيت اسمه.. إذًا لا داعى أن أنظر له.. جلس أمامى.. لم تكن لى رغبة فى أن يصافحنى.. أخذ ينظر لى.. يتفحصنى.. يحاول أن يمسك نظرة من عينى.. كانت عينى للأسف ملتصقة بالنافذة تطل على الشارع.. كانت نصف عينه علّىوالنصف الآخر ملتصق على أقدام امرأة جميلة تجلس فى آخر العربة.. نزلت فى ميدان محطة الرمل.. الازدحام والناس.. الضوضاء.. الشمس المزهوة ببريقها تختال فى كل مكان.. وقفت أمام بائع جرائد.. وجدت مجلات وجرائد كثيرة.. فجأة لمحت "سارتر" يبتسم لى من أحد الكتب.. ما هذا؟.. مسرحية "سجناء الطونا" كم أنت شهير أيها الفيلسوف الفرنسى.. إننى أحاول دائًما أن أفهمك.. وبينما أنا على هذا الحال اشتريت المسرحية.. طلعت فتاة عارية من مجلة وغمزت بعينها لى.. لا لن أتقدم لشرائك كفانا ما يحدث مع زميلتك الأخرى سيمون دى بوفوار التى غيرت سارتر.

- أهلاً.. غير معقول.. مين فتحي.. كيف حالك؟

من هذا الشخص؟. إننى لا أعرفه.. إنه يعرف اسمى إنه يضغط على يدى بقوة.. إنه يعرف جزءًا من حياتى.. يسألنى عن بعض الأصدقاء المقربين لى:

- الحمد لله.. كيف حالك أنت؟

تحدثت بشكل مرضى إلى حد ما.. هبطت فتاة الصورة العارية وراحت بدلال وتودد تلعب بيديها فى أنفي حتى شعرت أنى انتهيت تمامًا.. أخذ "إيليا أبو ماضى" ينفخ فى أذنى بكلماته.. راحت أنفاس "جبران خليل جبران" تحرك قلبى.. راحت يد ميشلين تداعب وجهى.. راح عقل مارى يصنع خلايا التفكير الجديدة فّى. راح "ميخائيل نعيمة" يداعب جبينى، وراحت زوجة موسى النبى راعية الغنم تدعو لى، والعذراء تباركنى، وعائشة زوجة محمد صلى الله عليه وسلم تستغفر لى.. هبطت فتاة الصورة العارية من الصورة أخذت تحاول أن تخطفنى، ولكن تدخل الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وإبراهيم أبو الأنبياء أنقذونى بالدعاء إلى الله الذى استجاب لهم وأنقذنى، بينما هى تحاول أن تخطفنى..

طرق الباب شخص ما.. فزعت هى، وعادت إلى الصورة.

فتحت الباب وأنا اخجل من منظرى.. شهقت:

- من؟
- أنا..
- غير معقول..
- بل إنه معقول..

دخل قابيل بن آدم عليه السلام، وقال:

- أنت حفيدى؛ فأنتم أحفادى وأنا القاتل..

أمسك يدى وقفل الكتاب، وراح يداعب فتاة الصورة العارية بيديه؛ فتركت الصورة ونزلت عارية.. قمت فجأة وقلت:

- يا جدى قابيل دعك من هذا.. إنها.. عارية.. إنها ساقطة

ابتسم وقال:

- اغلق علّى الباب، وحذار أن تكثر من قراءة الأشعار..

تركته، وأغلقت الباب، وأنا اسمع الفتاة تصرخ بالداخل.. كان يغتصبها...

***

يوم السبت الأول: [إيفون تعذب س]

صوت انفجار فى الشارع.. قمت من النوم متضايقًا، وجدت الصباح واقفًا فى وجهى حاول أن يهدئنى فسمعت كلامه.. لم أنظر إلى الشارع لا أعرف ما سر الانفجار. نظرت حولى.. وجدت (س) من؟ أنت أيها الصديق.. قد نمت كثيراً.. بالأمس أتى (س) من القاهرة.. أتى هاربًا.. إنه الباحث عن الحب، الباحث عن شئ.. يريد أن يهتم بأى شئ ويفضل أن يكون الحب.. الحب وعلى استعداد أن يقدم حياته فداءً له..

نظرت له، وجدت كيوبيد ينظر له ويبتسم؛ فهمست فى أذنه: "يا أيها الإله العزيز كيوبيد ساعده على أن يستريح إنه مازال صغيرًا".. ضحك الإله، واختفى.. فتحت النافذة.. ألقت

أشعة الشمس نفسها فى الحجرة بلا استئذان وجلست هنا وهناك فوق كل الأماكن.. ما هذه الكميات من الأشعة؟.. لابد أن اليوم فى منتصفه.. بدأت أحرك صديقى (س).. كانت عربة قد انفجر عجلها الكاوتشوك.. إطار السيارات كالقنبلة، والقنبلة ليست كإطار السيارات

- صباح الخير
- صباح النور

وبدأنا فى النزول إلى الشارع.. همست لصديقى قبل أن ننزل بقصة الرجل القصير الذى يطل علّى ويطيل الوقوف.. اقترح صديقى أن نقوم بمشاغبته.. رفضت.. الترام.. دفعت ثمن تذكرة ركوبه لأنه مفلس..

- هل أنت مفلس..؟
- نعم..
- كيف جئت من القاهرة - بلا نقود - كيف ركبت القطار؟
- عندما جاء الكمسارى بكيت له واشتكيت حالى فرفق بى
- وكيف وافق؟
- نعم وافق لقد رآني ألبس ملابس ثرية
- من أين أتيت بهذه الملابس الثرية يا ملعون؟
- أخذتها كديون.. لابد أن نلبس ملابس فاخرة مثل الأغنياء

ضحكت.. أصبحت الحياة مظاهر.. الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان.. أناقة لا ثقافة.. لا شئ يهم بعد ذلك.. نزلنا فى محطة كيلوباترا الحمَّامات.. وعند نزولنا وجدنا حاشية الملكة كليوباترا واقفة والجميع فى انتظارنا، وأخذت الأبواق تدق وتعلن قدومنا.. ولكن لم ينظر إلينا أحد إلا عابر، والملكة كليوباترا كانت هناك مع ألف كليوباترا واقفة.. بدأنا نغازلهم ونداعبهم.. دخلنا مطعمًا صغيرًا.. اشترينا سندويتشات "فول" وأكلنا..

سرنا على الشاطئ.. ما أجملك أيها الشاطئ الأحمق.. سرنا على سور الشاطئ.. أتعرف أيها الشاطئ أنك أحمق لأنك خال من الناس فى الشتاء.. غضب الشاطئ فجأة وزمجر، وبدأت الأمواج ترتفع، وحمل الريح على يده بموجة قذفت المياه فى وجهينا.. جرينا إلى الشارع، وأخرجنا ألسنتنا له فأخذت الريح تلعب بنا.. أخذنا نقاومها ونجرى ونخرج ألسنتنا لها.. عادت الريح ساكنة وارتمت فى أحضان البحر بخيبة أمل لأنها لم تلحق بنا.. أخذنا نضحك أنا وهو..

شارع الكورنيش خالٍ تمامًا.. ليس هناك أحد.. شعرت بأننى غريب بدأت أعزف بالصفير لحن (غرباء فى الليل) وبدأت قطرات من الأمطار خفيفة تسقط والبرد قارس.. للأسف أصبحت الطبيعة لها مزاج شخصى تتصرف كما تشاء.. أخذتنى النشوة، وفى داخلى سرت الهمة فشعرت بأنى منتعش.. وجدنا عربة أمامنا (مرسيدس) نظرنا فيها.. فتاة جميلة جدًّا.. وقفنا ننظر إلى الفتاة بإعجاب.. كانت رائعة كحلم ليلة صيف تلبس (مينى جيب).. وقف (س) يطرق زجاج السيارة.. أخذت تبتسم واللحن يجعلنى كأنى أقفز من على الأرض.. أخذ صديقى يدور حول الفتاة فى السيارة من الأمام والخلف وحينما تنظر من الجانب ينظر لها.. والأمطار الخفيفة تتساقط كأوراق الخريف فى انتعاش وسخرية والابتسامة فى شفتى تتراقص والفتى (س) يحاول أن يفتح باب السيارة والفتاة تصرخ داخل السيارة، وهو يرسل قبلاته فى الهواء.. طلبت منه العدول عن هذا السخف.. بدأت الفتاة تضرب نفير السيارة، والفتى مستمر فى مطاردتها.. نظر أحد الرجال العمالقة من أعلى.. نظرنا له.. جرينا.. أخذت الفتاة تضحك بينما لوَّح هو بإشارة الوداع، لوَّحت أنا الآخر معه.

معى فى جيبى حوالى ٦٠ قرشاً.. لابد من الاحتفال بهذا المشاغب الباحث عن الحب، وبينما نحن عائدون وجدت محلًا للجزارة.. وقفت لشراء نصف كيلو لحم.. واشتريت عيشًا وعدت إلى المنزل.

بعد الظهر تناولنا الطعام.. نام (س) على السرير ولمحت فى عينيه نظرة حزينة، وكأن جفونه تمنع الدموع من السقوط؛ فأشفقت عليه بنظرة خاطفة، وصمتُّ.. امتعضت شفتاه ومدها ثم ضغط عليها بأسنانه وقال:

- أنت لم تسألنى لماذا أتيت..

ابتسمت وفكرت:

- لماذا أتيت؟
- من أجل فتاة أحبها..
- فتاة!! مازلت تبحث عن الحب؟.. بعد كل هذه المشاغبات والبنات مازلت تبحث عن فتاة؟

هنا ظهر كيوبيد وجلس بجواره.. فمدد (س) قدميه على السرير ليستريح فمدد كيوبيد قدميه أيضاً.. لابد أنها الفتاة التى أرسل لها خطاًبا يسبها ويخبرها أنها ابنة سائق عربة حصان، بعد أن رفضت حبه لأنه مازال صغيًرا..

- أنا صُدمت فى حياتى أكثر من اللازم.. لقد فشلت فى حبى الأول وأنت تعلم وأحببت ثانًيا (هنا أخذتنى الدهشة بل وجدت أن عينّي قد جحظتا فحاولت إرجاعها إلى موضعهما الأول بجهد)
- من التى أحببتها..
- إيفون!.. إيفون فتاة أوربية هكذا رأيتها فى الصورة.. مازالت فى المرحلة الثانوية.. نضرة.. متفتحة.. مثيرة.. منذ ستة شهور، خرجت إلى الشارع كعادتى، أحاول أن أثبت لهم أنّي نوع آخر غير أهل الشارع.. ربما لأنهم فقراء، ربما لأنهم غير مهذبين فى سلوكهم.. وجدتها أمامى وكعادتى السابقة سرت وغازلتها بأرق الكلمات وأطيبها وقلت لها قصيدة شعرية:

يا قمر ما بعدك أقمار ... حبك فى قلبى كالنار

أهداب عينيك كسار ... نظرته تجعلنى أحتار

ضحكت.. ضحكت من قلبى، وامتدت الضحكات إلى كيوبيد الذى قهقه بلا رنين أو صدى ووجدت كل الأشياء تضحك.. الجدران من حولى..

نظر لى.. فغمز لى كيوبيد فقلت:

- **هذه قصيدة حب من أين عثرت عليها؟**
- **فى كتاب..**
- **ماذا فعلت البنت..؟**
- **ضحكت هى.. ضحكت أنا .. وقفت هى وقفت أنا.. سارت.. سرت، وهددتنى ويا له من صوت الآهة حلوة دى.. حلوة دى..**

فابتسمت.. شعرت برغبة ملحة فى أن أشرب شاًيا؛ فقمت ودخلت المطبخ لإعداده جاء بصحبتي ليكمل الحديث، ووقف على يمينى وبدأنا فى إعداد الشاى.. وأنا أحاول أن أشعل الموقد وجدته ينطفئ فأشعلت عود الكبريت، واقتربت من الموقد فانطفأ ثم نظرت إلى يسارى فوجدت كيوبيد واقفًا بجوارى ابتسمت فابتسم؛فتنحيت قليلاً حتى يجد مكانًا بجوارنا، وأشعلت الموقد وبدأنا نجهز الشاى وأحضرت ثلاثة أكواب.. كوب لى وكوب لـ (س) وكوب لكيوبيد.. وأثناء إعدادي للشاي أكمل (س) حكايته قال:

- **ذات يوم طلبت من أختى أن تأتى لى بمدرس للغة الفرنسية حيث أنى ضعيف جدًا؛ فأتت لى بمدرسة وفوجئت أنها إيفون.. صعقت.. ابتسمت وذبت أنا فى الابتسامة حتى تلاشيت فبدأت أختى تبحث عنى وتنادينى وأنا أحاول أن أجمع شتات نفسى ففشلت فاستطاعت إيفون أن تجمعنى بصوتها: اشرح يا أستاذ؟ وبدأت الدروس..**

انتهيت من عمل الشاى، أخذته وبدأت الذهاب فى الغرفة.. جلسنا نشرب الشاى نحن الثلاثة..

- **طلبت إيفون أن تبدأ في شرح الدرس لي، وبينما هي تشرح الدرس**

أخذت أضع رجلي بين فخذيها، فكانت تبعد ساقيها وتنظر لى وتضرب يدى، فما أحلى ضربها وساقيها.. "أيها المتعطش" .. قدمت لها هدية.. فوجئت أنها تبكى فبكيت وأنا لا أعلم لماذا هى تبكى.. والحقيقة المذهلة.. إن أباها يعاملها بقسوة.. إنه سكير.. شعرت بأنها تكذب..

نظرت إلى كيوبيد.. فابتسم وهز رأسه مصدقا لقوله..

- أبوها الحوزي السكير لا يرعاها.. لم يمنحها يومًا أي مشاعر أبوية.. أصبحت أنا أباها.. أصبحت أنا العطف والحنان.. وفى صباح كل يوم أذهب معها إلى المدرسة
- ماذا بعد ذلك؟
- للأسف.. يا ليتنى لم أعطها شيئًا.. لقد عرض عليها غيرى أشياء أخرى أثمن وأقيم وأفضل فاستجابت لهذا وذاك.. لم تحب أحدًا.. إنها تبحث عما ينقصها.. أصبحت كمراهقة تنتقل من شاب إلى شاب، ومن تجربة إلى تجربة، ومن حب إلى حب.. إننى جئت من أجل أن أحكي لك..

ابتسم كيوبيد.. ابتسمت.. نظرت من النافذة وجدت لرجل مازال واقفاً .. ذلك القصير الذى يراقب شقتى.. نزل صديقي (س) إلى الشارع بمفرده، وجلست وحدي فى الشقة أحاول أن أعرف سر قلقى.. ليس الجنس إلا مجرد هروب.. هروب من كل شئ.. لقد أعطيته نسخة من مفتاح الشقة ليعود إليها في أي وقت.. لقد وجع رأسى كفاية مع إيفون...

***

يوم الأحد الأول: (اللون الأبيض عقيم)

الصباح لوحة زاهية الألوان فى كل يوم تزداد بهاءً، ضياءً، صفاءً، سبحان الله خلقه وهو العظيم البديع.. الصباح دائمًا رقيق وحين يكون عاصفًا يكون كالحريق.

بالأمس فى منتصف الليل أرقتنى أعماقى كعادتها. حاولت الهروب.. لم أجد فتاة الصورة المعلقة على خشب سريرى مازالت مستيقظة، بعد أن كانت غافلة.. بالأمس أتى صديقى (س) من القاهرة متعبًا.. هو يحب دائمًا الهروب.. قررت أن أمسك كتابًا لأقرأ، للأسف كان كتاب تاريخ.. فتحت الكتاب،لكن رميته سريعاً على الأرض، وحاولت أن أنام.. وقع الكتاب على الأرض فاهتز.. اهتزت أطرافى وارتعد جسدى على صوت ضحكة هزت جدران المنزل.

- من؟.. من الذى يضحك؟

قام صديقى مفزوعًا،وهو يغطى رأسه خوفاً

- ما هذا؟.. ما هذا..؟

تقدم نحوي رجل طويل القامة عريض المنكبين يحمل سيفاً وهو يصيح:

- قم يا فتى و جِئْنِى لى طعاماً

قمت وأنا أرتعد:

- من أنت يا سيدى؟

ارتعش كل شئ حتى الحروف أخذت تسقط من فمى وتتجمع من فوق الأرض فى أحد أركان الحجرة.. تمتد أذنى لمعرفة من صاحب الصوت.

- يا ويلى.. ما الذى يحدث هنا..؟

هكذا كان صديقى يتحدث وهو تحت الغطاء

- أنا السلطان سليم الأول

- من؟

انتابنا الصمت (أنا وصديقي) واستطاعت الحروف أن تتجمع بسرعة خاطفة إلى فمى.. "السلطان سليم الأول"..؟!!

أخذ صديقى يختبئ أكثر فى الغطاء وهو يقول:

- أنت تضحك علينا.. أيها اللص، وجئت متنكراً فى هذه الملابس.

صرخ

- كلا

ارتعد صديقى، وارتعدت أنا بينما أحاول إغماض عينى.. صاح السلطان سليم الأول:

- فلتقم أنت وهو..

قمنا تحركنا ونحن نرتعد بشكل جنونى وسقطنا على الأرض من شدة الفزع.

- أعدوا لى طعامًا وشرابًا..

زحفنا على الأرض وأخذنا نحاول الوصول إلى المطبخ.. همست لصديقى:

- هل أنا نائم؟.. هل أنا أحلم؟.. هل شاهدته؟
- نعم شاهدته (همس وهو يرتعد) نعم شاهدته ملابسه غارقة فى الدماء.. عيناه جاحظة كالنسر أو البوم.

اتجهت للمطبخ أنا وصديقى.. همست له:

- أى طعام سيأكله؟
- لا أعرف
- اذهب لتسأله.. اسأله مولاى السلطان سليم الأول ماذا تأكل

قال صديقى وهو يرتجف:

- نعم.. ماذا تقول؟.. ولماذا أنا بالذات؟ يا ليتنى لم آت إلى هنا.. أنا لم آت لكى تقتلنى وتخيفنى بهذا العفريت
- اذهب وإلا..

مشى خطوتين، وهو يزحف وهمس بصوت لا يسمعه إلا هو

- يا سيدى ماذا تأكل؟

صرخت فيه: "ارفع صوتك عالًيا".. وبالفعل صرخ

قال سليم الأول:

- أشرب أى مشروب بدلًا من الطعام.

قمت ووضعت البرَّاد على البوتاجاز.. يدى ترتعد.. البوتاجاز يرتعد.. البوتاجاز غير مشتعل.. نسيت أن أشعله.. بالفعل أشعلته.. البرَّاد ليس به ماء.. عدت فوضعت الماء.. نعم أسقيه الشاى.. الشاى مشروب لا يعرفه سليم الأول

- ضع شيئاً كبيراً غير هذا.. (هكذا صاح السلطان سليم)

وضعت إناءً كبيرًا على البوتاجاز وبدأت فى إعداد الشاى.. فرغنا من شرب الشاى بل هو الذي فرغ من شربه. ارتشف الإناء دفعة واحدة رغم سخونته

- أين صديقك؟

أجبت على الفور

- فى دورة المياه.. أصابه إسهال مفاجئ.

ضحك.. ضحكة بعثرتنى.. حاولت أن أجمع نفسى بأن أسأله

- ما هذا الدم الذى على ملابسك؟
- دم السلطان الغورى.. دم المماليك..

دم المماليك الأبرياء، دم النساء والرجال والأطفال، دم الفلاحين الطيبين فى هذه الأرض، دم الإنسان الضعيف.. هكذا يباح للأقوياء قتل الضعفاء يا عصور فوضوية.. يا مهزلة البشر يا عصور بربرية.

- أنا ذاهب.
- إلى أين؟
- إلى لبنان.
- لماذا؟

قال وهو يضحك بشكل يدعو للخوف:

- لكى أذبح فخر الدين
- ألم تشبع من الذبح؟
- سأجعل شخصًا آخر يفعل ذلك

- من؟
- السلطان محمود الثانى سيذبحه وأنا أرغب فى مشاهدة عملية الذبح

يا فخر الدين.. أيها الإنسان التقدمى.. ستذبح.. ضحكوا عليك بالعودة مرة ثانية إلى لبنان.. ضحكوا عليك.. استطاعوا أن يجعلوك محل قبضتهم.. يا ويلك يا فتى، هكذا يموت الثوار بلا صوت.

"أنا أتلاشى.. أشعر بأننى غير موجود.. ربما أكون ذبت فى الأشعة ورحت أذهب إلى السماء لكى أركع تحت أقدام الإله أخبره عن رغبتى فى أن أكون شيئًا بدلًا من كونى لا شئ"

أشحت بوجهي عن سليم الأول، ووجدت خطابًا على المكتب.. إنه خطاب من ليبيا من صديق لى أرسلت له عدة خطابات من قبل، منذ عدة أشهر..

سقطت عيناي على السطر الأول

يا أيها الإنسان

ما أجمل هذه الكلمة عندما يصبح الإنسان إنسانًا أو يوجد إنسان بالفعل فى الوجود

استغرقت فى السطر الثانى:

الليل نعش أسود مصنوع من عظام الموتى، مثل مدينتى بنغازى بدعة تاريخية رغم ضآلتها ورغم ثوب العفونة الذى يطويها، ورغم كل شئ فهى بدعة تاريخية تحتضر فى ذلك النعش.. أما أنا فأختبئ في شقوق ذلك الليل.. أجهد نفسى بكلمات تحتاج إلى كثير من الوقود.. الوقود الذى يلد الكلمات الراثية لمدينتى بنغازى البدعة التاريخية.

وجدت نفسى قد غرقت فى السطر السابع دون أن أدرى.. لماذا أنت حزين يا صديقى الليبى؟.. إن أرضك تنبت ذهباً.. لماذا أنت هكذا وقررت أن أدع نفسى تستغرق فى الخطاب..

أخى الإنسان الثائر

مهلاً يا صديقى فأنت مجهد تماًما؛ فأنت رغم ضآلتك إلا أنك لا تحمل بضاعة جيدة بها وقود خطر لأولئك الغوغائيين. تمهل قليلاً يا أخي، وانظر إلى بقية النعاج فى العالم ماذا يفعلون..؟

سأحاول أن أقص عليك قصة بسيطة تحدث فى كل ثانية زمنية..

نعم كنت فى حاجة لأن أهرب فى قصة.. القصة حدثت فى أمريكا تحت ستار الديموقراطية: اسمه "لويس أبولونيا" مهنته رسام وشاعر وفيلسوف، وشعاره فى الانتخابات صورته العارية تماماً فوق جملة "ليس لدى شئ أخفيه" إذا تم انتخاب هذا المرشح الجديد فى الانتخابات الأمريكية أمام "هنرى نيكسون" رئيس الولايات المتحدة الأمريكية..

هبطت إلى أمريكا إلى الدمعة الحزينة فى عينها إلى تمثال الحرية الذى يشكو لى مهزلة التقدم المادى.. هبطت إلى "لويس أبولونيا"

- ماذا ستفعل يا لويس إذا فزت فى الانتخابات الأمريكية؟
- سأقوم بطلاء البيت الأبيض باللون اللاوندى الفاتح الزرقة.
- لماذا؟
- لأن اللون الأبيض عقيم وخال من البهجة والمرء لا يستطيع أن يشعر بالحب تجاه أربعة جدران بيضاء..

"يا أيتها الجدران هل أنت حقاً دليل أشياء خفية.. هل هناك معنى لك غير تلك الألوان.. أنا لا أدرى لا أدرى حقاً.."

- وماذا ستفعل بعد ذلك يا لويس؟
- سأدعو "كوسيجن" رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى لزيارة واشنطن وأجعله يقضى معى وقتاً طيباً حافلاً بالمرح نلعب فيه على الجليد بغية التزحلق ونقوم برحلة صيد بعد ذلك فى موسكو..

الأحلام.. الأحلام.. وما أكثرها حين تغرق الإنسان وتجعله يشعر بالسعادة حين يهرب إليها ولا يعود للواقع الأليم.. حلمك يا "لويس" يا أخى الشاب الجميل..

غمز لى الشاب الليبى وهو يتحدث معى..

- **يمكنك أن تسأله ماذا سيفعل مع شباب دولته.. وماذا ستفعل مع شباب أمريكا؟**

ابتسم "لويس" بنشوة وعزيمة طيبة:

- **سأرسلهم، بل سأرسل كل من يرغب فى السفر من شبان أمريكا إلى الخارج على نفقة الدولة لكى يتعرفوا على إخوانهم فى بقية القارات، وأعمل كل ما فى وسعى بحيث أتيح لكل فرد فى الولايات المتحدة الأمريكية فرصة لمزاولة هواية فنية محدودة أغرقوا الفن فى النفوس.. طهروا النفوس.. إنه الخلاص للإنسان ولعفونة الفن فلتزيلوا سحابات الغيوم.**

قال صديقى الليبى وهو يمتعض: "وماذا عن فيتنام؟".. دوى فى الحال صراخ آلاف القنابل.. صراخ طفل يموت تحت أنقاض منزل يستغيث بأنة الصراخ.. لا يعرف الكلمات.. يستغيث بأنة جريح، بينما أمه قد سقطت بلا أنفاس، مشوهة عليها تراكم التراب والحجارة. راحت أصوات تتعالى من السويد من باريس.. من موسكو: "انقذوا الإنسان فى فيتنام".. يا فيتنام يا صرختى.. يا حرقتى.. يا سبب لوعتى فى المساء.. أنا لا أدرى كيف يذبح الأقوياء الضعفاء.. هل مات الضمير الإنسانى فى لحظة صماء؟.. هل أصبحت الحياة حربًا بلا حياء؟.. يا شجيرات الصمود والعناد والانتصار انتشرى فى كل مكان.. إعلنى أن الضعفاء أقوياء.. امتدى إلى السماء.. يا أيها البوذيون يا من تحرقون أنفسكم استنكارًا للحرب..

هناك أطفال يزرعون بأنفسهم نغمات حزينة، دموعًا حزينة.. هناك فى فيتنام.. أم فقدت رضيعها فى لحظة جنون.. يا فيتنام يا شعرى المجنون.. يا همستى فى الليل يا صرخة الويل.

يا فناني العالم.. شاهدوا لوحة الفنان فى فيتنام.. لوحاته على الطرقات فى الشوارع.. فى كل ميدان.. أطفال قد تركوا صوت الطفولة البرىء وحملوا صوت الرجولة الجرىء، فلتجمعوا الثعابين، فلتحرقوا خيامهم.. فلتزيلوا الحقد من طريقهم.. أوقفوا المهزلة أيها البشر فى كل مكان.. مهزلة الإنسان مهزلة الحرب والتشريد.

كفانا.. كفانا.. كفانا تمزقًا.. كفانا تشويهًا.. يا أبناء المسيح.. مهزلة الإنسان فى كل مكان.. أوقفوا ذبح الإنسان وتشريد الأطفال والنساء.. كفانا ما حدث يا أصدقاء.. يا شباب موسكو فى الكمسمول أعلنوا اللافتات بالأصوات.. بالمظاهرات.. يا شباب واشنطن أعلنوا بالصياح والهتاف.. يا شباب باريس أعلنوا بقوتكم بأنفسكم: إننا لا نرغب فى إنفاق الأموال على السلاح.. كفانا سلاحًا.. أنفقوا الأموال على الفقراء.. على العلم.. على النهوض بالإنسان فى أحراش أفريقيا.. فى صحراء آسيا.. أنفقوا الأموال على الأراضى غير القابلة للزراعة.. إن العالم يحتاج إلى الكثير..

- وماذا ستفعل يا لويس فى فيتنام؟
- سآمر الجنود بالكف عن إلقاء القنابل النابالم وإغراق الفيت كونج بالزهور والعطور فى استعراض ودى ولتغرق الطائرات الحربية فيتنام بالزهور تقديرًا للإنسان، ولترسل آلاف الملايين من الدولارات للنهوض والاستصلاح وسأرسل لجميع دول العالم من الأبيض اللاوندى الفاتح الزرقة بيانًا بإعلان الحب.

قلت وأنا بى رغبة ملحة:

- وماذا ستفعل بالداخل؟

قال وهو يضغط على شفتيه:

- سأقوم بطرد السياسيين وإعادتهم للعمل فى الحدائق العامة ليزرعوا الورود ربما

تنبت زهرة حب فى داخلهم أو تموت زهورهم.

وبدأت أتنفس.. أريد أن أستريح من هذا الكلام.. إنها لمسة حقيقية من السخرية.. (قال صديقى لي)..

قمت من النوم مفزوعًا، وأنا أصيح: "لعن الله السياسة ووجع الرأس".. أصرخ: "كل هذا تراكم الليل".. عبد الناصر يرغب فى إعطاء الشباب فرصة التعمير.. هكذا تشير الصحف، ولكن.. كيف؟ أنا لا أرى تغييرًا ولا تعميرًا بعد النكسة.. كتبت رسالة لعبد الناصر أسأله: "إنَّ أحلامى كلها سياسية؛ فأخبرنى يا سيدى الرئيس عبد الناصر ماذا سيفعل شاب فى العشرين فى أحلامه السياسية؟.

الفصل الرابع

الأيام التى تشبه بعضها

حين أرغب أن أناديك بلادى.. أناديك بلائى

عندما كنت تلميذًا فى المرحلة الإعدادية، كرهت ثلاث حصص: الرياضة، واللغة الإنجليزية، وحصة النحو فى اللغة العربية.. اتجهت للتمثيل فى الصف الثانى الإعدادى، وكتبت اسكتشات وأخرجتها.. أذهلت المدرسة.. قام مدرس اللغة الفرنسية بإهدائي زجاجة عطر في وسط الطابور الصباحي لتميزي في حفل عيد العلم، وفوجىء كذلك مدرس الرسم الأستاذ "إحسان" بأننى كنت محور الرسوم التى رسمها الطلاب عندما طلبوا منهم رسم احتفالية عيد الأم.. الكل رسمنى لأننى أنا الذى قدمت شخصية الشيخ فرحات المعلم المظلوم الغلبان الذى يعلم الأولاد الجغرافيا والتاريخ، وأذكر أننى قلت فى الاسكتش: "أخذنا فى الجغرافيا الشمس بتمشى حافية حول الكرة الأرضية كلمة وأغنية ثلاثى أضواء المسرح (سمير غانم وجورج سيدهم والضيف أحمد)".. فى الإعدادى كنت أذهب إلى كتاب في حى غربال وأركب عربة حنطور بخمسة قروش وكان الشيخ فرحات حقيقة استلهمتها من واقع حي غربال أرض الفقراء والأثرياء والسحر والغجر وباقى أمراء أسرة محمد على..

فى المرحلة الثانوية اصطدمت بكراهيتى للأحياء كان الأستاذ (باسطة) مدرس الأحياء شديد القسوة وكان علينا تشريح الضفدعة ورسمها.. لم أستطع أن أشّرِح الضفدعة ولا أن أخدرها ولا أن أفتح بطنها.. كنت تلميذًا بليدًا فى الرياضيات.. حساب المثلثات.. نصف القطر.. والدوائر والمكعبات والجبر والجذر التربيعى.. أما في اللغة العربية فقد كنت أحب الأدب فقط الذى كان يستهوينى.. نحن التلاميذ لم نكن نحمل فقط الكتب في حقائبنا التى كنا نحملها على أكتافنا بل نحمل معها أيضًا هموم عائلاتنا وأحلامنا ومشاكل بيوتنا، وطوال الحصص نسبح فى الماضى والحاضر والمستقبل..

الذاكرة قليلًا ما تفتح أبوابها للدروس التى نتلقاها.. على الديسك فى الفصل نحفر أسماءنا بالمسطرة الحديدية أو بالبرجل.. كل واحد يحفر اسمه على الديسك الذي يجلس عليه، ربما لأننا نبحث عن تحقق أسمائنا.

حي غربال جزء من حي محرم بك، لم يطلقوا على الحي اسم حسن باشا الإسكندراني، ولا اسم ابنه محسن باشا، ولكن سموا الحى باسم محرم بك.. اكتفوا فقط بإطلاق اسم "حسن باشا الإسكندراني" على شارع، وهو شارع الإسكندرانى.. من هو البك هذا الذى يدعى محرم بك؟.. لا أحد يعرف من أهل الحي..

عندما تقدمت إلى اتحاد الطلاب لم أتوقع هذا النجاح فى ترشيحى من ٢٢٠٠ طالب فى مدرسة الإسكندرية الثانوية، ثم على مستوى المحافظة، ثم على وجه بحرى، ثم سكرتارية اتحاد طلاب الجمهورية.. أهل حي غربال دهشوا من عدد الطلاب الذين يأتون لبيتى، وكذلك كانت دهشة ساعى البريد الذي كان يحمل لي في كل يوم عشرات الرسائل.. أسمونى "الأستاذ".. وأسمونى "الريس".

***

فتحى رضوان خليل

العمر وردة تسقط منها الأيام ورقة ورقة فلا تبقى ولا نبقى

والحب وردة مهما حافظنا عليها تذبل ذات يوم ولا تبقى..

ناهد حجازى جاءتنى مسرعة فى مقر اتحاد الطلبة بشارع النبى دانيال وقالت:

- أنت يا فتحي بتطارد البنت اللبنانية فيفيان؟

- ... ...

- ألا يكفيك حبى يا رجل؟ أنت الشاب الثورى رئيس اتحاد الطلاب الناصرى القومى العربى يحب بنت لبنانية ويطاردها.. أنت اثنين فى واحد: واحد بتاع نسوان، والثانى ثورى ؟؟؟

صمتُّ فترة.. نعم ضيَّعت عمرى بين شفاه النساء الجميلات.. وضيَّعت قلبى فى وطن حقير اسمه مصر والوطن العربى.. هزم الاثنان فى ست ساعات عام ١٩٦٧.. ولم أدر أن فى العشق ابتلاء، وأنه مكتوب على جبينى منذ الميلاد.. سيدتى كم الساعة معك

الآن؟.. الزمن الحلو قادم أم غائب عنى دون وداع؟؟ هل عقرب الساعة يتحرك للأمام أم للخلف؟.. أم اختفى من معصم قلوبنا وشعوبنا..

- نعم أحبك يا ناهد.. أنا مرتبك يا ناهد كلما قرأت تاريخ مصر ارتبكت.. انظرى فى عام ١٩٢٣ اختير إسماعيل صدقى باشا ليكون وزيرًا للداخلية لتزوير الانتخابات وتعبئة الإدارة والبوليس لتحقيق النتيجة التى يريدها الملك والإنجليز، ورغم كل بطش وقهر النظام وجلالة الملك صمد الشعب المصرى واختار الأغلبية حزب الوفد.. وفقد الملك فؤاد رشده وأقدم على الخطوة التى لم تسبق فى تاريخ الدساتير والنظم فى أى مكان فى العالم أو فى أى نظام أو زمان، وقرر أن يحل البرلمان المنتخب فى يوم انعقاده.. الطريف أن جلالة الملك فؤاد افتتح المجلس وألقى خطابًا رائعًا، وهو خطاب العرش، وفى جلسة المساء دخل رئيس الوزراء ليتلو مرسومًا ملكيًّا بحل مجلس النواب الذى لم يدم إلا ثمانى ساعات وعجبى.. الملك فؤاد مزدوج الشخصية.. الصبح مع مجلس النواب، وفى المساء ضده.

قامت ناهد بقوامها الممشوق الساحر الذى يخطف العقول ودارت فى المكتب:

- أنت أيضًا مزدوج الشخصية.. كيف تكون ثوريًا وحولك كل هذه البنات فى الجامعة؟
- كل المثقفين كذلك.. حتى العقاد هذا الهرم الثقافى الذي كان من أعمدة الليبرالية والعقلانية وتحرير الفكر والأدب العربى والذي انضم لثورة سعد زغلول وانغمس فيها قلًبا وقالًبا، وما لبث أن أصبح كاتب الوفد الأول والجبار والمقرب من سعد باشا زغلول، وأصبح مؤرخ حياة سعد باشا زغلول، وكان أول من خرج على العرف وندد بالملك فؤاد فى البرلمان وبمخصصات الملكية وأول من حوكم بتهمة العيب فى الذات الملكية وحكم عليه بالسجن تسعة أشهر ونفذ الحكم وقد انقلب على الوفد وعلى زعيمه مصطفى النحاس لكى ينضم إلى الركب الملكى وليسخر قلمه الجبار للدفاع عن بيعة الملك فاروق ليكون خليفة المسلمين ويوافق على أن يكون

الملك فاروق له حق إلهى مثل كل الملوك.. وكان الحق الإلهى قد اختفى منذ عهد الثورة الفرنسية.. والعقاد هو الذى ترجم كتب وأدبيات الثورة الفرنسية للمصريين وكان يبشر بمبادئها.. ازدواجية فكرية.. عارفة الملك فاروق كان عمره كام؟؟.. ٢١ سنة عام ١٩٣٧ يعنى شخصية العقاد الأولى تنادى بتحرر العقل وتترجم كتب الثورة الفرنسية وشخصيته الثانية تؤيد الملك فاروق وتؤيد حقه فى الخلافة.. ازدواجية.. كتب: "عبقرية محمد" و"أبو بكر" و"عمر الفاروق".. وفى الوقت نفسه قالوا إنه كان له يوم فى الأسبوع يرافق غانية ليسد حاجاته البيولوجية.. ازدواجية الدين والدنيا.. حتى شيخ الجامع الأزهر أفتى للملك فاروق وقال له (إن الله يرسل كل مائة عام على رأس الامة مصلحًا يجدد حياتها ودينها ويوحد صفوفها وأن فاروق هو من اختاره الله وبعثه بهذه الرسالة للمائة عام القادمة).. شيخ الأزهر هو أيضًا يعاني من الازدواجية.. حتى القدس له تاريخان: تاريخ إسلامى، وتاريخ يهودى.. انبثق منه تاريخ مسيحى.. ازدواجية في التاريخ.. الازدواجية فى كل شئ.. قال ميخائيل نعيمة: "إن مصر مصران: مصر أدباء الحكومة الذين يطبلون لهم فى كل مكان، ومصر أدباء الشعب والشعب لا يعرف لهم عنوان".. ازدواجية.. الشيوعيون يقولون أن مصر مصران: مصر الفقراء، ومصر الأغنياء.. ازدواجية، وجغرافيا مصر: مصر الجديدة، ومصر القديمة.. ازدواجية، وكل واحد منا اثنان.. لكل مجتمع جسد غيبى فى مقابل الجسد المنظور.. جسد سياسى باق فى مقابل الجسد الفانى.. الأنا والآخر ازدواجية الحرية والطغيان.. الخير والشر.. الرجل والمرأة.. النور والظلام.. ازدواجية.. يا ناهد أنا وأنت روح واحدة فى جسدين.. يا ناهد.. السياسة والمبادىء والحب ازدواجية والتاريخ اثنان.. تاريخ معلن مزور وتاريخ حقيقى خفي.. ازدواجية.. يكتبون على أعمدة المعابد الفرعونية تاريخًا ثم يأتى فرعون جديد يمسح من على

تلك الأعمدة تاريخ من سبقه وربما ينسب ما على المعبد والأعمدة من تاريخ لنفسه.. أنا أكاد أعرف الحقيقة..

أمسكت يد ناهد وقبلتها.

على مهل ضمينى حبيبتى.. على مهل حتى أذوب.. فالدفء فى صدرك ابتهاج وهياج وأُنشودة وماء.. على مهل ضمينى حتى لا ينكسر كأس العشق؛ فالعشق بطئ ورقيق ويسيح ويسبح وله صولجان ومراع وسماء زرقاء.. على مهل حتى نستمتع؛ فالليل طويل والعمر قصير والعشق كبير..

دفعتنى برفق من فوق صدرها قائلة:

- اقعد عدل.. الطلبة يخشوا يشوفوا رئيس الاتحاد فى حضن عضوة اتحاد

ضحكت، قلت لها:

- يا ناهد كلما رأيت اسمك أتنهد.. تصير أنفاسى كلمات أتبعثر على الحروف عشقا وأغنيات.

تنهدت ناهد:

- وبعدين معاك يا راجل أنت.. بتسحرنى بكلماتك.. لماذا أنا بالذات؟

- قلت لك طابع خاص وعطر خاص وصوت خاص أما سحر عينيك يسحر الورد والبشر حتى الحجر.. ماذا أفعل؟؟

- اسمع يا فتحى رضوان موضوع فيفيان إنساه.. إنساها لكن أنا مش حنساه أبداً

- وأحيانا أنسى.. أنسى لون الورود لأن نظرة عينيك عنى غائبة

مددت يدى، وأمسكت يدها سحبتها بعيدًا

تعالى إلّي وخلصينى من البؤس والهم.. تعالى قلبى به مليون مليون وردة باسمك.. تعالى اليوم وكأن كل لحظة عام فى بعادك عنى.. مللت التمنى والتغنى.. تعالى أنتِ بوابتى للحياة والنور للحروف.. تعالى فى دمى يجرى الفقراء والشعراء والعشاق التعساء.. تعالى ليس فى الغياب الا عطش وجفاء..

فى الليل يا ناهد أرى فى الحلم الرئيس عبد الناصر يبكى على أحلامه التى أضاعها العسكر على صدر النساء وفى ملاعب كرة القدم وتشجيع الأهلى والزمالك أراه يبكى.. حاولت أن أغنى له ولا يهمك يا ريس من الأمريكان يا ريس.. فنزلت دموعى على خدك حبيبتى ناهد رغم المسافات.

فى صباح ١٤ سبتمبر ١٩٦٧ كتبت الصحف خبر انتحار المشير عبد الحكيم عامر، بعد حوالي ثلاثة شهور من انتهاء حرب الأيام الستة.. مات ومعه السر.. سبب الهزيمة.. وصور "موشيه ديان" فى الصحف العالمية القائد المنتصر على ثلاثة جيوش عربية فى ٦ ساعات.. قتل "عبد الناصر" أخاه "عبد الحكيم عامر".. سمى ابنه عبد الحكيم، وسمى عبد الحكيم ابنه "جمال".. قتل ست أخاه أوزوريس مزقه أربعين جزءًا، ودفن فى كل قرية جزءًا.. قتل بطليموس السابع ابنه غير الشرعي، ومن المحتمل أن يكون هو الذى أوكل إليه حكومة (سرنيقا) ولم يكن لأهل الإسكندرية غير هذا المخرج فى ذلك الوقت..

طلب عبد الناصر حكيم للعشاء معه، ثم أرسل "عبد المنعم رياض" و"محمد فوزى" ليقتلاه بعيدًا عن مرأى عبد الناصر (كما قال جمال ابن عبد الحكيم عامر فى حديث له مع التلفزيون المصرى)..

طلب "بطليموس البطين" من ابن ملك سرنيقا (الذى اتفق مع أمه على التخلص من حكم أبيه الظالم) الحضور له للعشاء فى قبرص وإثر وصوله قتله على مرأى منه ثم قطعه إربًا ثم وضع أشلاءه فى صندوق وأرسله إلى أمه كليوباترا الثانية فى يوم عيد ميلادها.. حتى الأم السياسية كليوباترا حاولت قتل ابنها (انتيوكوس أى الأعقف الأنف) بدس السم فى كأس قدمته له، غير إنه كان قد علم بذلك من قبل ورفض تجرع الكأس وأجبرها على أن تشربها وبذلك قضت نحبها بيديها فكان جزاءًا وفاقاً.. السطة أقوى من رابطة الدم والابن والأب والزوجة والأهل والولد والبشر..

كما فى قصة "اترى بن بولبس" وملك (ميسينى) الذى كان يكره أخاه (تيست) فى صراع على السلطة فانتقم منه أشنع انتقام يمكن تصوره، وذلك بأن ذبح (تانتال) وبليستين) ابني (تيست) وقدمهما لأخيه وزوجته فى وليمة عشاء ليأكلا منهما..

قدم عبد الناصر جثة عبد الحكيم للشعب كى يدفن غضبهم من النكسة فى قبر المشير عبد الحكيم عامر..

قتل ابن عباد القاضى – أحد حكام الأندلس وأمرائها – كل قضاة إمارات الأندلس فى الحمَّام بعد أن بنى حمَّاماً عجيبًا ودعاهم للغذاء ثم للاستحمام فى الحمَّام الجديد الفاخر وشرب القهوة السادة هناك، وأغلق عليهم الأبواب بالحجارة وسدها أثناء الاستحمام، سد كل أبواب الحمام بالطوب والخشب، وجعلها مقبرة جماعية، وكتب على المقبرة: "هنا يرقد قضاة الأندلس الذين سببوا الفرقة" بين أهلها"

قام محمد على فى مصر بنفس الشئ عندما دعا المماليك فى القلعة وأطلق النار عليهم جميعًا.. نفى عبد الناصر الرئيس "محمد نجيب" فى فيللا فى ضواحى القاهرة (المرج).. واستمر السادات أيضًا فى نفيه.. قام صدام حسين أيضًا بالتخلص من رفاق حزب البعث فى مذبحة جماعية بحجة الخروج والتآمر على نظام الحزب..

الطغيان لا يعرف جنسية أو هوية الطغيان لا يعرف عنوانًا.. أنا أكره الظلم والطغيان سيدتى..

ناهد حجازى تمسك يدى، تدفع بى للجنون من حنان مفرط برائحة الليمون.. لنهديك يقف الفجر شاردًا حائرًا.. وشفتاى ترتعشان وجسدى خائر.. ولفخذيك اتصبب عرقًا مع أشعة الشمس التى تسكننى.. حاولت أن أقبلها دفعتنى بعيدًا عنها..

- أنت رئيس اتحاد طلبة عيب عيب يا فتحي

***

كتبت شيئا فى كراسة ناهد:

سمراء أنت

بيضاء أنت فى لون شهقة العمر

مرحة القلب والعينين

أختلس من عينيك نظرة السؤال

تباشير الحرية الأبدية

***

وأحيانًا أتمرد وأسجن كل الشعراء فى استهلال قصيدة، وأفرج عنهم حين تضميننى لأحضانك فى منتصف القصيدة، وأحيانًا أسجن كل النساء فى نهاية قصيدة ولا أفرج عنهم مدى الحياة لتكونى أنتِ مسك النساء وأنت الصدق والتفانى وعشق لايعرف الانتهاء.. ناهد يدها بضة، كفها ناعم.. جسدها يشع دفء أنثى بلا حدود..

***

قال نزار قبانى بعد النكسة ١٩٦٧:

أرغمنى جندك أن آكل من حذائى

يا سيدى..

يا سيدى السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين

لأن نصف شعبنا.. ليس له لسان

ما قيمة الشعب الذى ليس له لسان

لأن نصف شعبنا..

محاصر كالنمل والجرذان..

فى داخل الجدران..

لو أحد يمنحنى الأمان

من عسكر السلطان..

قلت له: لقد خسرت الحرب مرتين..

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان..

****

"سهر".. جاءت العصافير والطيور فوق سطح بيتها، أما عندما تسير فى الطريق تكون العصافير سربًا يطير فوقها. ويلاحظ ذلك بعض أهل القرية ولكنهم لا يهتمون بالأمر ربما تكون صدفة أو لأنهم فى استغراقهم للسعى وراء الخبز والحياة..

آه آه.. ما أصعب لغة الإنسان والطيور.. عرفت الطيور قصة عشق عصفور الكنارى الشقى.. أسموه عصفور "سهر"..

أخوها الأكبر سامي لم يكمل تعليمه، يشعر بأن الفقر يحاصر أباه من كل صوب.. الأب كان سياسًيا يحارب العدو الفرنسى المحتل، وبعد أن خرج الأعداء من المدينة أصبح الأب يحمل نيشانًا ووسامًا، علقهما على الحائط بجوار صورة الجد الأشيب..

الأب يحمل من الحرب إصابة في قدمه اليمنى، ويقول إنها سوف تكون تأشيرة دخوله للجنة يوم الحساب، وسوف يدخله الله الجنة مع الشهداء والصديقين والعاشقين لأنه يؤمن بأن العشق ابتلاء، وأنه أحب سلمى أم "سهر" ودفع الثمن غالًيا؛ هرب بها ذات يوم في جوف ليل كافر بالبشر اغتصب فيه الأعداء الفرنسيون نساء القرية.. وهرب هو بـ سلمى..

آه.. سلمى جميلة وفاتنة، وسكن هنا في الجبل قريبا من المدينة المزدحمة، المدينة عاهرة بلا أخلاق.. المدينة كافرة.. والقرية ليست لها شهادة ميلاد فى بلاد الدنيا.. القرية دائما منسية من خريطة السياسيين والمسؤولين فى العاصمة..

العاصمة أم عاهرة للقرى فى كل بلاد الدنيا.. تمارس كل شيء وتفعل أى شئ، وتعيش فى رغد.. تاركة سكانها للضياع، كأنهم أناس فرغوا من يوم الحساب.. هكذا عواصم المدن.. المدينة تدوس أهل الريف بالأحذية..

المدينة تغازل خيال الفقراء فيذهب تجارها إلى القرى يشترون العنب والتفاح والزيتون.. والحقول مفتوحة الساقين يمارس الجشع الفحشاء فيها بلا خجل.. ُيستباح الفلاح ويأخذ التجار أعداء الله المحاصيل بأقل الأسعار فى عربات ضخمة للمدن لتباع بمائتى ضعف السعر..

آه كل التجار خونة يشربون دم الفقراء ويأكلون لحمهم نيئاً.. التاجر لا ينال رضى الله، أو قد يناله بصعوبة.. قال رسول الله صلى اله عليه وسلّم: "ما جمع امرؤ ثروة قط من مال حلال"، وقال أيضا: "خير الأماكن المساجد، وشر الأماكن الأسواق" صدق رسول الله.. والسوق يحكمه التجار الفجار.. القادة تجار، والتجار أمراء.. التجار يشترون الوظائف لأبنائهم.

فى نهاية الحصاد يحصل رجال القرية على أوراق مالية قليلة.. قليلة.. وتحصل نساؤهم على نظرات محرمة غير محترمة من التجار الأثرياء خاصة الفاتنات الفقيرات منهن، وكل تاجر ألقى رمشاً على فاتنة يظن أن السيارات التي تحمل محاصيل التفاح إلى المدينة قد تجذبها إليه، أو ربما تجذبها المحفظة المنتفخة التى يحاول أن يفتحها أمامها لترى كم هى مكدسة بأوراق مالية من لحم الفقراء..

***

كاظم مدرس اللغة العربية الذى يهوى "سهر" كان يقف أمامها أحيانًا وينظر نظرة ربما تمتد عمرًا أو زمنًا أو إلى ما لا نهاية.. كل الأزمنة باطلة لأن زمن العشق الدقيقة فيه بألف عام مما تعدون.. ويبحر فى عينيها إلى حدود اللامرئى،ويمر على حروف اسمها كل حرف حكاية وشجن..

هل أنت أنثى أم أنت حزن ممزوج بالفرح

آه يا "سهر"

عندما

أراك

سأضمك

حتى أعصرك

فى صدرى

... وأمتص

رحيق
شفتيك
حتى الألم
وسأدغدغ
نهديك
وأداعب حلمتيك
حتى تتبخر
عندما تقرأين كلماتى يتفصد جسدك عطراً
سوف أذيبك فى فمى وأنثرك عطرًا على جسدى

الفصل الخامس

أسألكم أن تغنوا للحرية

فتحى رضوان خليل (حبيب "سهر" في المستقبل) قرر الخروج من البيت وفكر فى الهجرة من الوطن..

أنا المسؤول عن النكسة.. أنا الذي كنت خطيًبا في الجامعة، وأنا رئيس اتحاد الطلبة.. مصر عبد الناصر قوة عظمى وجيشها أعظم الجيوش.. مصر التى فى خاطرى ليست هذه المهزومة المأزومة الآن.. مصر المنحوسة بالهزائم.. مصر المحروسة بأهل البيت.. مصر المحظوظة لكل من حكمها وسرق مالها.. يومئذ تحدث أخبارها.. وأنا عشقت مصر تلك السافلة العمياء الجاهلة القذرة الوسخة الرائعة الجميلة القلب معشوقتى فى الصباح والمساء.. هل خدعت الشباب بحبها وأنها أم الدنيا وأنا لست أولهم؟.. هل علمت الشباب عشقها الذي كان خطأً؟.. أنا قلت لهم إن لبن ثديها نقي وتقي.. ثم وجدت اللبن دًما ورائحة قذرة ممزوجة بطعم القهوة المرة، وجدت جيشًا من عبيد ورعاع أو شعًبا من العبيد يحب الانحناء والتملق.. وعرفت بعد النكسة كم نحن سيئون كشعب.. سيئون نحن كقادة.. سيئون نحن كسياسيين.. سيئون نحن كمدرسين.. سيئون نحن كبشر..

فى شقة سكنت مع الشباب الذين صدموا بالنكسة، شباب جامعى، أمى حاولت ردى للبيت لكن الصدمة كانت أكبر؛ لم أطق البيت.. ذهبت إلى مقر اتحاد الطلاب وجدت ناهد حجازى تنتظرنى.. ناهد بنت ١٧ سنة أجمل بنات الإسكندرية، وابنة ضابط جيش.. قالت:

- ما بك يا فتحى؟
- تعبان.. أحتاج إلى أن أخرج من خطيئتى عارًيا إليك.. يقبلنى جبينك الطاهر.. نتوحد.. نتوضأ بالحب...
- ما وجعك؟.
- الوطن.

وددت أن أضمها، أن أبكى على صدرها؛ فوقعت على الأرض مجهشًا في بكاء مرير.. لو كنت يا مصر آخر أنثى فى العالم لن أنحنى وأركع على ركبتي لك.. لو كنت مطرًا سألهو تحت رذاذك وأخلع ملابسى لأبتل بعطرك.. لو كنت ياقوتة سأقتنيك وأشعل أصابعى شموعًا وقناديل كى أحميك.. لو كنتِ كلامًا سأرسم بك صفحات عشقى وعلى جبين الناس سأرسمك أحرفًا من نور وأفتديك.. لو.. لو..

بعد أن عدت للوعى لم أجد إلا سيلًا من الفواتير الخاصة بالاتحاد لتوقيعها.. وقعت كالأعمى كنت أشعر أن معظم الفواتير مزوَّرة إما من الطلبة أو المشرفين على الاتحاد لكنى لابد أن أوقعها..

ماذا جرى لقلبى وقلبك وعواصف الأشواق خائفة منا تدمرنا؟.. ماذا جرى للوطن الذى خلع سرواله فاكتشفنا أنه ليس ذكرًا ولا أنثى، بل وهمًا وشبح مقبرة؟.. ماذا جرى حبيبتى لى؟.. صرت على الأرصفة ملكًا للتأمل والمعرفة فى أمة تبحث عن الأرغفة مفلسًا من المال.. وفى حرب الاستنزاف وبعيدًا عن العيال وقريبًا من الأضرحة، ماذا جرى؟.. غابت الدنيا ومدينة النور فى عينيك يا ناهد سكنت، وأحلامى على نهديك بين الحلم واليقظة حائرة.. ماذا جرى حبيبتى وأنا وأنت فى المستقبل منارة رائعة.. آه يا ناهد مثل البحر أنت تشدنى أمواجك أحب البحث عن المجانين فى الكتابة لأشبع عطشى للمستحيل

***

كانت فيفيان تنتظرنى فى مدخل الجامعة وعندما رأتني قالت:

- أنت فتحي بتاع الصحافة والشعر اللى فى المجلة؟

فيفيان مسيحية مصرية الأب، أمها لبنانية شقراء مثل الصباح الذى ليس له اسم وأشعة الشمس على شعرها تميل وتتألق فلا تعود للسماء، ولا تنزل على الأرض بل تستقر على كتفيها.. فيفيان ضوء الزرع والنماء أنثى لا تتكرر إلا بصعوبة فى الحياة.. تقابلنا

فى محطة ترام رشدى فى الإسكندرية فى شارع سوريا الذي تقع فى نهايته كافتيريا يمكن أن نمارس فيها الحب الخفيف، والتي يمكن فيها أن أقبلها بقلب محطم..

أهفو إليك بقلب مشتاق أشعر بالاحتراق لبعدى عنك بقلب يحمل كبرياء النبلاء والفرسان أرفض الانحناء إليك وأحاول أن أخترق قلبك أى اختراق بقلب لا يحمل لكساًرا.. أغفو على سيرتك وخيالك مع أنى فقدت ظلى أثناء البحث عنك بقلب المدن والفصول والماء والجذور، أحن إليك بقلب عصفور يطير فوق الحقول أبحث عن وردة لأهديها إليك.

قبلتها من خديها من شفتيها تورمت الشفتان.. شفتا فيفيان رقيقتان كأنها خلقتا من أجنحة الفراشات أو ورق الورد أو همس البحر..

خرجنا من الكازينو.. ظهر أمامنا فجأة أخو خطيبها، لاعب مصارعة وحديد صرخت هى:

- رحت في داهية..

كان بغلًا طويلًا عريضًا رأسه رأس حيوان من القرن الحجرى.. فوجئت أنى على رصيف محطة ترام رشدي، والناس حولي، خدي متورم قميصي مليء بالدم فضيحة بجلاجل لرئيس اتحاد الطلبة الثوري النوري الكلمنجي الذي يدعونا للتغيير.. في اليوم التالى اتصل بي الأخصائي الاجتماعى، وقال:

- عاوزينك في رعاية الشباب في الوزارة..

ذهبت.. قالوا:

- اتصلت بنا جهات أمنية تتهمك بمحاولة إقناع فتاة مسيحية للدخول في الإسلام بسبب علاقة عاطفية بينكما..

- لم يحدث.. ممكن أروح الكنيسة أكلمهم.. أنا أحب فيفيان!!

ولماذا اختارتني أنا تلك الساحرة من وسط كل الشباب؟ كما أنه ليس لدي عشيقة والقلب فى خواء

الوطن الحقير نسي أسماء الشرفاء بحجة ألزهايمر.. أما أنا تذكرتك اليوم فجأة حينما كنت ترقصين عارية وترتجفين تحت الغطاء، وعندما كنت تبكين تحت قدمي عندما تشعرين بالذنب بعد وقوعك في الخطيئة.. وعلى الجانب الآخر نسيت الورد الذى زرعته فى قلوب البنات حينما كنت خطيبًا في الجامعة، ونسيت البندقية التي تركتها في عقول الشباب في معسكرات: أبي قير، وحلوان، ووادي النطرون، وتركت كل النساء دون وداع من أجلك أنت..

لم أودع فيفيان، وسافرت إلى لبنان وسحبت ورقها من الجامعة.. فيفيان الجميلة.. الرقي والحلم والحزن في لون عينيها الأخضر فضاء.. عيون فيفيان، شعرها وحنانها.. ليست لأشواقها ضفة بل رحبة الضوء والإحساس.. عيونها بهما حكمة عيسى وكنائس الرهبان.. عيونها لا تعرف الكذب وتحتقر السفهاء من الشباب.. عيونها تطلق الشتائم على الأغبياء من يبعثون لها بكلمات.. أتنهد في أنفاسها.. جاءت إلى الجامعة لتلقي لي ببعض كلمات الوداع.. قالت لأمها وأبيها:

- **أود أن أذهب للحمام**
- **لا تغيبى**
- **حاضر**

جاءتنى فى الكافتيريا، اتجهت حيث كنت أجلس مع بعض الزملاء والزميلات.. وجدتها عند دخولها تقبلني بعينيها تعانقني برموشها.. عيون كالحلم جاذبة جذابة..

- **فتحى**

تركت الجميع إليها

- **فتحى**
- **روح فتحي.. قلب فتحي.. عيون فتحي.. نعم**
- **أنا رايحة بيروت عند خالتي..**

تلك اللحظة كانت عيونها تحرقني بالشوق تجذبنى هل أضمها في الكافتيريا؟.. ارتدت نظارة سوداء لتحجب الدموع.. آه يا عينيك.. عيناك تلوماني لأننى سأكون بعيدًا عنك.. مشت.. خطوة.. خطوتين.. ثلاثاً.. عادت إلى فتحي دامعة الخد والقلب

- فتحى عدني ألا تنساني.. وإن مررت ذات يوم على بيروت سيأتي بك قلبك إلي وسيأتي قلبي بي إليك..

مشت واختفت تدريجيًا، كأنها ملاك ضوؤه يختفي في ظلام الأيام. أفقت على صوت ناهد حجازي:

- شايفاك قلبك بيتقطع وأنت بتودعها

(انشقت الأرض وظهرت ناهد)

- تعالي اشربي معايا قهوة سادة يا ناهد..

مشت معي إلى إحدى الطاولات وجلسنا لنشرب قهوة سادة.. أحلم بالقاهرة والنيل والمساء وكوبرى قصر النيل وشارع جامعة الدول العربية ونادى نقابة الممثلين، وهواء القاهرة الغريب.. القاهرة غير الإسكندرية لها عشق خاص ومسك الهواء فيها غير.. القاهرة سحر وساحرة.. أحن إليها الآن كما أحن إلى الهروب إلى الخليج.

الفصل السادس

وأى عشق عشقك يا سهر

"لو كانت الحرية ثلجًا لنمت في العراء "

"عمرها ما كانت مشكلتنا مع الله، مشكلتنا مع اللى يعتبرون أنفسهم بعد الله"

من مسرحية "شقائق الشداد"... محمد الماغوط

***

شداد.. هو أكبر التجار ثروة عمره ٤٥ عامًا طويل، عريض، فحل، غبي فى فهم الحياة، ذكي فى جمع المال من كل فقراء القرى.. شداد يأتى للقرية كل عام لكن هذا العام وبالصدفة وحدها شاهد "سهر" تمر من أمامه بضفيرتين الأولى ضفيرة للشمس والأخرى لليل، ولفحه عطرها فصاح وسط الجموع:

- من هذه؟؟ ابنة من؟

قالت ميثاء الفلاحة العجوز الماكرة

- نها ابنة سلمى

- ا اسمها؟

- سهر".. حبيبة القمر

دهش التاجر شداد قال:

- أتمزحين معي؟.. حبيبة القمر، وصديقة القمر، حتى لو ابنة الله أريدها.. متزوجة.. أو مطلقة أو... أريدها بأى ثمن؟؟

- يا شداد دعك منها.. إنها طفلة بنت١٧ سنة..

- أى ١٧ سنة أيتها العجوز المجنونة. انظرى لها جيدًا، لقوامها لنهديها، لخصرها.. إنها مكتملة الأنوثة. إنها تساوى إناث كل القرى التى حولنا. من أبوها؟ اسمه، عنوانه، أين يسكن أبوها؟ ماذا يعمل؟

- لا يعمل.. لديه قطعة أرض صغيرة يؤجرها للفلاحين..

- كيف يعنى؟؟

- أبوها محارب قديم وعنده قطعة أرض ورثها عن أبيه يؤجرها

- كيف يكفيه أن يأكل ويعيش.. من إيجار قطعة أرض صغيرة؟.. أريد أن أقابله فى الحال.. أين المختار؟؟

شداد يشترى التفاح وهو على الأشجار قبل الحصاد، والنساء اللائى يشبه نهودهن التفاح، ويشرب ملعقة كل يوم من خل التفاح، ووجه أحمر كالتفاح..

دخلت "سهر" حجرتها.. خلعت ملابسها قطعة قطعة.. انتشر العطر فى أرجاء الحجرة.. مدت يدها في الدولاب لتحضر ثوًبا نظيفًا للنوم سمعت صوت أبيها فى خارج الحجرة يصيح: "أين سهر"؟.. فوجئت أن العصفور يقف على السرير يراقب جسدها.. انخلع قلب العصفور عندما شاهد جسدها المرمرى المنحوت بيد القدر.. خبأ العصفور عينيه بجناحيه خجلًا!!.. ذهبت إليه عارية، وفى يدها قميص النوم، وقالت له وهى تبتسم بتعجب: "أنت مرة ثانية؟"

حملته في كفها.. ذاب العصفور خجلًا، وانكمش رأسه بين جناحيه، ثم أجابت أباها بصوت عال:

- نعم يا أبى أنا هنا أنا قادمة..

أخذت العصفور وارتدت ملابسها وخرجت..

ما سر هذا العصفور الذى يطير ويلازمها من مكان إلى مكان؟.. ما سر ملاحقته لها؟.. ما سر هذا الكائن الخرافى التكوين؟.. كانت تخافه أحيانًا وتقلق عليه حين يتأخر فى الحضور والظهور.. ما سر الملازمة وقلقها عليه؟.. النهار لا يعرف سر الليل، والليل لا يعرف سر النهار.. أمور غريبة..

شداد تاجر فاجر يشترى ويبيع كل شئ ألم نعلم أن التجار أعداء الله يسرقون أموال الفقراء والعامة ...وخاصة نساء الفقراء ..

***

"سهر"

الليل سكون.. الليل مجون واسترخاء..

يا قلبى بدأت وحيدًا، وانتهيت وحيدًا كتبت كإنسان جريح

الليل شقاء للمحرومين من العشق، وأي عشق عشقك أنت يا "سهر" ..

النجوم تهمس للقمر حبيبتك "سهر"..

والعصافير ترى أن العصفور تحول قلبه إلى عاشق للبشر

وخاصة قلب "سهر"..

وقلوب الشباب فى قرية سهر معلقة على نافذتها قناديل صغيرة، والعجائز من الرجال يتحسرون على شبابهم الضائع، ويسألون نساء هم دومًا عندما يتذكرون عطر "سهر"؛ فيقول الواحد منهم لزوجته:

- أوووف.. غيري عطرك يا امرأة..

ضمت "سهر" العصفور الشقي إلى حضنها، ونامت، ونام الخبيث للمرة الثانية في فراشها.. سينام بين النهدين.. ويشم العطر ويسكر.. ويحلم..

لم تدر "سهر" أن فى عينها حلم وحكمة لم تولد في النظرات بعد، ولم تدر أن عطرها قد سحر شداد وهو الليلة لن ينام.. شداد عيونه كالبصقة عيون كاذبة باردة فارغة.. القرية أكثر احترامًا من المدينة في العلانية، وأكثر فحشًا في السر، وأكثر فقرًا من المدينة في العلانية، وأكثر ثراءً فى السر.. أكثر طيبة من المدينة في العلانية.. وأكثر شرًّا فى السر..

في تلك الليلة وفي الديوانية، وعلى مصباح كهربائي ضعيف، جلس أبو "سهر" مع أمها وابنتهما الكبرى "سوسن" التي لم تكمل تعليمها لضيق ذات اليد، وهو يشرب "المتى".. "سوسن" قررت أن تتعلم القراءة والكتابة فقط.. عيون "سوسن" شقراء وأحيانا سوداء وأحيانا رمادية.. بطن سلمى يهبها الله إناثًا جميلات غير إناث الجبل.. جلست سوسن مع أبيها وأمها يشربون "المتى" ويضحكون.. تحكي "سلمى" لزوجها عن نساء القرية،

وهو يحكي لها عن رجال القرية، وسوسن تحكي لهما عن بنات القرية.. أما "سهر" في حجرتها مع أحلامها..

كانت "سهر" أوفر حظًا من أختها سوسن؛ إذ قرر مدير المدرسة تعليمها مجانًا دون الرسوم الرمزية.. كان المدير يسكر من عطرها.. كان يراها نورًا في كل يوم في الطابور الصباحي، وكان المدرسون يحضرون لها الكتب مجانًا على نفقتهم ويتبارون في إحضار الأدوات المدرسية لها: كراسات، محايات، مساطر، أقلام رصاص، كتب.. ويعرضون عليها مساعدتهم.. كانوا يتبارون في الأناقة من أجلها.. ويتنافسون على تدريس فصلها.. الرجال الذين لا يشمون رائحة جواربهم النتنة في أرجلهم.. كيف يشمون عطر النساء؟ وتسألني عن خيانة النساء للرجال..

كاظم مدرس اللغة العربية هو الوحيد الأعزب وفكر في أن يتقدم لخطبتها.. لكن ماذا سيقول أهل القرية عنه.. قد يتهمونه بالجنون لأنه أقدم على خطبة تلميذته.. هل ينتظر عامًا آخر أو عامين؟؟.. هل من الممكن أن تتزوج من غيره؟؟.. هل هي تحبه؟؟.. مليون سؤال يحاصر كاظم؟؟

آه يا "سهر".. حتى أتمكن من شفتيك عليَّ أن أعبر بحورًا.. حتى أتمكن من أن أرسم على نهديك سأصعد جبالًا وأعبر جسورًا.. حتى أتمكن من قلبك أحتاج سيف روميو، ورمح دونجوان.. أحتاج ليلة القدر وصوم الليالي العشر حتى أتمكن من جسدك ألف ليلة وليلة، وأحتاج مأذونًا وشهودًا، ومهرك ألف أغنية وألف كتاب عشق حتى أتمكن وأنا الممكن وغيرك لا يوجد بالإمكان حتى أتمكن منك لن أكون.. وبك أكون أو لا أكون..

آه يا "سهر".. فليس من أحد مثلي ومثلك.. أنا وأنت حرب عشق في السر والعلن؛ فليس من أحد ساحر يخطف قلبك في جيبه حين يذهب قلبي للسباحة مع القمر.. وليس من أحد مثلي يعرف غناء النخيل والقمر، وليس من أحد مثلي ينثر على جسدك الحنين أنين الشوق.. وليس من أحد غيري يجمع كفيك شفتيك نهديك خاتمًا في إصبعه..

آه يا "سهر".. ألقيت عليك حرفين من حروفي.. صرتِ حبي.. ألقيت عليك ثلاثة أحرف صرتِ عشقي.. ألقيت عليك أربعة أحرف صرتِ هيامي.. ألقيت عليكِ خمسة حروف صرتِ جنونى.. ألقيت عليك ستة أحرف صرتِ وجودي

آه يا "سهر".. فتحت لك القلب والنافذة والباب لكنك لم تأت ولم تسكنيه.. ذهبت إليك لم أجدني، وانتظرت منك الجواب يا "سهر" ولكن ظل انتظاري بلا جواب.. بلا جواب.. يا صدفة تهزنى بلا منطق بلا تمهيد أنا روح تعبر التاريخ أنا سر التنهيد.. أنا مهزوم من كل الاتجاهات لأنهم يعلمون أن بوصلة اليقين عندى وروح البصيرة يا صغيرتى يا صغيرة.. لك الصباحات والمساءات والهناء لك البهاء والصفاء؛ فبينى وبينك وجع الفضلة والخوف من اليقين.. ما عاد لى ولك فرصة فقد قتل الحراس أحلامنا وسرق الحزن أفراحنا.. ألم أخبرك أن سرى فى سورة الرحمن، ونون والقلم وما يسطرون، وعينيك والسر المكنون.

***

كاظم ينظر لها كلما مرت أمامه ويرتبك، وعنما يدخل الفصل ينظر لها ويتعذب، وحين يراها تحدث البنات وتضحك يشعر أنه وحيد بعيد..

وحيد أنا بلا سند ليس لي صديق إلا المطر والطرقات وأزهار الحدائق والمقاهي التي يهرب الرجال إليها من أسر النساء.. آه لو كنت يا "سهر" أنثاي.. آه لو كنت معي؛ لحولتك قنديلًا وبحرًا وياقوتة وملاكًا، ولبقيت أمارس معك الحب ليل نهار.. أنت حدائق الحب المعلقة وبها ورود من كل لون وطعم ورائحة.. يا فاتنة سأسبح في قبلة من شفتيك.. أمتص عسل الشهد ألف ليلة بالهمس واللمس.. سأدخل تحت جلدك.. روحك.. قلبك.. ألف ألف ألف ليلة.. وآه من شفتيك اللتين تذيبان القلب وتبعثان في الروح نشوة.. أيا فاتنة يا بعيدة عني وأنت في القلب ساكنة.. تعالي اجمعي أحلامى وابعثى نورًا في روحي الساكنة..

بعد الحصة الأولى وقفت البنات حول الأستاذ كاظم ماعدا "سهر" نادى عليها:

- "سهر"
- نعم أستاذ
- يا "سهر" لو واجهتك أى صعوبة في أى شيء لا تترددي في سؤالي.. أنا مستعد أن أساعد أى واحدة منكن..

أقول الحقيقة لن أنحنى أمامك.. سأقبلك وأرفعك بيدي فوق جبيني وأضمك حين تودين احتضاني.. بين السماء والأرض بك أطير.. بوطن يأكل زهور البنفسج حين تجف ويشرب من ثدي الياسمين.. لن أقبل يديك إلا في سريري وأفرش البحر تحت قدميك حين تسبحين وأصلب الماء والهواء إن داعب جسدك بشبق الذكور.. وأشق في صدرك نهر حبي بثورة العشاق وجبران وابن الرومى..

أشتاق لشرب القهوة معك وارتشاف قبلة مع كل رشفة.. أشتاق أن أهمس خلف أذنيك بحكايا الحياة والتاريخ والحضارة.. أشتاق أن أجعلك سمائي وصبحي ومسائي.. أشتاق لثياب السهرة المفتوحة ورموشك المجروحة.. أشتاق إلى شرب العرق والقلق والسيجار وكتابة الأشعار على نهديك.. أشتاق والشوق قاتل خانق.. أحتاجك الليلة وغدا كموج بحر وزلزلة الحب بهدلة وبلبلة.. أشتاق بلا تردد وبلا سؤال أن ننهي تلك المهزلة..

ضحكت البنات شعر بالخجل.. قال بهدوء ناعم:

- دلع البنات ما بحبه كل واحدة تروح صفها

مشت البنات إلا "سهر".. ظلت تراقبه هائمة وهو يبتعد بخطواته البطيئة

"كاظم" هو معلم اللغة العربية.. يعيش حالة وجد تجاه سهر.. كل مساء يشرد فى حالة لا يعرفها ولم يمر بها بشر.. آه يا سهر.. سأسكب عليك بعضًا من عطري ووهجي وقبسة نور من حوريات الجنة اقتبستها من السماء وأدعك تسبحين في بحور حناني ومن شفتي سترتوين ومن سيول حنينى، وأعطيك قطعة خبز من السيد المسيح، ورشفة ماء من كف محمد صلى اله عليه وسلم، وقطعة لحم أهداها لي موسى، وعطرًا تعطر

به الحاكم بأمر الله، وأمحو من ذاكرتك ركام زمن الحب المغشوش، وأريك كيف ترتفع السيوف لعشقك في المساء دون خوف أو خجل..

سهر.. تعلم أنه يشرح الدرس وطوال الحصة عيناه في عينيها والبنات يثرن ضجيجًا وصخبًا وحقدًا وحسدًا ولهوًا وعبثًا وخاصة "وردة" ابنة المختار "بسام"..

"كاظم" في داخله حنين ورسالة إلى "سهر" تحملها إلى عينيها بمشاعر الأستاذ العاشق.. اتركي الآخرين وتعالي إلى أحضاني وافرشي لي زهور بستاني.. اتركي الآخرين يرقصون على جثة الوطن ولملمي أجزائي المبعثرة.. متورط أنا في عشقك متورط حتى النخاع .. اتركي الآخرين وامرحي على كفي.. على صدري.. على أوراقي وأحرفي وفراشي.. واتركي الآخرين يكفرون، أما أنت فصلي للوطن ولي كل صباح. لا تخشي شيئًا.. لا تخشي؛ فالورد فى المساء من حبى لك يغار ويترك البستان ويمشي..

لأول مرة في المدرسة يهتم عم "فالح" البستاني بالزهو لأنه يريد أن يهدي "سهر" وردة كل صباح.. كانت البنات تغار رغم أنهن جميلات مثلها.. لكن الكل كان يسأل ما سرها؟؟.. لم يفهمن أن السر يكمن في عطرها.. كانت ضحكة "سهر" مع زميلاتها وروحها المرحة مثل الصباحات الربيعية التي تلقي عليهن البهجة..

نامت "سهر" ونام العصفور بين نهديها في حضنها.. والعصافير التي في أوكارها على الشجر المقابل لبيت "سهر" تحسد العصفور اللامنتمي العاشق لأنثى من البشر على استحمامه كل ليلة بعطرها..

بينما كان يجلس "سالم" أبو "سهر" في مضيفة البيت ممددا ساقه التي عليها نيشان الشرف من الحرب ويشرب "المتى".. دق الباب دقة دقتين ثلاثاً.. هب واقفًا على مهل صائحا: من؟

- أنا المختار "بسام" أتيت ومعي التاجر "شداد" جئنا للزيارة نشرب عندك كاسة شاي أو "متى"..

- آه أهلاً وسهلاً.. الشاى و"المتى" موجودان

قامت سلمى تهرول إلى الداخل وتغطي شعرها.. فمازال "سالم" يغار عليها كأنها لا تزال ابنة عشرين حين فر حاملًا إياها هربًا من الأعداء الفرنسيين خوفًا من أن يغتصبوها.. شعر أنه هزم فرنسا العظمى لأنهم لم يلمسوا شعرة من سلمى.. الفرنسيون يعشقون نساء العرب وهو لم يدعهم يلمسونها؛ فكان يبرم شاربه.. لقد هزم الشر وهرب بها إلى هنا عن طريق الجبل من لبنان إلى سوريا..

فتح سالم الباب (ززززززززززز) الباب مزلاجه قديم.. وجد أمامه خادم المختار بسام القصير يقدم له سلة فاكهة هدية

- شو هذا؟
- هدية من من المختار إليك قال لى وديه لدار أبو سامى وأنا عبد المأمور
- طيب

أغلق الباب

بسام المختار القصير المكير الذي لا يتوارى أبدًا عن فعل أي فاحشة في السر وخاصة مع النساء الأرامل والمطلقات وأيضا اللائي سافر أزواجهن إلى العمل بالخارج، بحجة أنه يرعى النساء المكسورات الجناح والمغلوبات على أمرهن وكان يراودهن عن أنفسهن، ويرواغهن ويدللهن ويشترى زجاجات عطر لهن من الشام ويشترى علب مكياج ومكاحل، قال المختار بسام لـ"سهر" عندما شاهدها:

- يا بنت

لم ترد عليه، كانت عائدة من المدرسة، كاد عطرها أن يصيبه بالإغماء.. سألها:

- بأي عطر تتعطرين يا بنت.. ما اسمه؟
- ... ...
- يا بنت؟
- ... ...

اقترب منها، وهو في حالة من الصدمة لأنها لا تجيب عليه وقال هامسًا:

- عندي مكحلة كانت ملكة بلقيس تتكحل بها موجودة في مسكني في الجبل احتفظت بها لأجمل امرأة.. ما رأيك لو جئت معي إلى الجبل وتكحلت بها وأعطيتك إياها؟ ولكن لا تقولي لأبيك ولا لأي أحد.. هذا سر بينى وبينك..

نظرت له نظرة احتقار ومشت.. قال صائحا:

- بعثت لأبيك سلة فواكه من أجل عيونك

فاجأه ابنه راغب بمجيئه وسأله:

- يا أبى ماذا تقول لـ "سهر"؟؟

ارتبك المختار.. تحدث راغب غاضبا قائلًا:

- أنا أريدها زوجة لى.. ابتعد عنها، وابعد رجالك عنها. أرجوك يا أبى أنت المختار تتمناك كل النساء.. وتحصل على من تشاء منهن كل البنات الصغار والكبار يخفن منك ويحترمنك.. أنا لا أريد كل النساء أنا أريد "سهر" فقط.. أريدها أن تكون قمر ليلي وشمس نهارى وصوتًا حانًيا يدفئ الدار.. يا أبى أنت تحصل على كل شيء وأى شيء اترك لى شيئًا واحدًا فقط هو "سهر"

نظر له المختار بغيظ وحنق، وقال والدم يتفجر فى عروق وجهه:

- آه يا ابن الجزمة.. أنت تحبها.. تحب "سهر".. ولماذا "سهر"؟.. اختر ما شئت من البنات سأزوجك إياها.. أى بنت.. أى ست.. مطلقة، أرملة ولكن سهر لا..

حاول راغب أن يحدّث قلب أبيه، لكن قلب الأب حجر، كما حاول أبو موسى الأشعرى أن يحدّث قلب "عمرو بن العاص" فى التحكيم بين "على بن أبى طالب" و"معاوية بن أبى سفيان" ففشل.. مثلما حاول أن يحدث أهل الأسرى فى الكويت قلب الأمير جابر بأن يذهبوا إلى "صدام حسين" للإفراج عن أولادهم؛ فرفض.. فشل راغب.. فشل أبو موسى الأشعري.. فشل أهل الأسرى.. كما فشل المتنبى أن يحدّث قلب كافور الإخشيد..

كما فشل يزيد ابن أمه أن يأكل قلب الحسين بعد قتله.. فشلتُ أن أكون من أهل الحب يا "سهر" وأحمل لك وردة وأنجب منك ولدًا؛ فحبك بينى وبين أبى هو الخطر.. نعم هو الخطر.. نظر إلى أبيه بضيق صرخ: "آه"

- ما بك يا ولد.. جنيت؟

- آه

- ما بك يا ولد؟

- اترك لى "سهر".. اتركها لى.. خذ كل نساء العالم وامض بهن إلى فراشك، ودع لى "سهر"..

تركتهما "سهر" يتشاجران وسارت بعيدا.. بعيدا.. بعيدااااااااا

الفصل السابع

هذا وطن الأحزان

فتحي رضوان خليل

سأصارع حتى الموت بحر اليأس حتى وأنا أغرق مع الوطن.. مصر والأمة العربية بكت ونامت تئن ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧ يوم أعلن عبد الناصر أننا هزمنا.. سوريا جريحة، والأردن فى وجع.. كل العروبة جريحة.. العروبة وهم أم حقيقة؟؟.. فلسطين وهم أم حقيقة؟ إسرائيل وهم أم حقيقة؟ كل شيء وهم فى الحقيقة؟

بكى نزار قبانى، وبكى الشعراء والأدباء، وبكت الجماهير البسيطة العبيطة.. نحن نبكى مثل النساء أو نحن بكاء فى صورة إنسان.. لا نملك إلا البكاء.. البكاء رحمة من السماء.. البلاد العربية ليست بلادًا حقيقية أما إسرائيل هى حقيقة.. إسرائيل هم أولاد العم وهم أكثر منا شراسة وأكثر منا قسوة.. نحن من دم واحد، ورضعنا من ثدى واحد.. نحن وهم واحد.. لنا اسم واحد فى التاريخ اسمه الكراهية التى تنتشر فتصيب المسيحيين والبشر الآخرين من الهندوس.. آه ما أقسى الإنسان ذي القلب الحجر..

سافرت إلى الإسكندرية بعد مبايعة عبد الناصر فى ٩ يونيو ١٩٦٧ فى القاهرة، وفى محطة القطارات كنت حزين القلب مثل قلوب كل البشر.. توحد صفير القطار مع دقات قلوبنا الحزينة، صار دقة واحدة..

آه.. يا ابن رضوان أين تذهب فى تلك الدروب؟؟. النكسة يعنى هزيمة.. تعنى الحقيقة.. لا جيش لدينا نحن العرب.. جيش مصر وسوريا والأردن والعراق كله وهم.. وهم.. وهم لا مفر.. أنا من ضيَّع فى الأوهام عمره.. عام ١٩٦٧ فارق..

على سلم الكلية قابلت ماجدة السمراء سمار الوادى، نوبية من أجمل بنات النوبة، إنها ملكة هربت من قصر أبيها ملك النوبة وجاءت من كتب التاريخ.. جاءت لى هنا فى الكلية.. قالت ماجدة:

- أنت فتحى رضوان خليل

توقفت.. توقف كل كل شيء فيَّ.. ما هذا الجمال؟.. عيونها بريئة.. عيونها متمردة تثنى على إعجابا عيونها شباك على القلب.. اقتربت منها وسألتها:

- من أنت أيتها الحورية؟

ضحكت.. تركت الكلية وأخذتها معى إلى محل "أتينيوس" فى محطة الرمل نشرب القهوة على البحر.. بحر الإسكندرية داعر وفاجر وبرىء وحقير وجميل وغادر وساحر.. أخذتها إلى مطعم "سيد درويش" فى محطة الرمل لتناول الغداء، محل خمس نجوم، ثم أخذتها إلى شقة صلاح.. مفتاح شقة صلاح معى، والتي تقع فى شارع متفرع من شارع الإسكندرانى.. بمجرد دخولنا الشقة انطفأ النور علينا.. أووووه.. لا أعرف أى مكان فى الشقة؟؟ لا مكان الشمع أو الكبريت!!.. الدنيا برد.. كل ما أعرفه أن ماجدة معى.. سحبتها من يدها أتحسس الطريق وجدت ما يشبه المرتبة.. هذا يكفى لكن هذه المرتبة على الأرض ليست على سرير.. لا يهم.. يقال أن الشهوة أم الاختراع .. تحسست وجهها وقبلتها.. قبلة الظلام ليس لها عنوان لا ترى عين من تحب لا ترى وجهه وهو يضيء أو يتورد خجلًا ويشع فجراً.. آه فى البرد أحتاج إلى قهوة سادة، وإلى حضن أنثى، وإلى سيجارة، وإلى وردة، وإلى لحم طرى يغطينى.. يدفئنى.. ينسينى أنثى ليس لها مكان إلا فى جنة عشقى ولا يعرف قدرها إلا ملك على قلوب النساء مثلى.. أحتاج أنثاى فى البرد والقهوة السادة قبل وبعد المضاجعة.. النكاح كلمة تشبة الكفاح.. تشبه الأرواح والسفاح والجراح.. نزلنا من الشقة.. الظلام دامس سلم البيت ضيق.. قالت واحدة من السكان:

- مين اللى نازل على السلم الواد قورة
- نعم
- أمال فين أمك يا قورة؟
- مش عارف

ونزلنا إلى شارع الإسكندرانى..ضحكنا كثيًرا كثيًرا كثيًرا..أنا وماجدة

قالت ماجدة:

- الوليه فكراك الواد قورة .. ماعرفتش صوتك ولا لثغتك

ركِّبت ماجدة التاكسى.. وركبت أنا الترام إلى بيت صبرى وكيلى فى اتحاد الطلبة.. جلست فى غرفة المكتب.. راح صبرى يرحب بى قائلا:

- أعملك قهوة سادة يا ريس..

- يا ريت يا صبرى، جماعة الرحلات عاملة معاك إيه أنت خربت لى ميزانية اتحاد الطلبة يا صبرى

ضحك.. مشيت إلى مكتبته الصغيرة فى غرفته.. وجدت مذكرات محمد فريد صفحة ١١٨ طباعة الهيئة العامة للكتاب.. كتب محمد فريد: "سعد زغلول، نشأ فقيرًا وتعلَّم بالأزهر بدون أن يتمم تعليمه أو يحصل على شهادة أى إجازة بالتدريس، ثم اشتغل بصفة كاتب عند "حسين بك صقر" المحامى أمام المحاكم القديمة قبل الحوادث العرابية، وكان يلبس لباسًا بسيطًا بلديًا ويأتى مع مخدومه إلى منزل المرحوم والدى بشارع الباب الأخضر المسمى الأن بشارع فريد باشا، وفى السهرة كان هو (سعد زغلول) يحمل الفانوس أمام مخدومه لينير له الطريق فى الذهاب والإياب ويجلس (سعد زغلول) مع الخدم، ثم استخدم كاتبًا فى جريدة "الوقائع المصرية" على ما أتذكر.. بعد الأزهر عمل "سعد زغلول" محررًا بالوقائع المصرية مع الشيخ "محمد عبده" وكتب مقالتين فقط طوال فترة عمله إحداهما بعنوان غوائل الفقر (العدد ٩٦٧ فى ١٨٨٠/١١/٢٢) والثانية بعنوان الأقدام (العدد ١٣١٩ صادر فى ١٨٨٢/١/٢٨)

ولمَّا دخل الإنجليز مصر اتهم بالاشتراك فى جمعية سرية اسمها جمعية الانتقام، وحُبس واضطهد مع "حفنى بك ناصف"، و"أحمد أفندى سمير"، و"أحمد أفندى على"، الذى كان بالأوقاف وداسه الوابور فى محطة قليوب ولم يخلص من الحبس إلا بمساعى المستر "بلانت" صديق المصريين. ولما أنشئت المحاكم الأهلية سنة ١٨٩٣ اشتغل أمامها بصفة محام، وكانت المحاماة وقتها كالبرقاء بلا شهادة لعدم وجود العدد الكافى من الدارسين وحاملى الشهادات، فنال فيها شهرة واسعة باستقامته وفصاحته. وكان له صداقة متينة بالأميرة ناظلى هانم المشهورة، وكانت لهم اجتماعات عندها يحضرها

المرحومان: "قاسم بك أمين" والشيخ "محمد عبده" وغيرهما. وبسبب هذه الصداقة ومساعى الأميرة لدى كرومر، عين سعد بك (وقتها) مستشاراً فى الاستئناف وهى حادثة لم يسبقها ولم يعقبها مثلها. ومما يؤثر عنه أنه درس اللغة الفرنساوية وعلم الحقوق وأدى الامتحانات المؤدية إلى الليسانس أمام كلية باريس أثناء وجوده بالاستئناف، وسبب ذلك أن "أحمد باشا عفيفى" زميله احتقر رأيه فى أثناء المداولة فى إحدى البرقيات، وعيره بعدم دراسته القانون.

من المعلوم أن الشيخ "محمد عبده" وإخوانه كان من رأيهم الاستعانة بالانكليز على نوال بعض الإصلاح ولو أدى ذلك لمعاداة الخديو، بل لتضحيته، ولذلك لما أراد كرومر أن يظهر بمظهر المساعد للحركة الوطنية بتعيين رجال النشأة الحديثة بالوظائف العالية، اختار سعد باشا لأن يكون وزيراً للمعارف وعرض تعيينه على الخديوي فى ١٩٠٦ أو سنة ١٩٠٥.

***

دخل صبرى يحمل القهوة قائلاً:

القهوة السادة يا ريس

- تخيل.. سعد باشا زغلول زعيم الأمة بدأ حياته مع بك مشهور "حسن بك صقر" يحمل له مصباحًا ويحمل حقيبته، ومن جاور السعيد يسعد، عرَّفه البك بالشيخ محمد عبده، تعرَّف من خلال "الشيخ محمد عبده" على "قاسم أمين" الذى عرَّفه على الملكة ناظلى، وأصبح محاميًا ووزيرًا.. تاريخ الوازرة والشهرة والزعامة يبدأ بالخدم، إنك تكون (خدام)، وعلشان كده أنا شايف يا صبرى إن عبد الناصر معظم اللى حوإليه فقدوا شرعيتهم فى ثورة يوليو بعد النكسة ولم يختر ولا واحد منا نحن شباب الثورة، لذلك نحن خارج السياق، نحن صعاليك الشوارع نملك الحلم، والأحلام فى بلدنا تداس بالأقدام..

نزلت إلى الشارع، تحت رزاز مطر الإسكندرية

بعد فترة طويلة وجدتنى لا أستمع إلى أذن البشر بل إلى قلوبهم ومعظمها خرساء وبعد فترة طويلة لا أمكث فى جلسات النميمة ولا أجهد نفسى فى جمع المال فما من ثروة إلا ومعها شقاء..

وبعد فترة طويلة اكتشفت أن لا قيمة للحياة دون الله ولا دون نساء..

وبعد فترة طويلة وجدتنى فى حيرة من أين يأتى الرزق والحظ والألق وراحة البال والعشق إلا من السماء..

وبعد فترة طويلة وجدتنى بلا حيلة أمام نور الكلمة وأمام ورقة بيضاء..

***

٥ يونيو ١٩٦٧ هربت "بطة" مع "شكير".. بكت أمها العجوز أم بطة.. "بطة" صارت عانسًا وصلت سن الأربعين. "بطة" تسكن أمامنا فى بيت دور أرضى مع أمها.. "بطة" جارتنا بيتها بجانب بيت المحبش.. أمها زرعت تكعيبة عنب.. عشش العنب على بيت "بطة"؛ فلم يستطع "المحبش" أن يراها أو يراقبها.. "بطة" لم يتقدم أحد للزواج منها.. جاء "شكير" بائع الساكسونيا يشترى كل شيء قديم مقابل بيع أدوات المنزل حلة طاسة طبق ألومنيوم.. الألومنيوم يغزو مصر وهو جيد.. أما العامل مبيض النحاس كاد يجن من الألومنيوم لأن مهنته مهددة بالانقراض.

***

كاظم..

أنت قمة الشهوة والارتقاء

فى البيت.. يدور ويدور مسجونًا بالعشق مسجونًا بعطر سهر..

سأل زميلاتها البنات:

- أى عطر تستخدم "سهر"؟ ما اسمه؟

أجمعوا أنها لاتضع عطرًا، بل هو رائحة من السماء فى جسدها..

آه يا "سهر" اشتهينى حين يختفى معنى الرجولة من الرجال، واشتهينى بينك وبين نفسك حين تشعرين بالبرودة من الحياة.. اشتهينى شهوة الأميرات والعذارى للفرسان.. واشعلى شمعة فى ظلام قلبك المنكسر من أشباه الرجال.. اشتهينى نايًا، ونارًا وإعصارًا، وهبوط وصعود السارى فى مراكب العشاق.. اشتهينى جنًّا أو ملاكًا يخطفك من سريرك فى الليل، ويعود بك فى الفجر، ويترك على نهدك زهور التفاح والياسمين.. اشتهينى قيثارة، ونورًا، وبرجًا.. أسرارًا، وحلم فنار.. اشتهينى؛ فأنت قمة الشهوة والاشتهاء..

آه يا "سهر".. تؤكد الوقائع والدلائل أنك قمر وسحر وشواطىء فتنة وأحيانًا مطر.. تؤكد الوقائع والدلائل أنك حلم غريب عائد من بلاد لسانها العربى الفصيح نسى الحروف وترضع الناس الخوف.. تؤكد الوقائع والدلائل أنني أمشى على زفير وشهيق النساء إذا اشتد بى الوجع.. تؤكد الوقائع والدلائل أن حبى لك ممنوع فى كل الأحوال والظروف لكنى إذا غضبت عليك سأتمتم عليك تعويذة تصيرين وردة أضعها على قميصى فوق صدرى باقى العمر فلا يراك أحد سواي..

آه يا "سهر".. رأيتنى أقرأ عينيك فيمر شريط ذكريات العشق فى رأسى.. رأيتنى أقرأ فى كفك حنان كل النساء حتى حنان أمى.. رأيتنى أقرأ فى صوتك موسيقى بيتهوفن وشتراوس وسيد درويش والرحبانية وموسيقى العشق الخفية أغانى أهل الجبل والشام.. رأيتنى أقرأ بقلبى وأذنى وهمسى ولمسى، وأنت غائبة عنى رأيتنى أقرأ وما أنا بقارئ إلا الصدق وموج البحر والمحار والسحر والأبنوس والماء والأمطار وحمم البركان وزلزلة عينيك التى تصيب الرجال ورعد صوتك بالرقة والشفقة حين تسألين عنى.. رأيتنى أقرأ وأنا جاهل أمى لأنى فى أمة الأغبياء.

***

"سهر" صورة مدرس العربى"كاظم" فى مخيلتها، وهى تداعب شعرها فى الفراش ممددة والعصفور بجانبها على السرير..

***

دق الباب على بيت سهر.. فتح أبوها الباب للمختار

قال "سالم":

- تفضل..
- معي التاجر "شداد"
- اتفضلوا

دخل "شداد"، أربعون عامًا، رجل طويل عريض له شارب كثيف ويرتدى معطفًا وغطاء رأس عربيًا يقيه من البرد، وقال بصوت مزعج أجش:

- مساك الله بالخيرات عمى "سالم"

دخلا.. قال المختار:

- إحنا جايبين زيارة بسيطة

دخل ثلاثة عمال أحدهم يحمل قفصًا مليئًا بالتفاح، وآخر يحمل قفصًا مليئًا بالزيتون، وثالث يحمل لفة بها قطع قماش وحلويات، وقالوا:

- أين نضعهم؟

نظر أبو "سهر" بهدوء مقاتل بطل فاز على فرنسا ولم يهزمه البرد ولا الجبل وقال للعمال حاملي الهدايا:

- هنا عند الباب.. ضعوا الأقفاص

وقال لنفسه: "لن يشتروا عقلي وقلبي وشرفي بقفص"..

كان المختار "بسام" فرحًا أن تخرج "سهر" من القرية وتتزوج "شداد" وسيقبض الثمن أوتومبيلًا فرنسيًا كما وعده "شداد".. هو يعلم أن أباها رفض طلب ابنه "راغب" من قبل حين أرسل بعض الناس لجس النبض، وحاول مرة أخرى لنفسه أن يتزوجها هو، وأرسل وسطاء وفشلت المحاولتان.. آه.. لو دخلت "سهر" بيته وتزوجت ابنه، ونامت في أحضان ابنه فستكون كل ليلة عذاب وشجن له.. معقول أن ولده سوف يحصل على

"سهر" حبيبة القمر ويتحسسها ويشم عطرها، وأنا على السرير في الغرفة المجاورة أنام مع بواقي النساء أم "راغب"، كره ابنه "راغب" عندما أبلغه برغبته في الزواج منها.. كره كل من يفكر في الزواج منها، وكان لا يعرف كيف يستولي عليها.. هل ينتظر أن يموت أبوها؟؟.. أو يموت أخوها؟.. أو تموت العائلة في حادث وتبقى يتيمة ويتزوجها أمام الناس بحجة أنها يتيمة ووحيدة؟

كان حلًما يراوده في يقظته كلما رآها تمر من أمامه، وحين تمر يظل الحلم يطارده طوال اليوم ولا يعرف كيف يتخلص من عطرها إلا إذا بحث عن أنثى ومارس معها الجنس، ولكن كيف يبعد ابنه عنها؟؟.. لابد وأن يموت ابنه "راغب"أيضاً في حادث أو فجأة.. آه لو كان العالم ينهار كله فجأة ويموت كل البشر إلا "سهر".. ساعتها أتزوجها بلا قلق.. لن تطاردها عيون الرجال العطشى بالشبق.. وعطرها سيكون لى وحدي.. سأشمها أنا والشجر والجبال والبحر والثلج في الشتاء والنسيم في الصيف والسحاب والمطر.. العالم أنا فقط و"سهر"

قال "سالم":

- أهلا وسهلا

قال المختار "بسام":

- "شداد" أكبر تاجر بيشتري منا زيتون وتفاح وعنده معصرة للزيتون وعنده وعنده وعنده وعنده وعنده وعنده وعنده....

قال سالم بتحفز وقلق:

- خير إن شاء الله

قال شداد بصوته الأجش:

- أنا فكرت أنك يا سالم تبقى شريكي ومسؤول عن الاتفاق مع المزارعين هنا.. تتفق وتدفع عربون وتحجز محصول الزيتون..

مد يده في جيبه أخرج رزمة رزمتين ثلاث رزم من الفلوس.. أربع.. خمس و.. ونقوووود غطت الطاولة.. نقود.. نقود.. نقود..

لم يندهش سالم.. كانت نظرة المحارب البطل في عينيه لم يهتز له رمش.. ولا وتر في قلبه أو خياله عزف على لحن المال.. قال سالم:

- والطلب الثانى؟؟
- "شداد" يطلب إيد بنتك "سهر" قالك نبقى نسايب
- "سهر" ليست الكبيرة لابد من أختها سوسن أن تتزوج قبلها الأصول

فكر المختار في الأتوموبيل الفرنسى، وتبول الشيطان فى رأسه بفكرة.. صاح:

- أزوج سوسن بنتك لابنى راغب..

قام سالم جبلًا شامخًا ينهض وصاح:

- أنت عندك آلاف الآلاف وعندك وعندك وعندك وعندك صح

دهش الرجلان؛ قال سالم:

- أنا عندي وسام ونيشان من الحكومة السورية، وعندي نيشان من عند الله أدخل به الجنة (وعرى ساقه اليمنى حيث الرصاصة) انظر.. أنا تغلبت على الفرنسيين في الجبل حاربتهم مع سلطان باشا الأطرش والشيخ صالح العلى.. فاهم.. افهمنى أنا عندي بارودة قتلت بها اثنين فرنساويين اغتصبوا جارتنا اهى.. (اتجه إلى الحائط وسحب البندقية وصوبها نحوهما؛ خاف الرجلان) شو جايب فى القفص تفاح وزيتون وشوية شراطيط (قماش).. (فتح باب البيت وألقى بالأقفاص خارجه) أنا ما أحط شرف بنتى ولا كرامتى فى أقفاص انقلعوا اخرجوا من بيتى.. البنت لسه عمرها ١٧ سنة..

خرجا مهرولين، خافا من البندقية، والرجل وجهه يحمر.. يخضر.. يصفر..

صاح وهو على الباب:

- ابنتى ستتزوج من رجل يسافر بها إلى بلاد الذهب.. سترحل من الجبل.. ابنتى عشقها القمر.. اسألوا العرَّافة "شهرزاد"

أغلق الباب خلفهما..

الفصل الثامن

لا تحلمى يا روحى بالمستحيل

"لا تحلمى يا روحى بالمستحيل قبل أن تستنفدى الممكن"

"ألبير كامى"

***

فتحى رضوان خليل

مر قلبى فى شوارع الحب لم يجد اسمه ولا عنوانه.. هل الحزن خطف ذاكرة الحب من قلبى؟ أم أنت حبيبتى أخفيت عنوانك وعنوانى؟...

جلس فى حمَّام الشقة التى يقطنها مع أصحابه الطلبة: شعراء وأدباء ومطربين وحثالة النكسة.. كان يقرأ فى صبر وعجب.. تذكر أباه الحاج رضوان، قوى البنية، قوى الصوت جبار.. عاش الحاج رضوان خليل يتيًما وهو لم يكمل سن الثالثة، وفى الثالثة عشر أو قبلها بكثير أطلقه جده فى سوق العمل، يعمل فى كل المهن بلا كلل أو ملل.. فرضت عليه القسوة من الحياة.. عاش مثل كل المصريين البسطاء، إلا أنه لم يشرب الخمر أبدًا.. لم يلعب القمار أبدًا.. لم يزن أبدًا..

أبى وطن من اليتم والكفاح.. أتذكر الآن أنه شرب مرة واحدة فى حياته خمرًا حين أصيب بمرض السرطان، ولم ُيعرف تشخصيه، وقال له بعض الأصحاب خاصة المعلم مدبولى صاحب القهوة المجاورة:

- عندك برد يا حاج فى كليتك.. اشرب براندى تخف..

شرب زجاجة براندى صغيرة، ولم يشف، ولم يتحسن، وشعر بالذنب كثيًرا لأنه خالف أوامر الله.. كان يود أن يشرب الخمر فى الجنة.. كان.. يكون.. كن.. فيكون.

كان إذا صفع رجلاً على وجهه يغمى عليه فى الحال.. يكون دوًما رجلا فى مواقفه، وكان نادًما في أعماق نفسه لأن فى حياته إحساس مرير دوًما لأنه صفع رجلا مرة فمات فى الحال.. قال له شيخ عارف بالله:

"إن يدك يا حاج مثل سيدنا موسى عندما صفع المصرى على وجهه مات فى الحال. والله غفر له.. وسيغفر لك إن شاء الله"

تهتز الأرض تحت رجل الحاج رضوان فتنسى الأرض الزمان.. أبى يتشاجر بلسانه وصوته المهاب، ويخاف أن يغضب أو يصفع أو يضرب وإذا غضب أمسك العملة النقدية الفضية وضغط عليها فيمسح كل ما بها من كتابة فى الوجهين.

يشرب الشيشة بغزارة.. والتمباك (ورق الدخان الخام يأتى من تركيا).. والسيجار إذا وجد فى طريقه.. كان يخشى الله، ويتحدث معه ليلاً ونهارًا بصوت عال أمام الناس.. "يا رب أنت شايف، يا رب أنت عارف، أعمل فى الراجل ده ايه يا رب"

وكأن الله يرد عليه أو يحاوره وجهاً لوجه..وكثيراً ما كان يقول:

- خدنى جنبك يارب تعبت من الناس.

حمل رضوان اسم جنة رضوان وحلماً أبدياً بها فهنيئا لها..

أبى يتحاشى النساء فهن شر وبلاء.. كان يقول: تستطيع أن تجمع مائة رجل فى مكان عمل فيعيشوا فى سعادة وتأتى لهم امرأة واحدة لتصنع لهم الشاي فيتقاتلون.. ذات مرة وهو شاب أعزب حمل كراكيب بيته للانتقال إلى سكن جديد فوجد على باب البيت امرأة تغسل فى طشت فصاح بصوته الجهورى:

- يا ساتر.. يا ساتر

لم تتنح جانبا.. لم تضم فخذيها من على الطشت؛ صاح مرة أخرى:

- يا ساتر... يا ساتر

لم تغط قدميها العاريتين، صاح مرة ثالثة:

- يا ساتر.. يا ساتر

قالت بصوت ناعم:

- ادخل يا معلم

قال للعربجى وهو يحمل الكراكيب الدولاب والسرير والطشت:

- ارجع بينا يا ابنى..

ورجع ولم يسكن فى البيت..

وفى صباح ليلة تطليقه لزوجته الأولى، جاءت الجارة له بكوب الشاى بالحليب ودقت عليه الباب.. خرج من البيت ولم يعد له وأرسل ابن خالته "خميس النقاش" ليحمل أثاث بيته إلى شقة أخرى وهرب منها.. أما سنية العايقة امرأة جميلة ترتدى ملاية لف وتأتى

على باب المحل وتحمل كيسا من البونبونى أو الطوفى، وتقدمه له.. سنية لها سن ذهب فى فمها.. تقول:

- حلى بقك يا معلم عاوزين نتحلى بيك.
- أنا متجوز بنت صغيرة تأكلك بسنانها لو اتجوزتك..
- يا معلم مفيش ست بتأكل ست.. لا تخاف علّى..

يحلم أبى رضوان خليل بالكعبة والجنة فقط وباقى الكون يفنى.. لم أفهم سر أبى فى هروبه من النساء.. مات وسره معه.. هذا القوى العفى الذى مات مبكرًا، وأنجب ثلاثة عشر ولداً وست بنات.

أصدقاء أبى غرباء، أولهم الخواجة ميمى (اجريجى) يونانى، لحَّام أكسجين فى سن الأربعين، أعزب، ولد فى الإسكندرية من أبوين يونانيين، يتكلم كالإسكندريين (ويشخر فى لحظة الغضب) ويحرك إصبعه الوسطى وذراعه مثل أهل الحوارى.. يقول الناس عنه: "خواجة صايع مصرى" إلا أن الغريب كان يجلس ميمى أمام أبى كطفل وديع، مع أنه كان أكبر سناً من أبى..

أما الصديق الثانى كان الخواجة نيكولا إيطالى، ميكانيكى، يتحدث المصرية بطلاقة، وكان يحب السيارات والنساء فقط.. يعمل فى السيارة كأنها أنثى كلما اتسخ جزء منها يمسحه فى الحال..

أما الصديق الثالث المعلم "منعم" حداد أبواب وشبابيك، كان طويلاً عريضًا.. يخاف من أبى كثيرًا، وكان أطول من أبى بحوالى ٢٠سم، مع أن أبى كان طوله ١٧٠سم..

الحاج رضوان خليل يرش بماء البحر الدكاكين ليكون الرزق وفيرًا.. أهل الإسكندرية جزء من البحر، والبحر ينسى أسماءهم، ويجدد الموج قلبه بالنسيان..

بجوار دكان أبى، الخواجة يوسف الترزى اليهودى، وكان يحب أن يتسامر مع أبى كثيرًا حول كل شئ فى الدنيا، وخاصة عن الخواجة ميمى، وأنه لابد أن يتزوج من إجريجية ويتلم.

أما الأستاذ سعيد "الفراش" فى مكتب الصحة بشارع النبى دانيال، كان يعمل قوادًا عند الخواجة ميمى، لأن ميمى غير قادر على عمل علاقة سوية فلابد من الاستعانة بمومس ليسد الحاجات البيولوجية، وسعيد يتودد إلى أبى ويستخرج شهادات الصحة للعمال فى دكان أبى..

أرى الخواجات فى نظافة دائمة: فى ملابسهم، فى عملهم، أما المصريون فكانوا لا يهتمون بالنظافة كعادتهم، وكنت أشعر بالدونية؛ أنا من شعب عفن يحب العفونة والعشوائية؛ ففى الإسكندرية وفى أرجاء مصر فى كل مكان زبالة وقذارة.. الإسكندرية أكثر البلاد نظافة فى مصر كلها بسبب الأجانب المقيمين فيها اليونانيين والإيطاليين والإنجليز والفرنسيين.. ومن جاليات كثيرة.

يغسل أهالى الاسكندرية ذنوبهم فى البحر، ولكن البحر لا يغسل ذنوبه أبدًا...

أبى يحب الجلوس مع الأجانب ولا يحب الجلوس مع المصريين، إلا المعلم منعم الحداد، والحاج مرعى صاحب محلات الخضار، وكذلك المعلم حمودة البنَّاء.

تتحرش النسوة بأبى لما له من صوت نافذ؛ فهو دافئ وعنيف سواء فى البيع والشراء أو فى بيتنا ذى الخمسة أدوار، وعندما يدخل إلى أول سلم البيت يصيح بصوت عال: "يا ساتر" ثلاثة مرات، حتى تدخل النسوة من على البسطة التى أمام الشقتين فى كل دور.. تحاول كل أنثى إلقاء التحية عليه وهو صاعد على السلم، بأى حجة، وهو يحاول أن يهرب من لقائهن.

على سطوح بيتنا تربيت وأنا طفل ٥ سنوات ولعبت مع البنات عريس وعروسة كى أخلع سروايلهن وأرى أعضاءهن الأنثوية..

يا أيها العابرون على ذكرى طفولتى ألقوا عليها الورد والابتسام..

فى البيت يحب المعلم رضوان خليل الجلوس مع المعلم حمودة البنَّاء.. حمودة ٥٥ سنة طويل يرتدى جلباباً بلدياً.. يلبس الطربوش.. تزوج أربع مرات.. زوجته الأولى لا أحد يعلم عنها شيئاً.. زوجته الثانية نعمة كانت طويلة ممشوقة القوام، بيضاء، غضة، نضرة

مثل الفاكهة أو الفراولة التى تغويك بأن تشمها أو تتذوقها.. تزوجها وهى بنت سبعة عشر عامًا وأنجب خمسة أولاد وبنات، وماتت فى سن ٢١ سنة فجأة.. قيل إنه مرض السرطان أو مرض ما نادرًا ما يأتى للنساء.. أما زوجته الثالثة "تجية" كانت أقل جمالاً من "نعمة" تزوجها وهى بنت ١٦ سنة.. أنجب أيضًا خمسة أولاد وبنات.. واختتم مسيرته الزوجية بفتاة صغيرة من الصعيد "فاطمة" كانت قد جاءت من الصعيد مع أبيها الذى يأتى ضمن وفود الصعايدة الذين يهربون من الجوع والموت والانتظار والصبر إلى الإسكندرية بحثاً عن المال والحياة، إلا أنها أنجبت ثلاثة أولاد وتركتهم وهربت.

حمودة مأساة عشوائية كثيرة التواجد أو نموذج متوفر فى كل شارع أو حارة فى مصر المنحوسة.. أقصد المحظوظة.. أقصد المحروسة..

أبى يحب صوت نجاة الصغيرة بلا سبب وورثت عنه هذا؛ فقلبى يتفتت حين أسمع صوتها أو صوت فيروز إلى ألف وردة أمام حنان ورقة الصوت..

أبى الحاج رضوان خليل لم يسافر إلى القاهرة طوال عمره فقد مات وهو فى سن الثانية والأربعين.. انحصر عالمه فى الإسكندرية: البحر، الميناء، الخواجات.. كره عبد الناصر بشدة بسبب طرده للأجانب خاصة أصحابه الأجانب.. كان الفقراء يقفون أمام محلاته صفوفًا ليحصلوا على وجبة مجانًا من أبى.. أبى يكره ثورة يوليو ورجالها؛ لأنها خلعت محمد نجيب، يكره الإنجليز لأنه شاهدهم يغتصبون المصريات بقوة وبقسوة.. وشاهد انكسار الرجال عندما يضع العسكرى الإنجليزى قبعته على الباب حتى لا يدخل الزوج المصرى أثناء وجود الجندى معها فى العمارات الكبيرة المجاورة لمحل أبى.. هكذا يحكى لى.. كان الحاج رضوان خليل يحب النحَّاس باشا بلا سبب.. كان قلبه ينثر على الفقراء حنانًا بسبب وبدون سبب!!.. النحَّاس باشا استولى على مدرسة ابتدائى، وحولها إلى منزل خاص به فى جاردن سيتى أمام منزل فؤاد سراج الدين باشا ونقلوا الطلاب إلى مدارس مختلفة، وللأسف لم يعرف أبى هذا!!

وفى طريق أبى إلى الحج راكبًا جملًا، ذهب إلى المساجد الصغيرة فى مكة والمدينة وكان ينظفها من الوسخ فى دورات المياه.. كان همه أن يكون المسلم نظيفًا.. ومنذ أن زار السعودية عام ١٩٣٣ كان همه أن يحمل كل حاج مصرى حقيبة بها ملابس وطعام جاف لأهل مكة والمدينة والفقراء هناك.

حاول حمودة أن يقنع أبى بالهجرة إلى سوريا بعد الوحدة عام ١٩٥٨ أبى قال:

- أنت بتقول ايه يا حمودة.. أهاجر فين؟؟؟ سوريا!! كل الذين هاجروا زبالة المصريين من الناس

هكذا كان يظن عندما رأى أرزل الناس سافر

(قال عبد الناصر: لقد استطعت أن أبنى السد العالى وأنظم قناة السويس، ولم أفلح فى تنظيم مستشفى قصر العينى، أو العلاقة بين المصريين والسوريين فى الوحدة)

حمودة يأكل أذن أبى كلما جلس معه.. كان يرص الكلام كما يرص الطوب فى البناء؛ فأرى أبى مستسلًما له تماًما، وكلها مشاريع فاشلة مثل عمل محمصة بجوار مشاريعه أو مطعم سمك او يشترى بيوتًا ويؤجرها.. لم يصبح أبىمقاولاً ولم يصبح حمودة ثرياً.. وكان يستطيع أن يقنع أبى أنه يفهم فى كل شئ..

كل شيء مباح فى زمن العسكر والحلم الثورى يا قرة عينى لم أفهم الفرق بين الثورة والعورة، وأبى كره الثورة وظنها عورة، وأنا تهت بين الحلم الأبيض واللون الأسود فى كحل عيون الفلاحات..

وصاحب أبى فجأة المعلم "إبراهيم القماش" السمكرى.. كان فى الخمسين أكبر سناً من أبى، مهذب بشدة.. أعزب.. لم يتذوق لحم النساء، أو يقبلهن.. هكذا كان يقول لأبى.. وكان أبى يريده أن يزّوِجه بأى شكل.. لكن إبراهيم القماش كان مغموساً فى الميراث الذى ورثه عن أبيه وأمه.. أراض كثيرة فى سيدى بشر وميامى والريف.. كان الأعراب فى سيدى بشر يستولون على أرض القماش بوضع اليد..

فى مصر.. العشوائيون يسيطرون على الأراضى فى كل مكان، لدرجة أنهم استولوا على الأرض التى حول مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة وسدوا الطريق فى الدخول والخروج للمسجد، وعندما فكر أحد ولاة مصر فى عصر الاحتلال العثمانى أن يذهب إلى مسجد عمرو بن العاص فى صلاة العيد.. قالوا له لا يمكن الدخول لجامع عمرو بن العاص حتى بحصان فردى، لأن كل العشوائيين احتلوا الأراضى فلا أحد يدخل أو يخرج إلا قليلاً منهم؛ فأتى بشيخ الأزهر، وقال له: "تصرَّف".. فأفتى شيخ الأزهر فتوى دينية تقول: "كل البيوت التى حول جامع عمرو بن العاص بناها الشيطان وسكن فيها مع الناس.. فمن هدم بيته قتل الشيطان، وبنى الله له بيتاً فى الجنة"؛ فقام كثير من العشوائيين بهدم بيوتهم، فأفسح الطريق للوالى لصلاة العيد.. والطريف فى الأمر أن شيخ الأزهر أيضاً أفتى أن من دهن بيته باللون الأبيض فى العيد أسكنه الله فى الجنة قصرًا لونه أبيض؛ فقام المصريون حول جامع عمرو بن العاص بدهان البيوت باللون الأبيض.. مصر عشوائية.. أنا مصرى.. إذًا أنا عشوائى.

الفصل التاسع

آه من شفتيك اللتين تذيبان قلبى

فتح كاظم كراسات المدرسة التى يصححها وفتح كراسة "سهر" وأخذ يشم الكراسة كطفل يشم رائحة أمه:

"معقول أنا أعمل هيك؟.. معقول أنا أعشق تلميذتى؟.. أنا فى مدرسة البنات وهى حدائق الحب المعلقة وبها ورود من كل لون وطعم ورائحة يا فاتنة سأسبح فى قبلة من شفتيك أمتص عسل الشهد ألف ليلة بالهمس واللمس وأدخل تحت جلدك وروحك قلبك ألف ألف ألف ليلة، وآه من شفتيك تذيب القلب وتبعث فى الروح نشوة أيا فاتنة يا بعيدة عنى وقريبة منى"

وضم الكراسة إلى صدره

وأنت فى القلب ساكنة تعالى اجمعى أحلامى وابعثى نورًا فى روحى الساكنة

آه يا "سهر".. مهما يكن من الأمر الحب قدر ولا مهرب منه ولا مفر.. ومهما يكن من الأمر سأمحو من ذاكرتك كل الرجال وتاريخ عشقك البسيط كسنبلة، وسأرسم وجهك بفجر عشقى فلا تعرفى غربيا من شرقى، ولا حضورى من غيابى، ولا جسدى من ظلى، ومهما يكن من الأمر سأرسمك على سقف قلبى وأتمتم عليك تصيرين عشبة أضعها فوق سريرى، ومهما يكن من الأمر سأحلم بك فى اليقظة والنوم والبوح والهمس، ومهما يكن الأمر إن بعدتِ يومًا أسبوعًا..شهرًا، فإنى فى بحر عشقك كل موجة وفى قلب كل محارة لى قلب لؤلؤة لك..

آه يا "سهر".. وتداعبنى الحروف وتخلع فستانها حتى العرى أهدهدها حتى تلين لى فأمتطيها كخيل ترمح فى صحراء الفكر، وتداعبنى الفكرة الجميلة الفاتنة فأنكرها فتتوسل لى عارية فأدعوها على العشاء مع أحرفى العارية فأصير أمام عاريتين جميلتين اتفقتا علّي لأنام بينهما على سرير الأوراق.. وتداعبنى الورود فى الفاترينات وأنا رجل معجون بعشق الياسمين.. ويداعبني المطر كى أدق عليك الباب ويدفعنى الريح كى أدخل فى أحضانك لتدثرينى وتداعبينى حبيبتى.. آه يا "سهر"

***

جفل الحمام الذى كان على شجرة أمام بيت "سهر" حين أطلق والدها صوته أمام الدار: "أنا لا أباع ولا أشترى بالمال".. طار الحمام وحط على نافدة "سهر" ليشم عطرها وعلى صوت هديل الحمام فتحت عينيها، ونظرت للحمام الذي يريد أن يدخل لينام في أحضانها مثل العصفور المكار؟؟ حمام.. لكن النوم لمس جفنيها، فأغلق عينيها وراحت في حلم مع القمر..

أيها الراحلون إلى قرية "سهر" أعلم أنكم قادمون ليس لشراء الزيتون بل لتكحلوا العيون وتشموا وتعيشوا من عطر" سهر".. العشق فى عينيها ليل ونهار ورياح ونسائم وشجن.. أحذركم أن عشقها وعطرها وسحرها خطر؛ فلا تقتربوا من دارها أو طريقها وهى تحمل سلة التفاح وكتب المدرسة فإن قلوبكم تتحول إلى ثمر فى سلة عشاق "سهر"..

الاسم: كاظم بن ابراهيم بن الويلى..

الوظيفة: مدرس اللغة العربية فى مدرسة "سهر"

تململ طول الليل وطار قلبه ونام قلبه على شباك "سهر".. السحر والليل والقمر والعطر هو "سهر".. العجائز فى القرية يحلمون بها قبل الشباب

***

ليلة سوداء مرت على رأس المختار بسام أبو راغب ضاع فيها أمله في الأوتومبيل الهدية الذى كان سيحصل عليه إدا أتم صفقة زواج "سهر" من شداد أكبر التجار .. المختار علق عينيه على سقف الحجرة..

خرج شداد من القرية.. وقلبه القاسي محطم لم ينس ذلك العطر الذى شمه.. ولم ينس ابتسامتها للهواء والسماء والشجر.. كانت مثل الملكات لا تهتم بالبشر...

آه أيها القدر من أين اتيت لى بـ "سهر"؟؟

أما المختار بسام فلم يتحمل ليلتها حتى أصابع أم راغب على كتفه العارى.. كأنها أشواك جبلية فصرخ فيها:.

- جسدى لا يتحمل.. نامى وما تتحركى يا امرأة..

لقد ضاع حلمه.. "كُتب عليَّ الشقاء وكثرة الأعداء من السفهاء والأغبياء والضعفاء والبحث كل صباح ومساء عن بشر شبه رجال أو شبه أذكياء.. كُتب عليَّ الشقاء والبحث عن أنثى لم يات بمثلها القدر هى "سهر".. كُتب عليَّ الشقاء وحب الجميلات من النساء، وبينما نامت "سهر" في فراشها فى أحضان العصفور بلا قلق.. كان شداد فى الفراش حتى الصباح فى قلق..

خرجت "سهر" فى الصباح إلى المدرسة تحتضن الكتب والحلم بالسفر، فى الطريق قابلها راغب ابن المختار وهو يركب موتوسيكل بثلاث عجلات، ووقف أمامها قطع عليها الطريق. تلعثم، التفت خلفه. قفز قلبه وشهوته على لسانه فانطلق مبتسما برعشة

- صباحو

... ...

- الصباح لله

... ...

- أنتي شايفة نفسك على إيش ؟؟ لقد فرحت أمس أن أباك رفض زواجك من التاجر شداد ..

وقفت نظرت له أصابتها الدهشة.. تقطب جبينها وردتين صغيرتين بلون أحمر.. لم تخبرها أمها فى الصباح بشئ.. لم يحدثها أحد عما حدث أمس فى الدار.. لم تكن تعلم بما حدث أمس، وكيف انتقل الخبر إلى راغب؟.. سارت ولم ترد.. سار راغب بالموتوسيكل خلفها خطوتين محبطًا، لم تكلمه، لم ترد عليه، لم تتجاوب معه، كأنه سراب وليس آدميًّا أو بشرًا.. ود أن يختطفها ويصعد معها الجبل. راغب وأسرته يعيشون فى السهل وأبوه مختار القرية.. كلها تحترمه حتى كل البنات يتوددن إليه.. ويعملن له ألف حساب، هو ابن المختار الفتى الأشقر الوسيم المدلل تعشقه كل البنات إلا "سهر" عشيقة القمر، ولكنه يشك فى أبيه، ويعلم أن أباه يأخذ النساء الأرامل والمطلقات والغائب أزواجهن إلى الجبل سرا.

الجبل يحمل الأسرار.. الفقراء يسكنونه لأنهم لا يدفعون الإيجار.. أما فى السهل فهناك إيجارات وعقارات وفلوس وحكومة، ووجع قلب. أبوه بنى فى الجبل (غرفة وحّماًما) بيت سرى لشهواته.. لا يريد راغب أن يعرف مكانه احترامًا للأبوة، ولا يريد راغب أن يكشف سر أبيه..

في طابور المدرسة وقفت البنات يضحكن تخرج الضحكات من أفواه العذارى ألحانًا شقية.. تتناثر أنغامًا فى آذان المدرسين، وبينما المدرسات يغرن ويصرخن:

- قفى عدل يا بنت أنتِ وهى..

مر كاظم الويلى من جوار طابور فصل "سهر" يتفحصه، وبينما هو يمر كان يقترب من "سهر" وكلما اقترب من "سهر" تزداد دقات قلبه: دقة لشفتيها ودقة لعطرها يشده سحرها، وكلما اقترب منها حتى أصبح قريًبا منها بخطوتين. عزف القلب نشيدًا.

أنتِ موالى وأشعارى وغنائى وألحانى التى لم أغنها أو التى لم أعزفها بعد.. اقتربى أكثر وأكثر حتى بأنفاسك أغسل أحزانى وأعطر أيامى الحزينة بنور عينيك وبيديك تضمينى فأكون كل الكون.

نزلت سوسن أختها إلى السوق، الفلاحون يأتون بالخضار المتنوع للبيع، وسوسن أنثى جميلة.. تقدم راغب ببطء نحوها راغباً وقال:

- تتزوجينى يا بنت

نظرت له باحتقار بصقت على الأرض.. مرت "شهرزاد" العرَّافة الرائية الحكائه من جوارهما أنقذت الموقف وصاحت فى وجهه:

- يا ابن المختار بسام روح شوف لك شغلانة غير الجرى وراء البنات.. سأكلم أباك..

جذبت يد سوسن ومشت بها:

- قولي لأمك تجهز لى كاسة متى وقولي لأختك "سهر" أريدها فى كلام كثير بيني وبينها..

نظرت سوسن لها بغيظ قائلة:

- وأنا أليس لديك شيئا تقولينه لى؟؟
ضحكت العرَّافة الخبيثة عرفت أن سوسن طيبة وجميلة لكنها ليست مثل "سهر" وأنها تغار من أختها... كل طلبات الزواج جاءت إلى "سهر"

***

المكان: فى فصل المدرسة
من حكايا الحب الأول: "الوطن ليس وردة ولا حديقة، الوطن إما مقبرة مظلمة أو جنة"
وقف كاظم أمام الطالبات.. حاول أن يوزع نظراته على الكل سقط رمش من عينيه فجأة فى قلب "سهر".. ارتجفت: "ماهذا؟.. زلزال حدث؟.. ما هذا؟".. شعرت ببرودة أطرافها؛ أمسكت يد زميلتها، وفى كف زميلتها وضعت سرها، وهو أول رجفة للحب العذرى.. الحب الأول.. لأول مرة تشاهد كاظم مدرس العربى.. شاربه الذى به شعيرات شقراء.. وجهه الذى تظهر حمرة الدم فيه.. رباط عنقه الأنيق..
خرجت من المدرسة تحتضن حقيبتها وسلتها ولأول مرة تضم حقيبتها إلى صدرها، وتشعر بدغدغة لذيذة فى نهديها لم تشعر بها من قبل..
كان كاظم ينظر من فوق ربوة عالية على "سهر" وهى تمر من بين الدروب.. أنت يا "سهر" يا جميلتى ستظلك كلماتى فى الطريق تهطل عليك وردًا وياسمينًا.. وشم عطرها من بعيد بعيد حمله الهواء والنسيم، كأنه يلتف حول رقبته مدغدغًا ويدخل قلبه متسللًا بنعومة، لينسج حكاية الحب الأول..
كاظم قُبض عليه من قبل بتهمة الشيوعية.. لم يكن شيوعيًا، هى صدفة أن وجد كتابا فى خزانة أخيه الأكبر الذى سافر فنزويلا منذ سنين.. وجد كتاب "رأس المال" لكارل ماركس؛ أبلغ عنه أحد أصحابه عندما وجده عنده.. خيانة الأصدقاء مستمرة وأمر طبيعى لا يعرفه الأغبياء وعندما سألوه: "هل أنت شيوعى؟".. قال: "لا".. قالوا: "يا بن الكلب اعترف".. ضربوه.. عذبوه.. أهانوه.. وبعد عام أخرجوه من السجن وعمل مدرسًا هنا فى المدينة البعيدة بين الجبل والسهل..

كان كاظم يؤمن بأن المدرس هو المعلم الذى يصنع القائد والشرطى والطبيب والمهندس، وهو الأول فى المجتمع.. قال بعض المدرسين الماكرين أنهم عذبوه فى السجن.. وقال آخرون: إنهم اغتصبوه، وقال البعض إنهم عذبوه واغتصبوه والله أعلم.. قال له الضابط قبل الإفراج بدقائق:

- أنت شيوعى يا ولد؟ قل لى.. ريحنى.. أنت ستخرج الآن.. هل تحب ماركس؟؟
- لا
- تحب من؟؟
- جمال عبد الناصر
- من سيء لأسوأ خليك أحسن شيوعى يا ولد..

الوطن ليس وردة ولا حديقة.. الوطن إما مقبرة مظلمة أو جنة.. الوطن إنسان ومشاعر.. آه يا قلبي المهاجر مع الأحلام، كان الوطن بالنسبة لي في الحلم بستانًا وأمانًا وشجرة زيتون وشجرة أرز، الوطن حنان، آه يا أنشودة الأيام الحبلى بالقصائد المتمردة بالثورة والتغيير وأغاني الأطفال، كان جدك يحلم بأن فؤاد باشا الأطرش سوف يحرر الشام ويحرر الإنسان وتتحقق الأحلام.

كاظم نظر إلى قباء المدرسة وجد البنات يجرين ويلعبن ويضحكن في الفسحة، لكن "سهر" عطرها كان يسير ببطء ناحية نافذته عندما اقتربت وهي تجري مع البنات إلى ركن قريب من نافذة حجرة المدرسين قالت لها إحدى البنات شيئًا ما وهي تشير إليه ضحكتا، شعر بالخجل وأغلق النافذة واحمر وجهه، ترى هل تعلم البنات أنه يحب "سهر"؟ هل افتضح أمره؟ بسرعة أسرع من البرق؟ هل يتجنبها؟ لماذا ضحكت زميلتها؟ وماذا أشارت عليها الملعونة؟

الحصة القادمة هو هناك، من حسن حظه أن مدرس اللغة العربية هو أكثر المدرسين حظًا في التواجد في فصلها، حصة تعبير وحصة نحو وحصة قراءة وحصة خط وحصة إملاء وحصة مكتبة، إنه أكثر المدرسين حظًا في رؤيتها.

قال أحدهم ذات مرة:

- هذا الفصل فيه شوية بنات مشكلة.

لم يجرؤ أحد على تحديد الاسم أو البنت، الكل يتمنى حصة إضافية أو احتياطية حتى يستعرض عضلاته وأفكاره أمامها، وبعضهم يسألها عن اسمها طبعًا بعد أن يسأل زميلتها المجاورة لها وقبلها يسأل الصف الذي أمامها.

الليل في القرية الجبلية جميل يحمل زهور التفاح والياسمين والريحان، الليل إنسان، يقولون أن الليل إنسان أحب فتاة تحولت فيما بعد إلى قمر، جعل الله الليل والقمر يعيشان متلازمين..

وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ

عادت سوسن من السوق في الطريق، قابلت المختار أبو راغب، أوقفها:

- يا سوسن يرضيك ما فعله أبوك أمس؟ الجنة فتحت لكم أبوابها، المعلم شداد تاجر كبير في كل الشام.

... ...

- عندما يغضب المعلم شداد سوف لا يحضر إلى القرية، كم فلاح وتاجر زيتون سيخسر؟ أبوك راسه ناشفة، أنا أحضرت لأبيك مغارة علي بابا وكنزه يأخذ منها ذهب، ياقوت، مرجان. وإذا كان ولابد من زواجك أولا ابني راغب يتزوجك، وإذا لم يعجبك راغب أنا أتزوجك.. ها ما رأيك ؟؟ قولي نعم، سأذهب الليلة ونطلب يدك.

نظرت إليه بغيظ وقالت:

- أبي لا يحب مغارات علي بابا ولا كنزه أبي ليس حرامًيا أبي ليس لصًا.. عن إذنك، عيب أن توقفني في الطريق وتحدثني، أنت رجل كبير ومختار..

نظر لها بضيق:

- ترفضين زواج ابني أو الزواج مني؟ رأسك ناشفة مثل أبيك، لا تنسي أنكم فقراء.. ستعيشون فقراء وتموتون فقراء

نظرت له:

- بي بطل حارب الفرنسيين، وأنت تعاونت مع الفرنسيين..
- إشاعات.. أنا بطل ولو تعاونت مع الفرنسيين لما عينت من الدولة هنا كانوا شنقوني.

تركته ومشت.. تعلم أن أباها فقير، ولكنه يملك قطعتى أرض صغيرتين ويؤجرهما لبعض المزارعين ويرضى بالقليل، ويشعر أنه أغنى رجال القرية والجبل، وأنه أشهر رجالها.. إنه بطل قتل ثلاثة من جنود الفرنسيين وقابل فؤاد باشا الأطرش وصافحه ولم ينس أن الليل لابد أن ينجلي. الكل بالقرية يهابه حتى المختار بسام الذي يتعامل معه بحذر دائمًا، العملاء يحصلون على مكافآتهم من كل نظام لولائهم له بلا حدود.

سوسن تدرك أنها جميلة وأن "سهر" تتميز بأشياء أخرى.

***

دخل كاظم الفصل، نظر إلى البنات وحاول أن يتجاهل "سهر"، شعرت بالحزن، لكن الذي أفرحها وأبهجها أن العصفور الشقي عرف عنوان مدرستها وجدته يحلق في الفناء كأنه يبحث عنها.. دار حول الفناء مرة ثم مرة ثم مرة، طار.. طار.. حتى بدأ يتبع قلبه.. آه من قلب عصفور يبحث عن أنثى من البشر يحبها ويعشقها.. هو يعلم أنها تحبه وأنه حبيبها الذي ينام بين نهديها. اقترب قليلًا من شبابيك الفصول وهو يحوم بجناحي عصفور عاشق تطير تهيم على المبنى، نعم إنه يقترب من فصلها، عيناها تطيران فرحًا وهي تراه بفرح وألق.

كان كاظم يتوقع أن تكون في ذهول أو دموع لأنه تجاهلها هي بينما انشغلت هى بقلب عصفور يطير وتجاهلت قلب بشر حائر.

وقف العصفور على النافذة، قامت "سهر" فتحت نافذة الفصل بسرعة بفرح برئ براءة الملائكة، حدث هرج ومرج في الفصل، دخل العصفور.. قفز على صدرها، صرخت البنات وهاجت وماجت.

صاح كاظم:

- سكوت.. ماذا يحدث هنا؟؟

قالت زميلة "سهر":

- عصفور "سهر" يا أستاذ

تجمعت البنات حول العصفور، وتركن الطاولات، وأصبح كل الفصل حول طاولة "سهر"، رمش العصفور بعينيه خجلًا، كل هؤلاء صاحباتك يا "سهر"، تمنى أن تأخذه بين نهديها وتخفيه عن كل العيون وعن عيون البشر.

وقف كاظم المدرس الشاعر المهذب في لحظة تكاد أن تكون: أسبوعًا، شهرًا، سنة، دهرًا.. لمح قلب العصفور يدق مثل قلبه بعشق واسم "سهر"، قفزت عيناه في حيرة وقلق:

- ممنوع دخول العصافير الفصول ولا الحيوانات

قالت إحداهن:

- هذا ليس حيوانًا يا أستاذ.. هذا طائر

صاح كاظم:

- اتركي العصفور.. ألقى به من النافذة

صاحت البنات:

- حرام يا أستاذ.

***

دخلت سوسن البيت.. ألقت سلة الخضروات على الطاولة.. نظرت أمها في السلة لم تجد قلوب الرجال ولا ورود هدية ولا تحايا البائعين والتجار، كل من يقابل "سهر" يعطيها هدية أما سوسن فسلة هداياها عادية: طماطم، فاصوليا، بصل.. قالت سهر:

- ما بك؟

ثم تنهدت وانفطر الحزن حبات لؤلؤ على خديها:

- أنا حظي في الحياة قليل يا ربي.. يا ربي خذني وريحني.

خرجت الأم من المطبخ في قلق

- ما بك؟.. ماذا جرى؟ ماذا حدث في السوق؟ هل ضايقك أحد؟ هل تشاجرت مع أحد الباعة؟.. تكلمي ما بك؟

أخذت حبات اللؤلؤ تنهار على خديها، هي لها نهدان مثل "سهر" لكن نهدي "سهر" في ألق وزهو وشموخ.. هي تملك شفتين مثل الكرز لكن "سهر" يفوح من شفتيها عطر ما ومن جسدها أيضًا.. هي تملك جسدًا فاتنًا لكن الله قسم جسد "سهر" في لحظة نور فكان كل جزء منمنمات في لوحة الخلاق، قال لها أحد العوجيز ذات يوم: "يا سوسن أختك "سهر" سبحان من خلق قمر ليست من البشر.."

صاحت الأم:

- ما بك؟

دخلت غرفة النوم وأغلقتها بعنف.

الفصل العاشر

وقليلاً ما أحلم

يوسف الخال

سأفتح بابي لك

حتى لا تهجرني

فاهجرني إن شئت!!

عندي الليلة أحلام تصعد بي نحو القول المطرود اللاجئ فوق شفاه عذراء

وقليلا ما أحلم، أحلم بالآيات الصغرى، لا بالكبرى، خوفا من

صوت البحر، فأنا يونان من نوع آخر لا يلعب بالأمواج كما لو كانت

أسنان الفيل.

سأفتح بابي لك

وأنا أعلم أنك لا تهجرني، فاهجرني إن شئت.

عندي أحلام الليلة، أرضى بالأحلام

حتى ينشّق الفجر،

عن قبر دفنوا فيه الأحلام فقامت أحلام

***

في حجرة سوسن.. وضعت رأسها على الوسادة وتساقط الحزن حبات دموع ووجع.. آه يا أمي ماذا أقول لك؟ كل الرجال يسألون عن "سهر".. يتحدثون معي كي يسألونني عنها وعن أحوالها، كل الرجال والشباب والعجائز، ابنتك هذه ما بها؟.. هي تقف أمامي وأمام بنات القرية والجبل.. كل النساء ينظرن إليها بحسد، أنا لا أحسدها هي أختي ولكن ماذا أفعل؟؟.. حتى المختار يريد أن يتزوجني هو وابنه كي يهديها إلى المعلم شداد تاجر التفاح والزيتون. الحزن يا أمى ليس له وطن.. الحزن بحر نسبح فيه والفرح قارب النجاة، وهو كلما جاء كطوافة أبعدته أمواج الألم.. لا شيء حقيقى هنا.. لا شيء يصدق..

دق الباب.. دخلت "شهرزاد" البيت، وجلست فى هدوء.. أعدت الأم "المتى" وقهوة الظهيرة، وعادة تشرب المتى في جلسة الصباح.. الأم فرحة ومتوجسة.. ترى ما الذى أتى بـ "شهرزاد" إلى هنا في تلك الساعة؟.. ماذا تحمل بين ضفتى الغيب؟.. هى تعرف الليل والنهار.. تعرف الأسرار وما يخفى فى قلوب النساء والرجال.. صديقة النجوم وحبيبة الجن الجميل... شهرزاد كل شيء فى كوخها جميل وبسيط ولا يوجد مثله فى القرية حتى أقاربها هاجروا إلى الجبل بعيدًا.. بعيدًا عنها وعن القلق..

سألت "شهرزاد":

- كيف "سهر"؟

قالت الأم:

- ماذا بها "سهر"؟؟

فتح باب الدار ودخلت سهر.. ألقت على أمها السلام.. وجدت "شهرزاد"، ضحكت وابتسمت وقالت لها:

- أنت هنا يا "شهرزاد" أنا أرى نورك يملأ المكان والدرب

ضحكت "شهرزاد".. لمعت أسنانها الذهبية، وكأن الشمس تلمع معها قالت لها:

- القمر.. القمر أنت صديقة القمر حبيبته لا يعرف هؤلاء الفلاحون قدرك ولن يفهموا أبدا سر عطرك يا "سهر"

قالت أمها سلمى:

أعتبر هذا حسدًا أم غزلًا؟؟

قالت "شهرزاد":

- أريد زعتر وزيتوناً وزيت زيتون.. أنا جوعانة

قامت الأم لتجهز الطعام.. جذبت شهرزاد العجوز، "سهر"، وأخذتها إلى ركن وقالت:

- اسمعى يا بنت سالم.. أنت لن يتزوجك ولا أى واحد من الفلاحين.. سيأتى من يأخذك إلى الخارج صاحب علم وفهم ويسافر بك إلى بلاد الذهب وتركبين مركبًا علمها شمس وقمر.. أنت مثل قمر..
- ومن هى قمر؟
- أنت الروح السابعة لها يا "سهر".. التناسخ سبعة أرواح وروحك الأولى كانت قمر، كانت فى مصر، وكانت مثلك تمامًا..

جاءت الأم.. قطعت الحديث، وأتت بالزيت والزعتر والزيتون، وجلست بجوار "شهرزاد"

- ماذا كنت تودين من "سهر" وما الذى أتى بك إلى هنا؟
- شداد رجل ثرى وتاجر.. هذا التاجر يتزوج كل عام من امرأة جميلة.. ويتركها ويرحل، والحمد لله كشفت سره لأهل القرية حتى أنهم سيمتنعون عن بيع التفاح والزيتون له..
- أحسن

فتح الباب الأب سالم ودخل.. قائلاً: السلام عليكم

ردت الأم: وعليكم السلام

نظر؛ وجد "شهرزاد".. رحب بها، وخلع العباءة، ودخل إلى غرفته وجد داخل الغرفة سوسن ابنته، دهش.. لمح الدموع فى عينيها.. سألها وألح فى السؤال:

- ما بك يا بنت؟
- ......

اتجه إلى السرير، وجلس فوقه، وتنهَّد قائلا:

- أعرف الموضوع.. السبب العريس الذى جاء لأختك وأنت لا.. اعلمى الزواج قسمة ونصيب، لم يحن الوقت بالنسبة لك بعد.. اطمئني سوف يأتى نصيبك قريبًا وسوف تتزوجين بأفضل رجل ولن أسمح بالزواج لها من أى شخص قبل أن تتزوجي أنت.. فهمت؟

طبطب عليها.. ربت على كتفيها.. كانت دموع سوسن تنزل على خديها كل دمعة آهة ولوعة وحسرة..

لم يدرك الرجال في القرية أن جسد سوسن أبيض مرمري، وروحها جميلة مثل البلور.. لم يعرفوا أن نهديها تفاحتان لم يمسسهما إنس ولا جان، وأن خديها وردتان جبليتان لا يمسهما إلا الهواء الجبلي النقي العذري ذو الكبرياء.. هل الرجال عميان عن جمال سوسن أم أنهم سائرون نيامًا؟

لملمت سوسن شعرها.. مسحت آخر دمعتين حزينتين.. تتنفس البنات والنساء بالبكاء!!.. خرجت سوسن من حجرة الأب.. لملم الأب سالم حزنه.. كان يود أن تكون خلفته كلها صبيان شباب، لكن البنات يحتجن إلى قلب رقراق وهو شاهد كيف كانت النساء ابتلاء للرجال وعليهم ان يحافظوا على النساء وشرف القرية في الجبل؟؟ وكيف حاول الفرنسيون اغتصابهن حتى يمنعن المقاومة ويمرغن شرف المقاومة فى الوحل؟؟.. لكنه رزق بفتاتين وولدين.. نظر في المرآة وخلع العمامة ولعب في شاربه الأشقر وتنهد.. "آه كبرت بناتك.. وأصبحت في ملقى الرجال وطلباتهم لبناتك.. هذا معناه أنك فى خطر آخر يجب أن تعمل حسابه، وأن تكون فطنًا، وإلا غاب عنك الأمان.. عيناك على البنات، على الأرض، على السوق، على الغلاء، على القرية، على الماضى والحاضر..

آه الحاضر كسول وممل وتعيس.. كان الماضي حيًّا.. كفاح ونضال وتحرر واشتباكات وانتصارات.. الآن الأمور ليست هكذا، أعطوا كل منا نيشانًا ووسامًا وشهادة تقدير، ولا شئ بعدها.. لا شئ حصل.. الجنرالات حصلوا على كل شيء، وأصبحت المقاومة الشعبية فى خبر كان.. تاريخ الوطن فى المقاهي لا يجمعه أحد، وتاريخ الجنرالات فى المدارس تسعة وتسعون فى المائة منه كذب فى كذب والمدرسون يعلمون تاريخ الوطن الكاذب الذى كتبه الجنرالات..

***

جلس كاظم فى الشرفة يشرب الشاى..شاهد عصفورًا يطير فى السماء فى الليل متجها إلى بيت "سهر".. آه يا "سهر" عندما تغفو عيناك على وسادة المساء تتسلل روحى منى وتغادرنى إليك.. إلى روحك.. إلى قلبك.. إلى عقلك؛ كى تحميك من الأحلام المزعجة وتغسل ذاكرتك من عيون الرجال التي تلاحق جسدك كل يوم وأنت تسيرين وتلتصق كالذباب على العسل، وتهدهدك بالرؤى الجميلة وبحكايات السندباد وست الحسن والشاطر حسن.. آه.. لست أنا الشاطر حسن، ولكنى كاظم مدرس اللغة العربية.. أيتها الصبية الهيفاء إن عطرك يلاحقني طول المساء بلا ملل من روحي فأتنفس بعطرك وفى الصباح تعود روحي لي ويعود عطرك إليك.. كلما قرأت القرآن أو الإنجيل أو التوراة عرفت أن الله رب الشعر، وكلما نظرت فى عينيك عرفت أنى بالعشق معجون.. وكلما سمعت صوتك الهادر بحنان كأمواج البحر أقول من أنت يا "سهر"؟ فأنت لا تردين.. ولا يجيبني إلا المطر؟؟ أم الشمس؟ هل أنت الحضور أم ملكة ملكات التاريخ؟ أم رعشة فى الدم؟؟ واشتعال الروح؟؟ أم أنت زهور ارتوت بدم الحسين والمتنبى وبلقيس وكليوباترا؟؟.. أنت شرفة للشهوة تطفئ القلب.. ثمة احتمال أن أدق باب قلبك مرة.. ثمة احتمال أن أنهض نحو الشمس أجدنى متجها نحو القمر.. ثمة احتمال أن أكتب بأصابع يدى وقدمى وأصابع قلبى وروحى.. ثمة احتمال أن أصير برقًا وأشرب من شفتيك ضوءًا، وأعلن أنى قررت أن أكون عطرًا لألمس جسدك كل لحظة دون أن يرانى أحد..

جاء المساء ثقيل الخطوات جميلًا بهمومه بحزنه بقمره بنجومه بحنين خفي كعزف الناي على أوتار وجع خفي.. تحركت الناس تروح وتجيء.. وتطل من شرفتها سوسن وبجوارها "سهر" تراقب الفتاتان الشارع من خلف الزجاج.. المارة قلة، ولكن هذا لا يمنع العصفور من أن يحوم حول البيت يريد الدخول من النافذة، صرخت سوسن:

- ما حكاية هذا العصفور؟

قفز قلب "سهر".. فتحت النافذة بسرعة.. صرخت سوسن:

- ماذا تفعلين يا مجنونة؟؟

- دعيه يدخل حرام
- حرام عليك أنت.. دعيه يذهب إلى عشه.
- عشه هنا.
- هنا أين؟

أشارت "سهر" إلى صدرها وضحكت.. قالت سوسن:

- أنت جنيتى؟

ضحكت "سهر".. اهتز قلب العصفور وريشه رقص.. قالت "سهر":

- انظري يا سوسن

حملت "سهر" العصفور في كفيها.. ضمته إلى صدرها.. شم عطرها، أغمض عينيه فى فرح، وهى تضعه على صدرها بين نهديها

ابتسمت سوسن، ولم تصدق، واستغربت بفتور، وقامت للداخل لتنام فى حجرتها بينما أخذت "سهر" العصفور فى أحضانها وراحت تتمدد على السرير..

كان العصفور يتحدث مع الله: "ربى ورب الناس وكل الناس.. ارفع عنى البلاء، واجعلنى بشرًا أنا لست معترضًا، ولكنى أطمع فى العفو والرحمة والعتق من مكانة العصفور.. أنزل لى آية واجعلنى بشرًا.. اللهم ارفع عنى شقاء عقلى وقلبى من جهلاء العصافير.. اللهم لا تجعل رزقى بين يدى عبيدك البخلاء.. اللهم أسألك أمن نفسى وأن ترحمنى من كيد الأعداء من الصقور والصيادين.. اللهم اجعل صدر "سهر" وطنًا لى غير هذا الظالم، وانقذنى من الظلماء.. اللهم أسألك برجاء اكشف عنى البلاء.. آمين"

***

رائحة التفاح والزيتون والليمون تهب من الأشجار تلفح وجه كاظم فى البرد فى شرفته في المساء..

الفصل الحادي عشر

كنا نحلم بوطن أجمل

البنت/ الصرخة على شاطئ البحر بنتٌ، وللبنت أهل وللأهل بيتٌ. وللبيت نافذتانِ وبابْ..
وفي البحر بارجةٌ تتسَلَّى بِصَيْدِ الُمشَاةِ على شاطئ البحر: أربعةٌ، خمسةٌ، سبعةٌ يسقطون على الرمل. والبنتُ تنجو قليلاً لأنَّ يداً من ضبابْ يداً ما إلهيَّةً أسْعَفَتْها. فنادتْ: أبي يا أبي! قُمْ لـ نرجع، فالبحر ليس لأمثالنا! لم يُجِبْها أَبوها الُمسَجَّى على ظلِّه في مهبِّالغيابْ
ثُمَّ في النخيل، ثُمَّ في السحابْ يطير بها الصوتُ أعلى وأَبعدَ من شاطئ البحر. تصرخ في ليل بَرِّيةٍ، لا صدى للصدى. فتصير هي الصَرْخَةَ الأبديَّةَ في خَبَرٍ عاجل لم يعد خبرًا عاجلًا عندما عادت الطائرات لتقصف بيتًا بنافذتين وبابْ!.

محمود درويش

***

فتحي رضوان حبيب "سهر" في المستقبل
الحب جريمة فى زمن الحقد..
فكر طويلاً.. ماذا يحدث لو عاش أبوه وشاهد نكسة ١٩٦٧، ماذا يحدث لو علم أن آلاف المصريين ماتوا فى الصحراء ولم يحاربوا؟..
ورثت عن أبى حب الوطن بطريقة عشوائية، وحب النظام، والنظافة، وحب عمل الخير فى أهله وغير أهله.. لم يزن أبى فى حياته.. طوال حياته لم يلمس امرأة إلا زوجتيه، وأنجب منهما ١٥ ولدًا وبنتًا.. ماتت البنت صغيرة.. ومات تسعة أولاد.. وبقى خمسة أولاد.. أمى وزوجته الأولى ظلتا تكرهان بعضهما طوال العمر. حانت الفرصة لأبى أن ننتقل بالسكن إلى محطة الرمل بجوار سينما ماجستيك فى شارع شكور بالإسكندرية، إلا أنه أصر أن يقيم فى شارع محسن باشا.. ومحسن هو أحد الباشاوات الذين كانوا يقطنون محرم بك وهو موازى لشارع الإسكندرانى، وهو الإسكندرانى باشا أيضاً يمتد إلى شارع منشا باشا وهو يهودى الأصل.. منشا باشا له قصر والأشجار تحيط بالشارع والهدوء.. أما شارع محسن باشا فكان فى نهايته وبالقرب من الشارع الموازى له "شارع الإسكندرانى" قصر البرنسيسة أميرة تركية من العائلة العلوية "عائلة محمد على".

هجم الغجر على شارع محسن.. كانت قافلة، بنوا على ترعة المحمودية بيوتًا من الصفيح والخشب، عملوا فى التجارة وفى السحر، والحواة، والجزارة، والحدادة، وزحفوا إلى شارعنا.. كان أشهر أربعة من الغجر:

"حفيظة" سمراء ذات ابتسامة أنثوية ليست جميلة وليست قبيحة.. تزوجت من الدوكش.. أنجب منها أربعة بنت اسمها "جمهورية" وأخرى "فادية" وولدين "محمد وعوض". مات الدوكش مبكرًا فترك حفيظة للريح وقطعة أرض استولوا عليها بوضع اليد "عشوائية الأراضى". أما الثانية فكانت "حماصة" أخت حفيظة، وقد تزوجت عبد الإله الذى كان يبيع الخضار أحيانًا، وحمالًا للحوم على عربة يجرها حصان "عربجى"

أما الثالثة فكانت "عزيزة" زوجة عبد العال ابنة خالته.. أنجبت بنتين.. "فاطمة وسحر"..

أما الرابعة، وأكثرهن إثارة كانت "حندوقة" حاوية.. تخلع جميع ملابسها فى عرض الشارع ولا تبقي عليها إلا الملابس الداخلية إذا تشاجرت وتلعب بالسكاكين فى يدها.. فهى تمسك فى يدها أربعة أو خمسة سكاكين تلعب بها أكروبات فيخافها الجميع.

حندوقة كانت تثير شهوة الرجال فهي تعرف سر سحرها، ربما هو الغمازتان اللتان على خديها، ربما هو الوشم الأخضر الذى على ذقنها، وما أجمل النساء بالوشم والنغازتين كان أبى يقول أنه كلما شاهد هؤلاء الغجر الفقراء سجد لربه وشكره أكثر، ولكن إذا انتقل إلى محطة الرمل فإنه سيتبطر على الله ويطلب المزيد، ويطلب قصرًا من الله ليسكن فيه.. كما أن الغجر كانوا يكنون له احترامًا شديدًا؛ فهو الحاج.. القوى البنية.. التاجر الثرى.. له بيت من طوب وأسمنت وليس صفيحًا مثلهم.. يأتى كل ليلة بعربة حنطور توصله إلى البيت، ويدخل الخيل بالأجراس التى فى عنقه تسمع الحارة وتعلن قدوم الحاج رضوان.. وكان البعض يتودد إليه أحيانًا لطلب سلفة أو صرف وصفة طبية من الصيدلية وكان يدفعها الحاج رضوان فوراً.

أحب فتحى، حندوقة وهو طفل، مع أنه كان طفلًا ولم يصل سن الحُلُم فكان يرى فى حندوقة أنوثة طاغية.. آه لو كبر فجأة واغتصبها.

***

لأن موسى قطعت يداه،

ولم يعد يتقن فن السحر..

لأن موسى كسرت عصاه

ولم يعد بوسعه شق مياه البحر

لأنكم لستم كأمريكا.. ولسنا كالهنود الحمر

فسوف تهلكون عن آخركم

فوق صحارى مصر..

"نزار قبانى".. هوامش على دفتر النكسة

***

هل قتل أبناء الكتاب وحرق كتبهم يريح الحكام الظلمة من المثقفين وأقلامهم؟ كيف حدثت النكسة وهزيمة يونيو؟؟ من سيكتب عنها؟ ما هى الحقيقة؟ هل من جرىء يخبرنا؟ أين الجبرتى؟؟ أبو العزم عبد الرحمن الجبرتى.. ولد بالقاهرة عام ١٧٥٤ ميلادية.. أرسله أبوه وهو طفل إلى مدرسة السنانية بالقرب من منزلهم بالصنادقية ليحفظ فيها القرآن، وأتم حفظه فى سن الحادية عشرة.. زوَّجه أبوه فى سن الرابعة عشر، وظل عبد الرحمن يتردد على حلقات الشيوخ فى الأزهر، ثم يمضى إلى بيته فيتلقاه أبوه متحدثًا إليه فى التاريخ وأحداث عصره فقد كان أبوه محبًا للقصص والأغانى.. مات أبوه وهو فى سن ٢٢ عاما، وترك له ثروة ضخمة مادية وأدبية.. ترك له بيوته فى بولاق والصناديقية ومصر القديمة، وبنى بيتًا أشبه بقصر، كان قصرًا فاخرًا به حجرة متسعة للطلبة الذين يأتون إليه.. ترك له أ بوه كنوزًمن الكتب والعلاقات والصداقات مع العلماء، وظل متصلا بالأزهر وشيوخه إلى أن التقى بالسيد "مرتضى الزبيدى" اليمنى صاحب كتاب "تاج العروس" ودرس على يديه ثم تزوج زوجة أخرى فى عام ١٧٩٥ وأنجب منها ابنه خليل إلى أن جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر فى عام ١٧٩٨ فترك القاهرة إلى

مزرعته فى (أبيار) وعاد حين طلبوا من العلماء العودة.. وعينه (عبد الله مينو) نائب كليبر فى ديوان العلماء، وبعد خروج الفرنسيين كتب كتاًبا أسماه (مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس) وأهداه إلى يوسف باشا (يوسف باشا قائد عثمانى وهو من استلم القاهرة من الفرنسيين) الذى أهداه إلى السلطان سليم الثالث الذى أمر بترجمة الكتاب إلى التركية.. فى أواخر أيام حياته عين مؤقًتا للصلاة وهلال رمضان فى ديوان محمد على باشا.. كيف حوَّل الطاغية "محمد على"، الجبرتى إلى موظف يحدد مواقيت الصلاة ويكتشف الهلال حتى لا يدون تاريخ ويوميات مصر ويكشف عيوب الدكتاتورية مع إن الديكتاتورية هى النظام الأمثل للشعب المصرى؟..

(قام جمال عبد الناصر مرة بتحويل الصحافيين الشرفاء إلى وزارة الصحة والزراعة وفعل نفس الشيء السادات السجن القاتل والسم البطيء اليومى، ومحمد على فعلها مع الجبرتى ووضعه بعيًدا عن دوره التنويرى والثقافى والمعرفى)

وكتب الجبرتى فى آخر كتابه هذا إنه يعانى من (تشويش البال، وهم العيال، وتكدر الحال، وكثرة الاشتغال، وضعف البدن، وضيق الوطن). كان محمد على مرعوًبا مما يكتبه الجبرتى من يوميات، وهدده ونقله إلى قصره موظًفا تافًها..

لم يفلح عقاب محمد على فى الجبرتى بأن يوقف رصد يوميات تاريخية؛ ففكر فى موته قهًرا؛ ففى صباح الثامن والعشرين من رمضان سنة ١٢٣٧هـ فى ١٩ يونيو ١٨٢٢ كان خليل بن عبد الرحمن الجبرتى، وهو أحب أولاده لديه، عائًدا من قصر محمد على فى شبرا بعد صلاة الفجر؛ فخرج عليه جماعة أخذوا يضربونه حتى قضى عليه وخنقوه.. وربطوا قدمه بحمار بسحله.. فى الصباح وجد الناس خليل بن الجبرتى مقتوًلا وعلى صدره دفاتر مكتوبة واسطرلاب لرصد النجوم.. قالوا فى إشاعات إن سليمان أغا السلحدار ومحمد بك الدفتردار صهر محمد على وأن الأخير استأذن محمد على فى مؤامرة قتل خليل.. أصيب الجبرتى باكتئاب وترك الكتابة والتأليف وانقطع عن القراءة وألح عليه الحزن وأكثر البكاء حتى ذهب بصره، وبقى مريضًا فى الدار، وترك ابنته، ثم أحرقوا

منزله بالصنادقية حتى يحرقوا كتبه ومسوداته عن "محمد على" وحتى لا يعرف الجيل القادم ما جرى..

أدركت تلك اللحظة أنه لن يكتب ولن يجرؤ مؤرخ على كتابة أسباب نكسة يونيو ١٩٦٧!! كل شخص يتحسس جسد ابنه أو ابنته..

هل قتل أبناء الكتاب وحرق كتبهم يريح الحكام الظلمة من المثقفين وأقلامهم؟؟

***

كاظم

سأرسم على جسدك كل بحور العالم العاشقة

يا "سهر" سأفرش لك السرير ياسمينا وأقيد يديك وقدميك فى أعمدته الأربعة عارية كما ولدتك أمك وأكتب على كل جزء من جسدك قصيدة عشق.. وسأرسم على جسدك كل بحور العالم العاشقة وأشعل فى كل الأركان شموعي، وحينما أرتل كل أناشيد العشق سأفك قيدك وأجلس معك على السرير أتوضأ بنورك..

الليل يحتضن القرية التابعة لمحافظة السويداء.. الليل أب قاس وشاعر وفاجر وماجن وحنون ومزاجي وصاحب هوى وستار ويغمض عينيه بدهاء وشموخ.. وبهاء الليل أحيانًا سكران وأحيانا تعبان..

في القرية مر أبو الشوارب العجوز ذو السبعين عامًا، ليس هو الوحيد الذى يحمل هذا الاسم فهناك شاب يحمل نفس الاسم (أبو الشوارب) ويحكى حكايات ومغامرات مع النساء يشيب لها الرأس. جلس العجوز أمام ركوة نار قد جهزها خفير أرض زراعية لأحد بكوات القرية سافر إلى فنزويلا فجمع مالًا كثيرًا اشترى به أرضًا في القرية وبنى عليها فيللا تشبه القصر.. قال أبو الشوارب العجوز لهاشم الحارس:

- أنا أبى كان بطلا في حرب المزرعة وقتل الكثير من الفرنسيين..
- شداد سيجن يريد أن يتزوج ابنة سالم.. وسالم رفض رغم أن شداد قدم له فلوسًا كثيرة ولكن سالم طرده من البيت

- ابنته سوسن؟
- أنت أحمق.. لا طبعا ابنته "سهر"..
- ولماذا رفض؟
- تقول العرافة الفهامة العلامة "شهرزاد" إن القمر يحب "سهر" وسيرسل لها رجلًا من بلاد الذهب يحملها له وهى
- والله.. وبعدين؟
- أنا لا أحكى قصة يا غبى.. أنا أحكى مأساة ستحدث لـ سالم ربما فكر شداد فى قتله.
- لماذا؟
- لأنه رفض أن يزوجه ابنته

***

الليل شقى وعفى.. الليل شياطين تمرح فى الجبل.. دق الباب على ميثاء

- من بالباب؟
- أنا شداد

دخل شداد ومعه رجلان يحملان أقفاص حمام ودجاج

- أهلًا وسهلًا

(لم تصدق أن هذا التاجر الثرى ابن المدينة يأتيها فى الليل فى مثل هذه الساعة)

- ليس عندى أرض ولا محاصيل أبيعها لك يا بك
- أنا لا أريد أرضًا ولا محاصيل.. أريد "سهر"

اندهشت.. ذهلت.. اختلطت كل الأوراق فى رأسها.. ترى من الذي أرسله لها.. وهل سيغلب شيطانه شيطانها؟ وماذا ستفعل مع هذا الشر الذي صار تاجرًا وإنسيًا.. اسمه شداد قالت:

- ماذا تقول يا سيدي؟

- أريد "سهر" ابنة سالم
- لم أفهم كيف تريدها؟
- اقنعى أمها أن تزوجني إياها؛ فأنا أهواها تلك الصبية قلبي مال إليها فجأة، وتعودت أن ألبي رغبات قلبي ولا أجعله يتعذب خاصة إن عشق امرأة.. عليك أن تقنعي أمها وأختها حتى لا أجد مانعًا أو حاجزًا وأعلم أنك ستقنعين سهر فقد قالوا لي إنك لك سحر عليها وتأثير لا يملكه أي فرد في القرية أو البشر.. اغوى نفسها ولفى رأسها سأعطيك أرضًا ومالًا لم تحلمي بهما من قبل.. اختاري ثلاثة دونم من أي قطعة أرض وسأبني لك عليها بيتًا وازرعي الباقي وسأدفع لك مالًا للزراعة والبناء..

قالت بخبث ودهاء وهي تتلعثم والعرض يلف رأسها وكاد أن يطيح بها ناحية الشر:

- ساحاول يا سيدى.. لكن...
- ليس هناك "لكن" أمام شداد.. إذا رفضت مساعدتي سأخطف "سهر" ولن يعرف مكانها جن ولا إنسان..

قالت في خوف وحذر:

- تخطف "سهر"؟
- نعم.. أخطفها ولم لا.. طرقت باب أبيها وطلبتها للزواج ولكنه رفض.. وسألتك العون وأنت لم تجيبي بنعم أو لا.. إذًا ليس أمامي إلا أن أخطفها وكل شيء في العشق مباح..
- أنت يا سيدى لا تخطف أحدًا.
- أنت ستساعدينى على خطفها؟
- وماذا سيقول عني أهل القرية؟

يضحك باستهزاء:

- سنقول خطفها القمر..

- ها ها ها ها

***

كاظم يجلس فى البالكون يقرأ فى كتاب "ثورة فى الثورة" لجيفارا..

الجبل والقرية والظلام والقمر.. أمر مسلم به أن أترك قلبى كل مساء على سور البالكون بجوار زهورى لعل القمر يرسل للزهور الحياة النضرة، ويرسل لى أنثى ممن تبقين من إناثه الراقية الحانية.. إن بقلبى عشق جدول يصب فى نهر الحب ماء عشق جديد كل يوم.. أمر مسلم به أن أشعر بالمر وقد طحننى الصبر واكتويت من كذب الإناث بالجمر.. أمر مسلم به أن أصنع من بقايا العمر مركب نوح لإنقاذ العاشقين بصدق لأن طوفان الكره والخداع بلغ منتهاه.. أمر مسلَّم به أن يكون الحب منى قريًبا وبعيدًا.. الحب أنت يا "سهر"..

عاد وأمسك كراسة "سهر" التى رسمت بها زهورًا وورودًا صغيرة، شمها.. ضمها إلى صدره وإلى قلبه.. لو أن لى قلبين لجعلت الأول لك تسكنينه فى الشتاء، والثانى فى الصيف.. لو أن لى قدرة الواصلين لطرت لك كل مساء فوق بساط الريح وعلى نافذتك ووضعت باقة ورد.. لو أن لى قدرة الكشف لعرفت من فى قلبك مر ومن كر ومن فر ومن جرحك بكلمة أو نظرة وسجنت الجميع فى مسبحة وأهديتها لك.. لو أن لى خاتم سليمان لأمرت الجن أن يحضرك لى الآن وألبستك ثوب "شهرزاد" فى لحظة الاشتهاء لو.. لو.. لو..

قام وفى يده اليسرى كراستها، وصب فنجان قهوة وعاد إلى البلكون. القمر يلقى ظلاله على الحقول.. عمرك الآن ٣٠ سنة.. أى الأقدار أتت بك إلى هنا.. الغربة أرسلتك إلى هنا فى الجبل بعيدًا عن المدينة ورفاق السوء لتتوقف عن الأحاديث عن الشيوعيين وتغيير النظام السورى ثم العربى.. لكنك جئت لتجد قلبك هنا يقع فى الحب..

***

خرجت "سهر" من الحمَّام.. حمَّام الليل قبل النوم، واتجهت نحو السرير.. جلس العصفور فوق السرير يراقبها قالت له بمزح:

- لا تنظر لى هكذا بخاف من النظرة هيدى..

تمددت على السرير ولفت شعرها، انتشى وسكر العصفور من عطرها.. ضمته.. سمعت دقًا على باب الدار.. نظرت من شباك نافذتها من أعلى وجدت ميثاء العجوز الحيزبون.. "ترى لماذا تأتي هذه المرأة في مثل هذه الساعة من الليل؟؟.. أنا لا أستريح لها ولا لحضورها إلى منزلنا أبدا؟"

القهوة المرة والليل وأم "سهر"، والميثاء جالسة القرفصاء حول الحطب المشتعل للتدفئة:

- اشربى القهوة يا ميثاء..
- والله جايه أبارك لك سمعت أن بنتك "سهر" جاء لها السعد والهناء والمال أكوام أكوام وأراضى وعربات وفلوس بالأكوام وقصور فى دمشق الفيحاء.
- مانى فاهمة شئ يا ميثاء
- سمعت أن تقدم لها شداد أكبر التجار والله قلت أبواب السماء اتفتحت لها.. قصور وفلوس وسيارات وأراضى وخير ماله أول وماله آخر..

قالت الأم بدهاء:

- البنت لسه صغيرة ما تفكر فى الكلام هيدا

ضحكت ميثاء بخبث:

- بنتك فارت وخرطها الخراط ملكة جمال سبحان من صور.. لو اتجوزت تحمل..
- لا يا ميثاء أبوها بده يخليها تدرس وتصير دكتورة.
- أى دكتورة دى حتصير ملكة فى الشام مش الجبل..

آه لو وافقت أمها وأقنعتها لحصلت على قطعة أرض وبيت ومال من شداد.. آه لو رفضت سأساعده أن يخطفها ويهرب بها إلى الشام وسأشيع فى البلد أن القمر خطفها البعض سيصدق والبعض لا.. لا يهم.. المهم المال والبيت والأرض.. آه لو ساعدتنى

الملائكة والشياطين لنجحت فى الخطة.. آه لو السماء تغمض عينيها قليلًا عنى لنجحت الخطة؟؟؟

قامت الأم سلمى فأحضرت بعض الزعتر والتفاح والخبز وأعطتهم لميثاء

- اتفضلى، كتر خيرك شكرا للزيارة إن شاء الله لما بيفرجها الله بعد كام سنة وتتزوج "سهر" بنعزمك وبعدين احنا بدنا نفرح الأول بـ سوسن

قبضت ميثاء على الأشياء بغيظ، واتجهت للخارج محبطة كارهة أم "سهر" والجبل والناس وكل البشر.. كانت تتمنى أن تحقق خبطة العمر، لكن الشر قادم ولابد منه سوف أساعده على خطفها..

فزعت "شهرزاد" فى نومها.. حلمت أن طائرًا ضخمًا قبيحًا خطف "سهر"، و"سهر" تصرخ.. قامت "شهرزاد" وشربت شربة ماء:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

قامت وارتدت ملابسها واتجهت إلى بيت "سهر".. دقت الباب، فتح الأب سالم:

- "شهرزاد" ماذا جرى؟
- لا شئ.. حاسة إنى تعبانة.. بدى أطمن على "سهر"..
- "سهر" نايمة فوق

"شهرزاد"

آه يا "سهر" لو تعلمين كم أحبك؟. يا بنت روحى يا من أرى نفسى فيها. شاهدت الروح الأولى لك أمس منذ عهد إخناتون حاكم مصر..

آه يا "سهر".. ماذا أقول لك؟.. هل أفشى لك السر؟ أم أسكت؟.. هل أحذرك وأحكى لك مما جرى فى هذا الزمان؟.. لا أدرى

آه يا "سهر" العالم بدون جمالك قفر ووحشة.

سمعت "سهر" صوت شهرزاد؛ فقامت من على السرير منتفضة ووضعت الشال على كتفيها ولملمت شعرها ونزلت مسرعة إلى الضيافة:

- خالتى "شهرزاد"

قال الأب لـ "سهر" وهو مرتبك فى خجل:

- لسه ما نمتى يا "سهر"؟

ردت بأدب ونعس..

- جانى كابوس يا بوى

قالت "شهرزاد":

- وأنا أيضاً جانى كابوس.. خفت عليك قمت من نومي وجيت أطمن.. قل الروح من أمر ربى..

ضمت "شهرزاد" "سهر" فى أحضانها..

قال الأب لـ"شهرزاد":

- ماذا رأيت فى الكابوس؟

لم ترد.. ابتسمت وسكتت وضمت "سهر" فى حضنها أكثر فأكثر.. تركها الأب وهى تحضن ابنته بين الدهشة والهاجس..

قالت "سهر":

- رأيتنى يا خالتى "شهرزاد" أطير فى السماء وحولى تحت الأرض نيران وطائر صغير يحملنى وأخاف أن أقع كنت أصرخ فى الحلم خفت من النار..

ضمتها "شهرزاد" أكثر..

- وماذا رأيت فى الكابوس يا خالتى؟

- اعمليلى كاسة متى..

- حاضر.. بس احكى لى حكاية الطير الذى شاهدته فى الحلم

قالت شهرزاد:

الطير فى تفسير الأحلام لابن سيرين:

وقد يدل الطير على المسافر لمن رآه سقط عليه، وقد يدل على العمل لمن رآه على رأسه وعلى كتفه وفي حجره أو عنقه لقوله تعالى "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" أي عمله، فإن كان أبيض فهو صاف، وإن كان كدرًا ملونًا فهو عمل مختلف غير صاف إلا أن يكون عنده امرأة حامل، فإن كان الطير ذكرًا، فإنه غلام، وإن كان أنثى فهو بنت، فإن قصه عاش له وبقي عنده، وإن طار كان قليل البقاء. وأما الفرخ: هو الذي لا يطعم نفسه فهو يتفرخ على من حمله أو وجده أو أخذه إلا أن يكون عنده حمل فهو ولد، وكذلك كل صغير من الحيوان. وأما كبار الطير وسباعها: فدالة على الملوك والرؤساء وأهل الجاه والعلماء وأهل الكسب والغنى. وأما أكلة الجيف كالغراب والنسر والحدأة والرخم: فساق أو لصوص أو أصحاب شر. وأما طير الماء: هم أشراف قد نالوا الرياسة من ناحيتين وتصرفوا بين سلطانين: سلطان الماء، وسلطان الهواء، وربما دلت على رجال السفر في البر والبحر، وإذا صوتت كانت نوائح وبواكي. وأما ما يغني من الطير أو ينوح: فأصحاب غناء ونوح ذكرًا كان الطائر أو أنثى. وأما ما صغر من الطير كالعصافير والقنابر والبلابل: فإنهم غلمان صغار، وجماعة الطير لمن ملكها أو أصابها أموال ودنانير وسلطان ولاسيما إن كان يرعاها أو يعلفها أو يكلفها..

- افهمت.

- سيأتيك رزق كبير وتسافرين إلى بلاد بعيدة

****

كاظم فى البالكون ينظر للجبل والليل والبيوت هناك بيت "سهر"

لا أحب أن أظل طوال الوقت كالمسيح أعفو عمن صفعنى.. تورم الخد والقلب والروح آه لو تزوجتك يا "سهر" لن أسجنك، بل أسمح لك بالحضور والغياب، أسمح لك بالجنون على الورق وفى الحياة، أسمح لك بالسهر مع النساء، وأسمح لك بعشق القمر لا

الرجال، وأسمح لك بالدلال ومداعبتى بالصمت حينًا وبالهاتف حينًا وبالرسائل حينًا وبالحضور حينًا، أسمح لك بالسباحة والسياحة..

لا أسمح لك أن تكونى مثل النساء، ولا أسمح لك أن تشكي فى لحظة أنى أحب غيرك لأنى لست مثل البشر الأغبياء.. عن رغبة أقول أحبك قبل العيد وفى العيد وبعده وقبل الأكل وبعد الأكل وقبل الكتابة وبعد الكتابة.. عن رغبة بين العشق والوجد أعترف: أنا بحبك منحرف عن الطريق المستقيم.. عندما أصلى أجد صورتك فى الذهن تحت أهدابى وطنًا للعاشقين أقول باسم الله.. الحب شقاء.. عن رغبة أنا فى لهفة وشهوة لك أنا فيضان حريق وأنا الغيور عليك والعبور إليك وأنا وطن بلا عنوان.

آه يا "سهر".. الحنان والجنون لقد اكتسبت من حبك الصبر وعشق البحر والانتظار وتحمل الجنون، وأنت نفحة من السماء لى كى أكون.. لقد اكتسبت من حبك فهم الاحتراق فى الحب أصير بخورًا، دخانًا.. وحين أهدأ أصير وردة وسحابًا ومطرًا وزهور ريحان..

آه يا "سهر".. يا أميرة أحلامى التى أنتظرها فى الحلم كل مساء تحملين فى يدك وردة وتدقين بابى وترتدين معطفك الأبيض أخلعه عن أكتافك أجدك عارية فأحضنك ليالى، وأخاف أن أنام وأنت فى أحضانى فتفوتنى لحظة عشق معك، وأنسى أسماء الأيام السبت الأحد الخميس الثلاثاء وتاريخ الشهور والفصول وأرقام الشهور فأنا بك مفتون..

دق الباب دقة.. دقتين.. ثلاثًا.. قال كاظم لنفسه:

""سهر" معقول أن تجئ فى مثل هذه الساعة من الليل؟.. هل استجابت السماء لى وأرسلتها لى فى مثل هذه الساعة؟..

فتح الباب على مهل وقلبه يدق ألف دقة.. صاح بدهشة هامسة: "وردة"

وردة من أجمل بنات الجبل ابنة المختار أخت راغب، تلميذته فى المدرسة.. وردة يخاف أن يقترب منها الشباب مع أنها إحدى أشهر الجميلات، والسبب أن أباها المختار، ولو

علم المختار أنها ذهبت لـ كاظم انقلب الليل نهارًا، وتم عقاب الأسرة كلها.. هى زميلة "سهر" فى الفصل.. فى الظاهر أصدقاء لكن "وردة" لا تحب "سهر".. وردة على علاقة طيبة بخالتها جمال.. جمال أنثى جميلة وتسكن فى دمشق ولها بيت هنا فى الجبل، وكلما أتت عاشت معها وردة لأنها تفهم الحياة دون تعقيد تحب السفر والحفلات.. تحب الرقص؛ لذلك هى المثل الأعلى لـ وردة..

- وردة ما الذى أتى بك إلى بيتى؟. لو أبوك رآك عندى هنا سيقتلنى
- لن يقتلك.. سيزوجنى إياك يا أستاذ
- يا وردة أنت لسه صغيرة
- أنا صرت كبيرة.. الدورة بتجينى من ثلاث سنين وأنا بنت ١٢ يا أستاذ
- كيف تحدثينى هكذا يا بنت.. اسمعى أنا رجل لا أريد مشاكل فى حياتى.. تعبت من الحياة والمشاكل أرجوك يا وردة أنت لا تعرفين معنى حضورك لى هنا هذا خطر!! خطر.. أخوك أو أبوك إذا شموا خبرًا سأضيع.. سيدمرانى.. يقتلانى يذبحانى.. إنهما لن يفهما إلا أنى رجل عاطل بطال.

أمسكت يده برفق، وهو يرتعش وعيناها تتفجر شبقًا وشهوة بنت ١٥ التى يحمر وجهها والدم يكاد يفط ينط، وقد وضعت مكياجًا جميلًا وخلعت الطرحة فأسدلت شعرها الناعم على كتفيها كأنه شموع فى ليلة مظلمة تضيء بالوهج قالت:

- أستاذ حموت عليك

ابتعد عنها.. قاوم الرغبة التى تسرى فى جسده من لمسة يدها ومن انتصابه ومن خوف دفين أين يرتكب حماقة ثمنها حياته.. نعم ليس لحياته ثمن عند الحكومة ولكنه يحلم أن يموت من أجل قضية تخص الوطن.. قال والحروف ترتعش على شفتيه:

- أبوس إيدك امشى.. امشى يا وردة

خلعت حذاءها وسارت تختال فى الغرفة، وقد ارتدت ثوبًا يظهر بياض ذراعيها العاريين اللذين يتوهجان كأنهما قمر فى شكل ذراع أنثى.. قالت:

- سأجلس معك ساعة واحدة فقط

راح يمسك الإيشارب والطرحة وحذاء ها، ويجمعهم واتجه نحوها متوسلًا يكاد الدم ينفجر من وجهه

- ولا ثانية.. أرجوكي أبوس إيدك يا وردة امشى

قبل يدها عدة مرات متتالية بسرعة وهو يرتجف.. قالت وهي منتشية من أنفاسه وشفتاه تلمسان كفيها.. وودت لو كانت على شفتيها:

- بوس كمان يا أستاذ فى أى مكان وكل مكان أنا قدامك .. أهه يلا بوس

ارتبك كاظم أكثر، وابتعد عنها تاركًا يدها قائلًا:

- يا بنت أرجوكي أرجوكي أخرجى أخرجى

وأخذ يدفعها وهى تتوسل إليه..

- بدى ساعة معاك بس أستاذ كاظم

دفعها بقوة وأغلق الباب ووقف يلهث خلف الباب وهى تدق عليه:

- أرجوك افتح يا أستاذ ساعة واحدة بس أرجوك ما حخبر أمى ولا حدا..

كاد كاظم أن ينهار فجلس على الأرض وظهره مستند على باب البيت.. بكى دمعتين الدمعة الأولى فرح.. الدمعة الثانية خوف

فى الطريق أثناء عودة وردة، لمحها أخوها راغب الذى كان يسير مع سامى أخو "سهر".. ترك سامى، وذهب إليها غاضبًا:

- وردة وين كنت هسه؟ معقول أنت خارج البيت هسه احنا بعد صلاة العشا..؟؟

ردت ببرود وإحباط شديدين، ويأس قائلة:

- كنت عند واحدة زميلتى بذاكر.. بلاش أذاكر

- ما تتأخرين مرة تانية الساعة ٨ شو الناس تقول.. أنا ما كان بدى تتعلمى ولا توجعين راسنا

عادت وردة إلى البيت منكسرة.. لقد ذهبت وكلها أمل أن تقضى ساعة ساعتين معه لقد استعدت واستحمت ووضعت أحلى عطورها على ثديها وجسدها، حتى إذا خلعت ملابسها فى بيت الأستاذ كاظم، شم رائحة العطر الذى يخبله فى "سهر"، لكنه لم يشمها لم يحضنها.. لم يمس شفتيها.. لم يقبض على ثديها ليسخن ليكبر ليكون مثل صهيل الخيل فى يديه يصيح وينفر.. انكفأت على السرير تبكى.. نهرتها أمها:

- بطلى دلع مادام مافى حد زعلك ولاضربك ليش بتبكى بطلى دلع البنات هذا..

قال قلب وردة: (الحب يا أمى كلمة ليست فى قاموسك أحيانًا تبيع النساء قلوبهن له بدلًا من أن تمنحه للأزواج، لأن الأزواج غالًبا ليسوا عشاقًا ولا أحبابًا بل أزواجًا)

***

"أم راغب ووردة"

قسمة ونصيب.. أم راغب تزوجها المختار بسام رغمًا عن أنف أبيها.. لم تعرف معنى الحب ولكن تسمع عنه من النساء، فتدعى أنها تعرفه وتعرف كل شيء، ودومًا يحمر وجهها خجلًا عند الحديث عنه كأنه من المحرمات وعندما تشاهده فى التليفزيون فى مشهد سينمائى تشعر بغياب عقلها وجمود قلبها كأنها خطفت إلى سيبريا وجمدت هناك..

***

"كاظم"

آه يا سهر

نام كاظم على الكنبة مستسلًما

حتى ولو أحببت ألف رجل غيرى حتى ولو ادعيتِ وافتريتِ عليَّ.. حتى ولو نسيتِ عنوانى وأرقام هواتفى ورائحة عطرى ولون زهورى.. حتى ولو قيدونى بالسلاسل ووضعونى خلف القضبان.. حتى ولو تطايرت بنا المسافات أنا فى مكان وأنت فى مكان وبعثرت أيامنا الذكريات.. حتى ولو انطفأت فى قلبك نيران شوقى.. حتى ولو فعلت ما فعلت فإنى أحبك.

***

فى بيت سهر

قامت سلمى أم "سهر" بإطلاق البخور فى البيت لمنع الحاسدين لـ"سهر".. (حسد يحسد حاسدًا).. "ومن شر حاسد إذا حسد".. ترى هل "سهر" محسودة؟؟ بالتأكيد ألف ألف أنثى تحسدها.. تلك التى تسرق قلوب الرجال بعطرها.. تلك التى ترافقها العصافير فى أسراب فوقها حين تسير..

***

البخور و"شهرزاد". أخبرت "شهرزاد" بعض الرجال والنساء حين قرأت كفوفهم أنهم سيأتيهم حظ عظيم وأتاهم. سموها "شهرزاد" وكلما أمسكت كف شخص ووجدت أن أيامه سوداء قالت إنها مريضة ونظرها تعبان وهربت بأى حجة من البوح له بما تراه من طالع في كفه كى تحافظ على اسمها وسط الناس. الناس ولاد كلب لا ترحم إذا انقلبوا عليها

***

"كاظم"

أى الليالى تأتى بنا وتروح يا نفحة الروح.. آه.. آه.. آه..

تنهَّد كاظم وهو يقرأ رواية "زوربا" اليونانى، وشعر بأن القمر حوله غيوم وسحب.. إذا كان حال القمر هكذا إذًا "سهر" ليست على ما يرام.. دار فى غرفة نومه خرج للبالكون.. آه لو يخبره القمر.. سهر تلاحق خياله وهو يدور فى الحجرة ترك الرواية وكوب مشروب "المتى"

أستهدف الوصول إلى قلوب وحناجر الأطفال.. أستهدف الوصول إلى نهد امرأة ينادينى كلما شاهد اسمى ويريدنى أن أداعبه كل صباح ومساء.. أستهدف الوصول إلى تلال النقاء كي أحرر العشق من أيدى السفهاء.. أستهدف الوصول إلى روح التوراة والإنجيل والقرآن.. أستهدف الوصول إلى سريرك كل مساء دون أن يرانى أحد حينما يعز اللقاء.. أستهدف الوصول إلى الهجرة كل مساء على الحدود بين صرتك وحلماتك.. أستهدف الوصول إليك..

ما أكثر أصوات العشاق المزيفة فى كل الأجناس.. ما أكثر أنفاس الهمس الصادقة.. ما أكثر النساء الخادمات الوصيفات اللاتي يملكن نفسية العبيد ويدعين أنهن ملكات.. ما أكثر العشاق أنا وابن الرومى وجبران ونزار، وعاشق لم أعرف اسمه لكننى أسمع دقات قلبه فى المساء تحوم حول النساء أنينًا.. ما أكثر النساء روعة تلك التى لم تلمس خدى وأحتضنها بعد وأضع الشمس على رأسها وترقد فوق سريرى قمرًا ينير ليالي العمر المعتمة وتمحو من ذاكرتى أسماء نساء عرفتهن أو أسماء نساء أشفق قلبى عليهن من كثرة أوجاعهن وحرمانهن..

لمح وهو يقف في الشرفة من بعيد شبح راغب ومعه رجل يحمل بندقية على كتفه.. دارت به الأرض دورة.. دورتين.. ترى هل أخبره أحد بأن وردة أتت إليه.. وجاء ومعه هذا الشخص الطويل العريض الذي يحمل على كتفه هذا السلاح.. نعم سيقتلونني.. ويدفنونني هنا.. وربما قالوا لأهل القرية وأهل الجبل لقد اختفى الأستاذ.. رحل.. أو هرب.. أو اعتقل.. أليس أمرًا غريبًا أن يدفع الإنسان حياته ثمنًا لنزوة فتاة طائشة.. نزوة لم تكتمل.. لم تتحقق.. أليس الأمر مهزلة؟؟

اقتربت خطوات راغب ورفيقه الرجل الغامض نحو بيت كاظم.. ترى ماذا قالت وردة لأخيها؟ وماذا قالت لأبيها؟ وماذا قالت لأمها؟ وماذا قالت لأصدقائها؟ وماذا.. وماذا..؟ ولماذا أتى ومعه هذا الرجل فقط.. ربما نصحه أبوه بأن يستر الفضيحة ويقتلني في صمت.. ربما أخبرت وردة أخاها فقط وادعت أني أغويتها، ولذلك قرر أخوها مع صديق له أن يقتلاني..

اقتربت خطوات راغب ورفيقه أكثر.. دقات قلب كاظم تزداد كأنها عجلات قطار سريع يطوي المسافات بجنون.. نعم جنون.. العشق جنون.. النزوة جنون.. الجنس جنون.. الحماقة أننا لا نعرف هل الجنون حلال أم حرام.. صواب أم خطأ.. ولكنه يسكننا رغم ادعائنا الحكمة

اقتربت خطوات راغب أكثر وأكثر.. يكاد قلب كاظم أن يتوقف، أو توقف.. أو انخلع.. لم يتبق منه إلا دقات.. ستموت يا كاظم ضحية غباء النساء في لحظة بلهاء.. كل ثقافتك وفلسفتك وكتبك ستنتهي برصاصة ثمنها خمس ليرات.. الرصاص دائمًا ينتصر على الثقافة كما انتصر السيف على المتنبي..

ترى ماذا قالت له؟ هل سيعطيني فرصة أن أشرح له ما حدث وهل سيصدقني؟ وهل سيقتنع بما أقول.. آه لو اقتنع سأحمل ملابسي وأرحل إلى الشام.. إلى دمشق الفيحاء.. ولكن كيف أرحل وقلبي هنا مع سهر.. ولكن أين سأترك قلبي لها وكيف ستعرف سهر.. سيأتي مدرس لغة عربية جديد ربما عشقها مثلي وربما نسيتني..

آه يا سهر..

اقتربت خطوات راغب ورفيقه من بيت كاظم أكثر، وفجأة ظهرت سيارة أوتومبيل وقفت أمامهما، ووقفا يتحدثان مع سائقها.. آه سيحملان جثتي في هذه السيارة؛ ليلقوا بي إلى ذئاب الجبل أو إلى الصقور، وسأصبح صورة وخبرًا فى صفحة الحوادث بدلًا من صفحة السياسة والوزارة وحزب جديد غير حزب البعث..

نزل قائد السيارة منها.. أشعل سيجارة، وعزم على راغب وزميله وأخذوا جميًعا يدخنون السجائر.. ثم ركبوا السيارة ثم ضحكوا..

في هذه اللحظة ضحك كاظم وأدرك أن الجو أمان، وانطلقت السيارة بهم..

الفصل الثانى عشر

مصر أم الدنيا.. أم أبوها؟

فتحى رضوان يبحث عن سؤال: لماذا سميت مصر أم الدنيا؟.. مع أن كل حياتها وتاريخها العسكرى محتشد بالهزائم المنكرة وفتش فى الكتب ووجدها عند ابن كثير:
(مصر سميت "أم الدنيا" نسبة للسيدة هاجر زوجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم حيث هى من مصر، وولد سيدنا إبراهيم فى العراق وانتقل وعاش بين مصر والشام، وتزوَّج السيدة هاجر وهى كانت من مصر وبعدها انتقل للجزيرة العربية وتم تعمير الجزيرة العربية التى لم يسكن بها بشر من قبل وتم رفع قواعد البيت العتيق؛ لهذا سميت مصر أم الدنيا حيث أن السيدة هاجر هى أم أنبياء الله وأم سيدنا إسماعيل وأم العرب وهى مصرية، وكان هذا تكريماً للسيدة هاجر.. مصر أم الدنيا سبب تاريخى وهذا تكريم لمصر ممثلًا فى السيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل أبو العرب والأنبياء والدليل على هذا حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام عن أهل مصر، وهو حديث صحيح فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "ستفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيرًا فإن لهم ذمة ورحمًا" قال ابن كثير رحمه الله: والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام: أمه هاجر القبطية، وهو الذبيح على الصحيح وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي صلى الله عليه وسلم وأخوال إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمه مارية القبطية من سنى كورة أنصنا وقد وضع عنهم معاوية الجزية إكرامًا لإبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم (تفسير ابن كثير)

وما يؤكد هذا دعاء سيدنا نوح لحفيده مصرائيم بن بيصر بن حام والذى سميت مصر نسبة إلى اسمه حيث الجنس الحامى هو أول من سكن مصر بعد طوفان سيدنا نوح ودعا لهم نوح بهذا الدعاء وقولة أن مصر أم البلاد..

كان هم فتحي رضوان الأول أن يعرف هل اسم مصر مذكر أم مؤنث، وعندما عرف أنه اسم مذكر شعر بخيبة الأمل وبخيبة المصريين في عقولهم لأنهم يظنون أن مصر أنثى.. كان يريد أن يعرف هل مصر حقيقة أم وهم.. وبما أنها أم الدنيا وحالها هكذا؛

فما حال الدول العربية الأخرى فكرًا وثقافة؟.. بل لماذا مصر بالذات تجمع كل هذه التناقضات البشرية، وغرائب الأمور والتصرفات؟ هل موقعها الجغرافي؟.. هل تميزها النسبي يرجع إلى كثرة من احتلوها؟ فهي الدولة الوحيدة في العالم التي احتلت سبعة آلاف عام وتحررت منذ خمسين عامًا فقط.. ولكن هل تحررت بالفعل أم أنه تحرر على الورق؟ وما معنى الحرية؟.. وما معنى الوطن؟ وما معنى المواطن؟.. لماذا لم نتعلم مفهوم كلمة مواطن ومفهوم كلمة مواطنة؟.. غاب عنا كل هذا..

أدرك فتحي رضوان أننا نعيش في عالم كاذب عندما اكتشف في مذكرات محمد فريد أن عباس حلمي الأول حاكم مصر هو الذي اقترح على مصطفى كامل ومحمد فريد إنشاء حزب جديد يسمى الحزب الوطني في عام ١٩٣٢ حتى يحاربوا الإنجليز، وكان عباس حلمي يكره الإنجليز ويدفع إلى مصطفى كامل راتبًا شهريا في السر (كما ذكر محمد فريد في مذكراته) حتى يعيش حياة كريمة.. وطلب مصطفى كامل من محمد فريد أن يتوسط له عند الخديو عباس حلمي ليزيد نفحاته ومكرماته له لأن الزعامة تحتاج إلى بعض المصاريف.. ألم يكتبوا لنا في كتب التاريخ أن الحزب الوطني هو فكرة مصطفى كامل ومحمد فريد؟.. ألم يكتبوا لنا كلامًا كذبًا في كذب؟.. ترى من الذي يكتب كتب التاريخ في المدارس ويزيفها؟.. هل هو وزير التعليم؟.. هل هو رئيس الوزراء؟.. هل هو رئيس الجمهورية؟.. ثمة شخص ما مسؤول لكنه حقير حقارة لم تشهد الإنسانية مثلها فهذا الحقير الذي يزيف الوقائع والأحداث ويتبول في عقول الأجيال بجراثيم ومياه بولية فكرية عفنة فنخرج من المدارس أغبياء نجهل حقيقة تاريخنا وحقيقة الأشياء..

إن عذاب فتحي رضوان هو عذاب اللؤلؤ داخل المحار؛ فالمحار شكله قبيح مثل المجتمع، واللؤلؤة ناصعة البياض والضوء في قلب هذا القبح..

كان فتحي رضوان يسأل نفسه دومًا: لماذا النساء في حياتي ضرورة كالماء والهواء وخطب عبدالناصر والميثاق.. ومقالات هيكل يوم الجمعة؟.. لماذا يرتشف الوجود والعدم من سارتر والعبث من ألبير كامى وصامويل بيكيت؟.. لماذا يبحث عن كل كتب كولين

ويلسون؟.. لماذا يبحث عن الجاحظ ويعشق المتنبي ونهود ناهد حجازي وفيفيان وماجدة.. والمظاهرات التي يخرج بها الطلبة من أجل فلسطين والجزائر واليمن؟

فتحي رضوان.. ضحية الزمان والمكان؛ فمصر زمان ومكان: زمان مستتر بالتماثيل والآثار، وفي الداخل انهيار وعفن معتق يسري في النفوس قبل الشوارع.. منذ سبعة آلاف سنة كان الشادوف يسقي الأرض الزراعية وحتى الآن نفس الشادوف.. ترى هل أنت يا فتحي جزء من عقل هذا الوطن المعطل الثابت على التخلف؟.. كان يفكر في الهجرة إلى باريس والتنازل عن الجنسية المصرية ربما إذا تنازل عنها تحرر من الهم الذي يسكنه.. هم اسمه (عشق مصر) ولكنه يظن أن الإنسان مسيَّر وليس مخيَّرا.. ربما ألقت به المقادير في تلك البقعة من العالم المتخلفة ليكون شاهدًا وشهيدًا.. صليبًا ومصلوبًا.. مؤذنًا ومصلٍ.. مؤمنًا بالنور وكافرًا بالتخلف.. وكلما استنشق اليود من بحر الإسكندرية حلم بالسفر إلى سواحل مارسيليا فى فرنسا، وكان يفكر دومًا فى أن ينتقم من بحر الإسكندرية بالسباحة فيه كل عام مرة كي يتبول فيه..

الأوطان أحلام وأكفان وأماكن وهمية نصنعها كي يكون لنا جواز سفر في الروح قبل المدن.. ولأول مرة يشعر فتحي رضوان أن الهوية العربية عار عندما حاول أن يقابل قناصلة الدول الأجنبية في الإسكندرية ليطلب منهم فيزا للهجرة.. لأول مرة يسمع كلمة (عربي.. نو) خدعوني فقالوا إن العروبة وسام وتاج على رؤوسنا وقالوا إن الغرب يتآمر علينا ونحن في حقيقة الأمر بالنسبة لهم كوطن عربي غطاء بلاعة تحته أنبوبة نفط مهمة لهم، وأيضا ماسورة صرف صحي مليئة بالصراصير والحشرات الغريبة التي يجب التخلص منها برش المبيدات عليها أو سحقها تحت الأقدام..

ترى لماذا نحن محاصرون بالخديعة من أول كتب المدرسة إلى الإذاعات والتليفزيون إلى الصحف إلى شوارب الرجال التي تحمل حناجر ذات صوت أجش وتحمل عار الهزيمة في أسرة المساء مع النساء؟..

كان فتحي رضوان نموذجًا لملايين الشباب العربي والمصري الضائع الذين تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أميركا والغرب..

***

"كاظم"

لو أننى أقدر لخطفتك الليلة ومن شفتيك أخذت أسكر.. لو أننى أقدر لتحولت إلى عصفور وسكنت بين نهديك دفئًا أتفجر.. لو أننى أقدر لوضعت أنفاسى في أذنيك قرطا من اللؤلؤ وقلبى لمن يقترب منه خنجر.. لو أننى أقدر لتزوجتك الليلة أصعد بك وأهبط وفى الصباح تلدين قافلة رجال تحرر العبيد فى هواك ومدن الرجال الأسرى من عشقك تتحرر.

***

قالت "شهرزاد" لأم "سهر"

- ديرى بالك على بنتك محسودة من كام عين ..؟؟

خرجت الأم. نظرت "سهر" إلى شهرزاد:

- ماذا بك يا خالتى؟

- غدا سأقول لك أشياء هامة بالنهار.. الآن نامى واستريحى يا صغيرتى.. سأخبرك غدًا بما رأيت

دخلت شهرزاد معها غرفة النوم، وأخذت تغطيها وتلعب فى شعرها كالأطفال و"سهر" مستسلمة فى هدوء وأغلقت عليها الباب وأطفأت مصباح الكهرباء.

- تصبحين على خير يا "سهر"..

***

أشعل كاظم مصباح الكهرباء فى غرفته.. شرب "المتى"..

وردة.. كيف ستواجه الأستاذ غدًا فى المدرسة؟.. ماذا ستقول له؟.. كيف ستضع عينيها فى عينيه؟.. ماذا سيقول عنى لنفسه؟ ماذا سيقول لى؟.. الليل طويل طويل طويل يا

وردة.. لماذا الجبل قاسي والحب قاسي والحياة قاسية هنا؟؟.. لماذا العشق يدوخنا؟ لماذا لا يحبنى ويحب "سهر"؟؟

المختار بسام(العمدة) يعرف أن الجبل لا يحب إلا القوة والثراء والمال.. كل أهل الجبل يدَّعون البطولة فى مقاومة الفرنسيس.. ترى من البطل؟ ومن الواهم؟ وعادة بعد الثورة ينسب كل فرد لنفسه أنه قام بدور ما وبطولة ما.. الذين شاركوا والذين شاهدوا.. ومن يملك الحق في الحكم على الأشياء.. التاريخ.. ومن الذي يكتب التاريخ؟ التاريخ يكتبه بعض الكتبة لصالح الحكام أو التجار وقلما يهب شخص قلمه ونفسه ووقته لكتابة التاريخ مثلما فعل الجبرتي والمقريظي وابن إياس والسهروردي..

من الحقيقى فينا ومن الكاذب؟؟

الجبل غبى وصبى.. انهار الجبل أمام النبى موسى عندما شاهد الله..

كاظم قرر أن ينام وأغلق الشباك جيدًا.. من المفترض ان نكون حبيبين وعاشقين وزوجين.. من المفترض أن نكون وردتين، عصفورين، بستانين.. من المفترض أن نكون شمعتين قنديلين.. من المفترض أن نكون فى جسد واحد بروح واحدة لا فى جسدين وروحين..

في الصباح

المدرسة والطريق الطويل.. من ممر بيته خرج كاظم.. من ممر بيتها هبطت "سهر" والعصافير فوقها.. من ممر حارة وردة خرجت وردة.. الكل يتجه إلى المدرسة..

رغم أنى برئ فى عشقك يا "سهر" تحاصرنى العذارى من كل اتجاه، وأنا ليس لى إلا العشق حجاب وليس بينى وبين الله حجاب.. فأكثر من الدعاء إنى أطمع فى الكوثر وفى جنة رضوان وفى "سهر"

وقالت وردة.. يا ربى ساعدنى بأن تزوج "سهر" من رجل من بلاد الذهب يسافر بها ويرحل وتترك لى كاظم أستاذ اللغة العربية .. يا ربى ساعدنى أن أختلى به.. أن يحبنى.. أن يقترب منى.. أن أكون له..

قالت "سهر".. لقد أحبنى القدر وأرسل لى العصفور إشارة.. كل شئ بقدر أحب كاظم .. لكن هل سيساعدنى القدر؟؟

لم ينظر كاظم طوال الدرس إلى عين وردة.. تجاهلها تمامًا.. سأل من على يمينها ومن على يسارها، وتجاهلها

أما "سهر" فقد كانت شاردة لماذا سألتها "شهرزاد" أن تمر عليها بعد المدرسة وستقول لها كلامًا سريًا ومهمًا.. أى سر ستقوله؟.. عمن: عن القمر؟ عن أبيها؟ عن أمها؟ عن الجيران؟

لاحظ كاظم أن "سهر" ليست معه؛ فتركها حالمة شاردة ظنًا منه أنها شاردة فى التفكير فيه وعشقه.. العصفور يقف على النافذه ينظر له كاظم بنظرة غريبة عجيبة؟؟

حاولت وردة أن تتحرش به، وأن تحكى معه لكن تهرب بهدوء ونعومة.. وردة كانت راضية عن موقف كاظم.. لم يسألها ولم يسأل "سهر".. الظلم على الجميع عدل..

جلس كاظم فى مكتبه فى غرفة المدرسين يشرب "المتى".. دخلت الحجرة وردة:

- أستاذ كاظم

- اسمعى وردة أرجوك لا تحكى معى خارج الفصل ولا الشارع ولا البيت ولا أى مكان..

قالت بتحد:

- ستحكى معى أستاذ

- أنت مجنونة.

- سترى أستاذ ستحكى معى..

- لا يمكن..............

هذه البنت عقلها فارغ.. كثير من الطلاب والطالبات.. لا يفهمون أى شئ ولا يفعلون شيئًا ذا بال.. حقائب الأولاد فارغة لا يوجد بها غير الكراسات وأدوات المدرسة.. أخاف من أثرياء القرية وأقاتل الملل والوقت وخاصة فى الليل..

فى منتصف اليوم الدراسى جاء راغب أخو وردة للمدرسة.. طلب فى غرفة مدير المدرسة الأستاذ كاظم.. ارتبك المدير وذهب إلى كاظم فى الفصل وسأله:

- تعال شوف راغب ابن المختار ليش عاوزك؟

ترى ماذا قالت وردة لأبيها وأخيها؟ التلميذة أو التلميذ يكذب كل يوم عن عدم قدرته على المذاكرة، ومن مدرس إلى مدرس ويوم بعد يوم يصير كذاًبا ويخلق حكايات ومبررات فى غرفة مدير المدرسة دخل كاظم وجد راغب مبتسًما فأصابته الدهشة!!.. قام راغب مبتسما صافحه..

- أهلا أستاذ كاظم إحنا عايزينك تيجى عندنا البيت من شان أختى وردة..

- شو فيه شو قالت لك؟

ضحك راغب:

- قالت إنها محتاجة دروس تقوية فى اللغة العربية.

- وأنا شو لى فى هذا؟

- أنت أستاذ كبير.

- فى مدرسين أحسن منى.

- إحنا عاوزينك أنت استاذ.. كل يوم تشرفنا الساعة ٤ بعد الظهر.. تشرب متى مع الوالد وتشوف وردة شوى؟

قال مدير المدرسة:

- المدرسة كلها تحت أمر الآنسة وردة.. أقصد سيدى المختار

الآباء يتواطئون مع كذب أولادهم ليبرروا أخطاءهم، والأبناء يقضون وقتهم فى التبريرات والسيناريوهات والكذب للآباء والمدرسة والمدرسين..

خرج راغب من المدرسة.. شاط كاظم غضًبا واتجه ناحية مدير المدرسة صارخًا:

- أنا لن أعطى درًسا خاًصا لهذه البنت.

- كل المدرسين يتمنون أن يعطوها درًسا أو يدخلون بيت المختار.

- أتوسل إليك أعطهم فرصتهم.. أنا لا أريد هذه الفرصة..
- أنت لا تعرف من هو المختار؟
- لا أود القيام بهذا؟
- افهمنى جيدًا.. البنت طلبتك لأنك مدرس متميز.. والله لو طلبتنى سأذهب إليها أنا..
- جميل اذهب أنت إليها..
- لا تلاوعنى ولا تتعب قلبى.. البنت تريدك أنت.. حاول أن تفهم.. لا أنا ولا أنت ولا مدير التربية والتعليم.. اسمع منى حكمة لا تلتفت للوراء فأمامك ضوء..

إن المجتمعات تبنى على الكذب.. بدءًا من المدرسة والطالب والمدرس.. الكل يمارس هذا بجدارة.. كانت وردة تستعد لاستقباله فى البيت.. ارتدت أحلى ثيابها وكوت شعرها، ووضعت منديلًا جميلًا يغطى شعرها حتى لا يلمحها أبوها.. ووضعت عطرًا، وكحلًا فى عينيها..

الساعة الرابعة بعد الظهر دخل إلى بيت وردة، وريقه قد جف، وتصبب عرقًا.. رحب به المختار بصوته الأجش، ودعاه إلى غرفة خاصة للدرس جهزت له (المتى).. جلس كاظم يتأمل الجدران. بعد دقائق دخلت، أغلقت الباب.. خلعت الإيشارب.. أسدل شعر وردة على كتفيها، كأنه مظاهرة حرير يجندل الرجال.. نظر إليها كاظم.. نظر إلى الروج الأحمر فى شفتيها والكحل الذى يعانق رموشها..

- هاتى الكراسة.
- هات قلبك لى يا أستاذ.
- افتحى الكراسة.
- افتح روحك المغلقة سيدى؟
- الجملة الاسمية والفعلية كل منهما تتكون من جزءين..
- الحب يا سيدى كم جزءين رجل وامرأة ..

- الليل جميل جملة اسمية.
- وردة كاظم جملة اسمية.
- يزحف الليل على المدينة.. جملة فعلية.
- تحب وردة كاظم.. جملة فعلية.
- الجملة الاسمية والفعلية وهناك شبه جملة
- حب وردة حقيقة.. وحب "سهر" شبه حب..

غضب كاظم وهب واقفا:

- مستحيل هذا الهراء
- نعم حبها لك هراء.. هى تطاردك بنظراتها بعينيها بأنفاسها.. نعلم كلنا هذا.
- من كلنا؟
- كل المدرسة.
- أنت تخرفين كل المدرسة تعلم هذا أنت فتاة مراهقة صغيرة حمقاء.
- أنا أحبك أستاذ كاظم.
- مستحيل.

فتح الباب المختار ودخل:

- كيفك أستاذ شو أخبار وردة؟
- والله يا أبى بدأت أفهم اللغة العربية الأستاذ كاظم من أكفأ المدرسين للغة العربية فى الشام..

ضحك المختار

- هيك تمام عن إذنك أستاذ دير بالك عليها..

خرج المختار وأغلق الباب.. وضعت يديها على ذقنها وجلست تركز فى عينيه.. حاولت أن تمد قدميها تحت الطاولة حتى تلمس قدميه.. انتصب قائمًا صائحًا:

- وردة أرجوك.. أرجوك.. إذا أردت أن تأخذى درسًا ابتعدى عن هذه الحركات..

قالت وهى تغنج:

- حاضر أستاذ..

قام وهو يتصبب عرقًا..

لا أحد ينتظرنى فى البيت لا أحد اشترى له زهورًا.. لا أحد يشرب القهوة معى أو يغطينى فى المساء وأنا أرفس الغطاء.. لا أحد يبتسم لى فى الصباح.. لا أحد يسمع الأغانى معى ويلملم أوراقى وأحلامى وأحشائى وجحيمى وأشجار حنانى ويكوى سروالى ويغير مفرش وسادتى ويجهز مصحفى ونسكافيه باللبن وحبرى وأوراقى وثيابى.. لا أحد يجمع الحصاة التى يلقيها البلهاء على كتاباتى.. لا أحد.. لا أحد.. ليس لى إلا الواحد الأحد

***

الساعة الرابعة بعد الظهر

سامى أخو "سهر" يجلس على المقهى التى تطل على الجبل.. يشرب الشاى والشيشة.. يحلم بأن يكون فى أمريكا ويرتدى قبعة، ويركب سيارة أمريكية ويتزوج من حسناء أمريكية.. كان يحلم بالكثير، وأن يتحدث باللغة الإنجليزية بطلاقة.. دخل المقهى فجأة التاجر شداد وراغب ابن المختار، واتجها إلى سامى..

- السلام عليكم..

- وعليكم السلام

- نشرب معاك كاسة شاى..

- اتفضلوا.

- هات شاى يا معلم.

نظر إلى سامى، التاجر شداد وقال:

- شو يا رجال.. لازم تشوف لك شغلة تفيدك.. أنت مو شوى..؟

- مو فاهم؟

ضحك راغب قائلا:

- المعلم شداد قصدى رضوان بك يريد أن يستفيد من جهودك.. تشتغل معاه.
- أنا سوف أسافر أمريكا

ضحك راغب قائلا:

- كل الشام والعالم بده يسافر إلى أمريكا.. لحد ما تسافر أمريكا اشتغل معاه.

ابتسم شداد:

- اشتغل معى ويمكن تكسب هون أفضل من أمريكا وتعيش هون معانا، والفلوس هون والحب هون والجبل هون و"المتى" هون.. ها ها ها ها

قال راغب:

- أنت رجل غريب.. يا سامى يا رجل هذه فرصة عمر.. أقل مبلغ ستحصل عليه ألفين ليرة..

قال شداد:

- لا ثلاثة آلاف ليرة..

ضرب راغب كفه الأيمن بالأيسر صائحا:

- أوف أوف هذا مرتب وزير

قال شداد:

- أنا بعرف أن الوالد رفض زواجى من أختك "سهر" بس هو حر، وأنا ما زعلت.. الوالد عصبى شوى.. ما فى شئ.. بس أنا شفت إنك خسارة شاب مثلك بدى إياه

أخرج سامى نفسًا من دخان الشيشة من فمه للهواء...

- ولا يهمك سيبنى أفكر يومين معلمى.. كلامك على راسى..

ضحك المعلم شداد وقام هو وراغب.. محيين..

سامى طويل عريض المنكبين.. سامى يحلم بالطيران فوق العالم.. سامى يحلم بأن يتعلم الطيران يصير طيارًا، ويقابل مضيفات من كل الجنسيات ويعشق كل ليلة أنثى من جنسية أخرى.. سامى تحلم به بنات القرية.. الحلم أحيانًا نجاة من الواقع وأحيانًا لعنة.. حلم

سامى مرة أن يتزوج بـ وردة ابنة المختار كى يصبح صهره ويملك أرضًا من أرضه لكنه يكره الريف والجبل كحياة.. الحياة تدفعنا لشهوة الحلم والتعلق بأهداب الأمل.. قالوا له إن تعلم مهنة الطيار تكلف الكثير والكثير.. كانت الروح والاعتبارات المذهبية تحول بينه وبين العشق الحر والغرام الطليق الذى لا يعرف حدودًا ولا سدودًا..

ذات مساء عرف سامى معنى أن تطغى الشهوة على الحياة، عندما طلبت منه إحدى الجارات أن يساعدها فى كتابة رسالة إلى زوجها المسافر، وعندما دخل البيت خلعت ملابسها وصارت عارية كما ولدتها أمها، وصاحت وهى تقبل جسده: "ارحمنى أنا محتاجه راجل".. لأول مرة يعرف أن غياب الرجال عن النساء فى السفر مدة طويلة يدفعهم للبحث عن رجل ما.. أى رجل، وأن الشهوة تفض بكارة الفضيلة دون رحمة، وأن رحمة السماء التى تخص بعد البشر أحيانًا تكون العفة والعفاف، وهذا ما قد ينجح فيه البعض أو يفشلون حتى الأنبياء..

سامى فكر أن يفتح حوار مع أبيه ومع أمه ومع أخته حول مميزات المعلم شداد لعله يساعده ببعض المال حتى يسافر.. قال الأب له حين صارح سامى أباه فى موضوع المعلم شداد

- أنت جنيت يا ولد أبيع بنتى لتاجر غبى جاهل.. والله يستحيل

قالت أم سامى له:

- شداد.. شداد مين مين يا ولد أنت مخبول؟..

قالت سهر لأخيها سامى:

- أنا لا أتزوج رجلا من الجبل.. يا أخى يا ابن أمى وأبى.. هل تبيعنى من أجل حفنة ليرات ذهب أو فضة؟.. إنى أحلم بالسفر والزواج من رجل أطوف معه العالم، وأزور جامع الأقمر فى القاهرة.

سامى يفكر فى السفر مثل أخته، وكلاهما يود الطيران إلى آخر العالم بلا كلل أو ملل.. يعلم أن أخته يروقها كاظم مدرس اللغة العربية.. سامى لا يحب كاظم إنسانًا، لكن يقبله

معلمًا.. بين القبول والحب شعرة.. الناس تكره وتحب بعضها بلا سبب.. الناس تحب أحيانًا بسبب واه وتكره بسبب واه.. خلق الإنسان ساذجًا أم شريرًا؟.. لا أدرى

لقد تعود سامى أن يكتب على جسد النساء الوحيدات الجميلات التى هاجر أزواجهن إلى فنزويلا أو أمريكا الجنوبية ونسوا النساء.. يجلس سامى على المقهى يتصرف كأبيه فى شموخ أنفه وحالته..

الفصل الثالث عشر

وجع الزعيم مصطفى كامل

فتحى رضوان خليل.. حبيب سهر فى المستقبل

كم رجل سحرت عيناك يا ناهد؟

جلس على مقهى سيد درويش، فى محطة الرمل على شاطىء الإسكندرية، معه كتاب وحلم ضائع بين نهد الوطن العربى وفرج الوطن مصر المستباح من كل الاستعمار منذ سبعة الاف عام.. مقهى سيد درويش، ومسرح سيد درويش، وشارع الشيخ سيد درويش فى كوم الدكة فى الإسكندرية.. قتلوا سيد درويش فى القاهرة حينما طلب ٦٠٠ جنيه مقابل تلحين أوبريت.. قالوا "جن الرجل".. بلغ إنتاجه في حياته القصيرة من القوالب المختلفة العشرات من الأدوار، وأربعين موشحًا، ومائة طقطوقة و ٣٠ رواية مسرحية وأوبريت.

في الفترة التي عمل فيها الشيخ سيد درويش على المسارح الرخيصة عرف أمرين لم يكن له بهما سابق معرفة: النساء، وصياغة الألحان؛ فالتعارف الأول طبيعي وأما التعارف الثاني فكان بحكم الموهبة المتأصلة في نفسه وروحه وكلاهما فطري بالنسبة لهذا الفنان الكبير كما أن ألمه الكمين في نفسه كان السبب في أن يخرج إلى الوجود بلغته الفلسفية النغمية فيسحر بجمالها الألباب ويرقص النفوس.. إنه ما كان يلحن أغنية حتى يرددها أفراد الشعب والعوالم اللواتي يقمن الأفراح والمسارح الغنائية وموسيقات الجيش والموسيقات الأهلية.. السر في انتشار الشيخ سيد بين أفراد الشعب هو أن لكل لحن قصة ومناسبة ولكل مناسبة أثرها العميق في نفس الشيخ سيد درويش المرهفة الحساسة؛ فأول أغنية لحنها كانت "زوروني كل سنة مرة حرام تنسوني بالمرة"، وكانت مناسبة تأليفها أن امرأة يحبها قالت له هذه العبارة: "ابقى زورنا يا شيخ سيد ولو كل سنة مرة"، ولحن آخر كان وحيه امرأة غليظة الجسم اسمها جليلة أحبها حبًا عظيمًا وغدت إلهامه في النظم والتلحين والغناء.. هجرته هذه المرأة وأخذت تتردد على صائغ في الإسكندرية وعمل لها الصائغ خلخالًا فغضب الشيخ سيد وفكر بالانتقام من حبيبته وعزوله وكان أول انتقام من نوعه على الطريقة الموسيقية الغنائية..

مات الشيخ سيد كمدًا نتيجة تعاطيه جرعة من الهيروين لينسى ما فعله أصحابه به، انتهت حياة هذا الفنان الخالد يوم ١٥ أيلول من عام ١٩٢٣ (ويقال أن سبب الوفاة هو تسمم مدبر من الإنجليز) وله من العمر إحدى وثلاثون سنة وما أقصره من عمر وما أكثره من إنتاج وما أشقه من جهاد في سبيل هذه الحياة القصيرة المتواضعة التي جددت الروح في الطابع الأصيل للمزاج المصري، ولا يزال نشيد "بلادي بلادي" الذي ألفه في مطلع القرن ٢٠ هو النشيد القومي لمصر اليوم وكان المصريون يفتخرون بذلك.. جلس فتحى رضوان وهو يشرب الشيشة.. يقرأ مذكرات محمد فريد الزعيم الوطنى.. فى صفحة ٥٤ يقول الزعيم محمد فريد: (في خريف ١٩٠٦ توسط الدكتور صادق رمضان ومهد السبيل للمقابلة وفعلًا اجتمعنا أنا ومصطفى كامل والدكتور صادق ولطيف سليم باشا وهو ابن سليم باشا الحجازي أحد قادة الجيش المصري في عهد محمد علي ووالده فؤاد سليم زميل وصديق مصطفى كامل بمدرسة الحقوق.. وقابلنا الخديو عباس حلمى الثانى ليلًا في عزبة مسطرد وهي تابعة لمركز شبرا الخيمة في محافظة القليوبية.. وفي هذه الليلة اتفقنا على تأسيس الحزب الوطني والنادي وجرائد الاتندار بالفرنسية والإنجليزية، وكنا مختلفين في أن يكون الحزب سرًيا أو علنًيا وكان رأى الخديو بأن يكون سرًيا، وبأن ينتخب أعضاء لجنته سرًا ولكن تغلبنا على هذه الفكرة وجعلناه جهرًيا.. وكان الخديوي يريد أن يطعن الإنجليز بسبب كرهه للورد كرومر.. أسسنا شركة الاتندار برأسمال قدره ٢٠ ألف جنيها.. دفعت أنا منها ٥٠٠ وأوعز الخديو عباس إلى الكثير من الأغنياء بالدفع فدفعوا.. مثل الأمير جميل طوسون ومدحت باشا يكن وغيرهما.. أخبرني بذلك الأمر مصطفى كامل عند وفاته.. ومصطفى كامل نفسه اكتتب بألف جنيه ولكن لا أدري إن كان الخديو دفع له في هذا المشروع أم لا لأنه رحمه الله كان يخفي علىَّ كل ما يختص بالمساعدات المالية التي كان يأخذها سواء من الخديو عباس حلمي الثانى أو من السلطان عبد الحميد، على أنه اعترف بأنه أخذ مساعدات كثيرة من الخديو ولكنه لم يعترف لي مطلقا بأخذ شئ من السلطان).

هكذا نعرف أن الخديو عباس حلمى الثانى صاحب فكرة الحزب الوطنى ومؤسس سرى ونعرف من المذكرات تدعيمه للزعيم مصطفى كامل ومن السلطان عبد الحميد.. لماذا خدعونا بأن أسرة محمد على خائنة؟ وكيف تحول بعض أفراد هذه الأسرة إلى مصريين شرفاء، وأحبوا هذا البلد؟

ويذكر محمد فريد في مذكراته: (في صيف ١٩٠٧ سافر مصطفى لأوروبا في ٢٧ يونيه على ما أذكر وقمت مقامه في مراقبة الجرائد فكنت أكتب دائما في الجريدة الفرنسوية التي ظهرت في مارس سنة ١٩٠٧ ولما عاد في أواخر سبتمبر ذهبت لمقابلته بالإسكندرية على الباخرة. وكان الدكتور رمضان بانتظارنا في لوكاندة "أبات" فلما رآه مصفرًا أخضر اللون قال لي همسًا إن حالته الصحية غير مرضية، ولابد أن يكون مصابًا بالسل، وهذه هي عبارته بالفرنساوية il file du mauvais coton.

في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ألقى في الإسكندرية خطبة طويلة أعلن فيها مبادىء الحزب العشرة (هذه الخطبة كانت في مساء الثلاثاء ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧ بمسرح زيزينيا) وقد استعرض فيها الحياة السياسية في مصر بعد الوفاق الودي وفنَّد التهم الموجهة إليه بالتعصب وإثارة الروح الطائفية غير أن الخطبة لم تتضمن المبادىء العشرة كما أشار محمد فريد بذلك كما لم تتضمن مبادىء أخرى معينة إنما هي من نوع الخطب الوطنية الطويلة التي اعتاد مصطفى كامل أن يلقيها في المناسبات المختلفة وإن تميزت هذه الخطبة عن غيرها بوضوح الفكرة. ثم زاد عليه المرض ولزم الفراش مدة واضطربت ماليته كثيرا بسبب المضاربات التي كان دخل فيها هو وأخوه علي. ولما رأى ازدياد حالته أسرع بتأسيس الحزب وخطب خطبته في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ (وهي الخطبة التي ألقاها في أول جمعية الخطب الوطنية الطويلة التي اعتاد مصطفى كامل أن يلقيها في المناسبات المختلفة وإن تميزت هذه الخطبة عن غيرها بوضوح الفكرة)، وتأسس الحزب بالكيفية المعروفة ومن يومها لم يفارق غرفته حتى مات، وأنا والدكتور صادق بجواره

إلى أن أسلم الروح ودفن في مشهد لم يسبق لغيره بمصر، تجلت فيه الحركة الوطنية في أجمل مظاهرها وأخذ الإنكليز والخديو يحسبون لها ألف حساب.

من يوم وفاة مصطفى كامل ابتدأ الخديو يدس دسائسه لانتخاب رئيس يكون طوع أمره ليستعمله في أموره الشخصية وليحارب به الإنكليز فأرسل رجاله في الجنازة والمأتم ونفس الشيخ علي يوسف عدو مصطفى والمنافس له في جميع أموره، حضر المأتم والليالي الثلاث الأولى وكذا عرف باشا من رجاله أيضاً وأخذوا يرشحون من يتوسمون فيهم الطاعة من الرؤساء مثل يوسف المويلحي أو عرفي باشا وبعضهم رشح الشيخ على يوسف نفسه. كل هذا لم يفد وفي يوم انعقاد الجمعية العمومية التي كانت دعوتها يوم ١٤ فبراير أي بعد الوفاة بأربعة انتخبت بالإجماع، وممن لعبوا دورًا مهمًا في هذه المسألة بإيعاز الخديو: علي بك فهمي كامل فإنه كان يريد أن ينتخب بصفته أخو الفقيد وجهز أوراقًا مكتوبًا عليها اسمه ووزعها على بعض الحضور وأدخل في محل الاجتماع الكثيرين من غير الأعضاء بواسطة من وضعهم على الباب من رجاله ولكنه لما رأى التيار قويا ضده حول الدفة وخطب في الحضور مرشحا لي بناء على جواب كان كتبه له أخوه من أوروبا يوصيه فيه بانتخابي رئيسًا لو فاجأه القدر المحتوم).

هكذا كان الحزب الوطنى القديم..

الحزب الوطنى الجديد وفي يوم ٧ أغسطس ١٩٧٨ اجتمعت الأمانة العامة للحزب الذي يرأسه الرئيس السادات والاتفاق على تسميته بالحزب الوطني الديمقراطي، وتولى الرئيس الراحل أنور السادات رئاسته حتى اغتياله سنة ١٩٨١. ترأسه منذ ١٩٨١ حسنى مبارك حتى٢٠١١

فى عام ٢٠١١ حطم المتظاهرون عددًا من مقار الحزب الوطنى فى القاهرة والمحافظات، وتعرض بعضها الآخر لمحاولات اقتحام متكررة، ففى القاهرة أشعل المتظاهرون النار فى المقر الرئيسى للحزب بكورنيش النيل، وفى دمياط اقتحم الأهالى مقر الحزب وأشعلوا النيران فى محتوياته.. وفى الإسماعيلية وقعت اشتباكات عنيفة بين المتظاهرين والأمن

فى محيط مبنى المحافظة، وفى الغربية حاصر الآلاف مقر الحزب الوطنى فى طنطا ومزقوا اللافتات الموضوعة حوله، واستولى المحتجون على مقر أمانة الحزب الوطنى بالقاهرة، بشارع قصر العينى، حيث أشعلوا النار فى المقر ثم أطفأوها، خوفًا من انتقال النار إلى محطة البنزين المجاورة للأمانة، وفى بنى سويف، تمكن متظاهرون من اختراق الحصار الأمنى بعد اشتباكات عنيفة، ووصلوا إلى مقر الحزب الوطنى المغلق وحطموا واجهته.. وتكرر المشهد فى المنيا، حيث رشق المتظاهرون مقر الحزب وأحرقوا اللافتات بداخله، واستخدمت قوات الأمن القنابل المسيلة للدموع لتفريقهم ما أسفر عن إصابة ١٥ وفى مدينة سمالوط بالمنيا أيضاً، تجمع نحو ٢٠٠٠ مواطن ورشقوا مقر الحزب الوطنى بالطوب والحجارة. ورشق نحو ٥٠٠ متظاهر بالمنوفية، ديوان المحافظة بالحجارة.. وتم تغيير اسمه إلى الحزب الوطني الجديد بعد تولي طلعت السادات رئاسته في ١٣ أبريل ٢٠١١، حتى تم حلّ الحزب نهائياً بقرار من المحكمة الإدارية المصرية في ١٦ أبريل ٢٠١١.

الفصل الرابع عشر

وطن بلا أجنحة

هذا وطن قتل الأنبياء وطردهم منذ إخناتون، وطن بلا أجنحة لا يحب الطيران والحرية وطن يعشق العبودية المختارة ويزور التاريخ

دقت ميثاء باب سهر، فتحت لها الأم ورحبت بها دخلت ميثاء وضحكت :

- جئت بعريس لابنتك سهر من الإمارات اسمه (منقذ) ابن الطبقة المتوسطة ومعه الدولارات من الإمارات والأمنيات جاء يختار عروسة إنها لابد وأن تكون أجمل بنات الجبل قالوا له إنها سهر جاء منقذ الأشقر من بلاد النفط

فقالت أمها للخاطبة ميثاء:

- لن تترك المدرسة..

ابتسمت الميثاء بدهاء، وقالت:

- سيأتى بعد ساعة هو وأهله.. ثرى وابن أسرة محترمة يعمل فى بلاد النفط.. سيأخذ سهر إلى بلاد العجب والمال والسيارات..

كتمت الأم أنفاسها من الفرح.. سيأخذها هناك فى بلاد النعيم وستركب سيارة فاخرة.. تحصل على الثانوية العامة.. البحث عن فردوس المال، وكاظم يبحث عن فردوس العشق والجمال، وفتحى يبحث عن فردوس الكلمة

"زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب" (قرآن كريم)

انتشر الخبر فى القرية.. نشرته وكالة الأنباء المتحركة ميثاء، ولم تعلم سهر التى كانت فى الطريق إلى بيت شهرزاد: "عريس من بلاد النفط"

قال نزار قباني في قصيدته "آخر عصفور يخرج من غرناطة"

النفط يستلقي سعيدًا تحت أشجار النعاس

وبين أثداء الحريم

هذا الذي قد جاءنا

بثياب شيطان رجيم

النفط هذا السائل المنوي

لا القومي

لا العربي

لا الشعبي

هذا الأرنب المهزوم في كل الحروب

النفط مشروب لأباطرة الكبار

وليس مشروب الشعوب

كيف الدخول إلى القصيدة يا ترى

والنفط يشري ألف منتجع بماربيا

ويشري نصف باريس

ويشري نصف ما في نيس من شمس وأجساد

ويشري ألف يخت في بحار الله

يشري ألف امرأة بإذن الله

يشري ألف غانية لعوب

لكنه..

لا يشتري سيفا لتحرير الجنوب

***

الساعة الرابعة بعد الظهر فى الجبل فى الشام..

جلست سوسن، وأمها تمشط شعرها، وتمسح شعرها..

- أنت أجمل أناث الجبل والضيعة أنت.. سيكون لك شأن كبير وقولى أمى قالت، وإن مت قولى الله يرحمها قالت...
- يا أمى أنا حظى قليل فى الحياة.. اجعلى سهر تتزوج منقذ وترحل عن الجبل.. أرجوك أتوسل إليك
- حاضر

***

دخلت "سهر" بيت "شهرزاد".. الباب مفتوح رائحة بخور تخرج منه..

- خالتى "شهرزاد" خالتى "شهرزاد" وينك؟؟
- ادخلى يا "سهر"

دخلت "سهر".. جلست "سهر"

- أجيب لك شئ تأكلى
- لا أكلت سندوتش فى المدرسة وتفاحة أمى عطيتهالى
- شو القصة خالتى أنا ما نمت البارحة
- لا شئ حبيبتى أنا حبيبت أريحك
- من شو تريحينى؟
- من أسئلة كثيرة جواك مو لاقية لها أجوبة
- مثل شو... خالتى؟
- أنت مندهشة ومستغربة أن عطرك طبيعى من جسمك.. وكل الناس اللى حولك وكل الدنيا مابتعرف شو قصة عطرك العرق الطبيعى بتاعك..
- إيه والله يا خالتى مسبب لى مشكلة كبيرة كبيرة .. مو عارفة أعمل إيه؟
- أقولك الحكاية

- قولى
- إن روحك هى التى تعطر جسدك يا صغيرتى.. الأرواح تتناسخ وهناك تقمص الأرواح يقال إن الإنسان تنتقل روحه إلى غيره وهذا ما يدعى بالتقمص هناك شعوب يؤمنون بها بشكل كلي ونحن منهم نؤمن بالتقمص في الحياة السابقة حتى المتقمص، ليتعرف على أقربائه السابقين فقد يكون عمر الطفل ٥ سنوات يتعرف إلى ابنه الكبير من الحياة، ويقال إن المتقمص لا يغير جنسه فالرجل يبقى رجلًا وكذلك المرأة تبقى امرأة.. وإذا كان الرجل سيئًا تنتقل روحه إلى امرأة تظل امرأة عقابًا له ويروي عنه والروح تأخذ ٧ فرص حتى تنجو من النار يوم الحساب
- لا أفهم يا خالتى.
- أنت الروح السابعة يا سهر أما روحك الأولى كانت روح فتاة اسمها نفر
- ومن هى نفر؟
- كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان فى العصر الفرعونى بنت اسمها نفر

الجـــزء الثـــانى

قهـوة زيـــادة

الفصل الخامس عشر

فقط يكفينى حرف منك

فقط يكفيني حرف منك فأذوب وأشعر بشهوة

كل رجال الأرض إليكِ وأنا قّبِلك وأذوب

كاظم يدور في غرفته ويقرأ:

كل المرآيا كاذبة مرايا التاريخ والسياسة..

كاذبة مثل مرايا محلات الملابس الجاهزة.

فتحي رضوان خليل يقرأ:

قال نجيب محفوظ: (المصريون الفراعنة هم أول شعوب الأرض في تكوين الجيش أو اختراع الجيش النظامي مع أن المصريين لا يحبون الحرب وتنفر روحهم من القتال، والمصري كان ينفر من الجندية كما تقول البرديات لأنه يعتقد أنها عمل مؤلم ولا تظن به السوء فالجندية تعني تعرضه للذل والمهانة في التدريب لذلك ينصح في معظم البرديات بالعمل في وظيفة كاتب في قصر أو دولة الفرعون.. لكن الغريب، المصريون اخترعوا سوء التعامل في تدريب العسكر إذا ارتكب أقل الأخطاء وأهونها يطرح على الأرض ويضرب بالعصى ضربًا مبرحًا حتى يشرف على الهلاك من شدة الألم أو يُجلد لأي هفوة تصدر منه ويسيرون إلى سوريا لملاقاة الأعداء على الأقدام التي تأكل أقدامهم التي تعوَّدت على الأرض اللينة في مصر، ويضطرون إلى شرب المياه القذرة أثناء اجتيازهم الصحارى غير مبالين بالأمراض معرضين أجسادهم للتلف وأنفسهم للموت ويعودون عادة مسلوبي الملابس، وذلك لأن النوبيين الذين يحرسون الأمتعة ينتهزون فرصة القتال ويسرقون الأمتعة ويلوذون بالفرار..)

ترى.. نحن علَّمنا العالم كيف نعذِّب العسكر أثناء التدريب.. في عهد رمسيس الثاني (حوالي ١٣٠٣ ق.م — يوليو أو أغسطس ١٢١٣ ق.م) كان المصريون إذا شاهدوا عربة الفرعون أو وقعت أبصارهم عليه سجدوا على الأرض ومسوا التراب بجباههم.. الحاكم بأمر الله المنصور (٩٨٥ - ١٠٢١) الخليفة الفاطمي السادس، حكم من ٩٩٦ إلى ١٠٢١ميلادية.. قام المثقفون والشعراء والكتاب بالسير خلف الصوفيين إلى قصر

الحاكم بأمر الله، وفي كل خطوة يركعون ويسجدون على الأرض ويمسون التراب بجباههم حتى يعفوا عنهم.. ثلاثة آلاف عامًا تعوَّد المصريون على السجود وجباههم على الأرض أمام الحاكم فرعون أيًّا كان اسمه..

***

ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين، تفتح حقيبة يدها تخرج منديلًا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطي الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به في يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين.. تنظر يمينًا شمالًا أمامًا خلفًا، ثم تهمس ورأسها للوراء، وهي تشرب مشروب المتَّى رشفة رشفتين.. تميل إلى اليمين واليسار والأمام والخلف مرتين.. ضحكت وقالت محدثة سهر:

- كان يا ما كان في سالف العصر والأوان فى زمن إخناتون.. بنت اسمها نفر.. تلك أول روح خلقها الله لكِ يا سهر..

قالت سهر بدهشة:

- إخناتون من يا خالتى؟

قالت شهرزاد، وهى تأخذ رشفة من المتى:

- فرعون مصر..
- كانت نفر هناك..

كانت أحلى بنات طيبة (عاصمة مصر القديمة)

***

طيبة القديمة أسطورة عشق.. طيبة مختومة بالمسك والعنبر، مدينة المعابد والآلهة، وأجنحة الأحلام المنكسرة على ضفاف النيل التعيس أحيانًا.. طيبة توشوش الليل والنيل والبحر، ونفر عشيقة القمر، وأحلى بنات هذا الزمن..

المدن الجميلة تحب البنات الجميلات.. جمال البنات يجلِّي صدأ المدن.. وحب المدن للبنات يجبر الرجال على الاستحمام والتعطر لتليق بالمدن أولا والنساء ثانيا.

النيل يستحم فيه الرجال والنساء.. يكتشف طول كل عضو ذكورى فى الرجال المصريين أو من يستحم فيه ليطمئن على نساء مصر ومتاعهن.. ويتحسس أجمل فرج فى النساء والبنات.. النيل ذكر.. خبيث وهادىء ومكير.. ويدَّعى أنه ماء..

تسير نفر كل صباح أو مساء من بين الأكواخ الفقيرة فى الطريق يفوح جسدها عطرا.. كان أبوها (نح) نجار السفن التى تسير فى النيل.. كانت تسكن مع أبيها فى كوخ بسيط يطل أيضا على النيل.. أخوها الأكبر (كي) حاول الالتحاق بكهنة المعبد فى طيبة.. سلطة كهنة المعبد أقوى من كل السلطات.. لو أصبح (كى) كاهنا سيأكل أحسن الطعام والشراب.. لو أصبح كاهنا سينام فى بيت كبير على النيل سيهديه له أحد التجار الأثرياء.

***

المكان قصر إخناتون/ شرفة تطل على النيل

الزمان ليلا

جلس إخناتون بجوار نفرتيتى، وهو يداعب شعرها هامسا فى أذنيها:

- وكان من الجائز أن أكون حارسك وأنت أميرة، وكان من الجائز أن أكون أميرك وأنت سبية، وكان من الجائز أن تكونى قمرا وأكون سماءك.. وكان من الجائز أن أكون المطر.. النجم المشع لك فى الليالى المعتمة.. زفير العشق وشهيق الشهوة لك، وكان من الجائز أن أوزع قلبى خبزا للفقراء ولكِ، أو أبعث روحى هدية لكِ.. وكان من الجائز أن أبيع سيوفى التى لم تحارب، لأن الوطن يحب الكسل والاستسلام، والأمة ترضع البلاهة، وأكتب على حلمتك لأطفالى: "ممنوع الاقتراب".. هذا بئر حنانى فولوا إلى مائكم وابحثوا عن حنانكم بعيدا عنها، ودعوا أمكم لى نورا.. وكان من الجائز - وكل شىء جائز - ألا أجور على حبك وضمة قلبك العطوف..

وقَبلها برفق..

***

كان الفتى (كى) أخو نفر ابن العشرين عاما يسير على النيل حزينا.. كان (كى) أخو نفر لا يحب أن يرث مهنة أبيه النجار.. كان يقول إلى نفر:

- لو أصبحت كاهنا سأحصل فى كل صباح على حليب طازج قد تم حلبه من الأبقار ستحضره الفلاحات الجميلات الفاتنات وتسألنى البركات.. لو أصبحت كاهنا سوف يحضر الفلاحون الرجال الفواكه هدية لى فى كل موسم حصاد. والشوربة ساخنة من لحم الجمال فى ليالى الشتاء الباردة وآكل البامية واللحم والحمص والرمان والزيتون..

طيبة مدينة محظوظة بالنيل، ومحظية بالكهنة.. الكهنة من كل لون وكل صنف واتجاه.. آلهة كثيرة.. آلهة فى كل شبر.. كم تدفع لكبير الكهنة لتحصل على وظيفة كاهن.. الكهنة والكهنوت.. السر والأسرار.. قدس الأقداس.. والتحنيط وغسل الموتى والبركات.. المهنة لا تطلب منه سوى الجلوس فى المعبد طوال اليوم للصلاة والأكل وجمع الهدايا..

***

"نفــــر"

أحلى بنات طيبة..

" نفـــر"

حلم أبناء طيبة..

" نفـــر"

نشيد وعيد..

حاول أبو (نفر) النجار (نح) مرارا أن يقترب من كبير الكهنة (سوات) فى عيد الفصح، وفشل فى أن يهمس ويشرح له حلمه فى أن يرى ابنه (كى) يدخل المعبد رجلا عاديا، ويخرج منه كاهنا يسير فى الشارع يلتف الناس حوله.. يريد أن يرى ابنه يبارك الحجر ويبارك النساء والأطفال وأن يدعوا للفقراء.. يريد أن يراه يصعد التلال يبارك الماعز والشياه والثور والزهور.. يريده أن ينام على وسادة من حرير.. يريد أن يكون نصيبه أكبر من ماء النيل من الآخرين، وأن تصبح له مراكب صيد كثيرة، وأن تكون له موانيها التى على النيل..

اشتهت (نفر) أن تكون أميرة وأن تتزوج من أمير، ولم لا؟.. إنها مميزة.. إن رائحة عرقها عطر يخلب عقول البشر حتى الحجر، وإن الطير يطير فوق رأسها حين تسير.. إنها لا تحب عيد فيضان النيل، مع أن النيل هو الحياة.. النيل يرى الجميلات يسبحن، يهيج.. يتحسسهن.. النيل يخلع فى الليل ملابسه ويضاجع البنات.. النيل وغد، زير نساء، ماكر، كريم، حقير. وقح. النيل حانى ويسمونه حابى.. النيل حين يحب نهد الجميلات يعض الحلمات..

المصريون بلا خجل أحيانا.. بلا عقل أحيانا.. يذهبون إلى المعبد يصلون أملا فى الخلاص ويسرقون القمح فى الصباح لأنهم فقراء.. علمهم أمنحتب الثالث فرعون مصر أن النيل مقدس لا يتبولون فيه.. لا يغسلون أبقارهم.. لا يلقون فضلاتهم.. كان أمنحتب الثالث الذى يقال أنه "النمرود" يعلّمِهم أن ُيصلُّوا ويعبدوه هو لأنه الإله.. هو الله.. كان

يجعل المصريين ينحنون لقصره الأبيض من أبعد المسافات حتى ولو على بعد خمسة كيلوات ما داموا قد شاهدوه.. كان "أمنحتب الثالث" والد إخناتون زير نساء وأمضى الوقت فى اللهو وجمع المال والنساء الحسان..

النيل هو الزراعة والانتظار والصبر.. المصريون هم الصبر.. هم الانتظار.. انتظار الزرع لينضج.. انتظار الفيضان أن يأتى.. انتظار فرعون أن يرضى.. انتظار المطر.. انتظار الانتظار.. كان فرعون يستغلهم طول الوقت لبناء المعابد.. علمهم حرفة النحت بجانب الزراعة، وقال: كل من شارك فى بناء معبد لفرعون دخل الجنة يوم الحساب، وسيقف امام أوزوريس، ويعطيه حسنات.. الكل يعمل بجد.. من تمرد وهرب من العمل فى بناء معبد أو قبر فرعون يقيد بالحديد، ويعمل تحت صوت الكرباج. أما الذين هربوا من ظلم "أمنحتب الثالث" والد إخناتون عبدوا فى الخفاء: الثعبان، والقوس، والصرصار، والخنفساء، والجعران بدلا من (النمرود) أمنحتب الثالث..

المصريون يبحثون عن العدل فى الخفاء حتى ولو فى عبادة خنفساء، جعران، قطة، أو زهرة اللوتس.. كل مصرى يختار له إلها فى السر.. إنه موقف مقاومة ضد (النمرود) الذى حكمهم بالحديد والنار.. كان ابنه إخناتون (أمنحتب الرابع) مختلفا لا يحب أن يعبد التماثيل ولا يحب أن يدَّعى أنه إله.. كان يرى أن الله قوة أكبر من كل شىء، وأن ممارسة الحرية تتم بين الباطن والظاهر بين تغيير الزمان وضوء المكان.. كان إخناتون يحلم بأن يعرف لغة الطيور، والحشرات، وكل الكائنات..

عندما اكتشف أهل طيبة رائحة عطر (نفر) الجميلة بدأت الأقاويل والأساطير عنها..

قال الأول: إن النيل وقف أمامها فى الليل وطلب منها أن تستحم فيه.. رفضت؛ فأعطاها سره بعضا من ماء مقدس مسحور.. استحمت به فى بيتها صارت أجمل وجلدها أملس وعرقها عطر..

قال الثانى: إن سبب العطر أن أمها اغتسلت ليلة أن ضاجعها زوجها النجار (نح) بزهر يشبه الياسمين أو اللوتس أو ربما زهرة جبلية من صنع الملائكة التى تلقيها السماء على أرض مصر فى ذكرى وفاة أوزوريس..

وقال الثالث: أن هذه البنت نفر أتت نتيجة مضاجعة القمر لأمها حين مر القمر عليها وجدها تتأوه فى الفراش شبقا لزوجها الذى بات ليلتها فى الميناء للعمل على ضفاف النيل، كان القمر حينذاك قد أخذ أجازة من السماء، ونزل على الأرض؛ فضاجع الأم فأنجبت (نفر) فى صورة القمر.. أما عطرها فهو دم القمر، والدليل أن الطيور تلاحقها حين تسير فتطير فوقها فى زهو وهى تغرد بحنين..

أصبحت (نفر) حديث رجال ونساء طيبة فتاة ينز جسدها عطرا، وتلاحقها الطيور.. العصافير تطير فوق رأسها..

شوارع طيبة ضيقة بها بيوت كثيرة مصنوعة من الطين، أما بيوت الأثرياء تتكون من ثلاثة غرف وحديقة صغيرة.. سكان طيبة يحبون الأثرياء ويحبون فرعون وكهنة المعبد والنيل..

كان المدرس (باكا) يسير فى الطريق إلى بيت إحدى الأمهات، كان نحيلا كأنه إله من آلهة المعبد فرَّ من على الحائط إلى الشوارع، وصار معلما يهتم بالفلك والنجوم والحساب.. يهتم بتفاصيل الحياة.. يعلم اللغة الهيروغليفية لأبناء الأمراء والفرعون، لكن لا يمنعه ذلك من إعطاء بعض الدروس بالمجان لبعض الأولاد الفقراء خاصة الذين أمهاتهن جميلات، ودائما تسعى النساء له طلبا أن يأتى للتدريس لأولادهن، خاصة هؤلاء النسوة اللائى يذهب أزاوجهن بالشهور إلى بلاد بونت للتجارة.. تفكر النساء إذا شعرن بالوحشة فى شر الدنيا بكل الطرق للحصول على الرجل.. إحساس الوحدة جريمة للنساء والرجال..

المكان/ منزل باكا

الزمان/ ليلا

قالت أمه وهى تعد طعام العشاء:

- **خبرنى متى تتزوج؟**
- **قريبا.**
- **بنت خالتك وبنت عمتك وبنات الجيران.. ألم تعجبك واحدة منهن.**
- **يا أمى النصيب والقسمة..**
- **لا تلعب بى يا ولد**
- **يا أمى الزواج سجن ومشاكل وأولاد**
- **لا تكن مثل خالك أصبح عمره الآن خمسون سنة، ولم يتزوج ويعيش وحيدا.. من يخدمه؟ من يطبخ له؟.. من يدفىء له الفراش؟.. أنا كبيرة وسأموت، وأنت ستظل وحيدا..**
- **حاضر يا أمى.**
- **حاضر يا أمى حاضر يا أمى.. دائما تقول حاضر.**

دخل أبوه إلى غرفة الإعاشة

- **أنت يا ولد أحببت أن تكون معلما، وكان من الممكن أن تكون كاهنا، أو تدخل الجيش.**
- **أتريدنى أن أصبح ضابطا وأن أكون فى جيش حور محب، وباتو؟**
- **سيكون لك قصر وخيل وعبيد..**
- **أنا أحب مهنة التعليم أحب أن أنير العقول يا أبى.**
- **النور يسسبب المشاكل وخاصة نور العقول.. الظلام راحة لذلك يحب الناس الليل ليستكينوا فيه.. أنت لا تفهم يا بنى من فهم يعانى.**
- **أظن أن إخناتون يحب الحكماء والعلم..**

- لكن كل من حول إخناتون لا يحبون..

***

الزمان/ المساء

المكان/ بيت نفر

والقمر فى طيبة..

قال أبو نفر (نح)، بينما كانت الأم تجهز الخبز والحليب للعشاء:

- إننا نحتاج إلى معجزة كى ينجح ابننا (كى) فى الحصول على وظيفة فى المعبد

قال كى أخو نفر:

- لا تقلق يا أبى إننى سأقابل غدا كبير كهنة آمون..

نظر الأب بدهشة:

- كيف؟ ومتى؟ ولماذا؟؟ ومن ساعدك فى هذا؟ ومن دبر لك موعدا؟

تلعثم كى.. لم يرد أن يحكى لأبيه عما يدور فى خلده من أشياء، وأنه أرسل رسالة مع أحد الكهنة بها كلمتان: "اسمح لى يا سيدى الكائن الأعظم بمقابلتك لأمر مهم".. ترى لماذا كذب كى على أبيه؟ ما الذى يود أن يقوله للكاهن، وما الأمر المهم؟

كى يحلم بأن يرتدى زى الكهنة..

أبو نفر (نح) يحلم بأن يكون ابنه كاهنا ويعرف أسرار المعبد..

الكهنة هم السلطة العليا فوق الجيش.. هم الند لفرعون كانوا يخافون "أمنحتب الثالث".. كانوا يعملون له ألف حساب، لأنه يحب الدماء، الشعب المصرى لديه مثلث مسجون فيه: فرعون، والدين، والأرض..

قام كى ودخل حجرته وأغلق الباب وبكى.. فتحت الباب ودخلت نفر عليه وجدته يبكى، فاندهشت:

- ما بك يا كى؟
- لا شيء.

- هل تشاجرت مع أحد أصدقائك؟
- لا
- أبوك طلب منك العمل معه كالعادة، ووبخك؟
- لا.
- فهمت لأن بيتى فتاتك الجميلة رفضت الزواج منك، وتزوجت من أحد التجار الأثرياء.
- ليس الأمر هكذا.
- خبرنى إذًا لماذا تبكى؟

فتحت الباب الأم وجلست معهم:

- ما بكم؟
- دخلت الحجرة وجدته يبكى.
- يبكى.. لماذا؟
- لا أعرف.. ربما أبى قال كلمتين له كعادته؟
- لا.. بل أبوك فرح لأن اخيك سيقابل كبير الكهنة "سوات" غدا
- هذا خبر رائع.. إذًا لماذا البكاء؟
- نعم؟

ضحكت نفر وقالت وهى تمسك مشط شعرها

- ها خبرنى.. من واسطتك؟

لم يرد.. تركها، وترك الغرفة، وخرج..

نظرت الأم لها فى دهشة:

- ماذا به يا بنت؟
- لا أدرى يا أمى.

***

فى كل صباح.. نفر تخرج إلى السوق تبيع الجبن مقايضة مع بعض الأشياء التى يحتاجها البيت.. عندما تقترب من أى بائع يصاب بالهلع.. لقد شم عطرا لم يشمه من قبل إنه عطر نفر.. نفر ست الحسن والعطر والمطر والحضور والجمال دون نقاش.. تحصل على ما تريد مقابل الجبن.. أطباق للبيت، أو حصير، حتى ولو كان الثمن باهظا الذى به المقايضة مقابل جبن رخيص جدا، ودائما تذهب نفر للباعة الرجال وليس النساء.. لأن النساء سوف يقمن بسبها وتأكلهن الغيرة من عطرها.. سيقولون:

- جبنة.. جبنة إيه يا أم جبنة؟

أمها اعتمدت على نفر فى المقايضة حتى فى الغروب تذهب على شط النيل، وتستقبل الصيادين وتقايض جبنة بسمك.. كانت النسوة تغار منها، بل تجن:

- ماذا تفعل تلك البنت الصغيرة المفعوصة للرجال؟

همست إحدى النسوة:

- إنها عاهرة لذلك يرضخ لها التجار الرجال.

وقالت أخرى:

- إنها تغوى الرجال بعطرها.

قالت ثالثة:

- عمرها ١٧ سنة وتتصرف كأنثى فى الثلاثين من عمرها، وترفض الزواج من أى رجل بسيط، كأنها تريد الزواج من فرعون نفسه..

النساء.. النساء والغيرة.. تعودت نفر أن تذهب فى نهاية اليوم إلى السوق حيث يقوم الباعة بالبيع أرخص حتى لا يعودون إلى بيوتهم بالخضار والبضاعة فتتلف.

ذات غروب وبينما (نفر) عائدة بسلة السمك من السوق، قابلها على النيل (باكا) المعلم.. فوجئت بهذا الرجل وقوامه الشامخ وسماره كأنه من وحى الأساطير ظهر.. التفت لها فالتفتت له.. ارتبكت وهى تخطو على الرمل بالحذاء.. فوقعت ومعها سلة السمك.. جرى المُعلم باكا إليها ليساعدها لتنهض.. لمس كتفها العارى وشم عطرها وهو

يحملها من الأرض لتنهض.. كانت هذه اللحظات وهو يحملها للنهوض كأنها سنوات وكأن عطرها يتسلل فى دمه فيضىء فى روحه.. من أين أتيت أيتها الأنثى الخرافية؟ كأنك أيتها الأنثى.. صدى الروح فى الحلم.. كأنك أغانى النيل حين يتنهد على صدر النساء، كأنك ومضة تسللت إلى الحشا..

....

أحست نفر بذراعي باكا وهى تحملها كأنها يد غير يد كل البشر.. يد الحب.. يد القدر..!! أى ريح فى أنفاسك أيها الشاب الأسمر؟.. أى لغة فى عينيك غير اللغة الهيروغليفية كأنها لغة غير لغات كل البشر.. لقد لمس إصبعك كتفى ونهدى الأيمن وأنت ترفعنى لأعلى.. إلى أين ترفعنى فى أى سماوات وأى أفق؟؟ إلى أين ترفعنى وتأخذنى عيناك؟

- أنا المعلم.. المعلم باكا.. من أنت؟
- أنا نفر..
- انا المعلم باكا.. الذى يدرس ويعلم اللغة والرياضة..
- لا أعرفك.
- وأنا أيضا لا أعرفك.
- شكرا لك.
- عفوا..
- إذا أردت أى خدمة اسالى عنى.. كل الناس تعرف بيت المدرس باكا.

ضحكت..

- يعنى أنك مشهور
- جدا.
- مغرور.
- مثلك
- أنت لا تعرفنى؟

- أعرفك.
- من أنا؟
- أنت الجميلة..
- تغازلنى.
- نعم
- قليل الأدب.
- ما اسمك؟
- الجميلة.
- اذهب.. العب بعيدا مع تلاميذك، وأمهاتهم.
- أمهاتهم؟ ماذا تقولين؟
- لم أقل شيئا.
- بنت من؟
- لن أقول لك.
- أنا أحب السمك سآتى معك آكل سمكا..
- سأصرخ وألم الناس عليك وأقول يغازلنى.
- لا تذكرى أنك لى.. أيتها المتمردة
- ماذا تقول يا مجنون؟
- تذكرى فقط.

"علّمِنى أيها الُمعلم كيف يكون العشق؟.. أتهجاك أستصرخ فيك الأبجدية والحروف الخفية.. خذنى يا صاحب المكانة حتى أليق بك"

ليلتها لم تنم نفر.. ليلتها لم ينم الُمعلم باكا.. الحب حبل سرى.. الحب خيال ووجع.. الحب زهرة اللوتس.. زهور أراها.. لا أعرف اسمها يا نفر..

كل النساء تشتهيك يا (باكا)

كل الرجال تشتهيك يا (نفر)

كل النساء ترغب فيك يا باكا، وأنت تفر تبحث عن الحب الذى تريده فى عيون إحداهن فلا تجد..

كل الرجال تحوم حولك يا نفر.. ولكن لم يهتز لك جفن ولا رمش ولا دق القلب دقة فى شموخ.. أو ضعف..

لم تنم نفر فى تلك الليلة.. لم تسمع صوت مطالب أمها طوال الوقت بلا سبب.. لم تعرف سحر العينين إلا الليلة.. ماذا يعنى رجل تحبه أنثى هل يعنى أن تتقلب فى الفراش طوال الليل؟.. ترى ماذا جرى لها؟ هل هذا هو الحب؟.. ظلت تراقب القمر من نافذتها حتى جاء الصباح..

فى الصباح استيقظ كى أخو نفر ليتجه إلى المعبد، لبس أفضل ما عنده من ثياب وتجهز لمقابلة الكاهن الأكبر.. بخَّرته أمه.. أطلقت بخور كى.. أبوه صلى إلى آمون كي يوفق ابنه، أما أخته نفر أحضرت عطرا ورشت على ملابسه ونظرت فى عينيه بفرح.. أحست نفر أنه لا يريد أن ينظر لها أو يحملق فيها، كأنه يهرب منها.. خرج من البيت، واتجه إلى المعبد.. الطريق طويل، أم قصير...! وهذا ما دار فى الدار للتجهيز

الأم: أنت.. تكون أفضل كاهن فى مصر.

الأب: تأكد من ذلك أبوك نح أمهر نجار فى بناء السفن

نفر: أنت يا أخى ستصبح من علية القوم وسيكون لك شأن عظيم.

قالت نفر له وهى تنظر له أمام أمها وأبيها:

- يا أخى يا قرة عين أمك وأبيك يا ذاكرة أختك نفر وروحها.. يا رفيق اللعب والطعام والشجار على الطعام الساخن والحليب الدافىء والجرى فى الربيع لجمع الزهور.. كم جلسنا فى الليل لنعد النجوم وننشر الضحكات للقمر والشجر ونتسابق فى الحقول من الأسرع.. وتتشاجر مع الأولاد حين يتحرشون بى أو يغازلوننى.. أقسم عليك بالنور والسرور إن دخلت المعبد لا تنسى أباك وأمك وأختك، وتعال زرنا واحك

لنا عما يدور فى المعبد من أسرار وأخبار وعن الحقيقة والخيال، ولا تنس أن تحضر لأمك الدواء وتحضر لأبيك ورق الأعشاب للدواء ولأختك الحناء والكحل.

قال الأب (نح):

- لو كان جدك حيا لرقص فى الشارع. كان حلمه أن أكون كاهنا، وها أنت يا كى تحقق حلم جدك وحلمى لا تنسنا إذا أخذوك كاهنا.. لا تنس أهل الحى الفقراء.. لا تهمل نفسك.. أنت تنسى غطاء الفراش، وفى كل ليلة أغطيك بنفسى فأمك تنام وتشخر وتنسى نفسها، تتعب معنا طوال اليوم وتطبخ لكل منا الطعام الذى يحبه.. لا تشرب الماء كثيرا كعادتك حتى لا تتبول كثيرا، ويغضب الكاهن الأكبر...

***

الطريق إلى الكاهن الأعظم يعنى الاقتراب من فرعون أمنحتب الرابع (إخناتون) يعنى أنه سيشاهد نفرتيتى أجمل نساء مصر.. سوف يشاهد الأميرات الثلاث بنات أمنحتب الرابع.

فى المعبد دخل (كى) وهو يرتعد وينز عرقا.. قابله أحد صغار الكهنة:

- من أنت.. ماذا تريد؟
- أنا كى ابن نح النجار
- وماذا تريد يا ابن نح النجار؟
- عندى موعد مع الكاهن الأكبر..
- الكاهن مشغول مع قائد الجيش حور محب
- إذًا أمشى؟
- لا.. انتظر هنا يا كي
- حاضر

***

المكان/غرفة الكاهن الاعظم

الزمان/ نهار

الكاهن: يا حور محب.. أنت لا تدرى؟

حور محب: لا أدرى ماذا؟

- إخناتون، أو أمنحتب الرابع
- ما به؟
- تصرفاته غريبة.
- هو هكذا طول عمره
- لم أفهم.
- من صغره تعب أباه معه، ونحن شباب.. هو صديق عمرى
- ولكن أمنحتب الثالث كان محبا للحياة
- هو يحب الاختلاء والتأمل.
- ها.. كلامى إذًا صحيح هو رجل غريب.
- لا أقصد ذلك
- بل أصبت كبد الحقيقة يا حور محب لا يحضر صلاتنا.. لا يحضر
- هو لا يحب السجود للكهنة منذ أن كان طفلا.
- هذا يثير القلق أكثر
- ولا يشرب الجعة (البيرة)
- نعم.
- ولا يشرب البوظة (الخبز المخمر)
- لا تقلق يا كبير الكهنة.. أتركك الآن، وسأزورك فى كل فراغى.

خرج حور محب من الحجرة، عند الباب وهو يقوم بتوصيله إلى الباب لمح كى؛ فنادى الكاهن الصغير، وسأله عنه وسمح له بالدخول؛ فقام بتوصيله إلى غرفة الكاهن

الأعظم.. وأخبره أن الكاهن الأكبر ينتظره.. دخل عليه فى غرفته وجده جالسا وأمامه أوراق بردى.. نظر له الكاهن بتوجس:

- السلام على الكاهن الأعظم.
- أهلا يا فتى ما اسمك؟
- أنا كى ابن نجار السفن نح على شط النيل
- ماذا تريد يا كى يا ابن نح. كتبت فى رسالتك تريدنى لأمر مهم.. ما هو؟

تلعثم كى، وبلع ريقه قائلًا:

- سيدى الكاهن الأعظم.. أعلم فى كل عام يحدث قلق وبحث عن عروس النيل التى تقدم كضحية وهدية حتى يأتى بالفيضان إلينا..
- نعم يا كى..
- النيل يحب عروسته تكون جميلة..
- ها.. ماذا تود أن تقول انجز يا فتى؟
- أرشح لكم أختى نفر؛ فهى أجمل فتاة فى طيبة وعطرها يخلب العقول..

نظر الكاهن الأكبر بدهشة قائلًا:

- تقصد عطر المعبد
- لا يا سيدى.. لا عطر من الآلهة، عطر من السماء، من جسدها..
- لم أفهم.
- رائحة جسدها عطر من الآلهة لا يشبه أى عطر..
- ها.. ماذا تريد مقابل هذا البلاغ مكافأة لك؟
- أريد أن أكون كاهنا.. أن ألتحق بالمعبد.

نظر الكاهن له بدهشة قائلًا:

- لماذا لا تنضم للحرس وتكون محاربا أو من رعاة الخنازير أو تاجرا أو مترجما أو ملاحا فى البحر.. أنت تعلم أن قانون البلاد ألا يتخلى أى فرد عن وظيفة والده

التى ورثها منه، لكنى سوف أستثنيك يا فتى.. لقد قدمت أختك فدية للمعبد والنيل، وأقل ما تحصل عليه يا فتى أنك ستدخل الآن إلى المعبد وتنضم للكهنة لمدة عام لا ترى العالم الخارجى المذنب، إلا بأمر الآلهة..

فرح كى.. قفز اللون الأحمر فى وجهه.. تهلل جبينه.. لقد أصبح كاهنا.. باع أخته للنيل.. للكهنة.. باع نفر.. قال لها ذات مساء:

- نفر.. أريد منك الزواج
- هل جننت؟؟ أنا أختك!!
- تزوج إخناتون أخته نفرتيتى.

صاحت غاضبة:

- أنت مجنون يا ولد؟ إنه إله.. نحن نعيش فى قوم لا يتفكرون.
- أنت تكفرين
- أنا لا أكفر، بل أنت جنت يا ولد.. أنت فشلت فى قصة حبك فتبحث عن أختك هل أنت مجنون؟.. لن أقول لأبى ما قلت حتى لا يغضب منك

بكى

- نعم أنا فشلت فى حبى كل بنات الحى لا يتحدثن معى لا أحد يهتم بى.

دخل كى حجرة فى المعبد، وظل يبكى.. هل للخيانة معنى؟ هل لكل خيانة ثمن؟ هل نخون من أجل أحلامنا أو نزواتنا أو الشر الكامن فينا.. آه يا كى يا ابن نح ماذا جرى لك؟ الآن حصلت على فرصة العمر كى أصبح كاهنا، وتخلصت من رغبتى الشيطانية فى الزواج من أختى نفر.. الآن سيحصل الكاهن الأعظم على نفر التى ستكون هبة للنيل.. ماذا فعلت يا كى؟؟ ماذا فعلت أيها الأحمق؟ بعت أختك أجمل بنات طيبة للمعبد.. أشرت عليهم بأن يزوجوها للنيل من أجل أحلامك، بعت أختك للموت للنيل الذى يتزوج كل عام من جميلة.. لو سكتُّ وقلت للكاهن الأعظم أنى أريد أن أكون كاهنا ولم تذكر اسم أختك نفر؟؟ هل قدمت أختك على طبق للكاهن؟.. ماذا ستفعل أمى عندما يأتى

حرس المعبد لسحب نفر ليجهزوها لعرس النيل الذى سيأخذها ولن تعود.. وهى لا تشبه أى فتاة تزوجها النيل من قبل فى طيبة، وقالت لنا ماذا حدث مع النيل.. آه يا كى اهتديت إلى فكرة بيع أختك.. اكتسبت وظيفة كاهن.. أمك ستكون فى البيت بمفردها مع من ستتشاجر فى الصباح.. من سيحلب البقرة؟.. من سيجهز لها الحطب؟. من سيذهب يقايض الجبن بالسمك غير نفر؟ ستموت أمك من الحزن مبكرا وسيظل أبوك بمفرده.. سيموت بعدها وتنقرض أسرتنا.. أسرة نفر وكى.. لن تصرخ أمى كل يوم: "(كى) اذهب مع أبيك الى العمل"... "(نفر) جهزى الطعام لأخيك"..

آه

أه

آه

قاطعه أحد الكهنة، وقال له:

- أمر الكاهن الأعظم بأن تعمل فى دفن الموتى داخل المعبد.. تتعلم التحنيط..

نظر فى عينيه فوجد كى يبكى.. نظر له الكاهن مندهشا:

- ماذا بك يا كى ما هذه الدموع؟
- لا شىء سيدى.. دموع الفرح..

كانت الأم والأب ينتظران كى أن يعود.. لم يعد من المعبد..

قالت الأم:

- وبعد.. أين ابنى؟ لم يعد منذ خمس ساعات والغروب أتى؟

خرجت نفر من البيت لا تعرف إلى أين تذهب لتبحث عن أخيها.. هل تسأل الطيور التى تطير فى السماء فوقها كل وقت؟.. هل تذهب إلى البحر لتسأل الموج؟ إلى أين تذهبين يا نفر؟ وبينما هى نسرع الخطوات فى شوارع لا تعرف أسماء البشر.

تمشى نفر بلا هدى، وفى الطريق قابلت المعلم باكا.. كان عائدا من درس اللغة الهيروغليفية لابن أحد الأثرياء.. جرت نفر مسرعة إليه بلهفة والدموع فى عينيها:

- أيها المعلم باكا انقذنا؟؟
- أنت مرة أخرى.
- نعم.
- أعرف أنك لا تنامين منذ أن رأيتنى وتحلمين بى.. وأعتقد أنك تتابعينى
- ماذا بك؟.. قلت لى اسمك الجميلة وأظن هذا ليس اسمك؟
- اسمى نفر.
- الله.. اسم نفر على اسم الملكة نفرتيتى.
- أنا فى مشكلة.
- عارف.. ستقولين جاءنى عريس وتقدم للزواج منى قبل أن أهرب منك.
- لا.. لا.. لا..
- ماذا بك خبرينى يا نفر؟.. تريدين فسحة فى النيل معى؟
- أنا فى مشكلة..
- أخى لم يعد من المعبد من الصباح وحتى الآن ذهب لمقابلة كبير الكهنة سوات ولم يعد..
- من هو أخوك؟
- كى.
- من أصحابه؟
- لا أعرف.
- ماذا يعمل؟
- لا يعمل.
- خرج للسوق ؟
- لا.. خرج لمقابلة الكاهن الأكبر
- عودى إلى بيتكم.. سأبحث عنه يا نفر لا تخافى سأطمئنكم عليه..

- لا أستطيع أن أعود دون أى خبر لأمى أو معى أخى.
- إذًا انتظرينى هنا.. لقد قلت أنه ذهب إلى المعبد..
- نعم..
- إذًا انتظرى هنا.. لا تذهبى بعيدًا.. سأذهب وأعود إليك بالأخبار.. لا تتحركى من هنا..

نظر باكا إلى صدرها الناهض دون أن يدرى.. ارتبك.. شم عطرها النافذ رغما عنه وسكر، وشاهد شفتيها الوردتين وحلم.. ذات يوم سأقبلك حتى تدمى شفتاك برحيقى وامتص حلماتك حتى تفرز نورا..

***

قالت شهرزاد:

- إلى هنا صاح الديك وغدًا نكمل الحكاية يا سهر.. من باع باع.. ومن اشترى اشترى.. لقد باع أخته، واشترى الكاهن نفر بثمن بخس.. لقد حوّل كى إلى غاسل للموتى.. غدا نكمل الحكاية أو بعد غد.. يا سهر..

***

كاظم يجلس فى البيت يفكر في "سهر"..ذات يوم حلمت أن أكون وطنا لوطنى، والآن صرت ظلا لحلم عبر فى رموشك يا سهر"

فكر فى سهر.. فى علاقات الفلاحين فى الجبل شيء آخر..

أنا كاظم فى الرابعة والثلاثين من العمر.. ثقفت نفسى بنفسى لكى أكون. عزلت نفسى كى لا أحتك بالآخر السخيف الجاهل.. لم أكن أعرف هذا الكم الهائل من الجهل الذى يحيط بالعالم ومن حولى.. ظننت أن الذين يقرأون ماركس أكثر تطورا من الذين يقرأون الكتب الصفراء.. كنت مخطئا أن صغار الجهلاء يتساوون مع صغار المثقفين.. الكل جهلاء.. كبار الجهلاء يتساوون مع كبار المثقفين فى الغرائز.. إنى أنبش فى الذاكرة كى أعرف مبادىء تعلم الحكمة.. كنت أظن أن سهر أيقونة مقدسة.. تلميذة متطورة

الفكر لكن كلهن فتيات أو نساء.. تدخل الثقافة الحقيقية مع الباطلة وتختلط فتكون مزيجا واحدا لفكر الوطن نصفه نحن بالفكر الكلاسيكى للأمة ونصفه الآخر نسميه المعاصرة، دون أن نغربل أو نصفى أو نفرز بين الحقيقة والزيف.. إن رأسى مملوء بالأفكار.. أى المعانى أحق: الحب أم الزواج؟ النور أم الظل؟ أم لا فرق؟؟

***

أنا فتحى رضوان خليل أعرف عندما لا أستطيع فعل أى شىء.. أمسك القلم كى أشعر بالقوة، وعندما أترك القلم أبكى.. أحن لغسل الروح.. إنه وقت البكاء المقدس.. ألم يبك الأنبياء كلهم بدءا من إخناتون وابراهيم، وآخرهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ألم يبك الزعماء وآخرهم جمال عبد الناصر حين هزم؟ ألم يبك الفقراء جوعا كل ليلة؟ ألم يبك المذنبون أمام الله فى الصلاة وفى الحج؟

سألتنى ناهد حجازى، وأنا أبكى على صدرها:

- لماذا تبكى؟
- لا أعرف
- أنت فاكر نفسك مخلص العالم من الفقر والجهل والمرض..
- ربما هزنى موت جيفارا.. ربما قهرنى هذا الإحساس بالثورة والثورة المضادة وموت بابلوا نيرودا.. أنا لا أعرف ماذا أفعل يا ناهد؟؟ يحيرنى أبو ذر الغفارى الثائر حتى الموت، وكيف نفاه الخليفة. ربما اغتيال شهدى عطية، وحسن البنا حيرنى كثيرا.. كأن الثوار روحهم تجرى فى دمى حتى لا أكاد أعرف نفسي من أنا؟ ضائع أنا بين الثورى والكاتب!
- كن الاثنين.
- لا أستطيع.
- لماذا؟؟
- السياسة فى تماس مع الدعارة ..

- إذًا اخترت الأدب..
- نعم والفن.
- ستخسر كثيرا..
- لكنى سأكسب نفسى..
- السياسيون يحصلون على مناصب وشقق فاخرة وأموال.. الأدباء فقراء إلا من ولد ثريا منهم..
- أنا أجد نفسى فى الكتابة..
- أبله وأحمق.. وكتاباتك مجنونة مثلك..
- الكتابة العاقلة مثل نشرة الأخبار العقيمة ومثل كلام الصحف التى أحب أن أتبول عليها بعد القراءة
- يا فتحى.. لماذا تكتب؟
- كى أحرر نفسى من القلق.
- هل تشعر بالتحرر عندما تكتب؟
- نعم وأشعر بالخبل والهذيان وحمى الأنبياء كأننى فى رحلة خارج الزمان والمكان لأكتشف أنى إنسان. عندما أكتب أشعر بالمتعة والألم أملا أن يشعر القارىء بهذا
- ألا تعرف كم الكتب الموجودة الآن على الأرصفة؟
- معظم ما ُيكتب الآن هو غثيان أو كلمات تتبول فى رأس من يقرأون.. إذا كان هناك من يقرأ؟
- ماذا تعلّمت من الكتابة ومن السياسة يا فتحى؟
- الكتابة اكتشف بها العالم.. والسياسة احتقر بها العالم ونفسى..
- يا ويلى منك..
- يا ويلى أنا فى وطن عبيط
- أتحلم بأن تكون أديبا مشهورا؟

- أحلم بجائزة نوبل وإن تأخرت، فكثير ممن نالوها كتاب ضعاف
- يا راجل..
- هذا مجرد رأى وأسألى برنارد شو الكاتب الإنجليزى ماذا قال عن جائزة نوبل؟

ضحكت قالت:

- سأوصى لك بعمل شارع باسمك فى مصر

ضحك ثم قال لها:

- معظم شوارع مصر بأسماء الخدم والخونة فى تاريخها..

اندهشت قالت:

- كيف هذا؟

هناك شوارع بأسماء زعماء وقادة خونة وأعطيك أمثلة ودليل (حارة برجوان) وهى اسم الخادم برجوان الذى كان فى أيام العزيز بالله الفاطمى (نزار العبيدى الفاطمى) ثم كان برجوان هذا مدبر مملكة الحاكم بأمر الله، وهذه الحارة فى منطقة الجمالية حتى الآن باسم (برجوان) وهناك محلات وفنادق باسم برجوان، والغريب أن الحاكم بأمر الله اكتشف خيانته بسرقة أموال العامة من الناس وتكسبه من منصبه وسرق الملايين من جيوب المصريين فأمر بقتله وحجز أمواله فى بيت المال، وكان الحاكم فى ذاك الوقت يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً ، لكن المصريين مازالوا يقدسون اسمه فى كل الأمكنة برجوان، مصر عبيطة.. (حارة فندق مسرور) وهو خادم فى الدولة الفاطمية وكان قاسياً وكان يجلد الناس فى الشوارع ويخصى الرجال أمام زوجاتهم، بحكم صلاحيته بتطبيق العدل، ومع ذلك المصريون تركوا اسمه حتى الآن، الذى كان يخصيهم سموا باسمه مش بقولك مصر عبيطة.. (حارة بهاء الدين قراقوش) وهى منسوبة إلى بهاء الدين قراقوش خادم صلاح الدين الأيوبي، وهو عبد خصى، بنى القلعة، وبنى سور مجرى العيون، وأذاق المصريين الأمرين جلدا وسجنا وسخرية وإلى الآن اسمه موجود.. (حارة الديلم) منسوبة إلى الديلم الواصلين صحبة أفنكين غلام معز الدولة بن بويه.. حارة "درب" الملوخية

منسوبة لأمير اسمه ملوخية كان صاحب ركاب الخليفة الحاكم بأمر الله، وكان يعرف أيضاً باسم ملوخية العنتراش، وهو ابن أحد فراشى القصر.. (قصر الشوك) حوَّله المصريون إلى اسم قصر الشوق، مع أن القصر كان مرعباً لكل من دخله، لأنه مقر عقاب وسجن للناس.. (حارة العطوف) منسوبة إلى الخادم عطوف أحد خدام القصر فى الدولة الفاطمية وكان الخادم المقرب من الأميرة ست الملك أخت الحاكم بأمر الله.

يا ناهد هذه مصر عبيطة.. المدينة التى نحيا بها مدينة الإسكندرية جزء من مصر التى هى جزء من الوطن العربى.. مصر تسمى أسماء الشوارع بأسماء القاتل والمقتول.. فى القاهرة فى حى الزيتون اسم بشارع طومان باى البطل الذى قاوم الاحتلال العثمانى والشارع المقابل له باسم سليم الأول العثمانى الذى قتل طومان باى.. فى عقل مصر عقلان: عقل عظيم، وعقل عبيط.. وفى الأقصر معبدان: معبد للإله أوزروريس، ومعبد للإله ست قاتل أوزوريس.. من يرد أن يصلى لإله الشر.. ومن يرد أن يصلى لإله الخير.. أنا لست القاتل ولا المقتول.. إذا مرت أحلام مهزومة ووطن ممزق على نهديك فى المساء فهما لى ارسلتهما لك عبر أثير الروح لأنى لم استطع الحضور فجواز سفرى عشب اخضر جف من ندرة مطر حنانك وغيابك ليس حضورا بل الغياب غياب والحضور نور ومعى نور الله لا تخافى على فالله نور السموات والأرض.. إنهم يرتدون سراويل الوهم فى معركة فارغة ويستخدمون ألفاظا سوقية لنشر البلطجة الفكرية..

سرنا على النيل..

- يا ناهد.. الكتابة تعوِّض لى بعض أيام من عمرى الذى سرقه الوطن منى.. سوف أمضى وحدى أمام الله ومعى ما كتبت حتى يغفر لى ما فعلت.. ويمنحنى فرصة للجنة كى أراك.. أريد أن أقبلك وأقلبك على فراش القلب أعريك أبعثرك أغانِ.. أريد أن أدغدغ نهديك وأتنفس نورك، وأتحلل من جسدى وروحى إليك فنصير واحدًا مستحيلًا
- فتحى اسمعنى جيدًا إن ما تكتبه لا ينتمى إلى الأدب

- ينتمى إلى أى شيء؟
- العبقرية.
- لا أعتقد.. نحن أمة لا تحب العباقرة.
- ومررت على صفحات الشعراء بحثا عن ورودهم وجنونهم وإبداعهم المميز وجدت منديلا لك فى صفحة أحدهم ووردة من حديقتك فى صفحة أخرى، وعلبة روج على حروف أحدهم، وتنهيدتك على تنهيدة شاعر.. أخبرينى سيدتى ماذا تبقى لى نثرت لؤلؤ قلبك وذهب مشاعرك وتركت لبن ثديك للكلمات العطشى للشعراء.. هل تقبلين لفارس مثلى أن يحصل على الفتات وبقايا عواطفك الثرية التى تبددينها هباء؟ أعتقد أن المرأة الاستثناء غير مشاع قلبها..
- أرنى ماذا كتبت اليوم

قدمت لها ما فى يدى

- بشرط أن أسمع ما كتبت بصوتك
- طيب هات

أخذت الاوراق وبدأت تقرأ:

إذا ما مر قلبى على بابك سليه عنى وعن أحوالى، وأنا التائه فى بحر معرفة اليقين يا سيدة الحنين.. شمسك لا تغيب عنى إذا ما حاصرتنى طلقات الظلام العنيد..

ثمة احتمال أن أخطف القمر فى حرف من اسمك.. ثمة احتمال أن أخطف الزهور لك، وثمة احتمال أن أطير فوق السحاب حتى أراك، وثمة احتمال أن أنثر كل عمرى أغنيات.. ثمة احتمال أن أراك فى الحلم، ولكن أكيد أن حبك فى قلبى عنيد وشديد لا يلين. بدونى أنت زهرة لا تنمو ولا تكبر ولا تصغر تفقد عطرها كل يوم دون أن تدرى.. بدونك أنا حزن لو وزع على مدن الأرض والسماء تفجر بحيرات ومطرا وغمامات.. بدونك أصير موحشا وحشيا.. بدونى أنت حواء صلعاء سحابة سوداء .بدونك وبدونى العالم قبيح موت فناء..

سيدتى هل تتزوجينى؟ حتى نقلب الكون ونغير بالحب الجنس البشرى ويصير الرماد نارا والجفاف ماءً..

على كتفى أحملك واحكى لى لماذا أغضبك القمر فى غيابى هل حاول أن يختلس قبلة أم طلب منك أن تصعدى بدلا منه ويحصل على أجازة ورفضتِ.. تعالي أكشف لك سر أبجدية عشق الطبيعة لنا وسر عشقنا.. تعالي اخلعى نعليك معطفك ثوبك وتمددى على جسدى قلبك فى جيبى اليمين وروحك فى صدرى لا تتأخرى..

خلقت بقلبين.. قلب قسمته نصفين: نصف للعرب، ونصف لمصر.. وقلب لحب الله مخفى به ألف قلب لنساء أحببتهن وأحببننى وهجرننى وتركننى.. كان منهن فاتنات وسابحات ورقيقات ومنهن قاتلات الرجال برموشهن ومنهن من قتلننى ألف مرة ونسيننى.. ويفضحنى الهوى فأبوح ولا أبوح.. قلبى المجروح لم ينتئن عن عشق حرفك الصبوح..

انتهت واخذت تبكى..

الفصل السادس عشر

العصفور المغامر

ترتشف شهرزاد القهوة.. رشفة رشفتين.. تفتح حقيبة يدها تخرج منديلًا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطى الخليج تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة، مرتين، ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين تنظر يمينا شمالا أماما خلفا ثم تهمس:

- ما هذا الذى على كتفك؟
- عصفورى.. يا خالتى..

نظرت شهرزاد فى عين العصفور خبأ عينيه بجناحيه.. ابتسمت شهرزاد بخبث؛ قالت سهر:

- لماذا تضحكين يا خالتى؟
- لا شىء
- لا شىء كيف، وضحكتك تنم عن شىء ما؟
- هذا ليس عصفورا، بل قلب عاشق هائم بعشقك يا سهر، المريد يسير والمراد يطير.

ضحكت الصغيرة سهر وهى خائفة:

- هل العصفور جن؟
- لا..
- بل قلب عاشق.. للعشق حكايات نعجز عن فهمها.. الله هو رب القلوب.. احكى يا صغيرتى سهر..
- هل أطرده؟
- هل يطرد شخص قلبا يعشقه ويطارده أينما رحل؟
- ماذا تخبىء لى الأيام يا خالتى؟!
- الأيام حبلى بالغرائب والعجائب، وهذا هو سر الحياة..

دق الباب بينما هما جالستين.. قامت شهرزاد لتفتح الباب، وجدت أمامها وردة ابنة المختار

- أهلا يا وردة.
- أهلا يا خالتى شهرزاد.
- هل تريدين شيئا؟
- هل تستقبلين ضيوفك من على الباب.. ما فى كاسة متى أو قهوة أو شاى
- تفضلى.

دخلت وردة، ولم تفاجأ بـ سهر، بل نظرت إليها بخبث ودهاء:

- الله إنتي هون.. كيفك.. منيحه؟
- إيه منيحة.
- الحمد لله.. لازم تكونى منيحة..

شهرزاد تعلم أن وردة لا تحب سهر.. تعلم أن الصراع على كاظم بين اثنتين كلتاهما جميلة، ولكن إحداهن سهر تملك سحرا وهوسا للرجال، والأخرى وردة تحمل شر الجمال الناعم فى الأنثى.. تدخلت شهرزاد

- أأمرينى خاتون.
- لا شىء خالتى بس كنت بشكى من صداع برأسى بدون أى سبب، وبقلق فى الليل بدون أى سبب أيضا.

ضحكت العجوز شهرزاد:

- هكذا الجميلات يا وردة يسحرن الرجال ويتزوجن القلق والصداع فى صمت..
- بدى تشوفى لى الفنجان.. من شو هذا.. يمكن يبان؟

قامت شهرزاد لتحضير المتى والقهوة لترى الفنجان.. انفردت وردة بـ سهر.. نظرت لها سهر وقالت:

- انتي عارفة إنى هون صح؟
- عارفة..
- وبتلاحقينى بجواسيسك ميثاء وغيرها بدك تمسكين علي أى شىء لتفضحينى صح؟

- يمكن..
- ماحتنولى منى أى شىء.. ديرى بالك
- ديرى بالك انتي..
- شوفى يا سهر.. أحسن لك تسافرين برات الجبل وما ترجعين هون للجبل تانى ولو رجعتى حفضحك.. هاجرى بلا عودة سامعة.. تاخدين منقذ بتاعك وما ترجعين للضيعة هون تانى سامعة
- أفكر..
- أنا حذرتك.. كل نفس تتنفسيه أنا باعده عليكي.

نظرت سهر فى عينى وردة، وجدت فيهما ساحرة وجنى وشر.. خافت للحظة أو لحظتين ثم أجمعت كل ما بداخلها من عناد أنثى لا تعرف الوهن ولا الاستكانة.. هى لا تستسلم إلا للعشق فى لحظة شجن..

- اسمعى وردة ترى أنا ما تهدد.. أنا اتحملتك فوق الوصف لأنى لا أخافك. بل أحبك لأنك جميلة وتربينا سوا وفى مدرسة واحدة من ابتدائى إلى ثانوى وكنا دايما فى فصل واحد، لكن ما توقعت إنك سافلة لهاى الدرجة

دخلت شهرزاد وأمسكت فى يديها فناجين القهوة، متجهة إلى الفتاتين قائلة:

- هاى القهوة.. أحلى قهوتين لأحلى أميرتين..

صمتت الفتاتان.. طار العصفور فى غضب فوق رأس وردة، كأنه يدافع عن حبيبته سهر؛ ففزعت وردة.. سقط فنجان القهوة من يدها.. قامت تبرطم وتزمجر.. خرجت من دار شهرزاد متسخة الثوب من القهوة التى وقعت على ثوبها.. انفجرت شهرزاد وسهر فى ضحكة عالية..

نظرت لها شهرزاد:

- قلب العاشق يدافع عنك يا صغيرتى.
- قلب العاشق؟؟

- العصفور.

- نعم العصفور.. إحكى لى ماذا فعلت نفر التى كانت تعيش فى قصر إخناتون..

"ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين.. تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطى الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين تنظر يمينا شمالا اماما خلفا ثم تهمس:

قال إخناتون للإله وهو يصلى:

- إنك صانع ومصور دون أناشيد، مصور لأعضائك بنفسك. ومصور دون أن نصور منقطع القرين فى صفاته يخترق الأبجدية

***

المكان/ قصر إخناتون

الزمان/ ليلا

جاء الليل وأضاء المشعلجى النيران فى أرجاء القصر حتى يصبح للقصر ضوء، وكان إخناتون يراقب قرص الشمس فى الغروب وسجد.. دخلت نفرتيتى ورأت إخناتون جالسا يرتل نشيدا خرجت غاضبة بينما هو يرتل:

أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء

أنت يا (آتون) الحى الذى كنت فى أزلية الحياة

فحينما كنت تشرق فى الأفق الراقى

كنت تملأ بلاد الكون بجمالك

أنت جميل ومتلألىء ومشرق فوق كل أراضى الكون

وأشعتك تحيط بالأرضين حتى نهاية جميع مخلوقاتك أنت.. وأنت تخترق الأرضين حتى نهايتها القصوى.. وأنت توثق عبادك لابنك المحبوب الفرعون

ورغم أنك قصى جدا فإن أشعتك فوق الأرض

ورغم أنك تجاه البشر فإن خطواتك خفية عنهم

.....

دخلت الأم الملكة تى خلوة إخناتون، وجدته يصلى.. اتجهت نحوه وهو ساجد.. رفعت رأسه الملكى المقدس وقبلت جبينه..

- ماذا تفعل يا فرعون مصر أمنحتب الرابع العظيم الملك الثامن؟
- كنت أصلى إلى آتون إلها واحدا لا شريك له..
- أنت لا تخرج من بطانة عقيدة أبيك؟
- إنى أرى الحقيقة يا أمى.
- أنت حكمت البلاد مع أبيك الملك أمنحتب الثالث منذ سن السادسة عشر وتعلم جيدا أن الخروج عن العقيدة سيفتح بابا من الشر عليك.. إن الشر له أبواب تسعة، والخير له باب واحد كما تقول حكمة الأجداد..

وفجأة اقتحمت الخلوة الملكة نفرتيتى، ودخلت دون استئذان وانحنت أمام الملكة تى قائلة لها:

- يا مولاتى الملكة تى أرجوك حدثي أمنحتب الرابع.. إخناتون الذى يلعب بنار العقيدة المقدسة. وكهنة المعبد لن تسكت أبدا، ويكتمون غيظهم، وإننى أقول لهم إن الملك فرعون يحبكم ويقوى بكم ولا يمكن أن ينقلب عليكم..

قال إخناتون غاضبا:

- الكهنة سبب بلاء هذه البلاد باسم الآلهة يلعبون بعقول الشعب الساذج البسيط، أنا جعلت الآلهة إلها واحدا؛ فقالوا إن هذا لشىء عجاب، وقالوا هذا اختلاق.. إن الكهنة زاغت عنهم الأبصار فلا يبصرون.. ما من إله إلا الله الواحد القهار.. أنا أجادلهم بالتى هى أحسن، ولم أقتل أو أحاكم أحدا يعبد إلها آخر غير آتون.

نظرت الملكة تى إلى نفرتيتى وقالت لها:

- دعيني يا ملكتى الصغيرة أتكلم مع الفرعون على انفراد..

خرجت نفرتيتى غاضبة أو كاتمة غيظها.. هى تعلم أن شعب مصر يحب الملكة تى أكثر من أمنحتب الثالث ومن نفرتيتى ومن نساء العالم حتى رجالها بما فيهم إخناتون.. كانت نفرتيتى تعلم أن والد إخناتون، (أمنحتب الثالث) قرر أن يعلن زواجه من تى أم إخناتون على شعوب الإمبراطورية جميعا فحمل الرسل إليهم بعدد من الجعارين نقش عليها نص يعتبر بمثابة إعلان ملكى.. ولقد استن (أمنحتب الثالث) عادة استعمال الجعاربن فى تسجيل الأحداث الكبرى وهى فكرة تطابق عادة صك النقود وطوابع البريد التى تظهر فى مناسبة معينة.. لقد تزوج من هذه الصبية الذكية الفاتنة التى رأها تتردد على أمها فى القصر والتى تعمل مشرفة على الملابس والتى أصبحت ملكة وأما لنبى التوحيد الأول إخناتون ...

قالت الملكة تى لـ إخناتون:

- أى مليكى الصغير إخناتون إنك لا تعرف أن الدولة أربعة ضلوع: الفرعون، والجيش، والكهنة، والشعب.. إن فقدت ضلعا سقطت يا مليكى من قلب التاريخ إلى هامشه.. إن فرعون مصر يقود الأمة، ويقود المعبد والكهنة والشعب.. إن إخاك "سمنغ كارع" يؤمن بأفكارك وبما تقول ويساندك.. إن قوة الأخوة أكبر من الكلمات والمواقف.

أخذ الفرعون يرتل من جديد إلى آتون:

(رغم أن) سيرك خفى عن أنظارهم
أن تجتاز سياحة مقدارها فراسخ
بل مئات الآلاف من المرات وكل
يوم تحت عرشك ترانا..
وكل الناس ينظرون بوسطاتك
وأنت خالق الكل ومانحهم قوتهم
وأنت أم نافعة للآلهة والبشر
وأنت صانع مجرب

وراع شجاع

وأنت ملجؤها ومانحها قوتها..

أخذ الفرعون إخناتون يبكى فى سجوده أمام الله.. أخذته أمه الملكة تى وضمته إلى صدرها بينما عيناه تزرفان نهرين من دموع الإيمان إلى الله رب العالمين

قالت الملكة تى:

- وماذا بعد؟؟.. إنى أنصحك أن تحذر من الكهنة.. إن أخاك "سمنغ كارع" هو عونك وملاذك.. ويدك اليمنى فى الحروب وفى الداخل والخارج..
- إن نفرتيتى تهاجمنى فأشعر أنى سأطعن من داخل أسرتى وليس من الكهنة..
- اسمع أمنحتب الرابع أو كما تحب أن تنادى "إخناتون".. اسمع يا إخناتون إن نفرتيتى امراة لا تنجب إلا البنات؛ فعليك الزواج من امرأة أخرى تنجب لك ولدا.. ساعتها سوف تتحول إلى صفك تؤازرك وتدعمك وتنجب لك صبيا هو ولى عهدك إن أحببت..

راح ينصت لكلام الملكة تى.. التي أكملت كلامها:

- يا إخناتون.. إن النقوش التى ترسم وتكتب عنك وعنى بعد وفاة أبيك باثنتى عشر عاما لم تذكر أن نفرتيتى الشعب لا يشعر بها ولا يحبها لك ولا للعرش.. هى تحب نفسها.. نفرتيتى فقط تحب نفرتيتى، أى "الجميلة مقبلة" أو "الجميلة تتهادى" هى تعشق ذاتها وجمالها.. إنى أنصحك بزواج الأميرة كيا
- كيا؟؟؟!!
- نعم.. هى جميلة وستنجب لك ولدا.. نفرتيتى تخلف لك البنات، وسوف تغار نفرتيتى وتصبح تحت قدميك.. إنى أنصحك بالزواج فورا من كيا الليلة

تركته وخرجت من الخلوة

***

دخلت نفرتيتى إلى قصر سمنخ كارع أخي إخناتون، وهو المقرب إلى قلبه، وحكت له.. وظل يسمعها وهى تشكو وتشكو، وهو يأكل العنب والبطيخ، ثم التفت لها قائلا:

- أى أميرتى.. إننا فى بلد مهدد من الداخل بالتفتت من كثرة الآلهة، ومهدد من الخارج من الحيثيين، وأعلم أن إخناتون يبنى عاصمة جديدة للبلاد هى أخيتاتون أى أفق آتون..

قام سمنخ كارع، واتجه إلى النافذة، وأعطى ظهرة للملكة نفرتيتى قائلا:

- أشم من كلامك أنك تعارضين الملك أمنحتب الرابع إخناتون، وهذا جنوح يا ملكتى
- إنى أخاف عليه.
- خافى على نفسك وعلى بناتك.. كيف حال الأميرة ميريت؟
- بخير
- ماذا تطلبين منى؟
- أنت أحب شخص إليه فى البلاد، وعلى الأرض بعد آتون.. أرجعه إلى صوابه.. إن عشقه لك أكبر منى.
- أعلم بعد موت أخينا الأكبر تحتمس شعر إخناتون ببؤس شديد
- إن إلهه آتون وليس آمون
- إنى أؤمن بما يؤمن به وأصدقه وأتبعه فى اى شىء.. هو ليس بمجنون.. استعدى للنقل فى العاصمة الجديدة.
- أنت لا تعرف سر الجيش وقلقه.. لا تعرف حور محب.

صاح فى وجهها:

- لم يكن آتون رب شعب ما أو مدينة معينة، بل هو رب كل الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب المصريين وشعوب آسيا وشعوب النوبة، وهو راع لا يفرق بين أحد من رعيته، وهو الذي أعطى كل جنس شكله وطبعه بإرادته.. هكذا يقول إخناتون، وأنا أؤمن بكلامه..

خرجت نفرتيتى غاضبة.

ذهبت نفرتيتى إلى القصر.. فكرت فى الطريق فى كلام سمنغ كارع إلى القصر.. فكرت فى أن تزوجه من الأميرة ميريت ابنتها حتى تكسب وده وموقفه.. أليس للفرعون الحق فى الزواج من أخته ليؤكد أنه إله؟ فالمرأة من آل فرعون هى ابنة إله أو زوجة إله أو أم إله.. يحق للفرعون أن يتزوج أكثر من امرأة.. أى عدد، ولكن تبقى الأولى الملكة والأغلى.. فكرت نفرتيتى ألف مرة، ولكن قررت الآن أن تصبح ملكة القصر وسيدة قلوب الشعب، وأن تكسب الشعب والفقراء وأن تكسب إخناتون بدلا من الملكة تى.. فكرت نفرتيتى أن تغير سياستها مع الناس مع الجميع ولم لا؟ سوف تمنع رجال الشرطة من ضرب الفلاحين المصريين بالعصى.. ويقولون لهم سلموا الحبوب.. حيث يضرب الفلاح فى أنحاء جسمه، ويوثق، ويرمى فى بئر، ويغطس، ويوضع رأسه إلى أسفل، ويوثق أمام زوجته بينما أولاده فى القيود..

ذهبت الى القصر ودخلت إلى خلوة إخناتون.. سألته نفرتيتى بعد أداء الأناشيد:

- ماذا يفعل مولاى فرعون؟.. ولمن يرتل تلك التراتيل؟

نظر إخناتون إليها وأجاب:

أصلى للإله رمز القوة آتون، وهو الذى يرى ما يخلق

والسيد الأحد وأتوضأ بالماء أغسل وجهى ويدى وقدمى

بصفته واحدا يشاهد على من يمشون في الأرض

ومضىء فى السماء وكائن كالشمس

وهو يخلق الفصول والشهور

والحرارة عندما يريد

والبرد عندما يشاء..

فكل بلد فى فرح عند بزوغه

كل يوم لأجل أن يسبح له..

قالت نفرتيتى:

- أنت تعتبر للكون إلها واحدا فقط..

نظر لها إخناتون:

- نعم.. إنى أعتبر الشمس رمزا للإله الموحد الذي لا شريك له.. ونور آتون يفيد جميع الأجناس.. يمثل آتون في شكل قرص الشمس، بأشعتها التي تنتهي بأيد بشرية، لتمنح الحياة والرخاء للأسرة الملكية، وللشعب..
- عن أى شىء تبحث يا مولاى؟
- عن سر كل شىء فى الكون.. إنى أرى كل شىء مختلفا الآن.. لم أعد أدري.. أظن تفكيرى وترتيلى قد يساعدانى فى مواجهة مشكلتى.. ويقينى بوجود إله واحد أكبر من الشمس والقمر.. آتون ليس رب شعب ما أو مدينة معينة، بل هو رب كل الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب المصريين، رب شعوب آسيا، شعوب النوب.. وهو راع لا يفرق بين أحد من رعيته.. يعطى كل جنس شكله وطبعه بإرادته.. أرتل كى أحقق رغبتى فى اكتشاف المعرفة، واقتربت كثيرا من فهم الله.. لو كان بمقدورى أن أجعل الناس ترى الله كما أراه.. لو استطعت أن أتخلص من ركام وتراث الأفكار القديمة..

نظرت اليه بغيظ وبهدوء قائلة:

- إخناتون يا فرعون يا حبيبى يا زوجى.. أنت لا تصلى فى المعبد، والكهنة فى المعبد غاضبون، لا يرونك تسجد للتماثيل، وتكفر بآلهتهم.. إن الكهنة قوة لا يُستهان بها..

نظر لها غاضبا:

- الكهنة يفعلون كل شىء باسم الآلهة.. مصر الآن تعبد أكثر من ٤٧ إلها.. مصر لا تحتمل كل هذا.. النيل هو الحضارة والحياة.. يقول الكهنة إن النيل ذكر، ويجب أن نهديه أجمل الإناث كل عام حتى لا يقطع عنا الماء.. الكهنة تقول أن الخنفساء

والقطة والجعران آلهة.. المصريون يبتعدون عن حقيقة الله، عن حقيقة الإيمان، الحضارة لا تقوم على التفتت.. أى طريق يسير فيه الوطن؟ هل يسلكون طريق الحق أم الضلال؟.. هل شعبى وأهلى يسلكون طريق الصواب؟.. أشعر أنى حاكم لشعب ضائع يجب أن يُصلوا خمس مرات شروق الشمس وعندما تكون الشمس فى كبد السماء وعند انكسار الشمس فى العصر وعند الغروب وقبل النوم ويجب أن يغسلوا وجوههم وأيديهم..

همست نفرتيتى له:

- كن مثل أبيك أمنحتب الثالث.. كن إلها، أنت الإله، وأنت الله، وأنت الذى يعبده الناس.. نمرود.. أتعرف ماذا فعل بعد ثماني سنوات من زواجه من أمك؟.. تزوج من أميرة ميثانية ابنة الملك شاورنا، ووزع إعلان الزواج على الجعران المنقوش على أقطار الإمبراطورية، وهو يقول فيه أمنحتب الثالث ابن الاله رع حاكم طيبة له الحياة ولزوجته الكبرى تى اسم أبيها يويا واسم أمها تويا، ولأول مرة يذكر اسم أبيها وأمها بعد ٨ سنوات من زواجه منها.. ووضع صورتها بجانبه فى التماثيل.. تزوج يا حبيبى من تشاء، ولكن ضع صورتى بجانبك.. واعبد الإله رع مثل أبيك، وقل أنت الله.

يضحك بسخرية وبهدوء:

- ماذا تقولين؟؟.. إن أبى قد جن..
- تصف أباك بالجنون..
- لقد مات أبى.. الله لا يموت إذًا هو ليس الله.. إن شعبى ممزق قلبه وعقله بين أيدى الكهنة.. إن الفرعون وسيط بين الشعب والرب، وليس الإله.

همست والدموع فى عينيها:

- دعنى أصارحك يا مولاى الفرعون.. إن أباك ليس مجنونا، بل أنت المجنون تجر الشعب إلى هاوية لا يعلمها أحد حتى المنجمون، ولا الكهنة الذين أنت تكفر آلهتهم

وتسخر منهم وتهدم تماثيلهم فى المعبد فى الخفاء.. أنت تثير علينا الكهنة والشعب.. سوف يحرقوننى ويحرقونك ويحرقون القصر.. فكر فى بناتك: ميريت وميكيتاتون.. فكر فى زوجتك.. فكر فى الشعب البسيط الذى يحبك.. أنت تسبح ضد أقوى تيار فى البلاد: الكهنة.. الكهنة على مر الزمان هم القوة الحقيقية للمحاربين ولفرعون وللبلاد.

- سأقف أمام الكهنة، ومعى الشعب.

ابتسمت نفرتيتى ساخرة:

- الشعب.. من هو الشعب؟ رعاة خنازير وإبل وبقر. من هو الشعب؟ الحرفيون، التجار (صاحت) من هو الشعب؟ مزارعون حقراء يزرعون القمح والشعير ليس لهم أى قوة.. القوة فى الدين وكهنة المعبد يسيطرون على المحاربين وجيشك.. أنت قوى بهم ولست قويا بمفردك.. يا مولاى أنت لوحدك.. أنظر حولك من معك؟؟
- معى الله الذى يرسل لنا الشمس كل صباح.
- الله هذا فى خيالك أنت.. تراه أنت بقلبك.
- سيراه شعبى معى..
- أنت واهم.. ستقضى على حكمك وعلّي وعلى بناتك وشعبك بهذه الأفكار.. الكهنة يا مولاى أرجوك.. اكسبهم..

نظر لها مبتسما بحسرة قائلا:

- أنا لن أتعامل مع الكهنة.. لست أنا من يكون بوقا للكهنة ولا نفيرا للجند، أنا نبوءة من هذه الشمس الرمز للإله الواحد آتون الذى يصنع الحياة على الأرض والبشر، يمنحنا الخبز والماء، ويسكب علينا الحب كل لحظة من الحياة.. أنا الطريق إلى معرفة الله.. إنى أرى فى الافق طيبة تغيب عنى، وبلادى محاصرة بين الكهنة والجيش وآلهة غير حقيقية.. سأعلن على الرعية غدا: لقد ألغيت كل الآلهة، هو إله واحد آتون

صرخت نفرتيتى وركعت تحت قدميه:

- أرجوك يا زوجى العزيز.. يا حبيبى أقبل يديك وقدميك.. لا تفعل.. تمهل.. لا تعلن هذا على الشعب أرجوك.. إنى أصلى من أجلك صبحا ومساءً
- صلى لآتون يا زوجتى يا حبيبتى..
- أنا ذاهبة للمعبد أصلى وأقابل كبير الكهنة سوات هناك حتى تهدأ الأمور ولا نريد إشعالها.
- لا تذهبى يا مليكتى، مهما حاول الكهنة حجب نور الحقيقة ستظهر، إله واحد..
- لا فائدة منك..لا فائدة.. أطلب من آمون أن يهديك للصواب

اتجهت نفرتيتى إلى المعبد.. خابت وضعفت نفرتيتى لم تستطع تنفيذ ما أمرتها به نفسها فى كسبه أو كسب الشعب، بل انفعلت وقاومته وجادلته وتركته يصلى، وبينما هو يصلى سمع فى أذنه صوت أمه الملكة تى الرقيق: "كيا.. تزوج من كيا".. قام من الصلاة متجها إلى حجرة الحكم.

***

المكان/ المعبد

الزمان/ صباحا

كان الكاهن الأعظم يصلى أمام تمثال ضخم وينشد..

الحمد لله أيها الإله حابى.. أيها النيل الذى ينبع من الأرض، والذى يأتى ليعلم مصر صاحبة العظمة الخفية، وإذ تروى المراعى والذى خلقك رع لتغذى كل الماشية والذي تعطى الشراب لكل الأماكن المقفرة النائية

حابى أيا رب السمك والذى يجعل طيور الماء تذهب الى أعلى النهر دون أن يسقط طائر صانع الشعر وخالق القمح،وهو الذى يحضر المؤن، وهو الغنى عن الطعام وخالق كل شىء حسن.

نظر كبير الكهنة سوات وجد الملكة نفرتيتى تقف بعيدا عنه عند أحد أعمدة المعبد تنتظره.. ابتسم بدهاء واتجه إليها..

- مرحبا بأجمل ملكات التاريخ نفرتيتى.. صلى واركعى للإله حابى
- أهلا بك الكاهن العظيم.
- يا ملكة الملكات.. أعرف لماذا جئت لى الآن.. تركتِ الملك إخناتون يصلى للإله الجديد.. إنى أعلم ما يخفى وما يحدث بين حجرات القصر.. وما تهمس به نفسك ومعاناتك.. إن مولاى أصابه مرض من إله الشر ست.. قالوا إنهم شاهدوه ذات ليلة فى معبد آمون يحطم التماثيل.. جلالته فرعون الملك أمنحتب الرابع ابن أمنحتب الثالث.. معقول يفعل هذا؟.. لقد خفت عليه من حراس المعبد أن يقتلوه.. أتعرفين ملكتى نفرتيتي ماذا فعل إخناتون فى المعبد؟.. أخذ يحدث التماثيل ويقول لها: "تحركى.. دافعى عن نفسك".. لقد جُن الملك.. إننى أراقبه منذ وقت، وهو يمحو آثار الإله آمون.. ببطء وحذر شديد فى مشروع تطوير المعبد الجديد الذى يبنيه.. ويدعو إلى عبادة آتون فقط..

تنظر نفرتيتى إليه قائلة:

- إن الملك أصيب بحمى فسامحه على ما فعل يا سيدى كبير الكهنة سوات

نظر إليها وابتسم بخبث قائلا:

- الملك إخناتون تجاوز الحدود.. إنه يجلس مع الحرفيين والرعاة والفلاحين والفقراء، وهم فى القانون ممنوعون من العمل السياسى ويستمع إلى شكواهم فقط ويحقق فيها..

قالت الملكه نفرتيتى:

- الفلاحون يشتكون مُر الشكوى مما يحدث أثناء جمع القمح من رجال الشرطة
- ولم يشتكون؟ إن رجال الشرطة يؤدون واجبهم!! الفلاحون خبثاء منكرون وإخناتون فتح باب الشكاوى لهم.

- انس ما يفعله إخناتون.. سأهديك صندوقا من اللؤلؤ والفيروز، وصندوقا من الذهب والفضة.
- يا ملكتى .. لا داع..
- إنى أعرف أنك تحب المال والذهب واللؤلؤ.
- ولكن.. ههههههههههههههه اوافق على هديتك..
- دعنا نكسب إخناتون.
- إنه يدمر كل شىء.
- دعنا نسايره ونوافقه قليلا حتى يفيق ويدرك فما يفعله ليس صوابا.
- يا ملكتى

أخذ صندوق المجوهرات، ونظر لها

- استريحى.. كوني على استعداد لتولى الحكم أيتها الملكة نفرتيتى.
- ماذا تقول يا كبير الكهنة سوات؟..
- إننى أدافع عن الإله آمون فحين يتجه الملك قلبه وعقله إلى المذهب الشمسى أدافع عن الإله (آمون رع).. منذ سنوات فى حياة والده أمنحتب الثالث، وهو يدبر أمرا ما، وسمى إله الشمس آتون، وكنت أعتقده سيكون مثل والده، لكنه قال آتون فى السماء، وهو إله واحد ولا يوجد غيره، وهذا أمر خطير..

دخل كبير الحجاب إلى المعبد صائحا:

- مولاى إخناتون يريدك الآن لأنه سيتزوج الأميرة كيا الآن..
- ماذا تقول ؟

سقطت الملكة نفرتيتى مغشيا عليها.. حملها كبير الكهنة سوات إلى داخل حجرته واستدعى الطبيب.

***

المكان/ مقر القيادة العسكرية

الزمان/ ليلا

يجلس حور محب قائد الجيش، وأمامه يجلس باتو مساعده يتقدم، وحور محب يلعب بزهرة اللوتس

- **باتو.. نحن أمام مشكلة كبرى.**
- **تمام سيدى القائد.**
- **نحن فى لحظة تاريخية حاسمة حازمة.**
- **تمام سيدى القائد.**
- **الكهنة يشعرون بالتذمر من تغيير عقيدة الشعب من عبادة آمون رع إلى آتون.**
- **تمام سيدى القائد.**
- **الكاهن الأكبر يستعين بنا لتصحيح الامور.**
- **تمام سيدى القائد.**
- **والملكة نفرتيتى غاضبة لزواج الفرعون إخناتون اليوم..**
- **تمام سيدى القائد.**
- **وما موقف الجيش؟**
- **تمام.. تمام سيدى القائد.**
- **انا أحدثك حدثنى كما أحدثك.**
- **تمام سيدى القائد.**
- **علينا أن نقف موقفا محايدا حتى نرى من الأقوى؟ لا تقل لى تمام سيدى**
- **صحيح سيدى**
- **هاااااااههههههه أنت غير معقول**

***

الزمان/ نهارا

المكان/ بيت شهرزاد

قالت شهرزاد، وهى تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفىء ركوة النار:

- غدا سنكمل الحكاية.. غدا يا سهر

- إن شاء الله.

خرجت سهر من بيت شهرزاد تهبط من التل فى الطريق إلى بيت أمها.. كان العصفور العاشق يلاحقها، وأصدقاؤه الطيور.. كانت سهر تفكر فى نفر.. آه يا روحى الأولى.. آه يا نفر ماذا جرى لك؟

كانت سهر تسير وفى السماء الطير يحرسها يقودهم العصفور الذى يعشقها.. يراقبها من أعلى وهى تسير.. هو يضرب بجناحيه فى الهواء شوقا وطربا ووجدا..

****

المكان/ بيت منقذ القرية

الزمان/ ليلا

كان منقذ العريس الجديد لـ سهر يرتدى أحلى ثيابه وحلق ذقنه مرتين وهو يستعد للذهاب إلى بيت سهر.. جلس أبوها فى قلق وأمها كانت أكثر قلقا.. عريس يعنى القلق ويعنى الفرح ويعنى عالم جديد ينتظر الأسرة..

قالت أمه:

- لا تجعلهم يطمعون فيك.. ليس كل ما يطلبونه من مهر يحصلون عليه..

- يا أمى لم يطلبوا شيئا

- أحذرك فقط

- حاضر يا أمى ..

قال أبوه:

- تذكر إنت مو شويه إنت كبير
- نعم بس كبير فى شو
- معلم وتعمل فى دبى.
- لست الوحيد الذى يعمل فى دبى
- أفهم..
- حاضر

***

المكان/ منزل سهر.. غرفة الضيوف

الزمان/ ليلا

جلس منقذ أمام أبيها ومعه أخوه الأكبر وأخته وأمه وأبيه..

قال أخوه الأكبر:

- جئنا نطلب يد كريمتكم سهر لأخوى منقذ.. يعمل فى الإمارات، هو مثقف ومتعلم ويحصل على راتب كبير وله سيارة أفضل من سيارة المختار وله شقة جميلة هناك وله رصيد فى البنك..

- أهلا وسهلا بكم..

كانت سهر فى غرفتها فى وجوم وحزن بسبب وبدون سبب، أما سوسن فكانت تنظر من ثقب مفتاح الباب ثم تجلس إلى جوارها لتخبرها بالأحداث..

قالت سوسن هامسة لأختها:

- شكله حلو.. شاربه أشقر .

لم تجب سهر.. دوما تأخذنا اللحظات الحرجة إلى متاهة لا نعرفها..

قالت سوسن:

- ستتركين المدرسة.. هو يحكى هيك.

قفزت سهر:

- لا.. لابد أن أكمل الثانوية العامة.

سوسن تغلى فى صمت، وتود أن تصرخ فى وجهها: "إرحلى"..

سوسن تود لو كان العريس لها.. أن تفر خارج البلاد، ولا تعود.. من الأفضل أن تسافر سهر وتريح الجميع، وتستريح..

قال سالم أبو سهر:

- وافق بشرط أن نعلن الخطبة بعد الثانوية العامة.. لا تترك المدرسة..

قال أخو منقذ:

- علن الخطبة الآن وتكمل الثانوية العامة براحتها..

قال منقذ:

- هذا أفضل..

قالت أخت منقذ إلى سالم:

- نحجزها يا كبير الناس.. بنتك شغلت بال منقذ كتير، مؤدبة، محترمة، وحلوة.

ضحكوا.. قال الأب:

- وشرطي الثانى.. تعدنى به يا منقذ..

- ما هو؟

- أن تكمل شهادتها الجامعية.. أن تنتسب لأى جامعة أو تدخلها جامعة هناك..

ارتبك منقذ قليلا، وتلعثم وبلع ريقه..

- حاضر.. أعدك..

مد يده للأب.. وضع الأب يده فى يده.. وانطلقت الزغاريد.

كانت بعض النسوة من الجيران يجلسن فى غرفة المطبخ لتقديم العشاء وتوزيع الحلويات على الجيران ولابد أن يكون هناك بعض الفقيرات يخدمن من أجل بعض الطعام أو الهدايا وبالطبع الميثاء بينهن ضاربة الودع والخادمة أحيانا..

قالت الميثاء وهى تخرج من بيت سهر:

- لحلوانه عندك.. يا أم سهر مش هيك شوية رز وشوية فاكهة

ضحكت أم سهر:

- مرى غدا علي.. سأعطيك قطعة قماش

وزعت الحلويات والشربات على الجيران..

***

طارت الميثاء إلى بيت وردة، ودقت الباب.. فتح لها المختار بدهشة:

- خير يا امرأة.. ماعندى فلوس وما استقبل شكاوى فى البيت

- وين وردة؟؟ أريد وردة

- بالداخل.. ماذا تريدين منها أيتها المرأة المقرفة؟

دخلت الميثاء مندفعة إلى وردة فى حجرتها، فوجدتها ممددة فهى تحفظ منزل المختار كم غسلته كم مرة نظفته.. قبّلتها من خدها وقالت:

- وردة.. كم ستعطينى من مال؟.. عندى لك خبر حلو.. أستاهل عقد ذهب؟

- خير.. قولى يمكن ما يساوى حذاء

- اسمعى يا ست البنات.. الآن لن ينافسك أحد فى الجمال فى الجبل الآن.. منذ ساعة خطبت سهر إلى شاب اسمه منقذ.. هو رجل يعمل فى الإمارات بلاد النفط، وسيأخذها بعد امتحانات الثانوية.. ستذهب هناك، وسمعت وشاهدت الاتفاق.. لقد حضرت الخطبة منذ نصف ساعة..

نط.. فط.. قلب وردة فرحا.. ارتدت ملابسها بسرعة وخرجت مع الميثاء من الدار. قالت وردة:

- تعالي معى إلى مشوار..

- إلى أين نذهب؟

استأذنت أباها لمشوار فعل خير.. خرجت وردة مع الميثاء، والميثاء لا تعرف إلى أين تذهب وطوال الطريق تلح عليها.

- احنا رايحين فين قولى بس؟

وصلت وردة مع الميثاء إلى بيت كاظم، ودقت الباب..

فتح الباب وجدها فارتعب:

- أنت مرة أخرى يا وردة.. ماذا تريدين؟

- جئت مع الميثاء كى أقول لك إن سهر خطبت الآن إلى رجل من بلاد النفظ والذهب، وستذهب معه بعد شهرين إلى الإمارات دبى..

تجهم وجهه.. تجمدت كل خلية في دمه.. لم يرد.. لم يعلق..

تركته وردة ومشت.. تسمرت قدماه.. ارتجفت نبضات القلب.. أغلق الباب، أمسك رأسه وجلس على مقعده فى البالكون..

رأيتنى أدغدغك يا سهر فى ألف حلم.. رأيتنى أطلع فى سماوات عشقك.. وأنتحر على أرض جسدك.. رأيتنى أنثرك ماء ورد، وأحصدك ياسمينا بلون خدك.. رأيتنى تحت خيمة أسقى عشاقك كأس المغادرة.. لأنك لست ملك الجميع ولست عاهرة.. رأيتنى أفتح نوافذ وأبواب مشاعرك البريئة المعتمة.. رأيتنى أرفرف بقلبى على هودجك.. أركبك جزرا.. لا النيل ولا الخليج ولا المحيط يساوى بحر عشقك.. ما أغربك رأيتنى لباسك وأنت لباسى وأنت عرس أعراس السحر.. ما أروعك رأيتنى ولم أر غيرك من النساء ما أنعمك ما أعذبك أنثى يا سهر.. اذا مرت أحلام مهزومة ووطن ممزق على نهديك فى المساء فهما لى أرسلتهما لك عبر أثير الروح لأنى لم أستطع الحضور فجواز سفرى عشب أخضر جف من ندرة مطر حنانك وغيابك ليس حضورا بل الغياب غياب والحضور نور ومعى نور الله لا تخافى على فالله نور السموات والأرض..

الليل يمر بطيئا بطيئا بطيئا.. ود كاظم أن يقفز فوق الأسوار.. أن يذهب إلى بيت سهر.. أن يخطفها الآن ويطير فوق بساط سحرى.. أن يختفى بها عن عيون العالم الغبى.. كيف سيحدثها غدا فى الفصل؟.. كيف ينظر لها؟.. ماذا يقول لها؟

نادم هو.يحدِّ ث نفسه يلومها ويجلدها.. لو تقدَّمت لها وخطبتها لحجزتها.. لو.. لو.. لو.. ولكن كيف وافقت سهر وهى تعلم أنى أحبها؟

قابلت وردة أخاها راغب عندما لمحها فى طريق عودتها من منزل كاظم ومعها الميثاء، وهى فى فرح وشماتة:

- وين كنت يا بنت؟
- أخوى راغب خبرك بشىء..
- بشو تخبرينى...؟
- سهر اتخطبت لشاب اسمه منقذ يعمل بالإمارت وسيأخدها بعد الثانوية..
- ماذا تقولين يا بنت؟..

قالت الميثاء:

- إهدأ قليلا.. ما تقوله صحيحا، وحدث أمام عينى وأبوها وافق وأمها وأهلها...

طار الخبر فى القرية كأنه شرر لهب عشق حرق قلوب الرجال.. خبر أحزن الرجال

- يا شباب يا رجال خطبت سهر..

ضحك المختار بغباء حتى دمعت عيناه بعد سماع الخبر من ابنه الذى عاتبه على عدم إلحاحه والتقدم لخطبتها له.. لقد طلب من أبيه أكثر من عشرين مرة أن يخطبها، ولكن الأب رفض طلبه من أهلها، ويأس بعد طلبها المرة الأولى..

قال كاظم:

ليتنى أستطيع أن أبصر طريقى.. ليتنى أستطيع أن أخطو خطوة واحدة للأمام.. تعلَّمت أكتشف العالم وأساعد الآخرين على اكتشافه.. من يساعدنى الآن على اكتشاف العالم ويساعدنى، لكى أساعد نفسى على النهوض..

تنهدت قلوب النساء والفتيات ارتياحا فى القرية عند سماع الخبر.. للزواج سحر، وللعشق ألف الف سحر ونافذة للجنون..

سوسن أخت سهر لا تعرف ماذا تفعل؟ هل تفرح؟ أم تحزن؟؟ الآن انتهت بينها وبين أختها مسافات الغيرة والقلق والحسد.

***

الزمان/ صباح اليوم التالى..

المكان/ مطبخ بيت سهر

سوسن تجهز مع أمها الأغراض التى سوف تأخذها سهر إلى دبى بعد شهور: مفارش أسرة.. أطباق.. صحون.. جهاز العروسة..

قالت سوسن:

- يا أمى مازال الوقت مبكرا
- يا بنت.. الأيام بتجرى
- يا أمى.
- بكره تتجوزين وتحضرى لبنتك من صغرها
- يا أمى
- يا بنتى

ضحكتا

***

الزمان/ صباحا

المكان/ سوق القرية

قابل راغب أبا سهر، اقترب منه بتودد غير معهود:

- هلا عمى

- هلا راغب كيف المختار أبوك؟
- بخير عمى.
- بدى أقولك فكرة فكر فيها عمى
- خير.. قول
- ليش سهر بنتك تسافر برات البلاد وهى هنا وسط أهلها وناسها؟
- للزواج
- أنا أتزوجها وأدفع مهرها ثلاث أضعاف العريس
- ها

نظر الأب بغضب إلى راغب:

- بنتى يا راغب مو بقرة بهيمة ببيعها بنتى أعز عندى من مال العالم كلاته..
- عمى أنا عارف بقول تتزوجنى وتسكن فى دارنا بينا وبينكن حارتين.
- أنا عطيت كلمة وخلاص يا راغب.
- يا عمى فكر فى بكرة.
- بكرة بتاع ربنا.

مشى أبو سهر وترك راغب يلوح بيديه فى صمت وغضب شديد..

الآباء دوما لا يقبلون الأعمال الطائشة من الأبناء، وينسون أنهم كانوا مثلهم ذات يوم.. إن الخطر الوحيد هو رحيل البنت أو الولد من بيت أمه وأبيه لبيت جديد ويترك للوالدين ذكريات طفولتهم وشخبطاتهم على الجدران والأسرة.. شىء واحد فقط هو المؤكد هو رحيل الأبناء والبنات ذات يوم من بيت الوالدين للزواج.. ويشعر الأهل بالفرح ليلة وبالحزن والوحدة على غيابهم ألف الف ليلة.

***

فى صباح اليوم التالى كان كاظم أول من حضر إلى المدرسة، ودخل حجرة التدريس.. لم يستطع أن ينزل إلى طابور المدرسة.. سوف يرى فى عيون الفتيات شماتة.. نعم.. لقد خُطبت سهر!! سأله المدير:

- **مش حتنزل الطابور يا أستاذ كاظم..**
- **شوى وحنزل أصلى تعبان شوى..**

بالطبع لم ينزل الطابور. كم عين ستسخر منه؟ وكم عين سوف تتهكم عليه؟ وعندما دخل أول حصة فى المدرسة، صرخ فى البنات بصوت مهزوم:

- **كل بنت تطلع الكتاب وتقرأ فى صمت.. ما بدى أسمع صوت واحدة فيكن...**

لم يشرح.. لم يعلق.. كان يقرأ فى عيون البنات نظرات سخرية.. شفقة.. عطف.. شماتة.. مرت ثلاث حصص لثلاثة فصول كأنها ثلاث سنوات.. ثلاث سماوات.. ثلاث أزمنة مختلفة، ونفس الشىء فعله طوال اليوم الدراسى، حتى حان موعد حصة فصل سهر.. كيف أحرر نفسى منها.. من حبها.. من عطرها.. من سحر عينيها؟.. كيف أحرر نفسى من أحلامى بها؟..

دق جرس الحصة كأنه جرس العمر.. جرس للقلب.. جرس للمشاعر.. جرس للروح التى لا تهدأ أبدا.. كيف أحرر نفسى؟؟.. أنا لا أعرف.. كل خطوة إلى الفصل كانت ثقيلة.. قدمه كانت تتحرك ببطء كأن جبلا فوق أصابع قدميه..

دخل الفصل لم يجد سهر.. قال:

- **وين كشف الغياب مين اللى غايب..؟**

قالت البنات فى نفس واحد وصوت واحد:

- **سهر يا أستاذ.**

هذا صوت الجموع يخبرك.. يا غبى بالغياب.. الغيااااااب.

تابعت وردة بخبث ودهاء:

- **سهر جاءت وتعبت وأخذت إذنا وراحت ع البيت...**

تنهد كاظم، وصمت..

***

خرجت سهر من المدرسة مبكرا.. ذهبت إلى بيت شهرزاد.. لم تجدها.. جلست سهر أمام بيت شهرزاد.. الروح تتعطش لحكايا المعرفة كأنه طفل يتعطش لثدى الأم.. مرت عليها وهى جالسة أمام باب الدار سيارة أجرة قديمة يركبها المختار الذى لمحها فأمر السائق بالتوقف أمامها، وصاح:

- ليش قاعدة هون يا بنت؟..
- اسمى سهر مو بنت.
- ها ها ها.. بعرف إنك معووجة ولك حق.. وصرتى عروس.
- شو بدك منى؟
- أبارك لك على الزواج.
- شكرا.
- منقذ.. ابن عبد الله الفلاح..
- عاجبنى ابن حلال.. مش ابن حرام زى ناس تانيين..
- تمام هذا الولد يصلح لك..؟
- كيف يعنى؟ مو فاهمة؟
- دماغه خربان مثل دماغك.. ما يحب الضيعة ولا الريف
- اسمع يا أبو راغب..
- شو أبو راغب؟
- أبو وردة ولا تزعل..
- شو شو.. كنا فى جرة وطلعنا لبره.. أنا عمك المختار.
- شو بدك منى؟
- لا شىء.. لو حدث لا قدر الله إن منقذ صار له شىء.. مات لا قدر الله

- بعد الشر.
- لو مات أنا بتزوجك فورا؟
- يا ساتر.. انشاء الله أنت تموت؟

ضحك

- ما تخافين يا سهر اللى مثله ما يموتون.. ربنا بيتركهم يفسدون فى الأرض.. عشان يضحك على شيطنتنا
- أستغفر الله.
- ولما نموت ربنا إما يرحمنا أو يحاسبنا.

تركته ومشت.. قال وهو يركب تاكسى الأجرة، وهو يقهقه: "اطلع يا بنى"

سارت سهر إلى بيتها حزينة.. لماذا اختفت شهرزاد اليوم؟ أين ذهبت يا ترى؟؟

الفصل السابع عشر

القهوة قبلات للروح كى تنهض

فتحى رضوان حبيب سهر في المستقبل

فتحى ومصطفى كامل ومحمد فريد..

أعتذر يا ناهد.. نفد صبر القلب على وطن بلا مشاعر.. أعتذر.. نفد الوقت على قطار الغفلة التى يعيشها الوطن.. السنوات المضيئة فى تاريخ مصر قليلة أو نادرة.. المصريون لا يحبون مصر لأننا بالحب نتطهر ونتغير، ونحن نادرا ما نتغير ونتطهر.. مصر فى معظم الأحوال نجسة، وحين تطهر تعلم العالم التطهير، وسرعان ما تعود للنجاسة، وهى الكذب، الفهلوة، الكسل، التواكل.. ستنتهى الأمة العربية خلال السنوات القليلة القادمة والقريبة جدا من المحيط إلى الخليج وسيظل من العرب لغة القرآن الكريم الذى سيُدرَّس فى ألمانيا والسويد وأوروبا وأمريكا بسبب أنه دين الغالبية العظمى هناك، وستكون اللغة العربية الأولى فى العالم، وسيقال فى أدبياتهم نزل القرأن على محمد عليه السلام، وهو نبى من أصل عربى فى زمن ما وانقضى العرب واختفوا من التاريخ.

أعتذر يا ناهد.. نسيت على نافذتك أغانى فيروز فى صباح مطر ولم أعد أسمع إلا صدى الوحشة والصباح بدون القهوة خطر.. هكذا قلت للطبيب حين منعنى من القهوة.. القهوة قبلات للروح كى تنهض.. قلت للطبيب لن أتخلى عنها.. أكره أن روحى تغفل وعقلى يتوقف عن التأمل.. أعتذر يا ناهد

الزمان/ الصباح

المكان/ كافتيريا الجامعة

قالت ناهد حجازى لى:

- **أنت بتشرب قهوة بجنون.. كتير قوى؟**
- **أعرف القهوة قتلت بلزاك الكاتب الرائع**
- **كويس إن الدكاترة منعوك من القهوة، إنت لسه طالب، أمال لما تتخرج حتعمل إيه؟**
- **الطلبة هم أسس الثورات.. المظاهرات شالت ديجول.. بتقرى جرايد والا لا؟**
- **يا رجل دا فى فرنسا مش فى مصر**

- سأحكى حكاية فى مذكرات محمد فريد وقعت حادثة يوم ١٨ فبراير ١٩١٥ السلطان حسين كامل كان يزور المدارس العليا لاستمالة الطلبة إليه، ولكن ٨٥ طالبا غابوا من مدرسة الحقوق بقصد فى هذا اليوم فحوكموا على ذلك بمعرفة مجلس إدارة المدرسة، فقرر طرد ٥٤ منهم نهائيا، وحرمان ١٨ من امتحان آخر السنة. ثم سعى أولياء الأمور لدى الحكومة فعفى عنهم السلطان حسين كامل إلا سبعة عشر طالبا أُعتبروا محرضين لهذه المظاهرة.. كل هذا يعنى أن الطلبة قوة كبرى تجبر السلطان على زيارتهم.. حتى جمال عبد الناصر كان له خطاب سنوى فى جامعة الإسكندرية.. احنا قوة يا ناهد.. الطلبة هم قوة الوطن.. فاهمة..

ناهد مثل الصباح توقظ القلب والعين والأذن بجمالها الهادىء الفاتن..

همست فى أذنها:

- ما أعذبك حين ألقاك.. ما أعذبك حين أسمعك.. ما أعذبك حين أحاورك.. ما أعذبك حين أنسى عمرى وحزنى معك.. ما أعذبك حين تغسلين قلبى بعطر يدك.. ما أعذبك حين أتنهد فأجدنى أتنهدك.. ما أعذبك حين أبكى تنزل دموعى على صدرك رغم المسافات.. ما أعذبك حين ألمس الماء.. ألمس شعرك الحريرى وأعشقك.. ما أعذبك.

تنهدت ناهد:

- أنت بتسحرنى بكلامك يا ابن الذين.. لا أعرف كيف أنفك من حصارك لى، حتى وأنت بعيد عنى..

نزلت أنا وناهد من محطة زوسر جامعة الاسكندرية إلى محطة الرمل لشراء المجلات الشهرية من عند عم السيد والحاج الرملى، اشتريت مجلة الطليعة فى عددها الشهرى من مؤسسة الأهرام..

كان فتحى رضوان يبحث عن مقالة أرسلها إلى لطفى الخولى رئيس التحرير عن الثورة المضادة فى ثوبها الجديد.. قلّب الصفحات لم يجد المقال منشورا.. اشترى مجلة الكاتب،

بحث عن مقال أرسله إلى أحمد عباس صالح كان قد كتبه عن روح المقاومة بعد النكسة، لم يجد المقال منشورا.. اليسار يخون اليسار، واليمين يخون اليمين.. ماذا تبقى لك يا فتحى؟؟ اليساريون يخونونك، واليمين لا يهتم، والناصريون بلا أرجل كأنهم ضائعون بين اليمين واليسار..

من كثرة غضبى ألقيت بالمجلتين بعد شرائهما فى سلة الزبالة، ضحكت ناهد بهدوء:

- أنت زعلت؟
- اليسار بيطعننى ليه يا ناهد؟
- يمكن ظروف النشر.
- الشاعر نجيب سرور قابلنى فى محطة الرمل فى مقهى إيليت وقال لى اليسار أكثر خيانة من اليمين، وأنا لم أصدقه..
- أنت زعلان يا فتحى؟
- حازعل من إيه؟ وألا إيه والا إيه؟ أواجه ألف طعنة من التنظيم السياسى فى منظمة الشباب الاشتراكى، وكذلك أواجه طعنات من اليمين من رؤساء الاتحادات فى الجامعات أبناء الطبقة البرجوازية التى أضر بها جمال عبد الناصر.. مصر خايبة طول عمرها.. أكل شيوخ الأزهر بعضهم بعضا بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.. شوفى باعوا بعض إزاى وخانوا بعض إزاى، كل واحد قدم تقريرا سريا ضد زملائه ففكر محمد على فى التخلص منهم واحدا واحدا..

سرنا على شاطىء كورنيش الإسكندرية.. الجو بارد ورزاز مطر يغسل قلوب العاشقين.. من أى نهر عشق جاء السحاب بهذا المطر، أقصد هذا الحب.. أمسكت ناهد أصابع يدى.. هل جربت أيها المطر أن تغسل عقولنا حتى ولو مرة؟.. المصريون يحتاجون غسيل عقولهم حتى ولو مرة فى السنة.

على مقهى وادى النيل فى محطة الرمل جلس فتحى رضوان، ومعه صبرى ، وأحمد كمال عضو المنظمة.. مر علينا صديقى علي حسن، وجلس قائلا:

- إيه يا فتحى تفتكر حنحارب إسرائيل؟
- مش عارف بس أكيد حرب الاستنزاف بداية.
- دا لعب عيال.
- لم أعد أعرف يا على ماذا سيحدث فى مصر ولا فى الوطن العربى، حتى الغرب خدعنا وأمريكا.. هل لأننا نستحق أن نخدع.. أفكر فى الرحيل من مصر.
- إلى أين يا فتحى؟
- إلى الكويت.
- لماذا الكويت؟
- الديمقراطية هناك تمارس بشكل رائع.
- ما الدليل؟
- الصحف يا على.. اقرأ صحف الكويت تذهل، والصحف لدينا الأخبار مثل الأهرام مثل الجمهورية.. مسخرة
- اهتم بالسياسة شوية وسيب الأدب والفن.. خليك هنا فى مصر
- مصر مش عايزانا، عاوزه الحرامية والكدابين والمنافقين واللصوص واللى بيحلبوها مصر لا تحب الشرفاء

نظرت إلى البحر، ناديت الجرسون: يا ابنى ادينى قهوة سادة

الفصل الثامن عشر

سر العشق

ناداني جسدك باشتهاء للرجولة المفقودة فى هذا الزمان..

كاظم يحمل سر العشق لسهر

ناداني عمرى الضائع بين الوطن والحروف...

تستعد سهر للسفر.. ستغادر الضيعة بعد شهور والجبل.. سوف ترحل وتترك كل شئ.. أشجار التفاح واللوز والزيتون.. هذه الأشجار التى تغازلها كلما مرت من جوارها.. سوف تترك العصفور الشقى الذى قالت لها شهرزاد عنه هو قلب عاشق مسحور بها منذ الأزل.. لم تفهم سهر معنى الكلمة، ولم تشرح لها شهرزاد.. كانت سهر تفكر طويلا فى أزلية الروح.. تذاكر وتفكر فى اليوم التالى كى تقابل شهرزاد وتحكى لها، وذهبت لها وجلست بين يديها..

قالت شهرزاد، وهى تشاهد عين سهر المرهقة بالقلق:

- **ما بك يا سهر؟**
- **احكى يا خالتى شهرزاد ماذا جرى لـ نفر.. إنها روحى الأولى، وأريد أن أعرف ما بها لأنام الليل جيدا.. إنى شغوفة بها.. بوجعها.. احكى يا خالتى..**

ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين.. تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطى الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين.. تنظر يمينا، شمالا، أماما، خلفا.. ثم تهمس:

- **بلغنى يا أجمل بنات الجبل.. أن كى أخا نفر لم يخرج من المعبد، وتأخر عن أبيه يومها وتأخر عن حارتهم وأهله.. خرج الأب والأم ونفر يبحثون عن الفتى فى الغروب الذى غاب منذ الصباح.. فى الطريق عند الساقية قابلت نفر المعلم باكا الذى بدا وكأنه ينتظرها أو تمنى أن يقابلها.. أحيانا كل ما يتمناه المرء يدركه.. وجدها أمامه.. وقف واجما، وهى تتجه نحوه:**

ذهب باكا إلى المعبد.. ليأتى بالخبر اليقين..

أحيانا تمنح النساء الرجال حماسا غير معروف لديهم وطاقة لا يعلمها إلا الله طاقة لا تسمى إلا سر الجاذبية للجنس الآخر.

غاب كى، وغاب المعلم باكا، وربما لم يتأخر على نفر، لكن الانتظار مر المذاق وقاتل.. لقد شعرت أنه قد تأخر.. اتجهت نفر إلى المعبد بمفردها لتسأل عن أخيها كى.

عاد المعلم باكا إلى الساقية التى ترك عندها نفر فلم يجدها..

ترى أين نفر؟

عندما تأخر باكا قلقت نفر؛ فذهبت إلى المعبد، فى الوقت الذى كانت تدخل المعبد كانت الملكة نفرتيتي خارجة منه، شمت نفرتيتى عطرها وهى قادمة من بعيد.. وقفت.. نظرت لها.. وقف الحراس.. وقفت نفر لترى الملكة عن قرب.. انحنت نفر لها.. نادتها الملكة بإشارة من يدها؛ اقتربت نفر على خجل، كلما اقتربت ازداد فوح عطرها فى أنف الملكة، وكأنه سحر.. قالت الملكة:

- من أنت أيتها الفتاة؟
- نفر

ضحكت وقالت نفرتيتى:

- ابنة الوزير؟؟
- ابنة نح نجار سفن.. لماذا تضحك مولاتى؟
- من سماك بهذا الاسم؟..

ابتسمت نفر

- أمى قالت إنى جميلة، وأنى أشبهك، فسمتنى باسمك.
- ومن الآن أنت وصيفتى يا نفر..هيا معى..

ضمها الحرس لتسير معهم خلف الملكة.. منذ لحظة واحدة كانت نفر حرة وعطرها يشمه النيل والصيادون والليل والنجوم، الآن تشمه الملكة نفرتيتى وحراسها وحراس المعبد..

الآن ستدخل نفر مع الملكة الحمام وتعطرها.. الآن سوف تأكل وتنام وتشرب وتعيش فى القصر..

قالت نفر:

- مولاتى.. أمى وأبى قلقان.. وسيموتان لو غبت عنهما

- سنخبرهما.. لا داعي للقلق

انتقلت نفر من سكن على شط النيل إلى قصر الملكة نفرتيتى.. انتقلت نفر وسحر عطرها معها وسرها يزداد غموضا..

تدخل الصغيرة الجميلة نفر إلى قصر فرعون إخناتون والملكة نفرتيتى.. عالم السحر والجدران العالية الشامخة..

***

وعلى الشط يقف باكا المعلم فى حيرة.. باكا قلبه يلتاع.. أين ذهبت تلك الأنثى الربيعية، الجميلة نفر قال لها: "لا تتحركى من هنا".. وأشار إلى الساقية المهجورة..

نادانى الشوق إليكِ.. فاغتربت يا بعيدة عنى وقريبة منى.. نادانى حبك نادانى فنسيت اسمى وعنوانى وزمانى ومكانى.. نادانى الليل فحلمت بتنور يفيض نورا وحنينا خفيا للثلج والحرارة.. نادانى ثديك للارتواء أين ألجأ من جمالك فى الأرض أم فى السماء.. نادانى جسدك باشتهاء للرجولة المفقودة فى هذا الزمان.. نادانى عمرى الضائع بين الوطن والحروف..

كان الأب نح قلبه يلتاع

كانت الأم قلبها يتوجع

***

نفرتيتى، ارتدت أحلى الثياب، ومعها بناتها الثلاث: ميريت آتون، وميكيات آتون، وعنخ إسن أمون.. إنه زواج إخناتون من الأميرة كيا.. القصر الفرعونى يعزف الموسيقى.. إن

إخناتون يحلم بصبى، ونفرتيتى لا تنجب إلا البنات.. الولد ظهر أبيه.. والبنت قلب أبيها..

كانت نفر تشاهد حفل العرس كأنه حلم من الأحلام التى تروادها.. كم المغنيين والموسيقيين، وفرعون يجلس على كرسيه.. نسيت أباها وأمها وباكا الذى كان يقف على الشط بجوار الساقية ينتظر.. باكا لا يتحرك.. تمر الناس عليه تحييه، وهو فى حالة وجد ليس على الأرض ولا فى السماء..

وجدتنى أفكر فيكِ رغم أنى محاصر بديون أبى والهم والحزن.. وجدتنى أفكر فيك يا نفر نورا ونجمة وحنانا.. وجدتنى أقص أظافرى كل يوم وأغسل أسنانى خمس مرات، وأستحم ثلاث مرات فى النيل، وأتعطر كل ساعة من أجلك.. وجدتنى أنتظم فى الأكل وأنتبه للصلاة خمس مرات، وخاصة صلاة الضحى فى المعبد، وأشد الحبل السرى للحب.. وجدتنى غمامة ساعة الحر، ورغيف خبز للفقير.. وجدتنى أميرا على الكلمات لأنى أحبك إلهى.. إن حبك يحاصرنى بالهمس والحنان.. وجدتنى لا أعرفنى إلا حين ألقاك ربى..

***

كان الأب نح أبو نفر فى حيرة من أمره.. أين ذهبت ابنته نفر؟.. وأين ذهب ابنه كى؟.. بكت أم نفر على ابنتها وعلى ابنها بشدة.. كى فى المعبد حيث التحق بقسم غسل الموتى والتحنيط.. المعبد الفرعونى سر التحنيط.. الصلاة.. المسرح.. الشعر للترتيل.. الحكمة والحكم..

جلس كى مع الموتى فى المعبد، وهو يسمع موسيقى العرس.. حين أخبره أحد الكهنة أن الكاهن الأعظم ومعظم الكهنة فى عرس إخناتون فرعون مصر ليلة فرح وزواجه من الأميرة كيا، وأن هناك احتفال كبير..

***

خرج المصريون الفراعنة على النيل ليشاهدوا المشاعل التى تضىء قصر إخناتون فرحا بزواجه من الأميرة كيا إلا نخ أبو نفر لم يخرج.. لقد غابت ابنته وابنه فى يوم واحد.. كيف يفرح ويشارك؟.. جلس فى البيت، وأغلق الباب عليه والأم تبكى وهو يبكى فى صمت..

***

المكان/ بيت نفر

الزمان/ ليلا

الأم تجلس تبكى حزنا ضاع الولد والبنت فى ليلة واحدة..

دق الباب مرة، مرتين، ثلاثا.. صاح الأب نح من خلف الباب:

-من الذى يدق الباب؟.. وماذا تريد؟

- جئت أحمل لك رسالة من الملكة نفرتيتى من القصر.. افتح الباب يا رجل.

قام مهرولا.. فتح الباب مواربا خائفا؛ وجد أمامه حرس الفرعون قائلا:

- خير؟

بكت الأم وأخذت ترتعد فرائصها.. قال كبير الحراس:

- خير.. ابنتك نفر أصبحت من اليوم وصيفة للملكة نفرتيتى

- كيف.. وابنى كى؟

- أصبح كى الآن ضمن كهنة المعبد.

بكت الأم.. ولا تعرف هل بكت فرحا أم حزنا.. الله اعلم؛ عاطفتها مرتبكة.. هى لا تدرى..

***

الليلة الأولى فى غياب نفر، وكى

فى قصر نفرتيتى دخلت نفر إلى الحمام الملكى، وتحممت، وارتدت ملابس الوصيفات، وجلست فى جناح الأميرات؛ فانتشر عطرها فى أرجاء القصر.. اجتمعت حولها الأميرات الثلاث بنات الملك إخناتون، فرحن بها وبجمالها، وبينما يضحكن ويمرحن دخلت عليهن

الملكة تى.. هبت الأميرات واقفات ومعهن نفر.. نظرت الملكة تي إلى نفر.. شمت عطرها، قالت:

- ما اسمك؟
- اسمى نفر
- أنت مباركة يا بنيتى..

دخلت نفرتيتى وأمرت الجميع بالنوم؛ فوجدت الملكة تى؛ فخرجت معها الى ساحة القصر بعد أن اطمأنت على بناتها

لمحت تى فى عين نفرتيتى حزنا وسرا ووهجا وقلقا من شىء.. نظرت لها قائلة:

- لماذا الحزن فى عينيك يا ملكة نفرتيتى؟
- إنه فرح
- فرح أم جرح؟
- الاثنان معا.
- إن اخناتون يحلم بولد.
- ربما تمنحه الأميرة كيا هذا الولد.
- نعم.
- وربما لا.
- نفرتيتى.. إن كيا تحبك يا ابنتى.
- وأنا أحبها.. فهى جميلة..
- أعلم أن جرح النساء الكبير هو زواج الرجل بغيرها، ولكن يا نفرتيتى العزيزة.. نحن أسرة حاكمة، ويجب أن نحافظ على الحكم..

تلك كانت الليلة الأولى التى لم ينم فيها إخناتون فى أحضان نفرتيتى..

جلست ميريت ابنة إخناتون الكبرى، وهى تستمع إلى وجع الصغيرة نفر.. طار عصفور صغير وحط على كتف نفر.. خافت الأميرة ميريت، وضحكت نفر..

- ما هذا يا نفر؟

- قال الكاهن هو قلب رجل عاشق لم ينم من عشقك؛ فجاء قلبه لك..

ضحكت ميريت حكيمة مثقفة، ولها فى فن السحر طريق..

***

الليلة الأولى..

نام كى أخو نفر فى المعبد على فراش صوفى دافىء.. النوم بين جدران تحمل أسرارا ورسومات وحكايات.. هنا يتم غسل وتحنيط الموتى وتوزيع البركات واستقبال العطايا.. لن يسير كى فى الشارع بلا هدف، لن يحمل الخشب ليساعد أباه.. وسوف يقبل الناس يديه منذ تلك اللحظة لأنه أصبح كاهنا.. سوف يشرب عصير الرمان ويأكل البامية التى يحبها.. سوف يهدى إليه الذهب والفضة..

أم نفر، وهى مرتبكة.. ماذا تفعل؟.. خطف القصر ابنها كى وابنتها نفر.. ماذا تفعل الأم الحزينة؟.. بكت ونزلت دموعها على الوسادة، والأب اعتصرت قلبه غصة.. قال لها:

- البيت ساكت يا أم كى.. الولاد فين؟

... ...

تبكى الأم فى صمت.. بكى الأب فى صمت، تذكر الآن: من سيقدم له الفطور فى الصباح غير نفر؟ من غير كى سيحمل الخشب معه ليساعده؟

نامت نفر فى سرير مغطى بالحرير مع الوصيفات، عيناها تراقب الجو، وفجأة نظرت إلى الأشجار وجدت عددا كبيرا من العصافير تنام على الشجر الذى يطل على نافذة القصر.. لماذا كل هذه العصافير؟.. قفز العصفور الصغير إلى صدرها، ونام مرة أخرى.. فزعت ثم فرحت ثم تذكرت كلمات ميريت أنه قلب عاشق وليس عصفورا..

الليلة الأولى من خروج نفر، وكى إلى قصر الفرعون.. نام المعلم باكا، وهو فى اختناق شديد، مخطوف، مرتعد، فى ضيق.. سوف يسأل النساء زوجات الوزير أثناء التدريس عن نفر وأخوها كى..هنا لا يخطف أحد، ولكن القصر يعلم بكل شيء.

آه

آه

آه

تتمناك آلاف النساء متزوجات وعازبات، وأنت مشدود الانتباه إلى نفر؟.. يا إلهى إلى أين يذهب بى القلب؟؟

تعالى لى يا نفر أفرغت كل ما فى قلبى وجيبى وعقلى من النساء من أجلك أنت.. تعالى لى فرشت أرض البيت بالحناء والياسمين نثرته على السرير.. تعالى الليل بدونك خلاء، تغيب عنه الملائكة والشياطين والبشر. تعالى لى، الليل يفيض فى عرق يديك نجوما وأقمارا.. إنى مثقل بالعشق لك.. ما أقسى البعاد

أسالك بحق الصمت والدلال والاقتراب والابتعاد، وبكل حنان النساء المباح وغير المستباح، بحق أغانى القمر لحظة الفرح والشجن..

الليلة الأولى من خروج نفر، وكى إلى قصر الفرعون.. لم تنم نفرتيتى فى تلك الليلة، ليلة زواج كيا من إخناتون.. الفراش كأنه شوك ووخز..

نفرتيتى عليها أن تعيد كل ما حولها من الأشياء، وأن ترتب وضعها الجديد. إن الرجال يجرون وراء أحلامهم أكثر من النساء، والرجال يبيعون النساء بأسرع ما يكون.. لابد وأن أحصل على كل شيء.. إن نفرتيتى يجب أن تكون أقوى من تي، ومن كيا

اقتحمت الغرفة الأميرة ميريت

- أعرف أنك لن تستطيعين النوم الليلة يا مولاتى؛ فجئت إليك..

- أهلا أميرتى الجميلة ميريت

احتضنتها نفرتيتى وبكت فى أحضان ابنتها.. لأول مرة تبكى الملكة الأم نفرتيتى فى أحضان ابنتها.. الأمهات أحيانا طفلات أمام بناتهن..

- إن كيا.. حبوبة.. لطيفة كالنسيم..

- إن كيا لم تكن فى رأس أبيك ولم يفكر فيها أبدا

- أعلم يا أمى
- إنه مكر الملكة جدتك الملكة تى
- هى لا تحبك، ولا أعرف لماذا؟
- وأنا أيضا لا أحبها، لكننى سأمحو صورتها من خيال الناس..
- احذرى جدتى الملكة تى
- نعم
- إنى أحبك يا أمى..
- ما رأيك يا صغيرتى فى الزواج من الأمير "سمنخ كارع"

اندهشت الأميرة الصغيرة:

- هل هذه فكرتك؟
- إنها فكرته هو.. يسأل عنك باهتمام وأنا أعرف الرجال.
- أمى
- اسمعينى جيدا إن عائلة إخناتون لابد أن تبقى بقوة
- نعم يا أمى.. ولكن
- كان جدك أمنمحات الثالث أرسل خطابا إلى المدعو (شوباندو) أحد أمراء سوريا يطلب فيه أن يرسل له عشرين عذراء، وأوفد كذلك إلى المدعو (عبدى خيبا) أمير أورشليم طالبا فيه إحدى وعشرين فتاة جميلات من أبكار البنات وأخيرا أنه أرسل أربع مرات يلح فى طلب ثلاثين عذراء من حليفه (دون شراتا) ملك الميثانى، وفى المرة الخامسة أجيب إلى طلبه كما أن الأميرة الميثانية (جيلوخينا) حضرت ومعها ٣١٧ فتاة عذراء حسناوات للملك أمنحتب الثالث، جدك والد إخناتون، وتزوج أميرة بابلية وأميرة جيلوخينا، وانتصرت عليهن كلهن تي.. تي هزمت جميلات العالم؛ فهل سأنتصر عليها؟..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ قصر الملكة تى

كانت الملكة تى فى قصرها تلك اللحظة، وأمامها الأمير "سمنخ كارع" يحتسى عصير العنب..

مولاتى الملكة تى

- قل لى.. أرجو أن أجد فيك حلمى المنشود.. أن تنتبه أننا فى وقت عصيب لأن الفرعون أتى بدين جديد دين التوحيد
- إننى أؤمن بهذا الدين وأساند أخى بقوة..
- وأنا ولكن قوة الجيش.
- الجيش على الحياد مع الفرعون.
- لا تثق بالجيش مثل البلهاء.
- كيف؟
- الجيش يطمح أن يقود البلاد وحور محب قائد يحب أن يتحكم ويعامل إخناتون على أنه شاعر أو رجل طيب ليس له فى السلطة والحكم.
- حور محب اختار باتو أغبى الضباط وعيَّنه نائبا له؟
- هو يخطط لشيء.
- هل حور محب مع إخناتون؟
- لا أعتقد.
- هل حور محب مع كبير الكهنة سوات.
- هو صديقه يا تى العظيمة
- يا سمنغ كارع لا يوجد فى الحكم صداقة بل مصالح
- لا أعرف

وهنا.. أدركت شهرزاد أن الوقت قد مضى، والوقت فات، فتنهدت، وجمعت فناجين القهوة، وقالت لـ سهر:

- غدا نكمل حكاية نفر..

خرجت سهر من بيت شهرزاد، واتجهت إلى بيتهم.. الطريق طويل كل من قابلها هنأها بالعريس.. هى ليست فرحة، وليست مكتئبة.. عادى.. أمر عادى..

فى الطريق طار العصفور ورفاقه فوق رأسها.. طيور تطير أم قلوب مسحورة هى حراس الحب، وعشيقها العصفور فوق جروحها..

الفصل التاسع عشر

وأعشقك ما دمت حيا

كاظم يقف على قارعة الطريق كأنه ينتظر.. ليتنى أستطيع فحسب أن أبصر طريقى.. ليتنى أستطيع فحسب أن أخطو خطوة واحدة للأمام.. يا إلهى العزيز.. ساعدنى قليلا.. منذ ألف عام ولدتك أمك ووضعتك بين يدى قالت: انبئنى عنها.. قلت: ستكبر وتكون مهرة النور يشتهيها الفرسان، وهى ترنو من بعيد لي.. من يأتينى بالهمة والبصيرة والأفعال كى تنهض الروح من الأحزان.. كلما قرأت القرآن أو الإنجيل أو التوراة عرفت أن الله رب الشعر، وكلما نظرت فى عينيك عرفت أنى بالعشق معجون وكلما سمعت صوتك الهادر بحنان كأمواج البحر أقول من أنت؟ فأنت لا تردين ومن يجيبنى: المطر أم الشمس؟.. هل أنت الحضور أم ملكة ملكات التاريخ أم رعشة فى الدم واشتعال الروح؟.. أم أنت زهور ارتوت بدم الحسين والمتنبى وبلقيس وكليوباترا، وأنت شرفة للشهوة تطفىء انحرافى فأقوم للصلاة وأنا الجريح بالعشق وبكل ألوان الطيف

آه الموضوع برمته يدفعنى دفعا لليأس، إلا أنه يجعلنى سعيدا أو على الأصح يغمرنى بالإثارة والتشويق.. إنه يسبغ على نفسى وعلى حياتى مرة أخرى، وهذا ما كنت أفتقده بشدة.. كل شىء فى حياتى اعتبرته خيرا وهدفا رفيعا وبذلت من أجله التضحيات إننى فى كل يوم أستبصر بوضوح أنانيتى التى تتمثل فيما أستهدفه من نوع ما من العلاقة بينى وبين سهر، والآن ستذهب سهر.. أتبين أن كل شىء ليس إلا كتلة من الصور المنفصلة التى كانت تنعكس فى شىء ما، هذا الشىء هو نفسى وهذه النفس هذه المرأة التى حدقت فيها تبينت أنها لا شىء غير السطح الخارجى لزجاج مسطح. سوف تترك هى المدرسة وتتزوج، وأنا سأظل فى المدرسة معلما.. أشعر أن المعلم مثل الخادم العجوز الذى يتركه الآخرون ويبقى وحده، يتذكر حلقات مثيرة من الأعمال والأحاسيس والأعاجيب من الصور والذكريات التى تتجلى والتى سوف تختفى باختفائه إذا لم ينجح فى توريث بعضها للأجيال اللاحقة عن طريق الكلمة أو الصورة.. عن طريق الحكاية أو الأغنية، ولكن باى وسيلة يمكن أن تروى.. نعم أنت مدرس..

فى الطريق المؤدى إلى بيت شهرزاد.. كان يسير كاظم كأنه يبحث عن نفسه وفجأة مرت سهر من جواره.. شم عطرها، تدللت، شعرت أنه ينتظرها.. الأنوثة.. لم ترسل إشارة، مالت بيدها على شعرها، وكأنها ترمى إليه السلام.

وقف فى بلاهة وجمود.. لم يتحرك، ومن بعيد يمشى خلفها راغب

أسرع راغب خلفها ونادى بهمس:

- سهر.. سهر.. أنت اتخطبت صحيح؟
- نعم
- وأنا طلبت يدك عدة مرات حتى اليوم من أبيك
- سأرحل إلى الإمارات فى دبى يا راغب.. أريد أن أرحل من هنا..
- سأرحل معك إلى أي مكان فى العالم
- قسمة ونصيب.. خلاص
- تحبينه يا سهر؟

التفتت اليه بابتسامة ساخرة.. لم تجب.. وسألته ببرود:

- هل أمك تحب أباك يا راغب؟..
- هل نساء الجبل كلهن يحببن أزواجهن؟
- لتحبك نساء العالم كلهن إلا أنا
- لماذا؟
- ألا تعرف من أنت؟
- أعرف.. أنا راغب.
- راغب من؟ ابن المختار؟
- ايه؟
- من أنت.. مهندس؟ دكتور؟ ضابط؟.. لم تكمل تعليمك.
- أنا عندى مال ونفوذ وأرض..

أنت لا تعرف ماذا تقول الناس عنك.

الناس تحبنى..

- أنا لا أحبك.. ارحل عنى ودعنى وشأنى..

مشت، وتركته.. مشت.. بعدت.. مشت.. اختفت.

***

المكان/ بيت سهر

الزمان/ نهارا

فى غرفتها دخلت سهر.. وجدت أباها ينتظرها.. نظر فى عينيها..

- مرحبا بنتى.
- خير يا أبى؟
- ما بك بنيتى؟.. لا أرى الفرحة فى عينيك.. الحب قدر، والزواج قدر.. فى كل بقعة أرض يحاصرنا قدرنا.. على كل بقعة أرض نطؤها يوجد لنا قدر ورزق.. لو رفضت العريس سأرفضه..
- لا يا أبى.. لقد أحسست فجأة أن علّي أن اوافق.. أحسست أن كل مسام فى جسمى متشوقة ترغب فى السفر.. هو لا يعرفنى ولا أنا أعرفه.. لكننا سنتفق وسنحب بعضنا مع الأيام، وسنكون أسرة.. لا تقلق..

ضم الأب رأسها فى صدره..

- آه بنيتى.. هناك قلة ولدت لتكون سعيدة، أما الباقون جميعا يمضون حياتهم فى سعى للبحث عنها.
- يا أبى من يسرق أحلامنا؟
- لا أفهم..
- أقصد هل يمكن لأحد أن يسرق حلمى؟
- لن يسرق حلمك أحد ما دمت حيا.

أتمنى أن لا تبعنى لأحد التجار..

لا يمكن.. أنا طول الوقت أسال الله أن تتزوجى وأنا حي أتنفس حتى أحميكِ..

قالت الأم:

يا رجل جهزت لك القهوة، وأنت هنا فى غرفة ابنتك سهر تتحدث.. القهوة السادة بردت.

ضحك ..

أحبها باردة

خرج الأب من غرفتها، وأغلق الباب عليها

***

المكان/ بيت كاظم

الزمان/ عصرا

عاد كاظم إلى البيت.. جسده حار وبارد، بين السخونة والبرودة.. لا يعرف ما أصابه.. إنها حمى... لم يستطع أن يذهب للمدرسة.. لم يستطع أن يواجه الأمر..

الوحدة.. رجل أعزب فى بيت قريب من الجبل.. لا أحد يأتيه.. هى حمى.. هل هى حمى الحب؟.. هل هى وجع الصدمة العاطفية؟.. لم يستطع الذهاب إلى المدرسة، وهذا أول يوم غياب.. هل ستشعر به سهر؟ هل ستحضر لتراه؟.. هل يمكن أن تحضر، وتصنع له كوبا من الليمون الساخن؟.. هل يمكن أن تضمه؟

مر اليوم الأول فى غيابه عاديا.. مر اليوم الثانى فى غيابه عاديا

فى هذا الصباح داخل الفصل.. وقفت وردة صائحة بسخرية:

الأستاذ كاظم لم يأت يا بنات.. هذا ثالث يوم لم يحضر.. ترى أين الأستاذ؟

قالت البنات:

إنه مريض

إنه مسافر ربما..

قالت إحدى الخبيثات:

ربما راح يتزوج فى الشام ويجئ..

ضحكت البنات، إلا سهر لم تضحك.. لم تسخر.. العشق وهن ومرض.. كانت تحدث نفسها: هل أنا السبب؟.. هل عشقه لى هو السبب؟.. لكنه لم يفصح لى.. ومازلت عند ذكر اسمه أمامى، جسدى يرتجف وقلبى يدق دقة.. هل أنا قاسية؟.. لا.. لو تزوجنى كنت سأصبح أسيرة الجبل والفلاحين والزرع.. إن روحى ترفرف.. تهفهف.. تحوم حول سواحل العالم.. إن روحى تريد أن تنطلق.. يا سيدى سامحنى إن قلبى معك وروحى هناك تطير فوق السحب والبحار تريد أن تكون كل يوم فى بلد.. أنا لا أعرف نفسى من أنا.. ربما أشعر أنى لكل رجل.. العالم حلم.. ربما أشعر أن رجلا واحدا لا يستحق قلبى. ربما أشعر أن مشاعرى أكبر من قلب رجل واحد.. الزواج سجن.. نعم، ولكن مع رجل يرحل فى شهر بعيدا عن الجبل والسهل والزرع والاختناق.. أنا كائن يرى أن الحرية تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية..

فى اليوم الرابع.. ذهبت مجموعة من البنات إلى منزل كاظم لزيارته وهو مريض.. قال الجيران أن أخاه جاء من الشام وأخذه إلى هناك لأنه مريض..

جاء الأطباء إلى كاظم فى دمشق.. لم يعرفوا توصيف الحالة.. قالوا: حمى غريبة، فيروس خفى، حالة نفسية، توتر عصبى، كهرباء فى المخ زيادة.

بكت أمه.. بكى أبوه فى صلاة الفجر.. وكل ألوان الطيف تلون صورة سهر فى رأسه الممتد على الوسادة.

***

القلب سالك.. المعرفة تلين

الجسم ليس منفردا كجيفة،

لكنه غريب كحبة ملح

لا تزال على طرف الجبل

النور الذى تطلعه لم يأت من ميضأة.
لم تنشأ قسماتك من منى.
لا تحاول الاختباء بداخل غضب
الجلاء لا يمكن أن يختبىء

باكرا، كى أستعد،
حللت أربطة الساق.
اليوم، عطرك. عرفان
على الريح ينبت..
دع العاشق خزيان، أبله،
ذاهلا. العاقل
سوف يبلى الحوادث وهى تمضى لأسوأ
دع العاشق فى كونه
لو أن روحا لديك، أحتسبها،
أرخ لها أن تعود بكلمة واحدة،
من حيث جئنا. الآن، آلاف من الكلمات
ونأبى أن ننصرف

مولانا جلال الدين الرومى

الفصل العشرون

الحب ثورة المطر

فتحى رضوان.. حبيب سهر في المستقبل

هل هو إنسان، أم حلم تحرير الأمة من التخلف؟.. أم ثورة المطر؟.. ماذا جرى حبيبتى لى؟.. صرت على الأرصفة ملكا للتأمل والمعرفة لأمة تبحث عن الأرغفة لا الكتب.. مفلسا من المال.. وفى حرب الاستنزاف وبعيدا عن الآمال وقريبا من الأضرحة.. ماذا جرى؟ غابت الدنيا ومدينة النور فى عينيك يا ناهد سكنت وأحلامى على نهديك بين الحلم واليقظة حائرة.. ماذا جرى؟ حبيبتى وأنا وأنت فى المستقبل منارة رائعة.. آه يا ناهد مثل البحر أنت حينما أراك سأجعلك ترقصين وترفعين قدميك للنجوم وأنام على جسدك كالشعر العاصف الحنون وأصعد إلى نهديك ألف مرة وأهبط إلى فخذيك بحنين.. سأجعلك تغنجين.. تتأوهين كلبؤة هى محموع ملكة وملاك وبشر غير كل البشر أجمعين..

فتحى فى غرفة رئيس اتحاد الطلبة، يجلس وهو يدخن سيجارة بلمونت.. لو شاهده أحد يدخن تصبح مشكلة.. قال له صبرى سكرتير الاتحاد:

- فيه مسابقة قصة قصيرة على مستوى الجامعة، ولازم جامعة إسكندرية تكسب.. اكتب لنا قصة قصيرة..

ضحك فتحى وقال:

- تفتكر أصلح كاتب قصة؟..
- لو كتبت قصة قصيرة حتبقى أفضل كاتب قصة فى العالم
- يا ابنى.. بعد يوسف إدريس، وزكريا تامر، وحافظ رجب مش ممكن
- لا.. ممكن.. أنا متأكد.. اكتب وابقى شوف.. حاروح مشوار وآجى تكون خلصت كتابتها على الآلة الكاتبة ونقدمها..

أمسك فتحى الورق والقلم وكتب قصة قصيرة بعنوان "مسافر زاده الخيال"

(عصفورة أنت، وسحابة صيف تظلل أشجار حبنا؛ فهذه الدنيا بدونك تعني الوحشة والقلق والفزع والخوف.. عيناك مرافىء الأمان والحنان والآمال.. آه.. عندما أراك أشعر

إنني غريب عاد للديار، وقمر عاد للكواكب ليدور.. اسمحي لي أن أكتب لك بعض الكلمات في زمن تفقد الكلمات براءتها ونقاءها وسموها ونبض قلبها الدافىء يا دفء أيامي..

شمس أنت.. دفء أنت.. نور أنت.. أنت من أنت؟ كنا نطوف سويا في أحلام الطفولة ندغدغ أشواق الصباح بالابتسامات وطفولتنا العذبة تعربد في حقول الربيع، ونجري وراء الفراشات ونسمع الأغنيات من بعيد.. من بعيد.. آه.. هذا صوت فيروز يأتي من جبال لبنان يهدهد أيامنا المجروحة.. المذبوحة في معاركنا التافهة.. شقية أنت.. تغيبين عني ولا أغيب عنك.. يغيب وجهك وروحك معي.. توقظني ليلا.. تشمسني صبحا.. أتنفس معك روح الضوء الصافي مساء

تنهيدة أنت.. أسمع هفيف أنفاسك ليلا فيطاردني الحلم إلى ضوء الفجر فأصلي وأراك أمامي كأنك نجمة في السماء..

تغريدة أنت.. هذه شوارع صدري مفتوحة مزروعة بالياسمين.. فغردي واطربيني يا صوت الكمان البعيد في ليالي الشتاء بجانب المدفأة.. غادر النهار الشتوي أيامي وأنت بعيدة، فأصبحت كل الليالي صيف حار؛ فأنت نسمة الهواء الحالمة..

قالت: احكي لي حكاية..

قلت: في البداية كان أوزوريس يحكم وادي النيل.. كان الأمير الجميل.. وفي كل مساء كان يجلس ويأتيه أحد الفلاحين ويقف أمامه قائلا: "يا أمير.. إنني لم أقترف الشر ولم أعتد ولم أسرق.. ولم أقتل غدرا ولم أمس القرابين.. ولم أكذب ولم أتدنس.. ولم أذبح الحيوانات ولم أتلف أرضا مزورعة ولم أترك الغضب يجرني إلى غير الحق.. ولم أزن.. ولم أرفض أن أسمع كلمة العدل.. ولم أسيء الظن بالملك ولا بأبي.. ولم ألوث الماء ولم أحمل سيدا على أن يسيء إلى عبده.. ولم أحلف كذبا.. ولم أغش في الميزان.. ولم أمنع اللبن عن أفواه الرضع.. ولم أطفىء نارا يجب أن تشعل.. ولم يخطر على بالي أن أستخف بالآلهة.. إنني طاهر.. إنني طاهر"

فنظرت بجانبي وجدتها على كتفي نائمة.. يا سيدة قلبي.. هل أنت نائمة؟

وصلنا إلى القاهرة..

لا أمامنا ساعة..

احك لي حكاية مصر..

أخبار مصر..

نعم..

كان يا ما كان في قديم الزمان.. رجل من أهم العلم يسمي محمد بن أحمد بن إياس الشهير بالحنفي المصري..

لا أريد حكاية ابن إياس

هو الذي قال عن مصر..

ماذا قال؟

قال أن الله فضل مصر في التاريخ.. قال تعالى مخبرا عن فرعون أنه قال: "أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون".. وأما بالإشارة والإيماء فمنها قوله تعالى: "كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم".. يعني مصر.. وأما ما ورد فيها من الأخبار النبوية فمنها قوله صلى الله عليه وسلم "إذا فتح الله عليكم بعدي مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا.. فذلك الجند خير أجناد الأرض لأنهم في رباط إلى يوم القيامة"..

وكان إقليم مصر متصلا بالعمارة على شاطىء النيل كأنها مدينة واحدة مشتبكة بالأشجار المثمرة بالفواكه اليانعة والقرى العامرة حتى قيل أن المسافر كان يسير من الإسكندرية إلى أسوان بلا زاد.. بل يسير في ظل أشجار الفواكه المنتشرة بالقرى العامرة بالناس الذين لا يحوجونه إلى حمل زاد معه وذلك إلى أن يصل إلى مدينة أسوان..

زدني عن مصر..

ولد بمصر من الأنبياء موسى وهارون عليهما السلام.. ويعقوب ويوسف والأسباط

وأرمياء ودخل إليها دانيال ولقمان الحكيم عليهم السلام ودخل إليها التابعين جماعة ودفن بها من العلماء جماعة كثيرة.. وكان من أهلها مؤمن آل فرعون الذي أثنى الله تعالى عليه في القرآن، ومنهم آسيا امرأة فرعون التي ذكرها الله في كتابه، ومن أهلها أيضا سحرة فرعون الذين آمنوا برب موسى في وقت واحد على كثرتهم كما ذكر الله تعالى في القرآن الكريم..

وبعد..

باقي من الزمان نصف ساعة

حدثني عن وصف مصر

قال المسعودي "إن كل قرية من قرى مصر تصلح أن تكون مدينة على انفرادها.. وقال الله تعالى في حق قرى مصر "وابعث في المدائن حاشرين".. وقال القضاعي "لم يكن في الأرض ملك أعظم من ملك مصر ولو ضرب بينهما وبين سائر قرى الدنيا سور لاستغنى أهلها بما فيها عن سائر البلاد ولو زرعت لوفت بخراج الدنيا بأسرها وهي أكثر البلاد كنوزا وعجائب وأنهارا"

متى تطيب أرض مصر؟

إذا اعتدل هواها وطاب مرعاها.. وقال كعب الأحبار رضي الله عنه "من أراد أن ينظر شبه جنة الفردوس فلينظر إلى أرض مصر قبل طلوع الشمس في زمن ربيعها إذا اطردت أنهارها وغردت أطيارها وأينعت أزهارها"..

وقد قال القائل في المعنى

"ما مثل مصر في زمان ربيعها

لصفاء ماء واعتلال نسيم

أقسمت ما تحوي البلاد نظيرها

لما نظرت إلى جمال وسيم"

وماذا عن فصول مصر الأخرى غير الربيع؟

قال الحكماء "ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء.. وثلاثة أشهر مسكة سوداء.. وثلاثة أشهر زمردة خضراء.. وثلاثة أشهر كهرمانة صفراء"

وقد قيل في المعنى

"كل وقت بمصر أمر عجيب

نحن منه في السعد كالأغنياء

ذهب حيثما ذهبنا ودر

حيث درنا وفضة في الفضاء"

وفي محاسن مصر قال القضاعي "إن مصر يوجد بها في كل شهر من الشهور القبطية نوع من المأكولات فيقال رطب نوت ورمان بابه وموز هاتور وسمك كهيك وماء طوبة ولبن برمهات وورد برمودة ونبق بشنس وتين بؤنة وعسل أبيب وعنب مسرى".. ومن محاسن مصر أيضا السبع زهرات التي تجتمع في فصل الشتاء ولم يكن هذا ببلد غيرها وهي البنفسج والنرجس والبان والياسمين والورد الجوري ويعرف القحاني والزهر وهو زهر النارنج والنسرين..

ومن محاسنها أن أهل مصر لا يحتاجون في الشتاء إلى التدفء بالنار، وقال أبو الصلت "أهل مصر خصوا بالأفراح فيها دون غيرهم من جميع الأمم".. وقيل أن أهل مصر لا يهتمون بأمر الزاد كما هي عادة غيرهم من الأمم كأنما حوسبوا وفرغوا من يوم الحساب..

ومن كان بمصر من الفلاسفة القدماء؟

كان بمصر من الفلاسفة القدماء: هرمس وبقراط وجالينيوس وألينوس وفيثاغورث ولما ماتوا دفنوا بمصر.. وكان بها من الحكماء في دولة الإسلام الرئيس علاء الدين بن النفيس صاحب كتاب الموجز والرئيس أبو علي بن سينا..

وماذا عن الشعراء القدماء؟..

قيل الشهاب المنصور.. وقيل البهاء زهير.. وقيل.. وقيل والله أعلم..

قطع الحديث صوت قائد الطائرة (الكابتن).. وصلنا إلى مطار القاهرة.. أرض مصر ترحب بكم.. قلت:

- الحمد لله على سلامتك.. وصلنا يا حبيبتي)

تمت

أعطيت القصة إلى صبرى ليقدمها لمسابقة الجامعة الثقافية.. فازت القصة بالمركز الثالث.. الجامعة تغلى.. منظمة الشباب الاشتراكى نافذة الحلم للحفاظ على ثورة يوليو، ولكن المؤامرات فى المنظمة كثيرة بين الأعضاء..

ماذا أفعل يا صبرى ؟..

ضحك..

- حب يا ريس.. الحب جميل أمامك أجمل بنات الجامعة..

قالت أم فتحى فى المساء:

سنشترى الكاستور لأفصل لك بيجامة.. البرد شديد هذا العام فى الإسكندرية..

فى حفل رأس السنة جلسنا فى كافتيريا فى فندق، ولأول مرة يعطينى أحد الشباب سيجارة.. نظرت له.. نظر لى صبرى وقال:

ولع يا ريس.

ما هذا؟

سيجارة.

أنا لا أدخن.

دخن يا ريس دى سيجارة والليلة ليلة رأس السنة،

أشعلتها.. كانت أول سيجارة تفتح لى باب التدخين، لكنى قررت أن لا أجعل التدخين إدمانا، ولا النساء ولا السياسة ولا السالمون الذى أعشقة ولا التونة.. جاء الصيف وبدأت فى الجمهورية ملامح مرض الكوليرا، إسهال شديد.. فى ذاكرة الوطن كوليرا ١٩٤٨ وكوليرا أيام كافور الإخشيد، وكوليرا أيام الحاكم بأمر الله.. الناس فى رعب شديد

وباء الكوليرا انتشر في مصر بعد عام ١٩٤٨، وقد انتشرت شائعات في ذلك الحين عن أن الأمر قد يكون له علاقة بالدولة الصهيونية، ومات عدد كبير.. خفنا من الأكل فى المطاعم.. خفنا من الأكل فى الشارع، لكن عدد الوفيات كان قليلا.. ازداد الرعب فى البلاد.. ماذا يحدث لبلادى؟.. تذكرت كتاب أحمد حسين "تاريخ مصر"

(فى الثانى عشر من رجب ١٧٨٩-١٢٠٣ توفى السلطان عبد الحميد عن عمر يناهز ٦٦ عاما وحكم مدة خمسة عشر عاما وثمانية شهور.. تولى من بعده السلطان سليم خان الثالث، وكان عمره حينذاك ثمانية وعشرين عاما.. وفى هذه السنة انتشر فى مصر الطاعون الفتاك، قتل الكثير من الخلق بما فيهم الأمراء والكشافة والسناجق والعلماء حتى لقد مات إسماعيل بك الأشقر شيخ البلد نفسه، كما مات من خلفه فى الحكم.. ثم مات من خلف خلفه، وكذلك من تلى بعدهما.. وخلال هذا الطاعون أصبح من المألوف أن ينتقل الميراث ثلاث مرات فى جمعة واحدة.. وقد استمر يضرب فى البلاد خمسة أشهر كاملة.. ولقد أطلق المصريون على الطاعون اسم طاعون إسماعيل بك، باعتباره اندلع فى أيامه وأهلك إسماعيل بك نفسه.. وعندما سمع إبراهيم بك ومراد بك بوفاة إسماعيل بك، وأنه لم يعد فى القاهرة من يقوى على صدهما من الرجال وخلال الحادى والعشرين من ذى القعدة.. انسحب من وجههما أمراء المماليك.. ومن مساخر القدر أن الوافدين الجدد وجدوا بيوت من مات من الأمراء خاوية على عروشها من الرجال، عامرة بالنساء والجوارى الذين ظلوا على قيد الحياة؛ فاختار كل أمير ما أحب من البيوت التى مات أصحابها.. أو فروا منها ظنا منهم أنهم فروا من الموت.. وتزوج من النساء من شاء وتسرى بالجوارى.. (أحمد حسين الجزء الثالث ١٩٧٣ط)

لماذا مصر؟ لماذا عشقها الخفى؟.. لماذا جاء إليها وعاش بها هرمس وبقراط وجالينيوس وألينوس وفيثاغورث ولما ماتوا دفنوا بمصر، وكان بها من الحكماء في دولة الإسلام الرئيس علاء الدين بن النفيس صاحب كتاب "الموجز" والرئيس أبو علي بن

سينا.. لماذا مصر تكرم الغريب وتقتل أولادها المبدعين وتخيب الفطن من أولادها؟.. لماذا تحب مصر يا فتحى رضوان؟؟.. كل شىء مباح فيها وغير مباح..

***

عاد فتحى رضوان إلى البيت وجد أمه تبكى قالت:

عبد الناصر هزم..

لابد من أن ينهض الشعب من النكسة.. لابد أن ينهض هذا الشعب..

لم ينم فتحى ليلتها.. فكر فى كيفية وعى الناس.. الناس تحتاج إلى وعى وإلى ثقافة، وإلى رفع الروح المعنوية.. قررت مع بعض الأصدقاء أن نقدم فى الحدائق مسرحا.. فى الشوارع والحدائق والأزقة والمدارس والتجمعات العمالية، وتكوين جماعة الصعاليك جماعة فكرية وفنية.. كان علينا أن نجتمع نحن الشعراء والأدباء والفنانون الشباب لنغير العالم.. قالوا لنا أن مباحث أمن الدولة ترفض هذا.. كتبت خطابا إلى ثروت عكاشة وزير الثقافة..

"رسالة إلى السيد وزير الثقافة الأستاذ ثروت عكاشة

من مدينة الملح صرخة عالية تكتسح الضباب وتنفجر كالبركان.. هذه كلمات الصدق حيث يقتل الصدق في كل مكان.. هذا نداء إلى خيرة مفكري مصر، وإلى وزيرها المسئول عن الثقافة بأرضها.. هذه استغاثة لك بطلها جيل العشرين عاما المبعثر نتيجة ذبحه في كل مكان معنويا وفكريا ونفسيا وعقائديا.

سيدي الوزير المثقف الصامت، كان لابد ولزاما علينا بعد النكسة مباشرة أن يتغير المناخ الثقافي في مصر، وأن يتغير كل فناني مصر الذين كانوا قبل النكسة والذين كانوا سببا فيها. كان لابد أن تتغير الكلمة وتنبع من أعماق الشعب وليس من أعماق الزيف.. وكان لابد أن تتغير الموسيقى بتحرك ما في الصدور لتعبر عن ألحانها.. كان لابد أن يتغير الكُتاب وأن يتغير أشخاص كثيرون في وزارة الثقافة تغييرا جذريا، ولكن للأسف لم تتغير سوى بعض الشعارات أو تغيير بعض الأفراد وتعيين مرتزقة جدد يسلبون

ويقتلون المواهب تحت شعارات "المعركة مستمرة"، و"الثورة مستمرة" و"الثقافة الجماهيرية"، و"الثقافة للجميع"، وبعد النكسة أصبح المنافقون يمثلون القوى الثورية في بلادنا وأصبحوا أعمدة بناء الدولة العصرية الحديثة.. الكلمات هي الكلمات.. الصدق يذبح.. الكُتاب هو الكتاب.. الشعراء هم الشعراء.. لا جديد.. مخرجو المسرح في القاهرة سادة الفن على حد اعتبارهم خبراء فرنسيين أو إيطاليين أو مجريين للأقاليم.. كل مخرج ذهب إلى بلد أجنبي عاد أجنبي الفكر، ومصر أصبحت غريبة في وسط أبنائها.. نحن غرباء عنها.

سيدي الوزير الواعي.. مهزلة أخرى نشاهدها نحن شباب العشرين.. جيل بلا أساتذة.. بلا رواد.. نبحث عن أنفسنا من خلال الناس.. من خلال مصر والجماهير النائمة وهي تمشي.. المعاهد الفنية (معهد السينما، المعهد العالي للفنون المسرحية، معهد الموسيقى) أساسها الأول في الاختبار الواسطة.. كم من المواهب تقتل من أساتذة الفن الأجانب الذين يدعون أنهم مصريون وهم غير قادرين على الإبداع ولا على تحديد ملامح الفن المصري.. غير قادرين على تعليم الناس.. ويمكنك سيدي الوزير أن تجرب بنفسك.. أن ترسل إلى المعاهد أي طالب بلا موهبة بلا إبداع مع كارت توصية من أحد كبار المخرجين وسيقبل فورا.. ولذا لا تنجب الأرض في بلدنا مبدعا جديدا مخلصا.. وأصبحت العاصمة هي العاصمة، والأقاليم هي الأقاليم، وغالبية الشعب العظمى تنطق كلمة المسرح (مرسح)

يا سيدي الوزير المدرك، بالإسكندرية قصران للثقافة: الأول في شارع طريق الحرية يسمى قصر ثقافة الحرية القائم عليه اسمه محمد غنيم يمتاز بالثورية الكلامية ويرفض فكرة تكوين اتحاد كتاب الأقاليم التي يطالب بها بعض الكتاب وطردهم من القصر وبها فرقة مسرحية مع مخرج هارب من القاهرة يدعي أنه يقدم مسرح الجيب.. نحن حوالي ثلاثين شابا وفتاة من إعدادي وثانوي وكليات شاهدنا الإسكندرية في الصيف فريسة لتجار الفن.. يأتون إليها بمسرحيات كوميدية شعارها الضحك من أجل الضحك ليفرغوا

جيوب الناس وأحشاءهم وعقولهم ويعودون إلى القاهرة.. نحن الشباب قررنا النزول للجماهير في الشارع نعلمهم ونثقفهم.. الناس قد نسيت الحرب.. قد نسيت أن العدو في السويس وعلى شاطىء الإسكندرية أكثر من مسرحية ضاحكة..

لقد قررنا النزول للناس لنقدم أشعار مسرحية لأفتشينكو ولوركا وهاشم الرفاعي والأبنودي ونقدم صورا للنضال وإيقاظ الوعي القومي وإيقاظ الناس من الغفلة.. قررنا النزول للشوارع في كل مكان بلا أضواء بلا شهرة بلا فهلوة.. قررنا النزول على البلاج وعلى المقاهي لنعمل على دفع الشعور القومي ليصبح الشعب هو التلميذ والمعلم.. وللأسف مئات الجنيهات تنفق في الثقافة الجماهيرية على سرادقات راقصات شعبية وأغاني وطنية واسكتشات ضاحكة.. لقد طردنا السيد مدير القصر لأننا لا نملك أن يدفع كل عضو ٤٧ قرشا شهريا ليشترك في مسرح القصر.. كيف يملك الشباب هذا المبلغ؟ نحن فرقة الصعاليك المسرحية جيل يرى التفاهة تعني الصدق والحق يعني الجنون.. ومئات الجنيهات تصرف على المنافقين.. إن بلادنا في حرب وتحتاج إلينا ونحن نستعد لحرب أخرى لتحرير الأرض ولكننا اصطدمنا برجال المباحث العامة التي تطلب منا أن نتفرق وأن نختفي من قصور الثقافة.. نضعك أمام التاريخ وأمام صدقك أن تعطي فرصة للشباب.. انقذنا يا سيدي..

(مدير فرقة الصعاليك فتحي رضوان مسرح الشارع - الإسكندرية – ١٩٦٨)

لم يرد الدكتور عكاشة.. لم يرد أحد.. ظل الحال على ماهو عليه.. النكسة تكسر وسط الرجال.. كانت هزيمة، سماها هيكل نكسة.. الأوطان ليست لنا.. تعودنا أن يتجاهلنا المسئولون.. تعوَّدنا أن يكذبوا علينا وندعى أننا نصدقهم.. كان حلمى بمسرح الشارع، وأن التحم بالناس.. كان حلمى أن أكون جزءًا من وعيهم، أو أصنع وعيهم الغائب

قال صديقى الماركسى: "الوعى يأتى بثورة الدم"، قال صديقى من الإخوان المسلمين: "الوعى يأتى من قراءة القرآن"

وسألت نفسى دوما: "الوعى هل هو فطرى أم مكتسب؟؟"

الفصل الحادي والعشرون

لا أصدق النساء فى المساء

لا أصدق النساء فى المساء، لكنى أصدقك أنتِ!!!

****

المكان/ الشام (دمشق)

افتحى باب قلبى وحلى ضفائرك على كتفى؛ فأنا لا أحب الانحناء والتوسل والبكاء.. فالحب لقاء وهمس وناعم فى البدء وعاصف فى الاندماج.. ليس فى الحب كرامة ومن بدأ المهم اخلعى خوفك على عتبات مدينة عشقى.. آه يا سهر

كاظم **فى مشفى بجانب بيت أبيه فى الشام، كان مريضا بالعشق.. قام الأطباء بعمل الأشعة والتحاليل لم يجدوا سببا للحمى التى أصابته.. كان يحلم أحلام يقظة كثيرة..**

الحب مثل الملائكة يراه الرجال أنثى.. تراه النساء ذكرا.. أراه أنا أنت حبيبتى.. الحب أنت وأنت صباحى وهمسى وجناح فى الروح لتطير وأنا أصبحت خارج السياق اكرة الانحناء والبوح أصبحت ظلا فى وطنى، وطن الأشباح.. أعيدينى بشرا أو ملاكا أنا من كثرة خطاياى أصبحت رماد العشق الذى خصب أرض العشق بورد الوفاء.. وعندى لكل مساء قمر ونجوم وحكاية للسهر.

لا تفتح باب قلبك للغرباء حتى لا تشرب القهوة السادة فى المساء فى العزاء.. ويهمس الدخلاء: كان طيب القلب.. قتله الغباء".. ما الذى جعلك يا كاظم تسعى لأن تكون من أصحاب الهمم العالية والسعى إلى مواطن القدس والجرى وراء الرقى والحلم بمعراج المعرفة وأن تجثو بروحك إلى مراقى الحقائق وأنت ليس لك قدم راسخ وتسعى إلى أعلى أعلى درجات النهاية والقلب السامى فى الثبات والتمكين ولست من علمائها ولا كبارها، وأنت الزاهد ولك مهابة الكون البسيط: النهر والبحر والشجر واللون الأخضر..

صباحو أيتها الأنثى التى تغزو الخيال بين رشفة ورشفة من القهوة وتشغلنى فى المساء حين أحتضن الوسادة.. الكلمة الصدق نور والكلمة الكذب زنا والزنا بالكلمات أشد كفرا ونفاقا يهتز لها عرش السماء..

صباح معلق بين خصرك ونهديك.. صباح عاصف الأهواء لا مطر لا نسيم.. صباح يسافر إليك فى يده اليمنى عشبا والأخر بحرا.. صباح يقرأ باسم الله الذى خلق الإنسان من عشق وقلق.. صباح الصيف فيه لا يرحل ولا يترك مكانه للخريف او الشتاء.. صباح القمر فيه ضائع والظل فيه جائع حتى البشر..

حان ميعاد عشقنا وغرامنا فقد ذبحنى الانتظار والضجر الحب مثل الملائكة يراه الرجال أنثى تراه النساء ذكرا.. أراه أنا أنت حبيبتى.. الحب أنت وأنت صباحى وهمسى وجناح فى الروح لتطير بها وانا أصبحت خارج السياق ذاكرة الانحناء والبوح أصبحت ظلا فى وطنى وطن الأشباح أعيدينى بشرا أو ملاكا.. أنا من كثرة خطاياى أصبحت رماد العشق الذى خصب أرض العشق بورد الوفاء..

آه لو أتت سهر لى..

آه لو جاءت وأمسك يدها، وقال هامسا فى أذنيها

فتشى قلبك الآن إن وجدت قلمى

أو تنهيدة لى

أو نظرة ألقيتها عليك

أو عطرا أرسلته لك

أو بعض الكلمات لم أقلها لك

إن وجدت حنينا لى

ووردتى البنفسج

أو معطف أشواقى فى الشتاء إليك

اصرخى من ضلوعك

وفى كلماتك

وفى تنهداتك

الآن اظهرى وقولى: أحبك.. أحبك..

لا أصدق النساء فى المساء، لكنى أصدقك أنتِ..

أصدق عينيك.. لا أصدق القمر

نصف كلامه مقسوم لى وللسحب

لا أصدق الكتب

وأصدق قلبك

وأصدق الروح قبل الجسد

وأرى روح الحروف وأنفاسه

أو أعرى أصحابها دون عناء

لا أصدق أحدا من الأصدقاء.. وأثق فى بعض النساء

حان ميعاد نومى فى السرير..

الفجر قد اقترب..

هزى سريرى بحروفك سيدتى..

لعلى أغفو دون عناء أين أنت يا سهر؟؟؟

فى نهاية الأسبوع جاءت زيارة غريبة لـ كاظم فى المشفى.. وجد أمامه وردة وميثاء العجوز الحيزبون..

كانت وردة قد ذهبت إلى الكوافير وارتدت ثوبا جديدا، ووضعت عطرا باهظ الثمن سرقته من دولاب أبيها، وتأكدت أنه حريمى.. هكذا كان الأب يفعل دوما، شراء هدايا حريمى للنساء اللائى يعرفهن.

مالت وردة ووضعت علبة الشكولاتة بجوار السرير

قال كاظم فى دهشة واستغراب:

كيف عرفت العنوان؟

قالت ميثاء مندفعة:

دفعنا مصارى كثير لسكرتير المدرسة، وسألناه مائة مرة.. أخد ٣٠٠ ليرة عشان

يعطينا العنوان.. هون

شكرا شكرا.. بس أبوك

قلت له بدى أشترى من الشام أغراض وأخد ميئاء معاى وجينا.. سلامتك يا أستاذ

أنت مجنونة جئت من السويداء إلى هنا؟

نعم

أنت مجنونة؟

بك أستاذ.

ماذا لو بحث أبوك عنك ولم يجدك؟

لا تهتم.

أنت مجنونة؟.

قفز جالسا على السرير

لو علم أبوك سيقتلنى ويقتلك.

أموت فداك أستاذ..

يا بنت الناس أنت صغيرة ومراهقة؟

أنا لست صغيرة.

قالت الميثاء

ما بك يا استاذ؟.. سهر تزوجت خلاص.. بص أمامك انظر لجمال وردة

هى طفلة

قالت الميثاء:

هى فى عمر سهر وفى جمالها انظر إلى عينيها الخضراء وشعرها الأصفر وبياض جسدها قشطة والله

نظر إلى الميثاء بغيظ

أنت شيطان يا امرأة

قالت وردة:

سيبك منها.. خليك معايا..

يا بنت الناس ارجعى لأبيك الآن حتى لا يقلق أبوك وأمك وأخوك..

خرجت بعد جدل وإلحاح.. نمنى لو كانت سهر

فى ظنى لم يسألك قلبك عنى.. فى ظنى أنك مخلوقة من الحنان والرقة لا من دم ولحم.. فى ظنى أنك خلقت من ضلوعى.. فى ظنى أنك ضائعة بين الحلم وبينى.. فى ظنى أنك لى مهما بعد بنا الزمن أو المكان.. فى ظنى ذات يوم سأجدك على باب بيتى بحلمك وحلمى.. فى ظنى أن روحك تهجر فراشك كل ليلة وتأتي لعندى.. فى ظنى أن نارا تلسعنى فى بعادك عنى.. سبب وجعى وهمى..

مرت الأيام فى المشفى فى الشام يا كاظم.. ثقيلة.. الجسد لا يقوى على البعاد عن سهر..

اما منقذ أرسل أخته بعد سفره بشهر بهدية إلى سهر عبارة عن شبكة ذهب..

بعد شهر عاد كاظم إلى الجبل، ودخل المدرسة ذات صباح.. هاجت المدرسة وماجت عند دخوله فى طابور الصباح، إلا سهر شعرت برجفة، ورأت الطائر يحوم فوق الطابور وهو يهلل..

مرت بنات المدرسة كلهن وهن يتحركن إلى الفصول أمام كاظم

حمدا لله على سلامتك استاذ كاظم

يسلمكن ربى

مر الكل أمامه حيث كان يقف بجوار السلم المؤدى إلى الفصول، ووقفن أمامه ثوان.. إلا هى مرت سريعة، واحمر وجهها ودق قلبها بسرعة، وهو حاول أن يتماسك.. ارتعشت رموش عينيه..

كان الناظر قد وزع جدول كاظم على المدرسين، فلما عاد اضطر الناظر إلى توزيع جدول جديد.. لم يكن فصل سهر ضمن فصول جدول كاظم لأن الأستاذ فكرى قد أعجبه

الفصل، وفكرى له دلال على مدير المدرسة؛ فطلب من الناظر أن يكون ضمن جدوله هذا الفصل.. الناظر وافق..

كل شىء مباح فى العشق..

كالأطفال الصغار يظهر كاظم فى الشارع الذى تقطن فيه سهر بأى حجة ربما يستريح القلب، أو يتنهد الصدر من العشق فيبتل شوق الروح العطشى..

لا شىء حقيقى، ولا توجد حقيقة مطلقة غير الله.

مرت ظروف حرجة بـ ميثاء ؛ إذ مرض أخوها واحتاج إلى مال للعلاج فى الشام عند طبيب مشهور.. ذهبت الميثاء بحسن النوايا والثقة إلى وردة فى بيت المختار.. دخلت إلى حجرة وردة، وهى تبكى.. سألتها وردة:

شو بك؟

أخوى ياسر بيموت.

بعد الشر.

لازم يعمل عملية فى الشام عند دكتور كبير.. محتاجة خمس آلاف ليرة يا ست وردة

الله بيفرجها عليك وعلينا.

مدت يدها وردة، وأخرجت من حقيبة يدها خمسين ليرة

شو هاد بقولك محتاجة خمسة آلاف ليرة .. أنا مو شحاته

بعرف بس إنت حبايبك كتير اجمعى من كل واحد خمسين ليرة.

ألقت ميثاء بالخمسين ليرة على الأرض، وخرجت.. سارت فى الطرقات.. يتعفر مزاجها.. تحترق أنفاسها.. قابلها أبو الريش، الرجل الداهية، يحب نقل الكلام والشائعات ويعيش آكلا شاربا من هذه الوظيفة.. وظيفة نقل الحكايات والشائعات.. قال وهو يراها حزينة:

ست ميثاء شو بك؟

جرت الدموع فى عينيها

شو صار

اسمع عندى لك خبر

شو صار؟

خبر بمليون ليرة..

شو

فيه موضوع خطير

احب المواضيع الخطيرة.

تبع مين.

المختار.

شو؟

لا.. مش المختار المختار

هل لدينا مختاران؟

لا.. أقصد بنت المختار

وردة

نعم.. وردة الفاجرة .

حكت الميثاء ما تعرفه عن وردة وزيارتها لـ كاظم فى الشام فى المشفى. لقد انتقمت الميثاء من وردة التى لم تساعدها فى محنتها وهى ابنة المختار الثرى..

جرى أبو الريش بعصاه وركب حماره، واتجه إلى المقهى التى يجلس عليها راغب؛ فوجده جالسا بمفرده يتابع الشارع والنساء العابرات.. دخل أبو الريش على راغب فى المفهى

صباحو معلم راغب .

صباحو أبو الريش.

أطلب لى شاى على حسابك يا معلمى

اطلب أبو الريش.. الشاى وعلى حسابى.

شو اخبار صحة الأستاذ كاظم..

كاظم مين؟

مدرس الست وردة..

ما بعرف.. ماله شو صاير له؟

بحسبك بتعرف من الست وردة

وايش دخل الست وردة؟

أنا كنت فى المشفى فى الشام وشفتها هى والميثاء رايحين غرفة مريض.. بصيت لقيتها بتزور الأستاذ كاظم وهو نايم على السرير.. والله أنتم عائلة ذوق وطيبين

ألقى راغب فنجان القهوة على الأرض، وهب واقفا، وأمسكه من رقبته:

شو بتقول يا أزعر؟

شو.. قلت معلمى حتموتنى بقول اللى شفته اسأل الميثاء..

تركه واتجه ناحية منزل الميثاء كالثور الهائج. ركل الباب بقدميه وأخذ يصيح:

ميثاء.. ميثاء.. وينك يا مرة؟

لم يجد أحدا فى الدار، وبينما هو يهبط الجبل وجدها صاعدة اتجه نحوها وأمسكها من رقبتها صارخا فى وجهها:

ميثاء قولى لى أنت رحتي مع أختى الشام عشان تشوف كاظم فى المشفى؟.

أيوه.. أختك خدعتنى قالت لى بدها أغراض من الشام، ولما وصلنا هناك قال بدها تزور الأستاذ كاظم فى المشفى عشان مريض، وبكت.. صعبت عليَّ..

وازاى تسمحى لها تعمل كده؟.. ايش يقول الناس علينا..

اسأل أختك.. قالت لى بدى أشوفه وأطمن عليه وألا حاموت..

إخرسى..

صفعها بيده على وجهها.. هاج وماج وألقى اليها بكلمات الوعيد والتهديد:

والله لو حد علم بالموضوع دا حاقطع رقبتك انت وأبو الريش.. رصاصتان ثمنك

انت وهو.

- حاضر يا سيدى.

تركها ونزل من الجبل إلى دارهم.. اقتحم الدار.. سألته أمه وهى تراه غاضبا:

- شو صار؟

دخل إلى غرفة وردة وأمه خلفه تهرول..

- شو صار يا ولد؟

فزعت وردة.. صرخت..

- شو صار أخى؟؟

ظل يصفعها بعنف، والأم تصيح وتصرخ.. خرج الأب من غرفته مفزوعا:

- خبرنا يا ولد.. شو صار.. إحكى يا بنت..

قالت وردة والدموع تنهار من عينيها وعلامات الصفعات على خدها:

- والله ما سويت شىء ..

صاح راغب:

- حاصوب عليك واقتلك..

صاح الأب:

- شو سويت.. ها البنت.

- بنتك راحت الشام مع الميثاء.. من شان تزور الأستاذ كاظم المريض فى المشفى وشافها فى المشفى أبو الريش كمان.. وأبو الريش بالذات زمانه بلغ بيت بيت فى الضيعة والجبل.. يا فضيحتنا فى الضيعة والجبل..

نزل الخبر كالصاعقة على المختار.. جلس على الكرسى منهارا.. ارتمت وردة تحت أقدامه تصرخ وتولول.. خلع المختار الحذاء من قدمه وظل يضرب وردة بعنف..

- فضحتينا وجرستينا يا بنت الكلب..

***

الزمان/ صباحا

المكان/ المدرسة

دخل مدير المدرسة فى فصل كاظم وهو يشرح للطالبات.. قام التلاميذ تحية له.. قال الناظر:

بدى إياك أستاذ كاظم

خرج كاظم من الفصل.. أخذه المدير جانبا

فى شىء بينك وبين وردة؟

أعوذ بالله؟ شو صار؟

اسمع أخوها وأبوها حيقتلوك.. قالوا إنها راحت لك المشفى.. الكلام دا صحيح؟

كان معها الميثاء

اسمعنى.. قدم طلب أجازة مرضية وسافر على الشام الآن الآن.. واعمل وأنت فى الشام ورقة مرضية وانقل نفسك هناك.. انج بحياتك..

أنا ما سويت شىء غلط..

أبوها وأخوها ما حيسكتوا.. اكتب الطلب وسافر على الشام ما فى داعى تروح البيت كمان.. ممكن يكونوا متربصين لك هناك..

خرج كاظم مع مدير المدرسة إلى محطة الباص الذى ودعه، ووعده بإرسال ملابسه له وحاجاته الأخرى قريبا.. أعطاه كاظم مفتاح بيته.. تحرك الباص إلى دمشق.. تحرك قلب كاظم وتفتت مع سهر.. أشار إليه المدير ملوحا بيديه ومودعا.. أشار إلى المدير حزينا آسفا..

هكذا توقعنا المشاعر الخاطئة فى بئر مظلم، وفى مشاكل تقودنا إلى الجحيم

تحرك الباص إلى دمشق (الشام).. سينام كاظم وسط عائلته.. شعر كاظم بأن رحلة حبه إلى سهر انتهت بشكل ميلودرامى..

فى الليل تحرك المختار وابنه، وهما يحملان بنادقهما، إلى منزل كاظم.. اقتحما البيت.. كسرا الباب.. لم يجداه، ووجدا كل أوراقه وأقلامه فألقياها على الأرض بغضب.. منعا وردة من المدرسة..

***

اتجهت سهر إلى بيت شهرزاد التى فتحت لها الباب، وجهزت لها القهوة، وجلست أمامها فى شغف:

خبرينى شهرزاد شو صار مع نفر وإخناتون

خبرينى إنت شو صار مع وردة

والله الموضوع ريحته مو حلوة خالتى..

البلد تتكلم على أن وردة كانت تزوره كل يوم.

المختار أمر الميثاء أن تترك البلد واشترى منها البيت..

وراغب ربط أبا الريش على شجرة وضربه بالكرباج وشرحه، وكاظم هاجر الشام

تقصدين هرب..

نعم يا خالتى.

هل سينتهى الأمر هكذا؟.. لا أظن.

احكى لى يا خالة عن ما جرى، وكان لـ نفر

***

مالت شهرزاد واتكأت على الدكة وأخذت تصب القهوة.. ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين.. تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطى الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين تنظر يمينا شمالا أماما خلفا ثم تهمس.. قالت:

بلغنى يا أميرة سهر أن الجميلة نفر عاشت فى قصر الفرعون إخناتون وذات فجر خرج إخناتون من القصر، وتحرك للصلاة ليرى إشراقة الشمس. كانت نفر بالصدفة تراقبه.. سارت خلفه..

سجد إخناتون أمام قرص الشمس، وبكى قائلا:

يا سورى المكون من مليون ذراع

ومذكرى بالأبدية

وحجتى بالأشياء الأبدية

الذى سوى نفسه بنفسه بيده هو

والذى لا يعرفه صانع

أيها الواحد العظيم

اهتم بأمرى

واجعلنى أتحدث عن أعمالك العظيمة فى أى أرض أحل بها

تعالى إلي ونجنى أنا الرجل الصامت

أنت تمدنى بما أحتاج إليه من خبز وماء شعير، وتحرس فمى عند الكلام يوم الحساب

أخرجنى بريئا أنت يا شجرة الدوم العظيمة..

بكى إخناتون.. بكت خلفه نفر.. سمع صوتها؛ التفت إليها:

- **من أنت؟**
- **أنا نفر يا مولاى وصيفة جديدة.. لمن تقول هذا الكلام الجميل يا مولاى؟**
- **إلى الله الواحد..**
- **أين هو يا مولاى؟**
- **انظرى إلى قرص الشمس.. هذه ذراعه لنا**

نظر إخناتون إلى نفر وجدها ترتعد

- **لا تخافى يا صغيرتى**

أبى يعبد الخنفساء.. يا مولاى

تعالى يا صغيرتى.. هاتى يدك

يمسك إخناتون يد نفر، ويسير بها إلى قرص الشمس منشدا:

أنت تشرق بجمالك يا آتون الحى يا رب الأبدية

ساطع وقوى وجميل

وحبك عظيم وكبير.. أشعتك تمد بالبصر كل واحد من مخلوقاتك

ولونك الملتهب يجلب إلى قلوب البشر الحياة

عندما تملأ بحبك الأرضين

إيه أيها الإله الذى سوى نفسه بنفسه

وخالق كل أرض وكل من عليها

والناس وكل قطعان الماشية والغزلان

وكل الأشجار التى تنمو فوق التربة

تحيا عندما تشرق عليهم

وأنت الأب والأم لكل من خلقته

وعندما تشرق ترى عيوبهم

بوساطتك

وتضيىء شمعك كل العالم وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب عندما تشرق بصفتك سيدهم

بكى إخناتون.. بكت نفر

دخلت نفرتيتى أجمل نساء مصر وزمانها.. وجدت نفر جالسة على ركبتيها أمام الملك إخناتون تبكى..

قال إخناتون وهو ينظر إلى نفرتيتى:

من أين أتيت بهذا القلب الملاك يا نفرتيتى؟

إنها ابنة نجار

إنها ملاك

لماذا تبكى؟.. تشكو فقر أبيها أم أمها؟

إنها تبكى لأنها تعرفت على رب هذا الكون آتون

قالت نفرتيتى وهى غاضبة:

أخرجى أيتها الفتاة من هنا، ولا تذكرى لأحد عن آتون شيئا، حتى يعلن الفرعون إخناتون للعامة فى العاصمة الجديدة.. أخرجى..

هرولت نفر خارجة.. نظرت نفرتيتى إلى إخناتون

ماذا تفعل يا أمنحتب الرابع؟.. تريد أن تثير الكهنة أكثر فأكثر.. تحدث الخدم والوصيفات عن إلهك آتون..

قام غاضبا وبهدوء قائلا:

الكهنة يدعون إلى آلهة عدة فى كل مكان.. شاهدى مصر الآن انظرى إلى ما يكتب الأدباء.. انظرى هذه البردية.. ماذا يكتب هذا الأديب.. يقرأ ما فى البردية.. كل شىء فى مصر يقبل الرشوة إلا الله لأنه عادل ونزيه.. الرجل يذبح أخاه من أمه فما العمل؟.. الرجل ينظر لابنه نظرة عدوه.. الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدا لينجى بنفسه.. انظرى لا صانع يعمل، والعدو يحرم البلاد من العمل.. إن من حصد المحصول لا يعلم عنه شيئا.. قوانين قاعة العدل والأحكام قد ألقى بها ظهريا؛ فصارت تدوسها الناس بالأقدام فى المحال العامة والفقراء يقضونها على قارعة الطريق.. أوراق العدل على الطريق ملقاة.. لا تنفذ أحكام العدل فى البلاد.. لا قيمة للعدل عند الأغنياء.. والتجارة الخارجية تنحط يوما بعد يوم.. الناس تسلب السائح ماله فى الليل ويجردونه مما معه (البلطجية الآن) ويضربونه بالعصى أو يذبحونة كالشاة.. البلاد تدور كعجلة صانع الفخار.. ونظام البلاد قد قلب رأسا على عقب.. فمن كان لصا صار رب ثروة.. والغنى الأصلى صار إنسانا منهوبا، والمتحلى بالفضائل يسير وهو محزون (مكتئب) ويقول الرجل الأحمق إذا

عرفت أين يوجد الله فإنى أقدم له قربانا (هدية) حتى ينقذه من بلاء الظلم.. ويقول الشريف يا ليتنى كنت ميتا (غربة الشرفاء) والأطفال الصغار يقولون كان يجب عليه ألا يجعلنا على قيد الحياة (يكره الشباب حياتهم).. البؤس عم فى هذا الزمان والفساد والفوضى (راجع سليم حسن.. مصر القديمة، وما كتب الأدباء فى مصر منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد)

صرخت نفرتيتى:

■ أنت ملك.. قوتك ليست فى الشعب.. قوتك فى الجيش والكهنة.. هؤلاء الفلاحون لا يقدمون ولا يؤخرون.. لا تسمع كلام الأدباء والشعراء والشكاوى.. أنت تجلس كل يوم للصلاة ولقراءة شكاوى الناس وما يكتبه الأدباء والشعراء، وهذا خطأ

■ إنى أسمع نبض مصر.. مصر الناس وليست الكهنة والحراس.. إنى أدوس على أرض طاهرة تئن بأوجاع الناس.. ويحتشد فيها همس المظلومين والجياع.. الحب بين ضفتى النيل يغيب.. إن مصر تنتحر على ضفاف التشتت والصمت والاستسلام، وأنا لا أريدها كذلك

نفرتيتى مقاطعة

■ أنت تبنى معبدا جديدا، وعاصمة جديدة، أنت تمحو كل ما كتب عن الإله آمون. أنت وأنا وبناتك فى قلق. أنت تغضب الكهنة تكسر التماثيل وتضع الوسخ عليهم فى الليل..

■ أنت قلت الآن: تماثيل المعبد؟؟ إذا هم تماثيل صنعها الإنسان بيديه.. كيف أعبد ما صنعت يدى؟

تدخل الأميرة كيا، وهى حامل.. تنظر لها الملكة نفرتيتى قائلة:

■ كيا أنت حامل؟

■ نعم.

■ مبروك.

- شكرا لك.

نظرت كيا إلى إخناتون

- جئت أصلى معك أيها الملك المقدس.

ابتسم إخناتون

- تعالي نصلى معا إلى آتون.

نظرت نفرتيتى إلى إخناتون

- وأنا أصلى أيضا معكما.

كان تحول نفرتيتى سريعا وشبه مذهل بالنسبة إلى إخناتون.. هل غيرة النساء تغير عقيدتهم؟.. هل غيرة النساء أقوى من كلام الرجال؟.. كلام الرجال لا يقدم ولا يؤخر على النساء مهما كان الحال..

كانت كيا حاملا بالصبى.. الولد الذى يحلم به إخناتون، والذى سوف يحكم مصر بعد عدة سنوات.. كيا أشعلت الغيرة والحقد فى قلب نفرتيتى..

فى تلك الليلة.. خرجت نفرتيتى مع كيا، وأمضت معها ساعات، وأعلنت فى تلك الليلة لأبنتها ميريت آتون.. أنها اقتنعت بإله إخناتون، وسوف تصلى من الآن إلى آتون

جلس إخناتون فى حالة استرخاء، وهو يتابع مع المهندس بناء المدينة الجديدة.. جاءت نفر، وهى تحمل كأس عصير للفرعون.. ترى فى وجهه احتقانا واحمرارا

- العصير يا مولاى

- شكرا لك.. يا نفر..

ضحك إخناتون

- إن اسمك مثل اسم الملكة..

- أمى أسمتنى إياه..

- لكن أنت جميلة أيضا يا نفر.. حفظك الله

حفظك الله يامولاى.

ابتسمت نفر.. احمر وجهها ومشت على الأرض كأنها تطير فوق السحاب..

لم يقصد إخناتون الغزل، ولم يقصد أن يدغدغ عواطفها، لكن تأثير عطرها مع جمالها جعل الفرعون ينطق برأيه لها..

ما نوع عطرك؟

لا استعمل العطور سيدى

اذا هى هبة الإله.

لا أعرف.

يبدو أنك امرأة صالحة.

أشكرك سيدى

وجميلة.. كونى دائما حذرة من الأشرار.

دخل الكاهن الأعظم إلى ديوان الفرعون إخناتون، وانحنى أمام الفرعون.

مولاى؟

أهلا بالكاهن الأعظم.

يا مولاى.. إن بالقصر وصيفة جميلة.. نريد أن نهبها للنيل..

من هذه؟

تدعى نفر.

وكيف عرفتها؟

رشحها أخوها كى كاهن جديد فى المعبد.

هى وصيفة الملكة نفرتيتى وصديقة الأميرة ميريت، وأعتقد أن الأمر صعب.. أرجو أن تجد غيرها.. إن صممت عليها ستواجه بغضب الملكة والأميرة.. هل ستقبل أن تواجه بكل هذا؟

ما تراه يا مولاى.. ومن سنقدم لحابى (النيل).

خرج الكاهن فى غضب.. فرعون يدافع عن فتاة من الشعب خادمة أو وصيفة للملكة.. ما ظن أن الامر سيؤول إلى هذا..

كان الكاهن الأعظم سوات وكهنة المعبد قد بدأوا يفكرون فى اغتيال الفرعون إخناتون.. خاصة وان حور محب بدأ فى تخفيف عدد الحرس على إخناتون بعد أن راقب ورأى بعينيه.. إن الفرعون فى كل أسبوع يأتى إلى المعبد ليلا يكسر تمثالا أو يضع بعض الوسخ على التماثيل الأخرى.. ترى من سيقوم بمهمة اغتيال الفرعون إخناتون؟.. اجتمع كبار الكهنة فى قاعة الاجتماعات مع الكاهن الأعظم..

الكائن الأعظم:

- لقد طفح الكيل وزادت الأمور فوق حدها.. الفرعون يستهزىء بنا؟.. أريد أن أسمع آراءكم.. تكلموا..

وبدأ الكهنة فى الكلام.

- إخناتون لا يردد أناشيد آمون.. يقول أنا ملك، ولست إلها.
- يسمى نفسه الرائى الأعظم، ونصب نفسه الكاهن الأعظم بدلا منك سيدى الكاهن الأعظم..
- إن الملك غير اسمه من أمنحتب الرابع، وهى تعنى أمون راض إلى اسم إخناتون أى آتون راض..
- إنه قد محا كل ما يتعلق بالإله آمون من المعابد..
- إنه لم يحترم حتى اسم والده، ويقول أنه كافر..
- إنه يأمر بمحو كلمة كل الآلهة إلى إله واحد..
- قال إن كلمة آلهة تفتح باب الظن للتعدد..
- وترك طيبة، وذهب إلى مدينة جديدة
- وبنى مدينة أخرى جديدة فى النوبة وسماها إختاتون
- وأقام فى سورية مدينة إخناتون

ثلاث مدن سميت باسم إخناتون

في كل يوم يبنى معبدا باسم إخناتون فى مصر أو خارج مصر

إنه يقول لا تنحنوا للتماثيل ارفعوا رؤسكم للسماء واطلبوا حاجاتكم

إنه ترك طيبة لنا ويبنى عاصمة جديدة أخيتاتون أي "أفق آتون" وهو هناك ويأتى ليلا إلى هنا ويعبث بالأصنام..

لابد من قتل إخناتون والتخلص منه، ومن يقوم بهذه المهمة غير شخص غبى، ثم نقتله فى الحال لأنه قتل الملك الفرعون

يضحك الكاهن الأعظم

يدخل الغرفة دون قصد (كى) يرتبك حين يرى أنه دخل قاعة خطأ لا يعرف من فيها.. نظر للكاهن الأعظم.واؤتعشت قدماه ..

عفوا أنا جديد هنا سامحونى

ينظر الكهنة بعضهم إلى بعض.. إنه هو المطلوب رجل المهمة.. غبى ويقتل إخناتون، وبعد قتله إخناتون يقتل فى الحال..

صاح الكاهن الأعظم:

تعال أيها الكاهن الشاب.

نظر كى بغباء حوله لمن يتحدث الكاهن الأعظم

قال كى للكاهن الأعظم:

تقصدنى أنا يا سيدى؟

قال الكاهن الأعظم ضاحكا:

نعم أنت الرجل المطلوب

وانفجر ضاحكا وضحك الكهنة معه..

قال كى بدهشة:

مطلوب فى أى شىء يا سيدى الكاهن الأعظم؟

- ستعرف فى الوقت المناسب يا كى..

ثم نظر الكاهن الأعظم إلى الكهنة قائلا:

- علينا أن نرحل إلى العاصمة الجديدة.. ونبدأ بعبادة إله إخناتون..

همهم الكهنة امتعاضا ورفضا..

أجاب الكاهن الأعظم:

- علينا بالصبر والتأنى وحين تحين الساعة سيكون لكل حادث حديثا.. وحتى نؤهل الراهب كى

***

يحتفل إخناتون بنقل الدولة إلى العاصمة الجديدة أخيتاتون، وكذلك أقيم احتفال بزواج الأميرة ميريت من سمنخ كارع.. كانت الاحتفالات شتى، خاصة بالإضافة إلى أن الملكة كيا قد حملت.. أنجبت كيا، توت عنخ آمون.. العاصمة الجديدة أخيتاتون معابدها كلها إلى آتون.. إله واحد..

***

كان باكا يريد أن يسمع أخبار نفر.. ماذا فعلت به هذه البنت؟..

لى عتاب عليك فى قلبى مختزن وفى عينى دموع تكاد تنهمر لأنى بعشقك أنا متوحد.. والروح تهفو والبعد يدرك أكرهه.

فكر باكا فى السؤال عنها، وأن يذهب إلى أبيها النجار نح.. هل سيقول له أين اختفت ابنتك نفر؟.. كيف سيكون الجواب؟؟ على أية حال يجب أن أطفئ الأسئلة المشتعلة فى داخلى..

أما آن الأوان أن تسلمى لى حقول الياسمين ليلهو طفل حبنا بين الزهور.. أشك فى غيابك، وصوت القلق يحاصرنى.. أما عرفت أننى فى صحارى عشقك وفى نار شمسك.. أقرأ بسم الله الواحد، وباسم الله خالق العشق والعشاق خالق الشمس آتون

نفر يا أسطورة النساء أما فهمت أن نظرتك تظلل الأرض بالحنان؟.. أما عرفت أنى سأُفتش لحظة الموت.. سيخرجون من جيبى قلوب النساء اللائى عشقننى وعشقتهن إلا قلبك الذى سكن قلبى فأصبح لقلبى قلبان.. أما عرفت أنى ما أحسست ماذا سأقول لها عندما أراها؟.. هل سأضمها إلى صدرى أمام الناس؟.. هل أطلب يدها من والدها؟.. ومما لا ريب فيه أنى فقير وأسير الهوى والعشق والتفسير.. ومما لا ريب فيه يترنح قلبى عند عتبات كلمات الله فى معبد آتون.. ومما لا ريب فيه أنى على موعد مع سحرك فى الليالى القادمة.. يا فتنة.. مما لا ريب فيه أنت جبانة فى العشق.. أنت زهرة فى أحشاء النور.. أنت التين، التفاح، الزيتون، أنت هدير العشق بين النجوم.. أنت الحياة المنفية بعيدا عنى.. أنت لفافة دخانى أشعلها تحرق قلوب كل الرجال.. تصير لى عطرا، بخورا.. مما لا ريب فيه أنى بحبك قد جننت.. قلبى صار مجنونا.. مما لا ريب فيه أن بعادك عنى هو شهادة موت ميلادك وميلادى.. وليس النجاة من طوفان عشقى.. ومما لا ريب فيه أنى بدونك وحيد.. مهزوم.. مهزوم.. مهزوم

قرر باكا الذهاب إلى والد نفر.. تسير الخطوات به.. ماذا سيقول له:

■ هل سافرت ابنتك؟ هل سيقول له أنها تزوجت؟

***

وقف أمام الأب على شاطىء النيل بينما كان يعمل.. رفع الأب رأسه بينما ينشر فى الخشب حين وجد ظلا لرجل على الأرض أمامه.. نظر له الأب:

■ نعم.. هل عندك رغبة فى بناء سفينة أيها المعلم باكا؟

فرح باكا أن نخ يعرف اسمه..

■ هل تعرف اسمى أيها العم نح؟

■ أنت معلم ماهر، وكل أهل طيبة تعرفك..

ارتبك المعلم باكا..

- وكيف ابنك كى؟

ضحك نخ ضحكة حزينة:

- ابنى كى أصبح كاهنا.. التحق بالمعبد.. منذ أن ذهب هناك لم يعد حتى الآن.. الناس تحسدنى لكننى أشعر بأنى أب تعيس.. أفتقده كل يوم.. لا.. كل ساعة.. لا.. كل لحظة.. كنت أشتمه.. أقول له يا كسول يا تافه كنت أصرخ فيه: قم قم.. تحرك.. لا تحاول أن لا تهرب من فى العمل.. كنت أكره نومه فى البيت طوال اليوم وكسله.. الآن أفتقده، أفتقد صوته أيضا، صياحه، شقاوته، ضوضاءه.. الأبناء عندما يكبرون يرحلون.. يوجعون قلوبنا.. نفتقدهم وهم لا يفتقدوننا.. أمه كانت تصرخ فيه طوال اليوم: "ابتعد عن النار يا كى.. اجمع الحطب يا كى".. والآن لا تنادى على أحد.. وهى تبكى الآن.. تقول أين كى؟.. هى تعلم أنه هناك.. لا تصرخ... لا صوت لها تبكى على غيابه.. وأنا أقول لها: "هل جننت يا امرأة؟.. الولد بخير".. ولكن قلبى يبكى فى صمت.

احتار باكا أمام دموع الرجل العجوز نخ..

كيف لى أن أسأله عن نفر، وهو ملتاع ومعذب على ابنه كى.. كيف لى أن أسأله على نفر؟.. آه يا نفر.. من المفترض أن نكون حبيبين، عاشقين، زوجين.. من المفترض أن نكون وردتين، عصفورين، بستانين.. من المفترض أن نكون شمعتين، قنديلين.. من المفترض أن نكون فى جسد واحد بروح واحدة لا فى جسدين وروحين.. ما أعذبك حين ألقاك.. ما أعذبك حين أسمعك.. ما أعذبك حين أحاورك.. ما أعذبك حين أنسى عمرى وحزنى حين أنظر إلى عينيك.. ما أعذبك حين تغسلين قلبى بعطر يديك.. ما أعذبك حين أتنهد فأجدنى أتنهدك.. ما أعذبك حين أبكى تنزل دموعى على صدرك، وأنت بعيدة عنى وما أقربك..

همس باكا إلى الأب نخ:

- وكيف حال بناتك؟

عندى بنت واحدة فقط، هى نفر، كانت ابنة الآلهة ينز جسدها عطرا رائحته ولا فى الخيال.. كان بيتنا يفوح برائحة عطرها، وكانت الطيور تطير فى السماء فوقها وهى تسير.. هل تصدق هذا؟

احتار باكا كيف يسأله عن أخبارها.. بادر قائلا:

البنت نعمة من السماء.. أكيد تساعد أمها بدلا من أخيها

لا

هل ابنتك تزوجت؟

يا ليت!

سافرت؟

يا ليت

ماذا جرى لها؟

أصبحت وصيفة الملكة نفرتيتى، وانتقلت إلى العاصمة الجديدة هناك.. أنا لن أترك طيبة..

هذا شىء جميل وأنت زعلان؟؟

أخاف أن تفسد عقيدتها وتعبد آتون مثل إخناتون؛ فأنا أحب أن أعبد الخنفساء، وآمون هو الإله الأكبر.. فقط أحبهما.. إخناتون يقول إله واحد للسماء والأرض.. بينى وبينك قد جن الملك إخناتون، ويقول الكهنة أنه يكسر تماثيل الآلهة فى المعبد فى الليل.. أنت رأيته فى القصر؟.. هل جن صحيح؟ هل تحب إخناتون؟ هل تعبد آتون؟

ضحك المعلم باكا، ومشى بعيدا دون أن يريح نخ ويجيبه: هل يحب إخناتون؟ هل يعبد آتون؟.. لقد عرف الآن أين هى، ولكن فى القصر مائة باب وألف وصيفة.. كيف يجدها ويصل إليها؟

***

جلس المعلم باكا ينظر إلى النيل، يرى من بعيد قصر فرعون المهجور إخناتون الذى انتقل إلى المدينة الجديدة والعاصمة الجديدة.. هو يحب إخناتون لأن أناشيده تهدىء روحه، ولأنه يؤمن بإله واحد.. لا يعبد الجعران ولا الزهور ولا الخنفساء.. هو يحب نفر.. الحب قدر من نظرة.. نظرتين.. من كلمة.. من سقوط رمش العين على العين نقع فى الحب ولا ندرى كيف!!

آه يا نفر.. ما أجمل أن ألقاك فى الأحلام.. فى تاريخ الأرواح عبر كل زمن.. ما أجمل أن ألقاك دون عناء فى الأرض أو فى السماء.. ما أجمل أن ألقى عليك تميمة العشق تتحولين إلى فراشة تسكن على كتفى، أو فرسة أو رغيف أو صخرة أو نعجة أو قمر أو وسادة.. ما أجمل أن أعدو نحوك فى المطبخ.. غرفة النوم.. ما أجمل أن أتزوجك أطارحك الغرام على القش وتحت المطر، على نجيل الزرع، على ريش نعام، وعلى السرة.. أترك لك اللؤلؤ والمرجان، وبعض قصائد ديوان.. أين أنت يا نفر الآن؟ أوحشنى العطر والغمازتان فى الوجه والضحكة التى تخلب العقل.. أين أنت يا نفر؟

قرر باكا الذهاب الرحيل والعيش فى العاصمة الجديدة أخيتاتون، وأخذ أمه معه.. مسافات ومشاوير يقطعها كي يصل بالقرب من نفر.. كانت أمه العجوز تعلم أن ولدها فى حالة عشق أو حالة وجد، ولا تعلم باقى السر؟ من هى؟ ما اسمها؟.. لقد تركت ذكرياتها هنا.. فى طيبة وأحلامها القديمة، وعليها أن تبدأ من جديد.. وصل أخيتاتون العاصمة الجديدة فى المساء..

مجهد أنا وضائع بين الوجوه والحلم وأروقة الكلام.. أتوسد حزنى وعلى أنقاض غياب الأصدقاء.. أدرب قلبى العصفور على أن يركض كالعصافير.. ثيابى مبللة بالعرق.. رائحة عطور شوارع الحب التى كنت قد مررت بها مساءات وصباحات.. قلبى يفضح المدن التى لى عشق فيها ولى جميلات كن لى ذات يوم..

استطاع باكا بعد وصوله الى العاصمة الجديدة أن يتوصل إلى قصر فرعون الجديد، وأن يقوم بتدريس اللغة الهيروغلفية لبنات فرعون.. واظب باكا على الصلاة فى المعبد الجديد.. مرتلا أناشيد إخناتون للرب الإله الواحد الأحد، وكان يرتل معهم:

أنت خالق الجرثومة فى المرأة

والذى بذر من البذرة أناسا

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

مهدئا إياه حتى لا يبكى

ومرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطيه التنفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته..

حينما ينزل من رحم أمه فى يوم ولادته

وأنت تفتح فمه تماما

وتمنحه ضروريات الحياة

وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة

تعطيه النفس ليحفظ حيا فى وسطها

وقد قدرت له ميقاتا فى البيضة ليخرج

وهو يخرج من البيضة فى ميقاته فيمشى على رجليه حين يخرج منها

ما أكثر تعدد أعمالك وهى على الناس خافية يا أيها الإله الأوحد

الذى لا يوجد بجانبه أحد

وحينما كنت وحيدا لا شيء غيرك

خلقت الناس أجمعين

وخلقت الماشية والغزلان

وجميع ما على الأرض

مما يمشى على رجليه أو يطير بأجنحة

***

مالت شهرزاد وأطفأت ركوة النار، وقالت وهى تتنهد:

- حان الوقت، وآن الأوان يا صغيرتي أن تذهبى أيتها الأميرة سهر إلى البيت.. وسنكمل غدا أو بعد غد..

خرجت سهر من دار شهرزاد إلى التل إلى دارها...

***

يفكر المختار وابنه راغب فى حل مشكلة القيل والقال وحكاية حب وردة ابنة المختار، وعشقها لـ كاظم، وهروب كاظم إلى دمشق.. فكر المختار فى الذهاب إلى دمشق مع ابنه ومدير المدرسة التى كانت يعمل بها كاظم.. المسافة ليست إلا ساعة ونصف، ولكنها كانت أطول رحلة قام بها المختار فى حياته بالحافلة إلى دمشق كأنها ألف ساعة من كوكب الارض إلى كوكب المريخ.

جلس المختار فى بيت أسرة كاظم، وهو يطأطىء الرأس كأن ابنته فعلت الفاحشة.. لابد أن ينهى الموضوع بأى شكل وبأى أسلوب وإن لم يقتنع سوف يفرغ الرصاص فى صدر كاظم..لا.. سيقنعه.. لا.. سيجد حلا يرضى جميع الأطراف..

نظر المختار إلى كاظم الذى كان يرتعد خوفا من ذنب لم يرتكبه أو فعل لم يفعله، جالسا بجوار أبيه الشيخ العجوز الهرم.. قال المختار:

- أستاذ كاظم.. أنا جاى أخطبك لبنتى، ومن حقك ترفض بس رفضك بيكسرنى.. بيفضح بنتى بيسبب مشاكل.. أنا بطلبك تتزوجها عاما، وبعدها أنت حر.. تطلقها أم تستمر معها..

- أنا ما صار بينى وبين بنتك شىء.. أى شىء.

- بعرف إنها جت زارتك فى المشفى، بس الناس حكت كلام مالوه حدود.. ماله لزوم أحكيه هون.. أنا قدام أبوك وأخوك بطلبك تشيل عنى فضايح الناس.. بنعمل كتب كتاب ونعلن للناس وكمان شهر بتتجوزها.. نجهز لك بيت ٦ غرف والأثاث على

حسابنا والفرح ولازمة كل شىء فى البيت..

بس..

أجاب أبو كاظم مقاطعا ابنه ومنقذا المختار وولده، ورأفة بالرجل:

واحنا نعرف الأصول يا مختار، وعندنا بنات.. ونعرف الواجب.. بمد إيدى فى إيدك.. أطلب إيد بنتك لابنى كاظم والخميس الجاى بنزوركم لكتب الكتاب فى الضيعة

عاد المختار إلى القرية رافعا رأسه، شامخا بعض الشىء، كأن حملا قد انزاح من فوق كتفيه.. عند دخولهم القرية أمر ابنه راغب أن يطلق الرصاص فى الهواء معلنا خطوبة ابنته وردة من كاظم.. سرى الخبر فى القرية كبرق السماء..

***

المكان/ بيت سهر

الزمان/ ليلا

دخلت سوسن إلى غرفة سهر أخبرتها بأن المختار سيزوج ابنته وردة من كاظم الخميس القادم، وأن النار تطلق بالبشارة.. ابتسمت سهر.. لم تجب.. ربما تجمدت دقات قلبها إلى كاظم.. تجمدت مشاعرها، أو رحلت خلف سحب إلى القدر والمقدر والمكتوب..

البلاد المتخلفة تغتصب أحلام النساء ببيعهن للأغنياء، وتقهرهن بالزواج من رجال لا يعرفهن.. فى أى وقت دون أن يكون لهن أى رأى.. البلاد المتخلفة سيحاسب الله رجالها يوم الحساب.. إن الله يحب النساء وكرمهن والدليل أن الله جعل الأنثى: الأم والأخت والزوجة التى تحفظ البشرية...

راحت شهرزاد وسهر إلى بيت وردة للتهنئة.. قبلتها شهرزاد من خدها وزغردت، وكذلك فعلت سهر..

قالت أم وردة:

زيارتكم عيد..

- نشكرك ومبارك أم وردة.

نظرت إلى سهر.

- تزوجتما.. أنت ووردة أنتما أحلى البنات فى السويداء.
- يا خالتى وردة تستحق كل الخير..
- وأنت يا سهر.. كيف أمك؟
- بخير.
- وأختك سوسن.. بألف خير.
- تبوس راسك .

التفتت إلى شهرزاد

- ياختى زغردت بدل ما أنت جالسة ساكتة
- من عيونى.

زغردت شهرزاد لقد عاد كاظم إلى القرية، وتم الفرح.. كان يبحث فى عيون البنات عن سهر.. كانت سهر تجلس مع النساء فى خيمة بعيدة.. كان يحلم بأن يعود للمدرسة لكن الناظر نصحه بأن يمضى الشهور الباقية من الدراسة فى أجازة شهر عسل ودلع، وكذلك انقطعت وردة.. ولن يكتب الغياب لهما

الفصل الثانى والعشرون

بينى وبينك جبل

فتحى رضوان حبيب سهر في المستقبل ..

بينى وبينك جبل.. خطوة خطوتان، شارع شارعان، مدينة مدينتان.. بينى وبينك أنهار وأشعار لم اكتبها بعد وآلاف المسافات وآلاف التنهيدات والأحلام التى سرقوها منى ومنك.. كنا أنا وأنت حروفا كثيرة، وتحولنا إلى حرفين.. حب.. يكفينا هذا يا تنهيدة القلب.

جلست أصلى فى مسجد القائد إبراهيم فى محطة الرمل، ولى عند الله رجاءات، ولى فى عيونك حكايات.. كل الأشياء تبدو بعيدة.. الله فى الملكوت وأنت على أبعد المسافات.. وبين ما فات وآت.. أحلم بنبى جديد.. نبى يعيد تسمية الأشياء من جديد.. مثل ما معنى الثائر والذليل؟.. ومعنى العيد عند الفقير.. ومعنى التجديد.. ومعنى الكبير والصغير، ومعنى الولاء ومعنى الإخلاص والخيانة ومعنى الأمانة ومعنى الإنسان والحيوان فكل المعانى فى ارتباك كل المعانى فى اشتباك.. إلهى وسيدى ومولاى ماذا عساى أن أقول والروح أنت تملكها والجروح من صنع البشر بى ومما صنعت يداى.. اشفنى يا مولاى على باب رحمتك يقف قلبى وعلى باب عفوك يقف عقلى.. وعلى باب رضاك يقف رزقى.. وعلى باب قدرتك يقف مستقبلى.. وعلى باب علمك يقف جهلى.. وعلى باب حنانك يا حنَّان يقف رعش قلبى ونبضى وأنفاس الحياة.. إلهى أُذكرنى وانصرنى؛ فأنا أضعف خلقك حتى أجلس بين يديك.. إلهى أسألك الرضى وكشف الغمة.. لا تنسنى فأنا شديد الحياء أن أطلب منك وليس لى سواك.. ربى ورب الناس وكل الناس.. اللهم ارفع عنى البلاء أنا لست معترضا، ولكنى أطمع فى العفو والرحمة والعتق من جهنم.. أنزل لى آية فأنا من ذنوبى فى حياء منك.. اللهم ارفع عنى شقاء عقلى وقلبى من الجهلاء الكثر فى بلادى.. اللهم لا تجعل رزقى بين يدى عبيدك البخلاء.. اللهم أسألك أمن نفس، وترحمنى من كيد الأعداء.. اللهم اجعل لى وطنا غير هذا الوطن الظالم وانقذنى من الظلماء اللهم أسألك برجاء اكشف عنى بلاء الغربة آمين آمبن..

أيها العابرون على جثة الوطن صبحا ومساء .. انقلوا جثمانه فى مقبرة تليق به فقد كان لنا فيه يوما رجاء ، وأنا العصفور أين اذهب وأين أدور وأين أجد لى عشا فى قلبك عندما يناديك الحنين لى ليلا أو نهارا.. أنا فى انتظار أن أعبر بك البحار وأن أمر بك الجنة والنار وأرمى نفسى فى الأخطار إلا إذا شاءت الأقدار، ساعتها سأكون فى واد وأنت فى واد وتقتلنا المسافاااات..

إلهى بين الليل والنهار أراك.. فى الضوء والظلام أشعر بك فى الحب وبالحب وللحب اقترب منك أكثر فأكثر إلهى اسقينى من إبريق رحمتك وغفرانك ونورك ورزقك أنا عطش، قل لى كن فأكون.. أكون خبز الحب والروح، وأكون أنشودة الكون.. وامسح من جبين الارض ذنب السكوت والخوف المقموع ومن قلوب ضامرة ومن قهروا حتى تعوَّدوا الذل.. كرهت الكلام المتكرر المهزوم والاستسلام والناس فى فتنة وضاقت بنا أبواب الخروج.. أنا فى زمن عصى وخامل.. إلهى ارحمنى برحمتك لأكون أكون...

***

كان ولابد أن يلتحق فتحى رضوان بوظيفة أثناء الدراسة كى يستطيع أن يواجه الحياة بأى شكل من الأشكال.. التحق بمدرسة إعدادية للبنات للعمل كمدرس.. كان صاحب المدرسة يشعر بأن فتحى هو الرجل المناسب لابنته للزواج منها.. حاول إغواءه بأن يجعله مشرفا على المدرسة رغم أن خبرة فتحى وعمره المهنى لا يؤهلانه لهذا.. ولم لا.. فتحى له شخصية حين يدخل فى الصباح إلى الطابور تختفى الضوضاء، وكأن البنات حط على رؤوسهن الطير.. ربما لشخصيته القوية.. ربما لصوته الجهورى الذى تعوَّد عليه فى معسكرات منظمة الشباب واتحاد الطلبة.. عندما أحس فتحى بأن الناظر سيورطه فى الزواج من ابنته، فكر فى التمرد عليه، لكن حاجته المادية كانت أقوى من كل شىء.. فكر فى أن يعلن خطوبته من أنثى وهمية.. ولم لا؟.. ممكن أن يقنع ناهد حجازى بأن تلعب دور الخطيبة، ويضع دبلة فضة وهمية فى يده.. وعندما فاتحها فى الأمر صرخت فى وجهه:

ولد يا فتحى أنت أهبل والا أهبل؟

تمثيلية.

روح مثل مع غيرى يا شاطر

لم يتوقع أن يكون رد ناهد هكذا؛ فوضع الدبلة فى يده، وأطلق اسما وهميا على فتاة، وصدق الناظر القصة..

قال له صديقه على حسن:

دى فرصة تتجوز بنت أبوها عنده مدرسة وفلوس وعمارة.. فكر كويس..

كيف لى أن أبيع نفسى يا على وكل ما حولى رخيص.. أنا لا أباع ولا أشترى..

بدأ الناظر فى مضايقة فتحى رضوان بالبحث عن كراسات التحضير للدروس الخاصة به، وحصص الإضافى، والمفتشين.. حصار غريب..

قالت ناهد:

أكيد أنت عبيط.. عاوزنى أمثل خطيبتك..

... ...

سرت على شاطىء الإسكندرية مع ناهد.. قالت وهى تنظر لى:

تفتكر حلمك بإنك تكون رئيس جمهورية وبتشتغل مدرس إعدادى

فيه رئيس جمهورية كان بيشتغل شيال اسمه محمد أنور السادات.. يمكن أنا ظروفى أحسن..

تفتكر العسكر حيسيبوا الحكم للمدنيين بسهولة ...

يمكن.

لا يمكن.

إذا قامت ثورة .

تفتكر الشعب حيقوم بثورة تانى؟

يمكن.

- يمكن جايز محتمل أهو كله كلام..
- أنا لا يمكن أن أعيش بدون حلم..

سرنا على الشاطئ.. أمسكت يدها.. أبعدت يدها عن يدى.. لمست ماء البحر، وهى واقفة على الشط تراقبنى: "رغم المسافات بين يدى ويديك ما أعذبك حين ألمس الماء ألمس شعرك الحريرى.. أعشقك ما أعذبك، ما أكثر أصوات العشاق المزيفة من كل الأجناس، ما أكثر أنفاس الهمس الصادقة، ما أكثر النساء خادمات وصيفات تملك نفسية العبيد ويدعين أنهن ملكات، ما أكثر العشاق، وعاشق لم أعرف اسمه لكننى أسمع دقات قلبه فى المساء تحوم حول كل النساء أنينا، ما أكثر النساء روعة، تلك التى لم تلمس خدى وأحتضنها بعد.. وأضع الشمس على رأسها، وترقد فوق سريرى قمرا..

ناهد لا تعرف إلا قلبى وإيمانها بأن الخطب التى أخطبها فى شباب الجامعة والمظاهرات التى أقودها فى الجامعة مؤشر خاص بأنى سأكون رئيسا للجمهورية..

على محطة سيدى جابر أوصلتها حيث منزلها.. سرت إلى بيتنا فى محرم بك..

آه يا ناهد.. لو أن لى قلبين لجعلت الأول لك تسكنينه فى الشتاء، والثانى فى الصيف.. لو أن لى قدرة الواصلين لطرت لك كل مساء فوق بساط الريح.. وعلى نافذتك وضعت باقة ورد.. لو أن لى قدرة الكشف لعرفت من فى قلبك مر، ومن كر، ومن فر، ومن جرحك، وسجنت قلوب جميع النساء فى مسبحة وأهديتها لك.. لو أن لى خاتم سليمان لأمرت الجن أحضرك لى الآن.. وألبستك ثوب "شهرزاد" فى لحظة الاشتهاء لو.. لو.. لو..

إلى محرم بك، شقتنا الضيقة، نمت وأنا أحلم بك يا ناهد.. رأيتنى أدغدغك رأيتنى أطلع فى سماوات عشقك وأنتحر على أرض جسدك.. رأيتنى أنثرك ماء ورد.. أحصدك ياسمينا بلون خدك.. رأيتنى تحت خيمة أسقى عشاقك كأس المغادرة.. لأنك لست ملك الجميع ولست عاهرة.. رأيتنى أفتح نوافذ وأبواب مشاعرك الجريحة المعتمة.. رأيتنى أرفرف بقلبى

على هودجك وأركبك جزرا لا النيل والخليج والمحيط يساوى بحر عشقك.. ما أغربك رأيتنى لباسك وأنت لباسى، وأنت عرس أعراسى.. ما أروعك رأيتنى ولم أر غيرك من النساء ما أنعمك.. ما أعذبك أنثى يا فاتنة نثرتك فوق أوراقى حروفا ساكنة ورسمتك فى نجومى الحالمة يا فاتنة إلى متى تظلين عنى بعيدة وقريبة وغائبة...

الفصل الثالث والعشرون

الطريق إلى اللّه به أشواك

المكان/ بيت شهرزاد

الزمان/ نهارا

تجلس سهر امام شهرزاد..

ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين..تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطره تنتشر فتغطى الخليج تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين تنظر يمينا شمالا أماما خلفا ثم تهمس.

***

باكا فى العاصمة الجديدة أخيتاتون..يسير ولا يسير

كيف أرى نفر؟.. القصر ملىء بالحراس والعيون والملكة نفرتيتى تضع بين الوصيفات عيونا لها.. أنت يا باكا.. يا من تتمناك نساء طيبة وتحلم بك العذارى، يحلم قلبك بفتاة ولكن ليست أى فتاة.. إنها نفر ست الحن والجمال يقف الصيادون كل مساء ينتظرون قدومها لتقوم بمقايضة الجبن بالسمك، لكن نفر لم تأت لهم.. الآن السمك يأتى إليها كل يوم دون عناء، دون حوار، أو مساومة دون أن تحصد نظرات شهوة تفترسها وهى واقفة ولم لا.. إن عطرها خلاب!!!

كان يحب إخناتون ويعلم أن الطريق إلى الله به أشواك وبه عناء وبه شقاء وألم.. الطريق إلى النور يفنى الجسد فيه، ولكن الروح تظل تضىء بالإيمان والاشتعال والوهج.

كان المعلم باكا يريد أن ينفرد بالفرعون إخناتون بأى شكل.. يريد أن يحكى معه.. لقد سمع المعلم باكا من بنات نفرتيتى أشعار وتراتيل إخناتون.. كانت عجيبة يشيب لها الرأس.. سمع باكا عن الله الواحد الأحد آتون..

آه يا نفر.. إذا سمح لى أن أقبلك فى الشارع، فى الحديقة، فى المعبد.. سأفعل إذا سمح لى.. أن أضع رأسى على كتفك.. ركبتك.. صدرك، وأحلم.. سأفعل إذا سمح لى أن أتوسد جسدك، قلبك، عقلك.. سأفعل.. إذا سمح لى أن أصير طفلا.. أمسك كفك..

أرافقك فى كل الاتجاهات.. إذا سمح لي بأن أصبح منديلك، دفترك، شجرتك، عصفورك وأحشاء شهوتك، وشوارع نزوتك.. إذا سمح لى أن أتزوجك سأفعل الآن سأفعل الآن.

***

الزمان/ الفجر

المكان/ قصر اخناتون فى العاصمة الجديدة

إخناتون يصلى خمس مرات فى شروق ثم وهى فى منتصف السماء ثم قبل الغروب بساعتين وفى الغروب كل شمس وقبل النوم يصلى إلى الله.. آتون.. سيحاول باكا أن يلتقى به لحظات الغروب.. سيتلكأ فى الدرس لابنته ميريت حتى يراه وينفرد به.. ومن من أهل مصر لا يحلم بالانفراد بـ إخناتون مثل باكا

الفجر له سحره وسره عند الله والبشر.. يراقب الله الناس من السموات ويتأملهم ماذا يفعلون؟ ويسمع لمن يناجيه ويتحدث معه.. الله جعل الإنسان خليفته، وهو يعلم أنه يفسد فيها، ويقتل ويذبح فيها.. هكذا كان يشعر إخناتون..

كان إخناتون يرتل:

- كل شىء جميل يليق بك يا إلهى فأنت الجمال المطلق.. كل شىء راقي وحنون وعاطفى هو أنت.. يا إلهى كل شىء قبيح هو منى عندما يغيب نورك عنى.. وأعرفك حين أصلى.. إلهى ماذا وكيف وأين الخلاص منك وأنت حولى وفيَّ تسكن وفوقى وتحتى فى السماء والأرض.. إلهى إنى فى غاية العشق لك والجهالة نار تحاصرنى.. أنا أدرى ولست أدرى.. إلهى طهرنى من الكأبة والغربة، وليس لى سفينة أبحر بها إلى قلبك إلا الدمع.. آه آه آه..

يتقلب باكا فى الفراش.. شاردا فى نفر، فى حين أن لحظات بعادك قاسية على القلب وعلى روحى العصفورة.. فى حين كنت حلما محطم الجناح ومراياه مكسورة.. فى حين تدحرج سحرك وقلبك على كل من شاهدك أو كلمك أو سمع صوتك.. فى حين كنت محصورا بين الماء والرضا والبرق ورضاء القدر.. فى حين تلاقت مشاعرنا نجوت

بروحى من الإحباط.. فى حين وكل حين أشعر بالحنين أن أزورك فى الفجر أن أخرجينى من جلدك لأصلى فى شروق الشمس.. يا ساحرتى اعلمى أن كل النساء فرع وأنت أصل نون النسوة..

احتضن المعلم باكا الوسادة

احتضن إخناتون نفرتيتى

فتحت نفرتيتى عينيها

- مولاى ألم تنم بعد؟.
- ضمينى فى صدرك يا أجمل ملكات مصر، لعلى بحبك أنقذنى من قبح العالم.. ومن انهيارى.. ضقت بحظى العاثر.. ضقت بعقل النساء الصغير وبالوطن ذي العقل الحقير.. ضقت بالتدنى فى الأناشيد الدينية الهابطة التى تغنى إلى الآلهة مثل القطط والنسور والجعران.. ضقت بالسلوك الذى يقوم به المصريون فى الصباح مع إله، وفى المساء مع إله آخر.. ضقت بالأغبياء فى كل الأمكنة والأصعدة.. ضقت بالنفاق.. ضقت بالشر وغياب الخير.. ضقت بغسيل عقول الناس من الكهنة.. ضقت بالضجيج الفكرى.. ضقت بك حين تتدللين فوق طاقتى.. ضقت حين تظنيين أنى غبي أو مجنون أو ملحد.. ضقت بالحروف الهيروغلفية التى تمجد الزيف.. ضقت بالجوارى.. العشق.. البشر.. الليل.. وزيف الحضارة.. سأنزع جلدك أيتها الأنثى المتمردة.. وأرسم عليه شمسا وطفلا ياسمينى الملامح.. وأكتب اسمك على زهرة اللوتس..

ضمته نفرتيتى فى أحضانها:

- يا مليكى.. أنا ملكك اقصدنى متى تشاء.. شاورنى فى الأمر..

نظر لها إخناتون:

- قصدت باب قلبك وجدته مغلقا وصدأ القفل.. قصدت باب نهديك فزعت الحلمتان وطارتا خارج الفستان، عصفوران شقيان فزعان.. قصدت باب شفتيك وجدتهما

جافتين من العطش ذابلتين.. قصدت باب روحك وجدتها جالسة فى حالة استسلام للإله آمون وكهنة المعبد، كأنها خارج المدار شاربة خمر.. قصدت باب ذكرياتك، وجدت صور أشباه رجال حطموك بغبائهم، ووجدت صورة لى.. قصدت باب الوطن طيبة مغلقا لحين انتهاء معبد آتون اله واحد.. قصدت باب الله، وجدت نورا.. بخورا.. عطورا.. وجدتك وأنت فى زمن آخر باسم آخر يا نفرتيتى

نظرت له نفرتيتى بعتاب:

- أتلومنى وتكرهنى يا إخناتون؟

نظر لها.. وضع رأسه على صدرها..

- سحر سيدتى ليس له سحر يلقى على فجرا وهمسا، ويكتب شهادة ميلادى؛ فأسكر من صوتك أو أفيق.. عندما أغيب عن وعيي فأراك.. طوبى لك وللزمن الذى بعث بك إلّي..

قام فرعون فى قلق.. ذهب إلى جناح المكلة كيا.. نظرت فى عينيه، وجدت دموعا هادئة تنساب منها فى هدوء.. سألته:

- ما بك يا مولاى؟
- لا شىء.
- هل مازلت تحب نفرتيتى؟.. هل لها علاقة بمؤامرات الكهنة عليك؟ هل تظن توددها إلى الشعب وإلى الكهنة أمر طبيعى غير مبالغ فيه؟ أخاف على ابنى توت عنخ آمون منها.. لقد أنجبت لك ست بنات أميرات جميلات، وهذا هو توت عنخ آمون الأمير الصبى الوحيد الولد من صلبك.. إنى أشم رائحة مؤامرة عليك يا مولاى.. أشم رائحة المؤمرات ولا أعرف مصدرها، وإذا عرفنا ربما يكون الوقت قد فات.. اضرب رأس الفتنة يا مولاى إخناتون..
- هل تريديننى أقتل نفرتيتى وكبير الكهنة؟.. لا أحب القتل ولا الدم ولا القسوة..
- لا أعرف..

- الناس تحب نفرتيتى الآن، لأنها توزع عليهم المال والهدايا والعطايا..
- إننى أحاول أن أغسل قلبها بنور العشق وحب آتون.. لكنى ألمح فى كحل عينيها وهج شر متخف فى نظرة حنان..

تركها إخناتون، وذهب فى عتمة الليل إلى مقر أخيه "سمنخ كارع".. جلس معه فى حديقة قصره، وأمامهما شراب التوت.. نظر "سمنخ كارع" إلى إخناتون قائلا:

- لماذا أرى مولاى إخناتون حزينا مهموما؟؟
- الحزن يرافقنى حتى فى صلاتى.. أخاف على مصر من المؤامرات التى تحاك ضدها من كل صوب.. أخاف على الصغير توت عنخ آمون.. أخاف على الملكة تى.. أخاف على البنات وعليك.. أستشعر شرا قادما سيطيح بى..
- الكهنة.. أم نفرتيتى.. أم الجيش وحور محب وباتو مساعده؟
- الجميع يا أخى..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ بيت باكا

احتضن المعلم باكا الوسادة قلقا.. لم يتزوج رغم اقترابه من الثلاثين، على الرغم من وسامته ومحاصرة النساء له من كل اتجاه؛ فلديه اكتفاء إلا أن قلبه وقع فى عشق نفر.. مضى العمر صعودا وهبوطا على صدر الحروف والمعاناة والنساء، ومضى المعنى والارتقاء والنبلاء.. وبعد مضى الليل وصوت المعبد وأشواك الهجير.. وبعد مضى طائر البجع بين الموسيقى والروح.. وبعد مضى المستقبل، الحلم.. الصراع.. الصراخ والحنان والحنين.. وبعد مضى الطيور، الزلازل، الأحصنة.. وبعد مضى الأفاعى، الجرذان، والضباع التى أكلت الأسود.. وبعد مضى التاريخ أجدنى وحيدا على الطريق بلا أنثاى أو عشيقة أو صديقة..

***

الأب نخ والليل والنجوم والوحدة القاتلة.. ترى لماذا يشعر بالوحدة؟.. هل عندما نكبر يتركنا الأولاد نندم على أنهم كبروا؟.. لماذا الوحدة هى العقاب لنا؟

اه.. أين أنت يا نفر يا أجمل بنات طيبة؟.. أين عطرك الذى يجعل الطيور تحوم علينا؟ الفراش فى الوحدة يجعلنا أشبه بطيور أصيبت بسهم طائش وتترنح وتهبط من السماء إلى الأرض..

....

....

الزمان/ ليلا

المكان/ بيت أم نفر

أغلقت أم نفر عينيها، وهى تبكى.. تعلم أن نخ أبو نفر يبكى فى قلبه على غياب الولد كى والبنت نفر.. قام وخرج وحمل شبكة الصيد متجها فى الليل إلى النيل للصيد وألقى الشبكة على حافة المركب على الشط. هوايته صيد السمك. ظهر له فجأة كور ابن كبير الصيادين..

- مساء الخير يا عم نخ؟
- هلا يا كور.. أنا لا أصطاد سمكا لكنى عندى شبكة أستخدمها أحيانا حتى أقضى على الفراغ والقلق..
- يا عمى سألتك من قبل أنى أرغب فى الزواج من نفر، وقلت دع الأمر للزمن، وكل من وسطته حدثك قلت له دع الأمر للزمن.. الآن اختفت نفر
- ليس بيدى أيها الصبى.. إنها نفرتيتى جلالة الملكة أخذتها وصيفة.. أحضرها لى وتزوجها.. إن استطعت أن تحضرها.

نظر له الفتى كور:

- نفرتيتى ستجعلها إما وصيفة أو جارية.. إن الملكة نفرتيتى خليعة ويقولون شائعة بأنها على علاقة بالكاهن الأعظم، وحور محب قائد الجيش.. كم أكره إخناتون..

يمنعنا من تحديد الأسعار للسمك.. أبى يكرهه وخالى وعمى إلا أمى تؤمن به..
أفكار إخناتون قسمت العائلة اتجاهين الأب والابن اتجاه، والأسرة اتجاه.. إخناتون
يقول ليس هناك إله أكبر ولا إله أصغر، بل إله أوحد للكون..

كور ٢٤ سنة.. أسمر، أعزب، ثرى، وسيم.. يعشق طيف "نفر".. عندما غابت نفر عن النيل لم يشاهدها كور.. شعر بالوحدة.. ماذا حل بى؟ المساءات رتيبة وقافلة النجوم على سجادة حزينة.. ماذا حل بى؟ الحب بين الماء والنار جمر وجليد.. ماذا حل بى؟ أرى سيلا من نور عشق محجوب عنى.. ماذا حل بى؟.. أنتظر معجزة من السماء.. ماذا حل بى؟ صوتى فقد البريق والشبك والنيل والصيد يسجننى يوميا فلا أرى الشارع ولا أقابل صديقا.. ماذا حل بى؟.. ليس لى زوجة أو عشيقة، ونفر التى أحبها عنى بعيدة؟.. ماذا حل بى؟.. أنتظر الصباح يجىء حتى أراها ولا تجىء؟

كور العاشق الثانى لـ نفر وهو الابن الأكبر لكبير الصيادين فى طيبة.. أبوه يعبد الصقر وكانت أمه تعبد الثعبان ثم عبدت آتون لأنها أحبت إخناتون.. كان كور يطارد نفر فى الذهاب والإياب.. تقدم فى صفوف الذين يرغبون فى الزواج من نفر.. أبوها كان يرى البنت صغيرة رغم أن نهديها يشعان حرارة فى الرجال وأن عطرها يثير رغبات كل الكائنات.
غمزت السنارة فى النيل بسمكة كبيرة.. فرح الأب نخ قليلا وقال لـ كور:

- هذا فأل حسن ستأتي لك نفر ذات يوم.. مادام الشباك غمز..

ابتسم كور وكأنها وجدت البشرى..

قام الاب ببطء نحو السنارة ومشى كور بعيدا.. بعيدا بعيداااااا عنه.. القمر يلقى بكسل نوره على النيل الكسول دوما..

كم ذهب كور إلى بيت العم نخ النجار والد نفر وسأله عنها؟.. مائة مرة.. ألف.. لا يذكر كم مرة فاتحه فى رغبته فى الزواج منها؟.. وكم مرة اشتكى أبوها له عن صعوبة الوصول إليها.. الوصول إلى العاشق جسدا هو الأمر الجميل والعذاب اللذيذ..

***

المكان/ قصر اخناتون

الزمان/ ليلا

ضم إخناتون كيا بعنف فى السرير..

انعطف قلبى على روحك فزال همى قليلا؛ فوجدتنى فوق جبال النور انعطفت أحرفا على اللون الأحمر.. وتاريخ العبيد والعبادة وتحول السادة إلى عبيد.. ما أوحشك ايها العالم الآن انعطف وهج الإيمان فى قلبى، وتحول الصدق منفى والكذب صار فجرا حرا.. وهو الحضارة وانعطف التاريخ والوعى بى فأخجل أن أقول أنا مصرى يعبد القطة والخنفساء والجعران.. انعطف علّي العطف الإلهى لأسجد لله آتون الواحد الأحد.. أنعطف انعطافا إلى المجهول.. السكون.. الاعتكاف.. العشق حتى الانتهاء..

ضمت كيا إخناتون، وخلعت كل ملابسها..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ بيت باكا فى أخيتاتون قرب تل العمارنة

باكا العاشق الأول لـ نفر..

جلس المعلم باكا القرفصاء وفتح شباك غرفته، لم يجد أنثى يحضنها.. أمه نائمة فى الغرفة المجاورة.. نظر إلى القمر..

كأنى غفوت على حرف النون فجذبنى حرف الفاء وألقانى فى حضن الراء وبهتت باقى الحروف.. الحروف مثل النساء لها أمزجة.. مرة تحضنك، ومرة تهجرك، ومرة تتودد، ومرة تزمجر.. هذا أنا والحروف ليلة أخرى الحنين للحبيبة.. بين مد وجزر قلبى لك.. آه يا نفر.. أنت حدائق الحب المعلقة بها ورود من كل لون وطعم ورائحة.. يا فاتنة.. حين أتزوجك سأسبح فى قبلة من شفتيك.. أمتص عسل الشهد ألف ليلة بالهمس واللمس وأدخل تحت جلدك، روحك، قلبك.. ألف ألف ألف ألف ألف ليلة.. وآه من

شفتيك تذيب القلب وتبعث فى الروح نشوة.. يا فاتنة يا بعيدة عنى وأنت فى القلب ساكنة تعالى اجمعى أحلامى مثل إيزيس، وابعثى نورا فى روحى الساكنة مثل إيزيس آه لو تعلمين كم أشتاق إليك.. آه لو رأيتك أقول الحقيقة.. لن أنحنى أمامك سأقبلك وأرفعك بيدى فوق جبينى، وأضمك حين تودين أن تحضنينى.. أنا بين السماء والأرض.. بك أطير بوطن يأكل زهور البنفسج حين تجف.. ويشرب من ثدى الياسمين.. أنا لن أقبل يديك إلا فى سريرى وأفرش البحر تحت قدميك حين تسبحين.. وأصلب الماء والهواء لأنه داعب جسدك بشقاوة الذكور وأشق فى صدرك حبى بثورة العشاق وأرق على الماء والهواء، وأعفو عنهما حين تقبلينى.

آه يا نفر.. غيابك صدى وأغانى حنين.. حضورك مدن نورى.. أنت هدير السماء بمطر حب، وتهدج من أحشاء ذنوبى.. ألتفت كل لحظة.. أنتظر منك كلمة نعم أحبك.. فتخرج من روحى سهام يأس، وتسكن وردة النار.. فأزفك إلى أيامى لأكون عريس الزمان وضوء المكان، وأدخل تاريخ العشق والشعر والقمر.. ويدك فى يدى.. نعم أنتظر.. كلمة نعم

آه لو تعلمين يا عمرى.. أنا الحب اللامرئى، وأنت الأنثى الوجود.. بك أكون أنا أحتاجك أنثى تجمعنى من أحلامى، من أحزانى، من السماء والأرض والهواء.. لتضعنى على عرش قلبها.. تهز أشجارى بياسمين أنفاسك فى الصباح والمساء؛ فأعود للنجوم مدارات.. وللكواكب فضاءات.. وللبحر ميناء.. مراكب وأمواج حب لا تعرف الانتهاء.. تعالي إلى أحضانى كى أرتوى بجنونك وجنونى.. أعلمك الحياة.. أنا لا أحتاج إلى غزل النساء وعطرهن، بل أحتاج إلى دفء يديك التى تحن بالموسيقى على جسدى.. أحتاج أشعار الشفاة من قبلاتك، وأحضان المساء فى فراشك.. لا تقولى لا أملك شيئا.. بل تملكين روحى وقلبى وحياتى. قولى: علينا التوحد، الانصهار رغم المسافات لن أقول: لك مساؤك، ولى مسائى.. ولك عيدك، ولى عيدى..

وليس لدى متنفس وأنت بعيدة، وليس لدى وطن يحمل ذاكرة وأنت بعيدة، ولدى رغبة لأشترى لك وردتين وقطعة حلوى لأنك بعيدة، وليس لدى وليس لدى سوى أسماء أصدقاء نبلاء شرفاء يبيعون أرواحهم من أجل معنى الصداقة، وليس لدى أنثى غيرك أتكىء على صدرها وأنام فى أحضانها، وليس لدى نجمة باسمى فى السماء وعندما اعتصمت بحبل الله وجدت الحبل مهترئا من كثرة ذنوبى.. هل أنا تحولت إلى وحش أم أن كل ما حولى وحوش؟.. ليس لدى أى رد..

يا نفر.. سوف أغسل قلبك ذات يوم بورد وياسمين، وأعصر شفتيك فى فمى عصير العشق أجن بك حينا وأفتقدك عمرى لأنى بك أكون نقطة فوق حروف كل العاشقين عندما تفتقدينى حبيبتى قلبك تجدينى، اشربى القهوة معى وضمينى بين رموشك واحضنينى..

المكان: شاطىء النيل

الزمان: ليلا

كور.. يسير على ضفاف النيل ينظر للقصر الأبيض لفرعون من بعيد.. إن نفر هناك ماذا يفعل؟؟.. إنه لابد وأن يجبر نفر أن تأتي إلى أبيها، ويتزوجها، أو سيخطفها.. لابد وأن يكون شيئا شديدا يجعلها تترك القصر وتأتي هنا إلى بيت أبيها؟؟

هل يحرق بيت أبيها؟ هل يقتله؟؟ هل يقتل أمها؟؟ هل.. هل.. هل.. هل.. هل..؟؟..

يحتاج إلى حيلة كى تحضر إلى هنا ويخطفها.. لكنه لم يستقر على حيلة

***

الزمان/ فجرا

المكان/ قصر إخناتون

فى الفجر اتجه إخناتون إلى الشمس كى يصلى ويشكر الله.. كانت نفر تتجه لإعداد الفطور للملك.. جلست نفر الصغيرة خلف الملك تردد فى سرها خلفه كل ما يقول:

أنت فى السماء ولكن أشعتك فوق الأرض.

أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم

أشعتك فوق ابنك المحبوب

ذلك الذى يجعل بأشعته الأعين سليمة

أن نشاهد أشعتك هى نفس الحياة فى المعاطس

والطفل الذى هو أنا ولد من أشعتك لقد سويتنى من أشعة نفسك

أشعتك تحمل ألف ألف من الأفراح الملكية..

وحينما ترسل أشعتك تشمل الأرضين وحتى كل ما صنعت

وسواء أكان فى السماء أم فى الأرض فإن كل الأعين تشاهده دائما

وهو يملأ الكون بأشعته ويجعل كل البشر يعيشون

إلهى ارحمهم فهم لا يفهمون

بكى إخناتون.. بكت نفر الصغيرة.. سمع فرعون نشيجها وهى تبكى.. التفت لها:

- **ماذا بك يا صغيرتى نفر؟**
- **إن إلهك جميل وقوى يا مولاى**
- **انظرى إلى يده إنها الشمس**

اقتحمت المكان فجأة الملكة نفرتيتى.. شاهدت نفر تجلس وتصلى مع الملك، احمر وجهها غاضبة:

- **إيه أيتها الفتاة نفر أنت مرة أخرى فى صلاة الملك فرعون، والأميرات غير موجودات.**

ارتبكت نفر.. تدخل إخناتون

- **أنا طلبت منها الحضور مبكرا كى تتعلم الصلاة وتحفظ ما أقول وتنقله للأميرات الصغيرات.. بنات نفرتيتى ملكة مصر وأجمل نساء العصر والزمان.. إن الأبناء لا يؤمنون بما يقول الآباء.**
- **بناتى سوف تتعلمن من الكهنة.. دع البنات لى أعلمهن ما أريد..**
- **الكهنة يعلمونهن ماذا؟. إيزيس وأوزوريس وحورس وحكايات آمون؟ أى شىء**

تتعلم بنات إخناتون؟.. لن تتعلمن إلا أن الكون له رب واحد هو آتون.. لا يوجد إله اسمه آمون أو حابى، ولن ألقى بفتاة فى النيل خوفا من غياب فيضان النيل.. إن الله يسيطر على ماء النيل.. إن الإله آتون أب وأم لكل ما صنع.. انظرى إلى الشمس.. شاهدى النشوى التى تبعث فى الزهور.. انظرى إلى السماء.. إلى مرح الطيور وزقزقة العصافير.. انظرى إلى الماشية وهى تطفر فرحة بضوء الشمس.. انظرى إلى السمك فى النيل يثب فوق ماء النهر مرحبا بالنور العالى الذى تنفذ أشعته حتى فى وسط البحر الأخضر العظيم.. إنى لا أتحمل الجهل والجهلاء لا أتحمل هؤلاء الكذابين.. لقد سئمت من المرواغة بينى وبين كهنة معبد أمون.. لا مرواغة فى الإيمان..

توقفت شهرزاد عن الكلام وقامت وتركت سهر.. نتوقف اليوم عن الحكاية

***

المكان/ بيت كاظم

الزمان/ صباحا

ذهب كاظم إلى المدرسة فى القرية.. المدرس العريس..

عشت طول عمرى وغرقت فى الهمزات واللمزات والغمزات، ودار بى الزمن وما دار قد حدث أنى أصبحت خبرا على كل لسان ومقالا وغبارا فى قاعة المنافقين وتجار الأديان، أحلم بالصدق وهزيمة التخلف. مررت على بابك وجدت القمر حزينا.. وجدت قلبى معلقا على شباكك لم تسقيه من حنانك لم تحضنيه وعصافير الحب حوله تبكى.. تبا لك لماذا تعذبين قلبى ألم تعرفي بعد أنه مذ عرفك ولد من جديد ومازال طفلا من حبك فدلليه وراعيه وإن لم تفعلى أعيديه لى من فضلك..

لقد خطب كاظم وردة، وعقد قرانها، وأطلقت الأعيرة فى القرية فى كل مكان، وأقيم حفل زفاف وردة، وسكن فى شقة مكونة من ست غرف..

كاظم أصبح زوجا لـ وردة، ووردة استسلمت لواقعها الجميل.. رب ضارة نافعة، لقد حصلت على كاظم.. كاظم قلبه مع سهر، وكل شيء حوله يدفعه لأن يحاول أن يبدو زوجا سعيدا.. ظل ثلاثة أسابيع لم يلمس وردة.. أخبرها فى الليلة الأولى عما دار بينه وبين أبيها من اتفاق، وأنه متزوج منها لمحو القيل والقال.. حاولت فى كل يوم أن تكسب وده حتى ولو دقيقة تخلع بيديها الناعمتين حذاء نعليه.. تغسل قدميه بالماء وتنشفهما.. ترسل لها أمها أفضل أنواع الطعام، والحمام المحشى، والسمك، والجمبرى.. وأرسلت لها أيضا حجابا من الشيخ.. أطلقت وردة البخور وأغرقت السرير بالعطور، لكن ظل عطر سهر فى روح كاظم. العطر يبقى فى الروح بعد أن يزول من الجسد والحواس.. أبحث عنى فيك يا سهر.. أبحث عن شيء ما لا أدرى ما هو.. هل هو التحقق فى إنسيتى.. يضطر الإنسان أحيانا إلى الغناء والبكاء فى وقت واحد.. والحزن والفرح فى وقت واحد.. والعشق والكره فى وقت واحد.. والعيش مع امرأة لا تحبها حتى تموت وتستمر الحياة.. الحب سراب جميل لكنه أحيانا يلمسنا بيديه ويجدد خلايا الروح.
سوف أسكب على الروح بعضا من قطرات الوجد والشوق لعلى أهدأ...

....

وجاءت رسالة من منقذ يخبر أهل سهر أنه سيتأخر عن موعد حفل الزفاف ثلاثة أشهر لظروف العمل.. أحيانا تجمد الأشواق فى قلوبنا بلا داع، أو تؤجل المشاعر بلا سبب.. أحيانا نزيح الأحاسيس الحلوة من حياتنا.. هكذا أحست سهر.. عندما علم راغب بتأجيل حفل زفاف سهر حاول اللعب مرة أخرى فى رأس سهر.. فى العشق كل شيىء مباح، ربما ينجح.. لكن سهر رفضت أن تسمح له بأى محاولة كانت.. الدنيا ليست جميلة كما نظن وليست قبيحة كما نظن

سهر.. أرسل لها منقذ مائتى دولار كى تشترى هدية لنفسها.. أمسكت المبلغ وأعطته لأبيها:

- خد هادولا.. الك.. أنا ما بدى شيء أبى

- لا.. بنتى روحى اشترى لك شىء تفرحين بيه
- ما بدى شىء.. عندى كل شىء.. الله يديمك لينا وتجيب لى دايما ويخليلك لى

***

الفصل الرابع والعشرون

أيها الملك اثبت الحق وحطم الظلم

فتحى رضوان (حبيب سهر في المستقبل)

جلس فتحى فى حجرة المدرسين.. طلب منه الناظر أن يقوم بتدريس مادة التاريخ لأن مدرس التاريخ قد رحل مؤقتا للجيش حيث تم استدعاؤه للاحتياط.. فتحى يحب التاريخ كى يفهم ما يجرى فى مصر الآن، لأن الحاضر هو الابن الشرعى للماضى.. انا رجل يتجنب الصغائر حتى أنا منفى فى التجاهل.. يقول كاتب قصة الفلاح الفصيح الذى وقع باسم الكاتب البائس دون ذكر اسمه

(أيها الملك أثبت الحق وحطم الظلم إذا تكلمت فعليك أن تسمعنى.. اكشف عنى الضر فإنى أحمل أثقالا فوق أثقالى حتى أحقق أمرى انظر لى أنا فى حيرة فأنا ضعيف)

هذا الكلام فى بردية فى برلين وكتب من ٤ آلاف عاما قبل الميلاد.. هذا الكاتب العظيم يكتب عنى وعن أمثالى يا جدنا الذى فى التراب أقول لك الآن الحال هو الحال مذ موتك وحتى الآن.. يقول الفيلسوف الفرعونى نفررهو تعليقا على وضع فساد القضاء فى مصر من ٧ آلاف سنة قبل الميلاد

(هنيئا لمن سيعيش ويرى العدل فى مصر ويختفى الظلم من على هذه الأرض) يقصد مصر بكلمة الأرض

جلس فتحى يجهز درسا عن نقفور (طاغية الروم).. لم يكن أصله من أولاد أو ملوك الروم بل قيل أنه كان ابن رجل مسلم من أهل طرطوس يعرف بابن الفقاس، أو ابن النقاش، أو ابن القصاص، ولكن شجاعاً مدبراً سيوساً .. لم ير مثله فى عهد الإسكندر ذى القرنين، وهو الذى فتح حلب وأخذها من سيف الدولة ابن حمدان.. ولم يأخذ حلب أحد من قبله من ملوك الروم؛ فعظم أمره وعين ملكا لملوك الروم وملكوه عليهم والغريب أنه تنصر وترك الإسلام وبعدها صار له شأن عجيب فى محاربة المسلمين. خرج نقفور ملك اليوم إلى جهة أنطاكيا سنة ٣٥٩ هجرية. ونازلها وأحاط بها وقاتل أهلها حتى ملكها بالأمان.. ثم أخرج أهلها منها وأطلق العجائز والشيوخ والأطفال وقال لهم: "امضوا

حيث شئتم"..ثم أخذ الشباب والصبيان والغلمان سبياً .. فكانوا أكثر من عشرين ألفاً وقد طغا وتكبر وقهر العباد وملك البلاد، وعظمت هيبته فى قلوب الناس وانشغل عنه الملوك فاستفحل الأمر نقفور بذلك.. ثم تزوج بامرأة الملك الذى كان قبله على كره منها، وكان لها ولدان فأراد نقفور أن يخصيهما ويهديهما للبيع عبيداً ليستريح منهما لئلا يملكا الروم فى أيامه أو بعده؛ فعلمت زوجته فأرسلت إلى الدمستق ليأتى لها فى زى النساء، ومعه جماعة فى زى النساء فدخلوا القصر عندها ليلة الميلاد؛ فوثبوا عليه فى الليل وقتلوه وأجلسوا فى الملك بعده ولدها الأكبر.. وتم لها ما أرادت.

سألته إحدى الطالبات:

- **أستاذ يعنى إيه جبل المقطم؟**
- **اسم المقطم جاء من اسم مقطام الحكيم الذى كان يعمل بالكيمياء لاستخراج الذهب والفيروز والزبرجد..**

سألته أخرى:

- **يعنى إيه باب زويلة؟**
- **باب زويلة بين البابين وهى اسم قبيلة من قبائل البربر أتت مع جوهر الصقلى من المغرب**

دخل الفصل وأخذ يشرح درس التاريخ..

****

المكان/ كافتيريا الشاطبى

الزمان/ ظهرا

أنا وناهد حجازى نشرب العصير والقهوة.. حكيت لها عن تدريسى للتاريخ.. كانت ناهد حجازى ترى التاريخ حلة طبيخ رائحتها كريهة مليئة بالدم، العظام المكسورة وجماجم رجال يتصارعون على المال.. النساء.. والسلطة..

- **إن الله يكره السياسيين، وأنزل رسالات الأنبياء من السماء لمقاومة هؤلاء الطغاة..**

إن الله يحب الفقراء المستنيرين ويكره الأغبياء الذين لم يفكروا ويتأملوا فى خلق السموات والأرض والمجتمع والتاريخ.. إن الله يحب كل ما هو جميل الروح والقلب ويكره الأشرار..

ضحكت ناهد حجازى..

- ساعات بحس إنك شيخ أزهرى أو قس من عند البابا جاى من الفاتيكان..
- ساعات حتى ما بعرفش مين أنا؟.. سياسى، أديب، مفكر، قس، شيخ، صوفى، لا أعرف.. لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق..
- يعنى إيه صوفى يا فتحى؟
- الصوفى قوته ما وجده ولباسه ما ستره ومسكنه حيث نزل..
- عارف يا فتحى فيه فى حياة كل واحد منا حيوات أخرى على شكل أحلام.. مبادىء، أفكار أو تصرفات.. لا أدرى لماذا أحبك؟
- عشان بتحبى مصر
- أنت مصر
- أكيد أنا مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح..

ناهد لوحة رسمها فنان من الطبقة البرجوازية العليا.. ناهد مثل ملح البحر وبلح الشام.. لا تستغنى عنهما فى المذاق والحياة.. شتاء الإسكندرية بلا ناهد يعنى غياب المطر والحنين.. كل من يرى ناهد من الأصحاب يقول إنها أنثى المستحيل.. كانت ترانى زعيما ضل الطريق للأدب، وأديبا ضل طريقه للجماهير..

الفصل الخامس والعشرون

دموع نفرتيتى الكاذبة

المكان/ الجبل

الزمان/ ظهرا

ترتشف شهرزاد القهوة رشفة رشفتين.. تفتح حقيبة يدها تخرج منديلا يشبه منديل أم كلثوم يشع بحكايات حب معطرة تنتشر فتغطى الخليج.. تمسح أطراف شفتيها.. تطويه مرة.. مرتين، ثم تحتفظ به فى يدها اليسرى أو تخفيه بين النهدين، تنظر يمينا شمالا أماما خلفا، ثم تهمس ورأسها للوراء وهى تشرب مشروب المتى رشفة رشفتين ومالت إلى اليمين واليسار والامام والخلف مرتين، وضحكت وقالت محدثة سهر:

إخناتون

فى الليل يجلس إخناتون مع زوجته كيا.. يشكو لها إحساسه بالضعف أمام الشر.. تسانده ببعض الكلمات، لكنه يقول:

- إن الكهنة يتجاهلون آتون فى قلوبهم ويدَّعون عشقهم له أمامى.. إنى قسمت قلبى بينك وبين آتون وكحل عينيك وضفائر شعرك وهمس الشفتين، وابنى توت عنخ آمون وبناتى ورداتى الصغيرات الست.. قد حدث أنى عشقتك أنثى الإناث وأرى فى عينيك وجودى الآن، وفقدت عقلى وهويتى من التخلف وتجزئة الإله وخرافات الآلهة، وذهبت أقصى قلبك وبحر شكوكك ودموع نفرتيتى الفاتنة الكاذبة.. قد حدث ولكن لم يحدث أى حدث ترى ما السبب يا كيا؟
- إن مولاى كثير الشك فى سحر الملكة نفرتيتي، وأنا معك، ولكنى أسأل نفسى دوما ترى ماذا تستطيع أن تفعل نفرتيتى؟

نظر لها إخناتون..

- نفرتيتى والكاهن الأعظم، وحور محب على توافق فكرى كبير، كل منهم يتحدث ضد الموافقة على تغيير الإله آمون والآلهة الأخرى إلى إله واحد هو آتون، رغم صلاتهم خلفى وترتيل الأناشيد لآتون رب العالمين الواحد..
- يا مولاى أنا جانبك.. كما أن الأم الملكة تى منتبهة لكل ما يدور..

- ماذا ستفعل الملكة تى لى؟ ستحمينى من شر فرد اثتين؟ لكن ما يريبنى علاقة حور محب قائد الجيش بالاثنين نفرتيتى والكاهن الأعظم.. أشم رائحة غدر ودم..

ضمته الملكة كيا إلى أحضانها.. الرجال أطفال فى صدور النساء حتى ولو كانوا ملوكا وفراعين..

***

بينما تسير الصغيرة نفر إلى حديقة القصر، كان يمر حور محب قائد جيش المحاربين، متجها إلى فرعون.. شم عطرها.. توقف أمامها، وسألها:

- ما اسمك يا فتاة؟
- اسمى نفر
- وأنا اسمى حور محب قائد المحاربين فى طيبة وثقة فرعون إخناتون. قولى لى ابنة من أنت من الأمراء؟؟
- لست من بنات الأمراء..

شم عطرها، وتاه قلبه لحظة ثم عاد..

- من أنت ما اسمك؟
- قلت لك أنا نفر..
- ماذا تعملين هنا يا نفر؟
- أنا وصيفة الملكة نفرتيتى..
- هل تتزوجيننى؟.. أنا قائد جيش المحاربين.. أنا لم أفكر من قبل فى الزواج من أى أنثى لكن لا أعرف ماذا جرى لى؟.. هل تقبلين الزواج منى؟أنا مثل بحار له فى كل ميناء امرأة تنتظره ولا يعرفها وقلبه لا ينتظر أحدا.. أحن ولا أحد يحن لى يا مدنا تعلمت من طيبة أن لا تحب أحدا وتسقط الجميع من الذاكرة.. إن المدن القوية دائما كافرة بالحب مهما ادعت الإيمان..
- ماذا تقول؟

تركته وجرت بعيدا..

قفز قلب حور محب.. للمحارب قلب يدق برقة كسراب يفتقدها طول الوقت لأنه محاصر بالخشونة.. لم يفكر حور محب فى الزواج والنساء؛ كان شاغله المجد وفرعون ومصر التى تحلم بالتوسع لتقود العالم.. إن الرجال الذين يعشقون المجد ينسون أن قلوبهم تحن أحيانا للنساء بحنين الأرض والزرع للمطر.. أليس عشق النساء مطر؟

فى حجرتها راحت نفر تدور فى ذهول.. هل من الممكن ان تتزوج قائد المحاربين؟..

***

المكان/ قاعة الحكم

الزمان/ نهارا

دخل حور محب على إخناتون الذى راح يتأمل فى الملكوت..

التفت إليه إخناتون قائلا:

- حور محب أنت قائد جيش مصر، والبلاد تحتاج إلى قوة، وقوة الإيمان أقوى الأسلحة.. إنى أحتاجك فى هدم التماثيل ومحو آثار عبادة آمون..
- جيشك قوى يا مولاى.. نستطيع أن نخرج قوة سرية كل ليلة تهدم مع مولاى ما يريد من تماثيل ومن آلهة، ومحو آثار آمون، وأن ننشر تعاليم آتون وأناشيده للجند فى كل صباح ومساء رغما عن أنف الكهنة..
- نعم.. قوة روحية.. الروح أقوى من الأسلحة..
- إن حبى لمولاى وعرشه وأفكاره أقوى سلاح..
- إن نفرتيتى لا تؤيد أفكارى وتنحاز لكهنة المعبد والتجار.. إنى أريد أن أزوجك إحدى بناتى
- إنهم صغار يا مولاى جدا، ويمكنك أن تزوّجنى إحدى وصيفات الملكة.
- من هى؟
- تدعى نفر

- أحسنت الاختيار.. لك ما تريد.. أعدك بالزواج من نفر
- شكرا يا مولاى..

يدخل الحاجب إلى قاعة حكم إخناتون

- مولاى الفرعون.. كبير الكهنة سوات يطلب المقابلة
- أدخله
- دعنى انسحب الآن يا مولاى.. وسوف أحضر فى وقت آخر
- لك ما تريد يا حور محب

خرج حور محب من الباب، وقابل عند الخروج كبير الكهنة سوات، أحنى رأسه له وحياه وخرج.. دخل كبير الكهنة سوات قائلا:

- السلام على فرعون ابن الآلهة.
- أنا لست ابن الإله.
- أنت الله.
- لست الله.

كتم غيظه ونظر للفرعون إخناتون قائلا:

- إن حابى قادم (النيل.. فيضان النيل قادم) الآن على وشك القدوم لابد وأن نجهز له عروسا فدية له، وقد اخترت فتاة..
- هل سألتها؟
- رشحها أهلها..
- اسأل الفتاة أولا..
- هذا أمر سهل يا مولاى
- أحضرها لى وإن تأكدت من موافقتها سأوافق..
- لا أفهم يا مولاى..
- أريد أن أقتنع.. من مسؤول عن الضحايا.

- ضحايا!!
- ماذا تسميهم؟.. عرائس حابى.. قرابين حابى؟
- إذا كان مولاى يرغب فى هذا سأفعل...

انحنى وخرج..

***

المكان/ المعبد

الزمان/ ليلا

أرسل كبير الكهنة سوات إلى كى ليحضر أمامه.. هرع الفتى مهرولا من غرفة نومه إلى الكاهن الأعظم، وقف أمامه متلعثما...

- نعم يا سيدى.
- الآن اذهب إلى بيتكم وأحضر أختك الجميلة لتكون عروس الإله حابى سيحتضنها النيل..

فرح كى، وأسرع الخطى إلى بيت أمه.. لأول مرة يراه الناس فى الشارع وأزقة المدينة وهو يرتدى ثياب كاهن.. بعضهم عرفه وبعضهم لم يعرفه..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ بيت نخ

دق الباب؛ فتحت الأم التي لم تصدق نفسها.. ضمته وبكت كثيرا وهى تضمه:

- وحشتنى يا ولد يا كى أقصد يا سيدى الكاهن كى
- كيف حالك يا أمى وحال نفر؟

أخذت تقّبِله..

- ابن حلال خبزت اليوم أكلة تحبها، لم أعلم أنك قادم.
- هل أبى هنا؟؟

- هل تأكل جيدا.. تشرب جيدا.. كيف تنام؟
- أين أختى نفر؟؟
- أبوك يستيقظ فى كل صباح يصيح بصوت عال: أيها المغفل الكسول كى قم للعمل معى هههههههههههههه.. فلا يرد عليه أحد، ثم يتذكر أنك فى المعبد ولست هنا، ولا يجد أحدا يتشاجر معه، يعنفه، يوبخه، يضحك معه، يؤنسه.. لقد رحلت يا صغيرى.. لم تصبح معنا فى الدار، لكن أباك حتى الآن غير مصدق أنك خرجت ولن تعود معه ليلا أو نهارا.. يقف على شاطىء النيل ويصيح أحيانا يا ولد كى.. يا كى.. أين الخشب؟.. وعندما يدخل إلى البيت ينادى: كى.. كى.. ثم يبكى فى صمت وينام..
- يا أمى أنا بخير لا تبكي.. قريبا سنرحل جميعا إلى العاصمة الجديدة مدينة أخيتاتون مع الفرعون وسنترك طيبة.. قولى لى أين نفر.. أين نفر؟؟

يفتح باب البيت ويدخل نخ.. يفاجىء الأب نخ بوجود كى بملابس كاهن

- من أنت ايها الكاهن ولماذا أنت هنا؟
- أنا كى يا أبى.. ألا تعرفنى؟.. إنى أرتدى زى الكاهن..
- كى.. يا عمرى.. يا ولدى.. أنا أريدك أن تعود إلى العمل معى..

يضمه الأب:

- أين أختى نفر؟
- فى القصر..
- قصر! أى قصر.

***

ذهب كى إلى أخته فى قصر الفرعون إخناتون.. سُمح له بالمرور لأنه يرتدى ملابس الكهنة، وطلب من كبيرة الوصيفات مقابلة أخته نفر.. راحت نفر تهرول فرحة للغاية لمقابلة أخيها..

- كى يا أخى ما أجملك فى زى الكاهن يا أخى
- شكرا لك.. وما أروعك فى ارتداء الحرير الملكى.. ذهبت إلى البيت كى أراك
- عن جد
- نعم
- وكيف حال أمى وأبى والجيران؟
- كل شىء على ما يرام..
- شكلك جميل فى الرداء
- اسمعى عندى لك مفاجأة.. خبر مهم
- ما هو؟
- لقد رشحتك لأن تكونى عروسة النيل هذا العام

وجمت.. تسمرت قدماها فى الأرض.. نظر إليه فى قلق، وحاول أن يروّجِ لها الفكرة

- ستكونين عروس النيل هذا العام.. والناس تهتف لك وتحييك..
- اخرس.. أي عروس للنيل يا أحمق يا غبى.. أى عروس للنيل.. لقد بعتنى.. بعت أختك للكهنة والمعبد من أجل وظيفة كاهن.. فهمت الآن.. كيف صرت كاهنا يا أخى يا ابن أمى وأبى.. لقد فهمت الآن.. تقدم أختك الوحيدة لك فى هذا العالم ضحية للنيل.. عار عليك يا ابن أمى وأبى. دمك يجرى فى دمى.. عار عليك.. أى معبد تذهب إليه وتصلى لمن لخنفسة أم لجعران أم لصقر؟
- اسمعينى أنت تكفرين بعقيدة الأجداد.
- نعم أكفر بآلهتكم.. إننى أؤمن بما يؤمن به مولاى إخناتون.. أؤمن.. كى هل نسيت كم ليلة ضحكنا فيها أو بكينا فيها من ضرب أبينا لنا أو ضحكته معنا؟ هل نسيت أمك عندما كانت تجهز لى ولك الطعام؟؟.. هل نسيت الأحلام؟.. أى عار يركبك الآن؟.. هل ستنام مستريحا؟.. لا بل سيكون رداء المعبد عليه دمى يسرى.. أقصد دمك ودمى.. تقدمنى ضحية ونسيت كل ما بيننا من خبز

وماء ومشاعر وبيت وأسرة وألفة.. عار عليك.. اخرج الآن..

تلعثم.. تبعثر.. تمزق.. تشتت.. راح يبكى ربما من ضميره الذى استيقظ أو فشله فى إقناعها أو على الموقف..

***

تبكى نفر.. دخل الملك إخناتون عليها، شاهدها تبكى..

- ما بك يا نفر؟..
- أخى باعنى يا مولاى إلى كبير الكهنة سوات..
- كيف؟
- أخى وهبنى للإله حابى، وأن أكون عروس النيل. لا أريد أن أموت يا مولاى.. لا أريد أن أمووت

ارتمت تحت أقدام إخناتون تقبلها.. أمسكها إخناتون من كتفيها ونهض بها وهى ترتعش

- اسمعى نفر لا يستطيع أن يهبك أحد.. ما دام آتون فى السماء وحولنا..

فرحت نفر فرحا شديدا.. انفرطت دموعها فرحا وقبلت يديه.

***

الزمان/ ليلا

المكان/ فى بيت كبير التجار

فى طيبة اجتمع التجار الفجار صناع التماثيل للآلهة، وكذلك كهنة الآلهة المختلفة هؤلاء الذين يحصلون على هدايا وعطايا من الشعب.. المصريون من أهالى طيبة ليس لهم فى الدنيا إلا الزرع والنيل والمعبد.. ثالوث يحصرون عمرهم فيه ويضيعون الأيام الحبلى بالأسرار.. اجتمع التجار مع الكاهن الأعظم الذى بدأ الاجتماع:

- أى تجار طيبة.. أي تجار طيبة صناع التماثيل للآلهة.. نحن فى حرب ونقمة من كل الآلهة بسبب وباء اسمه (آتون) هذا الإله الواحد الأوحد الذى يدعو له الفرعون أمنحتب الرابع، ويرفض كل الآلهة التى من حولنا التى ورثناها من

الأجداد والآباء والأمهات.. حتى آلهة أبيه أمنحتب الثالث، بل وتجرأ على الإله الأكبر أوزير وإيزيس.. إننا نواجه قضية كبرى تحتاج إلى توحدنا، ووقوفنا صفا واحدا

****

فى القصر

فى القاعة وقف الملك إخناتون أمام زوجته نفرتيتى صائحا:

- أيتها الملكة الجميلة التى أستريح على صدرها فى المساء وأنسى هموم الدولة والكهنة والأغبياء.. أيتها الملكة الرائعة نفرتيتى أجمل ملكات مصر بلا استثناء.. أنا إختانون زوجك حبيبك.. أرفض الخضوع والانحناء إلى الكهنة وإلى التجار أعداء الله يسرقون أموال العامة ويخفون السلع والبضائع القادمة من بلاد بونت وغيرها.. هولاء يريدون أموالا فى جيوبهم لا يريدون مصر أم الدنيا.. إنى قررت أن أعلن وبقوة: لا إله إلا آتون.. هو الأب والرب للسماء والأرض.. وأى معبد آخر أو تمثال آخر سأمحوه

همست نفرتيتى:

- يا سيدى ومولاى.. يا ملكى المبجل الراقى الشاعر الإنسان ابن الآلهة

صرخ فيها:

- أنا ابن إله واحد. إلهه واحد، هو آتون، ولست ابن الآلهة المتعددة.. كيف أكون ابن أفعى وصقر وخنفساء وحراب وتماثيل.. أى آلهة هذه؟؟؟؟

حاولت نفرتيتى أن تكتم غيظها:

- يا مليكى يا ملك الملوك فى الأرض.. أنت تمنح الحرية للعقائد والحياة
- أنا أمنح الحرية فى التفكير، والله هو الذى يمنح الحياة.. أنا لن أفعل مثل أبى وأقول إنى إله.. لن أفعل مثل أبى وألقي سهما إلى السماء كى أجرح الرب العظيم أبى قد غفت عيناه، وعمى قلبه عن الحكمة والحقيقة، عن النور، عن

الوهج، عن سر الله إذا أعطى ومنح وإذا غضب (صرخ إخناتون) أحضروا حور محب قائد الجيش فى الحال

- إنه بالباب يا مولاى ينتظر السماح له بالدخول
- أدخلوه فى الحال (ثم نظر إلى نفرتيتى) مولاتى تستطيع أن تخرج الآن وتتابع الأميرات الجميلات الصغيرات..

نظرت نفرتيتى غاضبة له:

- تطردنى من جلستك يا مولاى
- لا يا ملكتى.. إن للحب وقت، وللدولة وقت، وللتأمل.. الصلاة وقت، وفى كل الأوقات ألون الحياة بنظرة عينيك يا نفرتيتى الرائعة..

خرجت نفرتيتى غاضبة من قاعة الملك.. دخل حور محب قائد الجيش

حور محب رجل فى الأربعين، ضخم الجثة.. أبوه كان من أمهر الرماة فى طيبة علّمه فى صباه الرماية.. حور محب ينجح فى رمى السهام على الأعداء، ويفشل فى رمى سهام العشق على النساء.. حور محب يحاول أن يحقق حلمه بالانتصارات وفتح آسيا.. يريد أن يمحو دولا ويضمها إلى ملك مصر التى بها جيش قوى أعده قادة يحبون الحرب والخمر والنساء.. هو يكره الحوار والاعتراض ويحب أن يتولى الحكم..

- ماذا عندك يا حور محب العزيز الذى يكره السلام..
- يا مولاى إن السلام يجعل جيش الأسود نعاجا.. إن السلام يجعل البلاد فريسة سهلة أمام الجميع حتى النسور.. يا مولاى لابد أن نغزو آسيا، ونفتح هذه البلاد وننشر العدل والسلام
- الحرب لا تنشر العدل.. الحرب تنشر الويل والدمار والخراب ودموع الأرامل وجيوشا من الأيتام التى بلا حلم

فكر حور محب لحظة، وبدهاء قال:

- يا مولاى سوف ننشر دين آتون؛ نحن أصحاب رسالة سلام، لا نحب الحرب

والدمار.. نحن أصحاب رسالة دين، ويجب أن ننشر رسالة آتون فى آسيا..

تأمل إخناتون وجه حور محب

- موافق لكن اثبت لى الولاء.
- ما هو الدليل يا مولاى؟
- أن تهدم كل التماثيل فى كل المعابد، وأن تبقى المعابد فارغة الليلة.. الليلة لا أريد تمثالا لأى آلهة فى أى معبد غير آتون.. إله واحد لهذا البلد.. إله يسكن فى السماء وذراعه الشمس، ويحن علينا وعلى كل المخلوقات.. إله واحد.. افعل هذا من أجل إخناتون.. من أجلى..

بحماس العسكر الغبى تحمس حور محب.. صائحا:

- نعم ولم لا لكل شىء ثمن؟؟..

هو يقدم للفرعون خدمة تحقيق حلمه، وفرعون يقدم له خدمة تحقيق حلمه غزو آسيا..

***

المكان/ المعبد

الزمان/ ليلا

اجتماع التجار مع الكهنة.. قام الكاهن الأعظم متحدثا:

- تجار طيبة.. مصر فى خطر ومصالحكم فى خطر.. إن هذا الفرعون أصابه مس من الشياطين، والتجارة الكبرى التى تقدمونها قد كسدت.. كنا نصدر تماثيل الآلهة للعالم.. وتقومون بصناعتها.. لقد سقطت وفشلت.. إن علينا أن نتوحد وتذهب كل الناس إلى المعابد وتضع التماثيل، واجعلوا سعرها رخيصا.. لا تبالغوا فى الأسعار حتى ولو بعتم التماثيل برخص التراب.. وعليكم بصنع تماثيل لـ إخناتون هذا الشاعر الذى ينجب البنات.. حولوه إلى نصف رجل وإلى نصف امرأة

قال كبير التجار:

- سيقتلنا.. يدمرنا

قال الكاهن:

- لا.. ستصنعون لـ إخناتون تمثالا، وتصنعون له ثدى أنثى.. لا أحد يستطيع أن يهزم الكهنة، ولا الفنانين والنحاتين.. سنجعله عبرة فى التاريخ.. مسخرة وسخرية

***

فى الميناء ذهب باكا معلم التاريخ، ينتظر نفر أن تظهر أن يحضرها القمر..

آه يا نفر.. ما شاع عنك أنك أنثى استثناء، ومن أحبك مصيره الفناء والعناء.. ما شاع أنى عشقت الحروف وحلم القلب المحروم ودفتر الإبداع السرى الذى لم يشرب من ماء النيل الا اضطرارا ومن حلمة الوجد إلا قصرا.. ما شاع عنك أنك حسن وضياء تتسللين إلى دقات قلوب الرجال فى الخفاء بلا استحياء.. ما شاع عنى أنى من أنفاس الجميلات صبغت الحروف دون خوف وأمامك لوَّنت قوس قزح من جديد بألوان لم يعرفها إنس ولا جان.. ما شاع عنى وعنك نصفه صحيح ونصفه باطل.

قال قلب المعلم باكا

آه يا نفر.. ذات يوم سأفترسك بنعومة النهر للزهور ويمكن تلخيص ما حدث فى حياتى أنى نسيت تذكرة المرور إلى السعادة، ويمكن تلخيص ما حدث فى عمرى أنى لم ألقاك مبكرا يا عمرى، ويمكن تلخيص ما يدور من حولى أنى وجدت زحام الأصدقاء.. لا أحد إلا الواحد الصمد آتون.. ويمكن تلخيص سحر عينيك أن ينظر الناس القمر.. ويمكن تلخيص القضية أنى سئمت الحياة وجعلتك وطنى.. ويمكن تلخيص عشقنا هو ورقة للزواج تعلن أننا وأننا.. ويمكن تلخيص ليلة الدخلة فجهزى نفسك لى، العمر ليس إلا ساعات وأيام العمر لحظات أو ثوان أو طرفة عين.. العمر سر من أسرار الآلهة.. لا نعرف عمرنا كم؟ متى يبدأ؟ ومتى ينتهى؟

***

فى نفس الوقت كان هناك على النيل كور الذى اقترب من نخ والد نفر وقال له:

- يا عم أريدك أن تبنى لنا ثلاثة مراكب صيد..

فرح نخ والد نفر قائلا:

- مرة واحدة..

- لا.. كلما انتهيت من واحدة أعطنى إياها

ضحكا

***

المكان امام النيل

الزمان صباحا

باكا يجلس أمام النيل هائما.. شاردا مازال عطر نفر فى أنفه..

آه يا نفر.. ليت علمى أن الحب وسادة لهمى.. ليتنا تختلط روحى وروحك لنخترق اليأس والجنون.. ليتك بحرا عظيما أسبح فى حنانك وعشقك وضوئك وأعوم.. ليتهم يبتعدون عنا لنهجر أنا وأنت مثل العطور ونسجل اسمينا على الرمال والهواء والصخور.. ليتهم يغسلون قلوبهم من الشر ليروا النور.. ليتكن أيتها الجميلات تسبحن فى الماء حتى يفور ويفيض على الضفاف ماء عشق.. ليته رب العرش العظيم لا يحاسبنا ويدخلنا كلنا الجنة.. أليس هو الغفور؟.. ليتك تصد أعدائى عنى وأنهض من يأسى وأقوم..

اقترب المعلم باكا من نخ والد نفر وكور ابن كبير الصيادين

- صباح الخير..

قال قلب المعلم باكا

قال الأب نخ لـ باكا:

- لا تنس أيها المعلم إن دخلت المعبد.. أرجو سلم لى على ولدى (كى) قل له أبوك يفتقدك أيها الشقى التعيس، ويحن للصراخ فى وجهك أيها الملعون..

نظر له باكا صامتا..

هز باكا رأسه بالموافقة وهو يحدث نفسه:

- لماذا لم تسألنى عن نفر؟..

آه يا نفر.. ما شاع عنك وعنى أنى عشقتك أكثر منى.. ما شاع أن الوطن أعطى عقله أجازة.. ما شاع أنك بين العشق والفضيلة محصورة محشورة حقيقة وليس أسطورة.. ما شاع أنك بالهوى وبالرجال ملتاعة، الأمر ليس بهذه الفظاعة.. ما شاع أنى أكتب فهى مجرد إشاعة لأن الوطن الأمى الجاهل لا ينجب إلا هلوسات وخربشات ويعبد آلهة فوق الأربعين.. ما شاع أننا لنا قلوب كلام مكذوب.. ما شاع فى حبك أذوب، وهل يفيد العشق قلب مهموم..

وبعد..

ألم يتعب قلبك من مراوغتى بعد؟.. وكان من الجائز أن أكون حارسك وأنت أميرة، وكان من الجائز أن أكون أميرك وأنت سبية أميرك.. وكان من الجائز أن تكونى قمرا، وأكون سماءك.. وكان من الجائز أن أكون المطر والشمع لك فى الليالى المعتمة وزفير العشق وشهيق الشهوة.. وكان من الجائز أن أوزع قلبى خبزا للفقراء ولك روحى هدية.. وكان من الجائز أن أبيع سيوفى التى لم تحارب لأن الوطن يحب الكسل والاستسلام.. والأمة ترضع البلاهة.. وكان من الجائز أن أتزوجك، وأكتب على حلمتك لأطفالى ممنوع الاقتراب.. هذا بئر حنانى فولوا زمنكم وابحثوا عن نسائكم ودعوا أمكم لى شمسى.. وكان من الجائز.. كل شىء جائز إلا أن أحوز على حبك وبقلبك أفوز ..

ومما يستحق معرفته والاهتمام أنى مذ رأيتك وأنا ولهان. وربما بين رموش عينيك أنام.. ومما يستحق معرفته والاهتمام أنى أنتظرك أن تلقى بقلقك منى ومن الأيام.. وتحضرين حقائب أحلامك وأيامك القادمة معى دون استئذان، وتسألين أمام بيتى جارتنا عن صحة العنوان.. ومما يستحق معرفته والاهتمام أن حقائبك فيها أيامك وأحلام الرجال.. ومما يستحق معرفته والاهتمام أنى أنتظر هاتفك أو رسالة منك كل لحظة، ولكنك بخيلة أو تائهة وضائعة فى هذا الزمان..

وثمة حروف تشبه الكتابة، وثمة نساء تشبه النساء، وثمة رجال تشبه الرجال، وثمة حب يشبه الحب، وثمة صلاة تشبه الصلاة، وثمة جسد بلا روح، وثمة روح بلا جسد، وثمة عصور وأزمنة تشبه العصور، وثمة بلاد تشبه بلادى ليست على خارطة الدنيا وخرجت من الزمان، وثمة كهنة جهلاء، وثمة أمور أود أن أبوح بها لك لا تصلح أن تكتب أو تقال إلا وأنت معى فى مخدعى بالاختيار وليست بالإجبار..

الليل ليس ليلى يا طيبة الحزينة حزن السنين.. نفر تعرف أنها وقعت فى حب إخناتون الفرعون الملك الذى يدعو لإله واحد أحد.. يتجلى القلب ضوءًا وشجنا.. يتحلى الجسد بالنقاء؛ فيزداد بهاء الجسد وسماره العذب..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ قصر نفرتيتي

فى تللك الليلة كان القمر ينير أخيتاتون، العاصمة الجديدة، ومرت عربة الملك إخناتون**.. أوقفها المعلم** باكا **الذى سجد على ركبتيه أمام العربة. وأمام الخيل. شد اللجام** إخناتون **وأوقف الفرسين فى قلق**

- **من أنت يا رجل أتريد أن تقتل نفسك؟**
- **أنا** باكا **المعلم يا مولاى**
- **لا تركع يا** باكا **لإنسان مثلى.. لا تركع إلا إلى آتون رب السموات والأرض وكل شىء حى..**
- **أمر مولاى**
- **ماذا بك؟**
- **لأنى أطلب موافقة مولاى على الزواج من الوصيفة** نفر **ابنة نخ النجار.**

ابتسم إخناتون**، ونظر له بشفقة:**

- **موافق بشرط..**

- ما هو يا مولاى الفرعون؟
- أن تسكن أنت وهى فى القصر..

ضحك باكا وفرح فرحا شديدا..

- شرف لنا يامولاى.
- هل تحبك؟
- أعتقد هذا لكنها خجولة لا تفصح أبدا.
- أعرفها.
- شكرا يا مولاى..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ منزل حور محب

يجلس حور محب، وأمامه باتو

- باتو أنت صديقى ومساعدى
- شرف يا سيدى.
- ربما تدور احداث كبيرة فى هذا البلد وعلينا أن نحمى مصر من الأشرار ومن الفوضى
- الفوضى؟
- الفوضى تقضى على الشعوب يا باتو
- والحل يا سيدى؟
- سبب الفوضى يجب خلعه.
- من يكون؟
- لا أعرف.
- سنعرف.. هل تعرف يا باتو أن أمنحنب الثالث والد إخناتون كان زير نساء

فقد أحضر نساء جميلات من البلاد المجاورة كما ورث عن أبيه أمنحتب الثانى عددا من النساء الجوارى وكان يتفنن فى اختيار العذارى الأجنبيات حتى أنه بعث برسالة إلى أمير جازور واسمه ميلكيلى مع رسوله المدعو خانيا يقول فيها إنه حاجة إلى أربعين فتاة من أجمل فتيات المدينة يتميزن بوجوه جميلة وقوام ممشوق وليس فى إحداهن مايعيب، وسأتخذ من هذه الهدية مقياسا لحسن ذوقك وخبرتك هكذا عاشت الملكة تى أم اخناتون مع زوجها لقد نشأ إخناتون فى وسط قصر مجون وعبث وشاهد أباه وقد أنهكته الشهوات ودبت الكهولة فيه وفى أعضائه فى سن مبكرة ولم تسعفه الرقى والتمائم ولم يشفه الطب المصرى الذى ذاع صيته فى أرجاء العالم حتى الإلهة عشتار لم تستطع أن تصلح ما أفسدته خلاعته. الغريب أن أمنحتب الرابع إخناتون متدين وليس خليعا ويسبب مشاكل فى الداخل..

***

الزمان/ ليلا

المكان/ مصر

حفل زفاف نفر الجميلة الفقيرة على باكا المعلم الوسيم برعاية إخناتون يجب أن يكون حفلا تاريخيا حضرته الأميرات الست، وأولهم الأميرة ميريت، والملكة نفرتيتى، والملكة تى، والملكة كيا، وإخناتون، وكبير الكهنة الملعون، وأخوها كى. وكذلك أبوها نخ وأمها كانا من الحاضرين، وحضر الأمير "سمنغ كارع" أخو إخناتون

وكانت نفر ليلتها مثل أميرة.. كان نخ يبكى فرحا، وكأنه فى حلم الأحلام، وبكى فيها كيرابن كبير الصيادين.. وحزن وغم فيها حور محب قائد الجيش الذى وعده إخناتون بأن يزوِّجه إياها.. كانت أمها فرحة وتبكى بكاء الأمهات ليلة زفاف البنات.. وفوجىء نخ الفقير أن فرعون أمر له ببيت جديد على النيل، وأنه لن يعود إلى طيبة مرة أخرى..

***

ليلة زفاف نفر

نامت نفر فى حضن المعلم باكا.. معها أصير أول الرجال البيض والسود.. معها لا أحتذر من الكلمات الحسنة أو الغليظة.. معها أصير طفلها وأحيانا شيخها وأحيانا بركة من السماء.. معها أصير قطرة ماء مطر.. معها أقيم مملكة من الحكايات وأبنى وطن العشق هربا من طوفان الأدعياء.. معها أنسى صوت الناى وأسل النقاء من الدماء.. معها أصلي لآتون وتنأى روحى عن المنكرات.. أعرف أنه ليس بينى وبين الله وحبيبتى حجاب، وبين النساء الساقطات والمسؤولين والكهنة الفاسدين ألف حجاب..

ليلة زفاف نفر

لم ينم حور محب قائد الجيش، وقرر الانضمام إلى كبير الكهنة سوات ضد إخناتون.. عندما ينسى الملوك وعودهم تكون ردة الفعل عنيفة للذين يتم وعدهم.. حتى أوامره بمراقبة جيوش الحيثيين الذين يتوعدون مصر.. النساء والعسكر والحروب.. حور محب لا يعرف كيفية التعبير عن نفسه؛ فهو عسكرى جامد المشاعر، يعرف ألف طريقة للقتال ولا يعرف طريقة لغزو قلوب النساء.. حور محب ذهب إلى المعبد وقابل كبير الكهنة سوات واعترف له أنه ساعد إخناتون فى هدم تماثيل معبد آمون وغيره من الآلهة، وأنه وجنوده كانوا فى كل ليلة يمحون آثار آمون من الأعمدة ومن المعابد الصغيرة بأوامر من إخناتون وأنه قد تأكد له أن فرعون أصابه الجنون والشذوذ..

فرح الكاهن الأعظم بانضمام حور محب إليه.. أصبح الكهنة والجيش والشعب يدا واحدة ضد إخناتون.

ليلة زفاف نفر

كير ظل على الشاطئ حزينا يبكى.. كيف طارت عصفورته نفر من يديه.. فكر فى طريقة للانتقام منها ومن أبيها نخ ومن أخيها كى.. قام كير فى تللك الليلة بإشعال النار فى بيت والد نفر.. قام الجيران بالمساعدة فى إطفاء النار.. النار التى أشعلها فى البيت ربما تطفئ النار التى فى قلبه.. لم يعرف الناس من الذى أشعل النار فى بيت نفر؟..

لم يدر كير أن نخ لن يعود لهذا البيت مرة أخرى، وأنه صار صاحب بيت فى العاصمة الجديدة.. التف الناس حول بيت نفر المغلق، بعض الناس حزن لحرق البيت، والكثيرون وقفوا يشاهدون، معظم أحداث مصر يقف الأغلبية العظمى من الناس يشاهدون الأحداث دون التدخل..

آه.. لو قتلت المعلم باكا قبل أن يتزوجها.. آه لو خطفتها، وتزوجتها.. آه.. لو تزوجتها واستمتعت وحدى بعطرها..

***

كل شىء تغيَّر كما لم يتوقع؛ فالحياة لا نعرف سرها، ولو عرفنا سرها لتفادينا سىء الأحداث.. كان إخناتون يصلى خمس مرات فى كل صباح وظهر وعصر ومساء، كل شروق وغروب يصلى ويسأل الله أن يحميه، ويصلى خلفه كبير كهنة معبد آمون السابق والكهنة ورجال الدولة وبعض من الشعب عامة.. كانت صلاة نفاق؛ الكل غاضب..

بعد كل صلاة يجلس كبير الكهنة سوات فى خلوته ومع الكهنة المقربين منه يحكى لهم كيف أن إخناتون قد جُنّ وأنَّ الآلهة غضبى، وكان يوجه كلامه إلى كى أخي نفر الشاب الصغير.. كان يزرع فى هذا الكاهن الصغير كراهية إخناتون.. وقال الكاهن الأعظم أن حور محب أخبره أن إخناتون على علاقة جنسية مع أمه الملكة تى، وهذا وحفَّز بعض الكهنة الصغار على كتابة تلك الشائعات كحقائق على بعض البرديات، وأخفوها أو نشروها كمنشورات ضد إخناتون لدى العامة من الناس.. العامة تلوك الأخبار والشائعات، كما تلوك الطعام فى الفم.. ويرد بعض السفهاء دفاعا عن إخناتون.. وكان العرف أن فرعون إله ويحق للإله أن يفعل أى شىء ويباح له كل شىء لأنه سيحاسبنا يوم الحساب مع أوزوريس وإيزيس والفرعون لن يُحاسب..

كانت نفرتيتى ترتدي قناعين: قناع الزوجة الحنون التى تحب زوجها وتؤمن بعقيدته وتعمل على إرضاء الشعب وكسب ود الناس من الأصنام والألوان والاتجاهات.. اجتمعت نفرتيتى بالكاهن الأعظم سوات فى ذات مساء بناء على طلبه، وكان اللقاء فى المعبد

فى ليلة انتشر الشر فيها فى النفوس، وكانت عيون الملكة تى هناك فى المعبد.. وصل الأمر لها..

اقتحمت الملكة تى غرفة نوم إخناتون الفرعون مع المكة كيا.. فزع الملك قام ولف جسده بالقماش..

- ما الذى أفزعك مولاتى الملكة تى؟
- نفرتيتى تتآمر عليك مع رئيس الكهنة.. يجب أن ترحلها فى قصر مع بناتها الآن وتبعد اتصالها بالكاهن والكهنة والجيش..
- سأفعل.. أين هى الآن؟
- فى المعبد مع كبير الكهنة سوات.
- فى خلال ساعة ستكون فى قصر بعيد عن هنا..

خرجت الملكة تى من حجرة الملك، وبدأ الحرس الملكى فى نقل أغراض الملكة الى القصر البعيد..

عند خروج نفرتيتى من المعبد وجدت الحرس الملكى يقودها إلى القصر الجديد.. ظنت أنه الموت وأنهم يقودونها إلى حتفها.. فوجئت الملكة نفرتيتى بوجود الملكة تى فى القصر البعيد الجديد تنتظرها..

- ماذا حدث؟.. هل قتل الملك إخناتون؟
- أنت تتمنين ذلك؟
- ماذا جرى؟
- أنت هنا مع بناتك الخمس.. لا تتصلى بالكاهن ولا بالجيش ولا بالحرس.. محددة إقامتك..
- لماذا؟
- أنت تتآمرين.. لا تتركى المكان..

بكت نفرتيتى.. التفت حولها بناتها الأميرات..

قالت نفرتيتى:

- **أعلم ان الملكة تى تكرهنى..**

****

فى هذا المساء دخل حور محب قائد الجيش إلى قصر إخناتون..

- **مولاى إخناتون .**
- **هات ما عندك.**
- **دخل الحيثيون للبلاد من الناحية الشمالية الشرقية، وضياع أملاك البلاد هناك.**

****

آه يا إخناتون.. خسرت الليلة نفرتيتى وأجزاءًا من البلاد..

آه يا إخناتون.. من أين يأتيك الموت الذى يتربص بك؟ من زوجتك، من الكهنة، من الجيش..

نظر إلى حور محب قائد الجيش، وهو حزين..

- **لماذا تخوننى؟**
- **أنا يا مولاى؟**
- **لماذا تخوننى؟**
- **أنا لم أخنك.**
- **لماذا تخوننى؟.. أجبنى ولا ترواغ..**
- **كيف يمكننى أن أخونك، وأنا الذى حطمت معك تماثيل الآلهة المختلفة، وكذلك تماثيل معبد آمون، ومحوت معك مولاى كل ما يخص الإله آمون من المعابد**
- **وكيف يدخل الحيثيون إلى البلاد؟**
- **سألتك مولاى من قبل أن نتحرك ونغزوهم، وحتى يمكننا نشر الدعوة الآتونية..**
- **وأنا طلبت أن ننتهى من الحرب فى الداخل..**
- **نعم**

- لماذا تخوننى؟.. أنا لم أرفض لك طلبا واحدا.. كل طلباتك وأحلامك نفذتها.. وبنيت لك قصرا كبيرا فى العاصمة الجديدة.. آه.. تذكرت.. لقد طلبت منى طلبا ونسيت.
- لم أطلب شيئا مولاى.
- لا.. لقد طلبت منى الزواج من الوصيفة نفر..
- مولاى.
- لقد طلبتها للزواج، ووعدتك أنها لك، وأنا نسيت..
- مولاى.
- نعم.. أنا نسيت.. أنت تعاقبنى لأننى نسيت.. تبيع الملك ومصر من أجل امرأة.. أنا لا أعرف أنك زير نساء.. أعرف أنك لا تهتم بهن، لكنى لم أنتبه أنك طلبت منى تلك الفتاة. إنها تحب المعلم باكا، وأخبرت ابنتى ميريت.. أنا لم أفضلك عليه. ولكنى نسيت.. إن انشغالى بالدعوة أنسانى.. هل يقسو قلبك من أجل رغبة أو نزوة لم تتحقق؟..
- مولاى.. إن الأمر
- لا تتكلم يا حور محب لأنك ستكذب.. إن المرء إذا خان كذب، وإذا كذب خان.. سأنفيك مثلما نفيت نفرتيتى.. لا تغادر قصرك..

خرج حور محب من قصر إخناتون متجها إلى المعبد، وقابل الكاهن الأعظم، وصاح وهو يرتعد:

- سيدى الكاهن الأعظم، إن إخناتون قرر نفيي فى قصرى، وعدم خروجى منه.. إن أخاه "سمنغ كارع" سوف يقتلنى.. لن يتركنى..
- ما الذى أتى بك إلى هنا الآن؟
- أنت من نصحتنى بسحب الجنود من على الحدود وتركت الحدود عارية
- اذهب إلى قصرك ولا تحضر إلى هنا وسأسعى إلى العفو عنك وعودتك فى أسرع وقت

قبَّل حور محب يد الكاهن الأعظم وخرج مهرولا.. وقف الكاهن الأعظم أمام النار التى كانت تضىء القاعة محدثا نفسه:

"أى أمنحتب الرابع يا من تسمى نفسك إخناتون.. أنت تسرع الخطى إلى هلاكك، وتسعى إلى موتك بكل الوسائل.. أى فرعون المخبول المجنون الموهوم بأن الله واحد وفى السماء، وفى كل الكون موجود.. أى فرعون إخناتون، أقنعت أباك أن يقول أنه الله يحيي ويميت، وأنت محوت كل شىء، ورفضت عبادة الآلهة وكسرت الأصنام.. سوف تدفع من دمك الثمن قطرة قطرة"..

***

فى الصباح وجدت نفر الملكة نفرتتى مختفية والأميرات.. والملكة تى تختار بعض الوصيفات للذهاب إلى قصر الملكة البعيد، ولم تختر نفر، ونظرت لها قائلة:

- ستكونين وصيفة الأميرة ميريت..

هزت نفر رأسها بالموافقة..

***

المكان/ قصر ميريت

الزمان/ صباحا

دخلت نفر إلى جناح الأميرة ميريت.. وجدتها تبكى.. اقتربت منها برفق:

- مولاتى ماذا يجرى ؟.
- العالم ينتهى يا نفر.. العالم ينتهى ..
- لا أدرى ماذا حدث.. أو ماذا يحدث يا مولاتى..
- الشر دخل القصر.. الشر يريد أن يهزم أبى..
- إن مولاى العظيم الحكيم
- يا نفر.. الشر قد بدأ ويبدو أنه نجح..

فجأة دخل الأمير "سمنغ كارع" متجهما.. نظر إلى دموع ميريت..

- أى أميرتى.. إن فرعون يرى ما لا تراه الملكة نفرتيتى.. هو الذى علَّمنا أن نعبد إلها واحدا لهذا الكون هو الذى ينشد الأناشيد..
- أنا خائفة على الملكة نفرتيتى..
- لا تخافى.. هى سحابة وسوف تمر..
- لا.. أعتقد أن الشمس لم تظهر هذا الصباح وهذا فأل شؤم.
- لقد توليت قيادة الجيش.
- وحور محب
- حددت إقامته فى قصره.
- سجن.
- حددت إقامته.

نظر "سمنغ كارع" إلى نفر.

- أريد أن ينضم زوجك المعلم باكا إلى الجيش
- زوجى يعلم اللغة الهيروغلفية والأدب، وليس عسكريا..

نظر لها "سمنع كارع" مبتسما:

- كل إنسان قابل للتعلم.. هكذا قال إخناتون العظيم.. اجعلى زوجك يقابلنى فى قيادة الجيش صباح غد.. سنعده ليكون قائدا..

***

المكان/ غرفة سكن نفر وباكا

الزمان/ ليلا

أخبرت نفر زوجها باكا ما حدث بينها وبين الأمير "سمنغ كارع".. لم يصدق نفسه، ولم يعرف معنى كلمة: "سنعده قائدا".. هو لا يحب منظر الدم، لا يحب الشجار، ولا يحب العنف.. لم ينم باكا ليلتها.. مادام سمنغ كارع طلب فهو أمر..

***

الزمان/ فى الصباح

المكان/ مقر القيادة العسكرية

اتجه باكا إلى مقر قيادة الجيش لا يعرف ماذا يقول للأمير؟ وهل سيقبل الأمير اعتذاره؟.. وقف أمام "سمنـغ كارع"

- **أهلا باكا**
- **أهلا بك يا سيدى.**
- **أنى أراك شابا قويا، مثقفا، متحدثا.. ويمكن أن تكون قائدا متميزا فى الجيش؛ فالثقافة هى روح الإنسان، والجيش روح الأمة..**
- **إنى أحب الشعر والأدب**
- **والجيش الذى ليس به شاعر، قوة بلا عقل. سنعلمك كل أمور القتال، وتصير قائد فرقة.. انتهى الوقت.. سلم نفسك الآن إلى قسم التدريب.**

هكذا دخل من الدار إلى النار، ليتعلم القتال بالرمح والسيف.

***

المكان/ جناح نفر وباكا

عاد باكا إلى البيت إلى أحضان نفر، وحكى لها ما دار بينه وبين "سمنـغ كارع" ثم سألها عن أحوال القصر..

- **ستكون ضابطا وسيما**

- لا أحب العسكرية.
- ستحبها.
- الجندى المثقف خطر.
- لماذا؟
- لأنه يناقش ويحاور والعسكرية لا تحب هذا.
- يا ويلى.
- ما أخبار القصر؟
- القصر يسوده الصمت والحزن، ومولاى يصلى ليل نهار، ويرتل الأناشيد، ويسأل الإله آتون أن ينير له الطريق..
- أنا خائف على إخناتون ومصر..
- من أى شىء؟
- من كل شىء

***

ادعى الكاهن الأكبر (الأعظم كما يحب أن يطلق عليه) سوات، أنه مريض ولزم الفراش عدة أيام حتى لا يحضر الصلاة مع إخناتون.. وعندما وصل خبر مرضه إلى إخناتون هز رأسه دون أى تعليق.. حاولت الملكة كيا أن تخفف عن إخناتون، وبدت الملكة تى هى المتصرفة فى كل شىء..

قال إخناتون: بماذا يفكر هذا الملعون؟

قالت الملكة تى: سوات رجل ملعون غير مريح غير مؤمن.. كان يضاجع النساء فى المعبد وأبوك أمنحتب الثالث كان يضحك ويسامحه.. الشر امتد وامتد

- لكنه يحفز التجار ضدى.. والجيش
- هو ملعون..
- والحل؟

- لابد من خلعه بطريقة صحيحة.. وسريعة
- نعم.
- ولابد من حيلة

***

الضربة القاضية للعسكر

اتفق الكاهن الأعظم سوات مع حور محب الذى عين باتو مفاوضا عنه مع الكهنة.. انقسم الجيش إلى موالين لـ إخناتون، والكثرة من قادة الجيش حور محب قائد الجيش الذى وزع عليهم أراضى ورفع مرتباتهم لدرجة عالية واتفق الجميع على أن يكون عيد الفصح بغد شهرين هو ساعة الصفر لقتل إخناتون، والتخلص من عبادة آتون والعودة إلى عبادة آمون.. كانت جبهة الاعداء ضد إخناتون قوية: كهنة المعبد والكثير من قادة الجيش والتجار.. كان رهان إخناتون على الشعب، والديانة الجديدة الإله الواحد آتون.. تخرج باكا من مركز التدريب خلال شهرين.. صار قائدا للحرس الخاص للملك إخناتون.. لم تكن نفر فرحة لهذا المنصب.. شيء ما غامض فى صدرها يقلقها لا تعرف ما هو.. شيء ما فى نفوسنا يرتبط بالواقع وبالمستقبل وبالمجهول.. المستقبل والمجهول وجهان لعملة واحدة.. نحن دائما نقع فى فخ المجهول ونكون صيدا سهلا للابتلاءات.. ما الدنيا إلا ابتلاء وراء ابتلاء..

جاء عيد الفصح، وفى الفجر عند شروق الشمس والصلاة وقف إخناتون فى بهاء واعتزاز يرقب قرص الشمس وهو يشرق.. لم يكن يدرى أن هذا آخر يوم سوف يرى الشمس فيه وأنها آخر صلاة.. تقدَّم الكهنة للصلاة خلف إخناتون ومعهم كى.. الذى كان يحمل خنجرا بين ثيابه ولم يفتشه باكا قائد الحرس الشخصى لـ إخناتون وزوج أخته الذى وقف فى الصف خلف الكاهن الأعظم..

ليلة اختفاء إخناتون

" واختفى الحب من مصر تلك الليلة "

الزمان : الليل

المكان : أحد القصور الملكية

: (تدخل وصيفتان وبينهما الملكة نفرتيتى كأنها مخطوفة)

نفرتيتي : من الذى أمر بإحضارى إلى هنا.. من المسئول عن هذا ولماذا أبعدت عن قصرى ومن الذى دبر هذا الأمر السخيف؟.

: (تظهر الملكة تى أم إخناتون)

تى : أنا الذى طلبتك هنا.

نفرتيتي : هل أنا مقبوض علي؟..

تى : إنى أشعر بأن سمومك جرت في جسد مصر؛ فمن يحمينا منك يا نفرتيتى الجميلة؟ كيف لامرأة في جمالك تحمل هذا السم ولماذا من أجل أن تزوج إخناتون من امرأة غيرك.. هل تعلمين كم تزوج أبوه علي.. عشرة عشرين مائة ألف، لكنى لم أكرهه ولم أخنه لأنى الملكة تى

نفرتيتي : أنت السبب.. أنت وراء هذا الزواج.

تى : يا غبية.. شعب مصر يحبك أكثر منه.. وأحبك أكثر عندما عرف بمدى تضحيتك من أجل ملك مصر.

نفرتيتي : أي ملك يا سيدتى؟

تى : فرعون مصر.. لقد أُجبت منه زوجته الجديد طفلاً توت عنخ أمون.. هذا الذى سيحكم بعد أبيه.

نفرتيتي : فليحكم.

تى : افهمينى أيتها الحمقاء.. لقد أنجبت ست بنات.. الشعب المصرى لا يقبل بوجود أنثى تحكمه إن عقدة الذكورة تحكم رجال مصر.. وأنت تعلمين هذا.

نفرتيتي : وما ذنب ميريت؟.. ميريت حبيبة أبيها.. ميريت الأميرة العاقلة.. الفاتنة.. ميريت زهرة مصر.. وردة النيل البشرية.

تى : إنها تملك عقل جدتها وحكمة أبيه وجمال أمها.

نفرتيتي : (بجفاف وود) إذا إمنحيها وصية بأن تكون ملكة مصر بعد أبيها.

تى : يا حمقاء.

نفرتيتي : أنا حمقاء؟

تى : ليست مشكلتك.. ليس بيديك.. معظم الجميلات حمقاوات.

نفرتيتي : أخبرينى إذاً فيما كانت حماقتى حين أقول امنحيها وصية بأن تكون ملكة بعد أبيها الذى يتربص به الجميع.

تى : (مقاطعة) أعلم. إذاً أنت اعترفت.. يتربص به الجميع وأنت واحدة منهم.

نفرتيتي : أنا.. لا يمكن.

تى : إن الخيانة تأتى من داخل القصور والبيوت لا من خارجها.. وأنت أول خنجر في ظهر إخناتون.

نفرتيتي : تهاماتك دائماً جاهزة لى.

تى : أنا لا أتهمك.

نفرتيتي : لا.. اتهمتنى، والدليل الآن اختطفتنى إلى هنا إلى هذا القصر.

تى : أنت تتهربين منى كلما حاولت أن أتصل بك. إن عينى عليك تجتمعين مع حور محب قائد الجيش الذى يثق فيه إخناتون أكثر مما ينبغي، ويظن أنه يحميه، وأنه قلب الأسد والابن والشجاع والنبيل وشرف العسكرية المصرية.

نفرتيتي : وأنت تتهمينه الآن بالخيانة.

تى : إنى أشك فيه.. إن ابنى سلم نفسه وحمايته إلى حور محب.. وحور محب يعرف جيداً أنه لا يمكن أن يكون فرعون مصر.. ولذلك يسعى أن يسيطر بطريقة ما لا أعرفها وللأسف بح صوتى مع إخناتون.. بح صوتى مع ابنى أن يسمعنى. فالثقة في العسكر هي دليل الغباء للقائد أو الشعبى ولكن ابنى انتبه الآن.

نفرتيتي : ماذا تريدين منى؟

تى : لن تغادرى هذا القصر الليلة.

نفرتيتي : تسجنينى وأنا ملكة مصر.

تى : نعم أسجنك.. أنا ملكة مصر قبلك وأم ملك مصر.. الليلة فقط.

نفرتيتي : (وهى متوترة) ولماذا الليلة فقط؟

تى : قلبى يحدثني بأن شيئاً ما سيحدث الليلة فى عيد الفصح.

نفرتيتي : أي أوهام تعيشين فيها أيتها الملكة العجوز؟.

تى : قلب الأم دليل.. أيتها البلهاء.

نفرتيتي : كفي عن سبى بالحمقاء والبلهاء.. أنا نفرتيتى.. إنى أتحملك أكثر من اللازم أيتها الملكة الأم.

تى : ستظلين هنا.

نفرتيتى : لا.. سأغادر القصر الآن.

تى : (تظهر امرأتان من الوصيفات) لن تغادرى إلا جثة.. دعي الليلة تمر على خير وبعدها اذهبى إلى أي مكان شئت.

نفرتيتى : فهمت الآن.. لماذا قمت بتدريب الوصيفات على القتال؟.

تى : الأن سأتركك هنا.. وسأعود إليك بعد قليل (تتركها وتخرج)

نفرتيتى : (بمفردها) أي امرأة تلك الملكة العجوز الحيزبون.. تسيطر على مصر وعلى كل شبر فيها على الرغم من أنى فعلت الكثير كى

أمحو اسمها من ذاكرة وعقل المصريين البلهاء.. أمرت العسكر ألا يعذبوا الفلاحين أثناء جمع المحاصيل وألا يضربونهم أو يلقون برؤسهم في الماء حتى الموت. وألا يحرقوا منازلهم.. كما أمرهم حور محب.. إن الليلة ليلة مهمة.. سيتغير تاريخ مصر.. وتنتهى كيا وإبنها توت عنخ أمون.

(تدخل ميريت.. أميرة شابة في العشرين.. تراها نفرتيتى تجرى نحوها مسرعة)

نفرتيتى : ميريت يا حبة القلب (تحتضنها وميريت لا تفعل)

ميريت : (لا ترد)

نفرتيتي : جدتك الملكة تى حبستنى فى هذا القصر.. هل حبستك أنت أيضاً؟.. ماذا تدبر هذه العجوز الحيزبرون لى ولك ولأخواتك البنات؟

ميريت : (لا ترد)

نفرتيتى : إنها تكرهنا لأننى أجمل منها، ولأن الشعب يحبنى أكثر منها ومن إخناتون، ويسمون بناتهم باسمى.

ميريت : (لا ترد)

نفرتيتى : تكلمى.. هلى قبضت عليك؟ ما الذى أتى بك إلى هنا؟

ميريت : للسؤال.

نفرتيتى : أي سؤال؟

ميريت : ما الذى يدور حولنا؟

نفرتيتى : سلي الملكة تى.. جدتك.. قبضت علّي وأتت بى إلى هنا.

ميريت : لماذا زوجتنى من عمى وأنا لا أحبه؟

نفرتيتى : إنها تقاليد الأسرة الفرعونية.

ميريت : أم إنها رشوة ثمن سكوته عنك؟.

نفرتيتى : سكوته عنى

ميريت : حتى يغمض عينيه عما يحدث في الخفاء.

نفرتيتى : أي خفاء.. أي خفاء؟

ميريت : المؤامرة.

نفرتيتى : مؤامرة.. على من؟

ميريت : على أبى.. على فرعون مصر إخناتون.

نفرتيتى : أريد أن أفهم لماذا تكرهينني وتحبين أباك أكثر منى وأنا أفعل ما أفعل حتى تصلي إلى الحكم لتكوني ملكة مصر.. تكون ميريت ملكة مصر بعد أبيها إخناتون.

ميريت : أنا لا أريد ملك مصر.. أريد أن أعيش في كنف أبى. أريد إخناتون قويا

نفرتيتى : يا غبية لا تخافى من الحكم.. سأكون إلى جوارك.. وسأقف معك في كل صغيرة وكبيرة.

ميريت : وأبى إخناتون ماذا سنفعل به؟

نفرتيتى : (ترتبك) سيموت.. الموت حقيقة سيموت ذات يوم.. لكن يجب أن تكون وصية العرش لك.

ميريت : وأخى توت غنخ آمون؟

نفرتيتى : ربما يموت هو الآخر، فهو مريض دائماً.

ميريت : يعنى هذا.. أن يقتل أبى وأخى؟

نفرتيتى : (مفزوعة) قتل.. من أين أتيت بهذه الأفكار وهذه الكلمات.

ميريت : إن الاجتماعات التي تدور بينك وبين حور محب قائد العسكر وبين الكاهن الأعظم سوات وبين كبير التجار "سو" الثلاثة لا يحبون أبى.. لماذا تجتمعين بهم؟

نفرتيتى : إن أباك يغضبهم بتصرفاته.. وخبلانه وهلوساته وأنه يأتيه من السماء وحى، وأنه يرى أن الله علاماته قرص الشمس (آتون) ويصلى في اليوم خمس مرات عند شروق الشمس وعند وجود الشمس منتصف السماء وقبل غروب الشمس وبعدها وقبل النوم.. إن الدين حرية، مصر حرة، الناس تحب أن تعبد الأبقار والأغنام والحشرات والصراصير والضفادع.. كل شخص حر يعبد ما يريد.

ميريت : إن إخناتون يؤمن بأن هناك إله واحد له قوة عظمى وأن الشمس هي إشارته والإلهة القوية للبشر.

نفرتيتى : جدك أمنحتب الثالث كان يقول أنه إله ولن يموت.. لا أعرف من أين أتى أبوك بهذه الخزعبلات.

ميريت : سأفاجئك بشئ إنى رفضت أن يلمسنى العم سمنغ كارع فهو عمى أخو أبى إخناتون.

نفرتيتى : هذا ليس بعيب يا صغيرتى.. هذا أمر طبيعى في الأسرة الحاكمة أن يتزوج الأمراء من أخواتهم أو أمهاتهم.

ميريت : إن أبى رفض هذا الأمر.

نفرتيتى : أبوك يكسر قوانين مصر وناموس الفراعنة.

ميريت : أبى يصحح ما يجرى من فساد في العقيدة.

نفرتيتى : فساد العقيدة.

ميريت : نعم يا أماه.. فساد العقيدة.

نفرتيتى : إن إخناتون فاسد العقيدة.

ميريت : من يؤمن بإله واحد ورب واحد فاسد؟.

نفرتيتى : ماذا تدبر الملكة تى.. جدتك.

ميريت : إن سمنخ كارع سيذهب الآن إلى قصر إخناتون.

نفرتيتى : (تحدث نفسها) لن يصل.

ميريت : ماذا قلت؟

نفرتيتى : لم أقل شيئاً صدقينى إنى أحبك أكثر من أي شيء في العالم.. أنت يا ميريت ابنة دمى.. ابنة بطنى.. أنى أفعل كل شيء من أجلك أنت من أجل المستقبل.

ميريت : إذا قتل أبى أو مات سيتولى سمنخ كارع.

نفرتيتى : (تحدث نفسها) لن يحكم.

ميريت : ماذا قلت؟

نفرتيتى : لم أقل ثيئاً .

ميريت : تحدثين نفسك يا أماه.. ألم تسمعى ما قاله أبى أن كلماتها يتولد منها الصدق والعدالة..

نفرتيتى : هل تريد الملكة تى قتلى هنا؟

ميريت : لِماذا تقتلك هل تظنين إنك فعلت شيئاً مريباً .

نفرتيتى : أبوك لم يتكلم منذ يومين.

ميريت : سألته توسلت إليه طلبت منه أن يتكلم.

نفرتيتى : تكلم.

ميريت : نعم.

نفرتيتى : ماذا قال؟

ميريت : قال.. لمن أتكلم اليوم؟ الأخوة سواء، وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب.. لمن أتكلم اليوم القلوب تميل إلى اللصوصية، فكل إنسان

يغتصب متاع جاره. لمن أتكلم اليوم؟ فالرجل المهذب يهلك والصفيق الوجه يذهب في كل مكان. لمن أتكلم اليوم؟ فإن سمح الوجه قد صار بائساً وصار الخير لا يعمل به في أي مكان.

لمن أتكلم اليوم؟.. فإن الذي كان يظن أنه يثير الغضب بأخلاقه الشريرة.. يسر منه الناس جميعاً رغم أن خطيئته فظيعة. لمن أتكلم اليوم؟ فإن الناس يسرقون. كل إنسان يغتصب متاع جاره. لمن أتكلم اليوم؟فإن الخائن صار أميناً والأمين صار عدواً. لمن أتكلم اليوم؟ لا يوجد رجل عادل وقد امتلأت الأرض بأولئك الذين يرتكبون الظلم.

(تبكى ميريت) مسكين أبى إخناتون.

نفرتيتى : هو السبب، هو السبب، لو ترك المصريين يعبد كل فرد إلهه الخاص ويفعلون ما يشاءون.. لو جعل نفسه إلهاً وضربهم وقادهم بالقسوة ما كان حاله هكذا.. ها هو يرى العالم الآن اليوم يرى هذا.

ميريت : أسكتى يا أمى.. أبى يقول طول اليوم أن الموت أمامى اليوم كالمريض الذى أشرف على الشفاء وكالذهاب إلى صديق بعد المرض. إن الموت أمامى اليوم كرائحة البخور أو كالجلوس تحت الشراع في يوم شديد الريح. إن الموت أمامى اليوم مثل مجرى الماء العذب ومثل عودة الرجل من سفينه حربية إلى داره.. إن الموت أمامى اليوم كسماء صافية، ومثل رجل يصطاد طيوراً لا يعرفها.. إن الموت أمامى اليوم كمثل رجل يتوق لرؤية منزله بعد أن أمضى سنين عدة في الأسر..

(تبكى ميريت)

(تصاب نفرتيتى بحالة ذهول)

نفرتيتى : مستحيل.. مستحيل.. أنه ليس بحامل رسالة من السماء ولا رسول منها.. إنه مخبول.. إنه يهذى.. أنا لا أصدق .. لقد فتن باسمه إخناتون فسمى ثلاث مدن جديدة باسمه.. كل شيء أسماه "إخناتون" حتى المدن الجديدة أسماها إخناتون.

ميريت : لقد كره أبى اسمه.. يقول إن أنظر إلى اسمى الآن ممقوتا.. أكثر من رائحة الطير في أيام الصيف عندما تكون السماء حارة.
أنظر إلى اسمى ممقوتا أكثر من مقت مصايد السمك في يوم صيد تكون السماء فيه حارة. أنظر إلى اسمى ممقوتا أكثر من رائحة الصيادين على شواطئ المستنقعات بعد الصيد.

نفرتيتى : أى ميريت الجميلة.. كل شيء حولك حزين.. عيناك شاحبتان ووجهك الجميل مكسو بالتساؤلات.. لا أعرف ماذا أقول لك وماذا تقولين لى.. كل شيء بيننا هذه مصر الحزينة الباحثة تحاصرك وتحاصرنى. بآلاف الأسئلة.. يا صغيرتى كل الأمور ستكون على ما يرام.. المهم الآن أن أخرج من هنا.. عليك أن تقنعى الملكة تى جدتك القاسية القلب أن تسمح لى بالخروج من هذا القصر لسجن هنا فوراً..

ميريت : جدتى حلمت حلماً كئيباً..

نفرتيتى : وما علاقتى بالحلم؟

ميريت : رأتك في الحلم ويداك ملطخة بالدماء.

نفرتيتى : أي دماء؟..

ميريت : دماء أبى..

نفرتيتى : وهل تصدقين أنى أقتل أباك؟

ميريت : إن الشر يأتي دائماً ممن تثق فيهم.

نفرتيتى : كلمات الملكة تى. أنا أمك وأنت بنت دمى بنت بطنى. لابد أن أخرج الأن.. أرجوك يا ميريت الجميلة.. أرجوك دعينى أخرج الآن.

: (صوت صراخ وعويل ومشاعل) (تدخل الملكة كيا)

كيا : لقد فعلتها.. لقد فعلتها.

ميريت : ماذا جرى يا ملكة كيا؟.

كيا : قتل إخناتون.. أمك قتلت إخناتون.. قتلت الملك.

ميريت : أبى.. أبى .. أبى.

: (تجرى للخارج)

نفرتيتى : إخناتون.. إخناتون..

: (تحاول أن تجرى.. تمسكها كيا)

كيا : لن أدعك تذهبين.. لن أدعك ترين جثته يا قاتلة يا فاجرة.

نفرتيتى : أنا فاجرة.. أيتها الحقيرة.. أنت من عامة الشعب من السفهاء.. جعلتك تلك الملكة العجوز ملكة من أجل أن تنجبى صبيا لها.. ليس من أجل أي شيء آخر، أنت نسيت نفسك مع من تتحدثين.. أنا نفرتيتى ملكة مصر.. لا تنسى نفسك.

كيا : خائنة مصر.. فاجرة مصر.

نفرتيتى : (تضحك ساخرة) ماذا كان يعمل أبوك؟. نجاراً.. صياداً.

كيا : كان شريفاً يا سلالة الملوك.. الملوك يخونون الملوك.. ونحن لا نخون.

نفرتيتى : لا تظنى أن ابنك توت غنخ أمون سيكون ملكاً.

كيا : سيتولى سمنغ كارع.. إن توت غنخ أمون مازال طفلاً صغيراً.. إن الرغبة في الحكم تفسد أخلاق المرء فلا يستطيع أن يكون محترماً إن الحكم بئر فساد ويفرق من يقترب منه بأى شكل وبكل شكل.

نفرتيتى : الحب لا يعرف الحياد يا أم توت عنخ أمون.. الحب ينحاز وأحياناً لا يبصر.. الحب خطير.. والمحب يمتلك طاقة غيره وكراهية دفينة بقدر الحب الذى يحويه قلبه إننى أحببت إخناتون.. وكان إخناتون يقضى وقته للصلاة أو للحوار مع أخيه سمنغ كارع أو حور محب قائد الجيش أو مع ابنه توت عنخ أمون ويتركنى أنا وبناتى الست.. الحب لا يعرف اتزان العقل إنى أحبه.

كيا : أي حب يا امرأة وأنت تتأمرين عليه.. أي حب هذا وهو يثق فيك.. كلما قال له أحد أنك تخونيته مع حور محب قال لا.. هي تحبنى وحور محب يحبنى هو قائد جيش مصر وصديقى.. الكل يعلم أنك تخونينه.

نفرتيتى : (تحدث نفسها) غبى الذى يثق في كل من حوله.. غبى الذى يثق في كل من حوله.

كيا : ماذا تقولين لنفسك؟.. لا شيء.. أنت لا تفكرى في أي شيء.

نفرتيتى : انا آكل وأشرب وأعيش فرحة.. لأننا غداً سنموت.. انتهزى الفرصة وحبى الحياة مثلى.

كيا : والمبادئ.

نفرتيتى : المبادئ يحملها الأغبياء فقط.

كيا : وإخناتون.

نفرتيتى : ضعى أحسن العطور عند أنفك وضعى الغناء والموسيقى أمامك واتركي خلف ظهرك كل شيء كريه.. ولا تتذكرى إلا ما يبهج نفسك.

كيا : وأتون الآله العظيم سيحاسب.

نفرتيتى : اغرسى لنفسك شجرة محبوبة عل شاطئ بركتك.. ولتجلس روحك تحت تلك الشجرة ولتشرب من مائها.. أشبعى رغباتك كلها.

كيا : أي رغبات غير رضا الله والناس (تخرج كيا من على المسرح) خائنة

نفرتيتى : الله يعرف من منا الصالح والفاسد أما الناس فاعط الخبز ووزعيه من جعل له وبذلك تنالى اسماً طيباً للمستقبل ويبق اسمك للأبد.

: (تدخل ميريت)

ميريت : يا ويلى.. يا ويلى.. لم يجدوا جثة إخناتون،وجدوا دماً فقط اختفت جثته.

نفرتيتى : كيف ذلك.

ميريت : سمنغ كارع وحور محب يبحثان عنها ربما سرقت.

(تدخل الملكة تى) (سبوت على تى)

تى : جثة ابنى ارتفعت إلى السماء.. جثة إخناتون صعدت إلى السماء آه يا أول الأنبياء.. يا سيد العارفين والشهداء.. آه يا إخناتون.. إن روحك لن تكون فزعة في السماء ولن تعانى من فزعة القبر ولن تقابل الوجوه التعسة.. إن روحك رفضت القبر أن تسكن فيه والجسد غريباً في أرض مدنسة بالخديعة.. آه يا إخناتون يا صاحب الحكم كان حظك العاثر في شعب لا يحب أغلبه التوحيد لن يكون اسمك نتناً في أفواه الشعب، بل حروفا من نور، إن الموت هو الخلاص الوحيد من الحياة.

(بقعة ضوء على ميريت)

ميريت : ء يا أبى لن أراك غداً فى الصباح ثانية لنرى سوياً الشمس ونصلى سوياً .. آه يا أبى إخناتون .. كل شيء انتهى لا تحزن فالذين بنوا بالجرانيت الأحمر بيوتهم وقبورهم حتى يصيروا من الألهة ترى موائد قربانهم خاوية كموائد أولئك المتحابين الذين يموتون فوق الجسور.. أو من يبتلعهم فيضان النيل.. أو من تلفحهم الشمس أو من يلتهمهم السمك في نهر النيل.. يا أبى اصغ إلى وأنت في السماء .. إنك لم تمت.. إن دعوتك ستظل في قلوب الناس "إله واحد للسماء والأرض"..

(بقعة ضوء على نفرتيتى)

نفرتيتى : سامحنى قدر الملوك الفراعنة يموتون إما بؤساء بالمرض أو بالخيانة أو الفساد، وأنت قدرك أن تموت كما يليق بالملوك الفراعنة العظام.. سيكتب التاريخ إن إخناتون فرعون مصر مات وهو زوج لنفرتيتى أجمل جميلات مصر.. أنت لم تفهم سر الشعب الذى يعشق التنوع ويكره التوحيد.. شعب يعلن لك التأييد وفى السر يلعنك.. شعب يغوى الإيمان ويفعل السيئة.. لا يهتم بالكلمات والمعابد بل يهتم بالمال.. ويفعل كل رذيلة في الخفاء في كل مساء آه يا مليكى سامحنى.. كل ما حلمنا به ضاع.

(تدخل الملكة كيا ومعها أربعة نساء من الحرس)

كيا : اقبضوا على الملكة نفرتيتى واسجنوها.

نفرتيتى : يسجنونى أنا.

كيا : نعم.. أنت بأمر فرعون الجديد سمنغ كارع.

: (الحارستان يمسكن الملكة نفرتيتى يقيدون يديها على ما يشبه الصليب)

نفرتيتى : أنا ملكة مصر، أنا زوجة إخناتون فرعون مصر، أنا سيدة القصر وأملك الأرض والزرع والبشر أنا لا أقيد هكذا.. فكوا قيودى.. أنا ملكتكم يا رعاع.

كيا : أين اختفت الجثة؟.

نفرتيتى : أي جثة؟

كيا : جثة إخناتون.. الملك الفرعون.

نفرتيتى : ماذا تقولين؟

كيا : أقول ما سمعت.. اختفت جثة الفرعون من حولنا.

نفرتيتى : لا أصدق ما تقولين.

كيا : اخرسى أيتها الماكرة.. إن حور محب يبكى كالنساء وبدهاء الفاجرات.. يلطم خديه.. إن الكاذبين أسرع الناس إلى البكاء ولطم الخدين حين يقومون بالجريمة الكاملة.. الغيرة محت ما في قلبه من خير ونور.

(تدخل الملكة تى وخلفها امرأتان من الوصيفات وقد أمسكن نفت زوجة حور محب وهى تصيح)

نفت : دعونى.. دعونى.. انا لم أفعل شيئاً .

الوصيفة : لقد أمسكناها وهى تغنى.

نفت : هل الغناء جريمة؟

كيا : نعم جريمة.. زوجك حور محب قتل الملك إخناتون.

نفت : لا يمكن.

تى : كنت تغنين.. تغنين.. هل قال لك حور محب أنه سيصبح فرعون مصر حين ينقلب على إخناتون.

نفت : لم يحلم يوماً بأن يكون.. هو يحب سيده وملكه الفرعون إخناتون.. لا يمكن أن يكون هو.. ولم اسمع بهذا الخبر.

كيا : الليلة الكل يكذب.. هل شربتم الكذب من ماء النيل الليلة؟.. هل تحولتم إلى قتلة ومهرجين؟.. هل تحولتم إلى سفلة؟.. هل اختفى الحب من مصر الليلة؟

نفت : ملكتى كيا.. ملكتي كيا اسمعينى جيداً.. إن الحب الذي تتكلمين عنه يوزعه علينا إخناتون كل صباح ومساء.. نصلى معه خمس مرات كل يوم في الفجر وفى الظهيرة وفي العصر وفي الغروب وقبل النوم.. كيف تفكرين في أن حور محب قتله.

نفرتيتى : قلت لها هذا.

نفت : أنا لا أصدق أن ملكة مصر نفرتيتي هنا.. مقيدة اليدين مثلى.. أنا لا أصدق ما يجرى حولى من أشياء.

كيا : الليلة انتصر الشر على الخير.. واختفت النجوم من السماء.. الليلة.. خرج الكهنة والتجار والجهلاء وأسقطوا تمثال إخناتون ينهبون البلاد.. والحكماء لزموا البيوت والصمت.

نفرتيتى : كل هذه أوهام.

كيا : أي أوهام.. لقد نجحتم.. نجحتم أيها الأوغاد.. أدعياء النبل والصدق والوفاء.

نفت : أنا لم أعلم أي شيء.. كنت في البستان ولم أسمع أي شيء وجاءوا وقبضوا علّي وأتوا بى إلى هنا مقيدة.. ما تهمتى؟.. ماذا فعلت؟

كيا : أنت سمعت وعرفت المؤامرة قبل أن تقع الأحداث، ومن المؤكد قد بث زوجك إليك بعضاً من خواطره.. ومن همه ومن شكواه ومن

طموحاته الدنيئة في أن يصبح فرعون مصر.. وأن يهاجم الحيثيين ،ليحقق نصراً .

نفت : إن حور محب لا يمكن أن يفكر في هذا بأى شكل.

كيا : يا ويلك حين تقابلين الله في يوم الحساب صمتك جريمة.

نفت : أنا امرأة مصرية بسيطة.. ألقت بها المقادير للزواج من قائد جيش مصر الذى فشل في الزواج من ابنة فرعون الأميرة ميريت.. وعشت في بيته وهو ينادينى كل لحظة سهواً ميريت.. هل تشعرين بمدى الإهانة وأنت في أحضان زوجك يقول لك اسم امرأة أخرى غير اسمك.. هل تدركين كيف يخونك زوجك دون أن يدرى.. أقسم حور محب لإخناتون.. أقسم حور محب بالوفاء، لم أعلم أنه كان يدبر أمراً لاغتيال إخناتون مع الكاهن الأعظم سوات.. أقسم إنى لو عرفت لتركت له البيت.. إننى أحلم بأن أعود لبيت أبى الفقير على ضفاف النيل وأعيش كما كنت وأربى الدجاج خلف أمى.. وأنا لست في دهشة أن أسمع أنه خان إخناتون فهو رجل يخون زوجته كل ساعة، فهذا أمر عادى، أنا امرأة بسيطة أحلامى بسيطة.. طفل وزوج صالح ياً كان منصبه..

كيا : كفى عن النواح والبكاء والحديث ببراءة العصافير.

(تقيد نفت بجوار نفرتيتى) (تدخل زوجة الكاهن الأعظم كارا)

كارا : أنا زوجة الكاهن الأعظم سوات أيتها الغبيات المجرمات.. أنتن لا تعرفن من أنا.. أنا زوجة الكاهن الأعظم.

كيا : هلاً.. كارا.

كارا : الملكة كيا.. ماذا يجرى؟.

كيا : قتل زوجك الكاهن الأعظم.. إخناتون.

كارا : كم مرة أخبرت إخناتون أن زوجى الكاهن الأعظم سوات لا يحبه وأنه لا يحب الإله آتون ويحب الإله أمون ويحب التنوع تعدد الآلهة ويسمح لكل فرد أن يعبد الإله الذي يهواه.. كم مرة أخبرت إخناتون لكنه كان يضحك دائماً ويقول إنها غيرة النسوة على أزواجهن.

كيا : لم تخبرينى.. كان عليك أن تخبرينى أنا.

كارا : أخبرت الفرعون إخناتون بنفسه فلم يصدقن، هل كنت ستصدقينى أنت.

كيا : نعم.. تكلمى دون أن تبكي؟.

كارا : إنى أبكى على إخناتون الفرعون الإنسان الرقيق. أبكى على مصر الفقراء التي تصلى خلفه خمس مرات كل يوم والناس تبكى إلى الإله آتون بحثاً عن الخلاص. أبكى على حالى أنى صدقت أن الكاهن الأعظم يعرف سر الحكمة.. أبكى على حالى.. كنت أحب الحكمة وأتيت إلى الكاهن اسأله إياها فتزوجنى.. فوجدت الحكمة كلمات في أناشيد لا تخرج من قلبه أبداً.. أبكى على غباء هؤلاء الناس الذين يصدقون الكاهن ويمنحونه الهدايا والعطايا حتى يقربهم إلى الله.. الله لا يحتاج وسيطا كما قال إخناتون. إنى أبكى على حالى وحال البلاد والعباد الذين فقدوا الحب ويعتلون بعضهم بعضاً.. وخرج الرعاع يقتلون أنصار إخناتون ويحرقونهم وينهبون الأبقار والقمح والخبز والشعير..

تى : (تدخل)

ملكة كيا.. انتهى الأمر. لقد اختفت جثة إخناتون وتولى الحكم سمنغ كارع.

كيا : وحور محب.

تى : ـم يثبت ضده أي شيء وظل في منصبه قائداً للجيش.

كيا : والكاهن الأعظم سوات.

تى : كما هو..

كيا : كيف؟

تى : إنها لعنة على مصر.. أن تنقسم وأن تتجزأ وأن تظل في صراع.. إنها لعنة على مصر.. أن يموت أعظم ملوكها إخناتون صاحب رسالة التوحيد.. وأن تضيع أحلامنا.. آه يا وطناً يقتل أنبل من فيه ولا يبكى عليهم.. افرجوا عن الملكة نفرتيتى وزوجة الكاهن الأعظم وزوجة حور محب.. آه .. آه.

يفرج عن نفرتيتى وزوجة حور محب وزوجة الكاهن..

(تلتف النسوة حولهن.. تنظر إلى الامام)

نفرتيتي : سوف يأتي زمان يدعى الجميع أنهم شرفاء ولن يذكروا اسم إخناتون إلا كعابر سبيل فى التاريخ؛ فتذكروه..

***

كانت مهمة كى قتل إخناتون المارق الكافر الذى لم يعد يعبد آمون وهدم تماثيله وتماثيل الآلهة الأخرى، حتى تمثال أبيه.. بدأ إخناتون فى ترتيل الأناشيد وعلى الجانب الاخر كانت تقف بعض الأميرات والوصيفات وسيدات مصر من نساء التجار والأثرياء..

وبعد مرور خمس دقائق خرج كى من الصف وتجاوز الكاهن الأعظم، وبينما يسجد إخناتون للصلاة طعنه فى ظهره، وطعنة طعنتين فى القلب.. ثم التفت للكاهن، وهو يمسك الخنجر فى ذهول:

- قتلت المارق يا سيدى الكاهن سوات

أمسك الكاهن الخنجر، وطعن كى طعنتين..

- يا مجرم.. قتلت الإله..

- قتل إخناتون .. قتله كى ...

صاح الكاهن

- المعبد والكهنة براء من هذا المعتوه غاسل الموتى كى

أغمى على نفر فى هذا المشهد الجلل

جرت الملكة تى وفى هذا المشهد الجلل أمسكت الملكة تى يد ابنها "سمنغ كارع" وصاحت:

- مات الفرعون العظيم إخناتون.. عاش الفرعون العظيم سمنغ كارع..

أخذ كبير الكهنة سوات يبكى على جثة إخناتون بحرارة لم يشهدها أحد من قبل، وجعل الجميع يصدقون حزنه وألمه الشديدين..

ليلتها.. استغرقت نفر فى غيبوبة، وكان حولها أمها وبعض الوصيفات، أما أبوها فقد راح فى جلسة تحقيق حول ابنه قاتل إخناتون..

ليلتها.. احتضنت الملكة كيا ابنها توت عنخ آمون، خائفة أن يقتلوه أو يغتالوه.

ليلتها.. جلست نفرتيتى فى حالة حزن وبكاء، ومعها ابنتها ميريت وبناتها..

ليلتها.. جلس الكاهن الأعظم سوات فى المعبد فى حالة حزن مزيف..

ليلتها.. جلست الملكة تى مع سمنغ كارع.. فى المعبد بجوار جثة إخناتون، وكهنة المعبد تجهز جثة الفرعون وتحنطها حتى يدفن فى المقبرة التى قام ببنائها.. لكنها اختفت كان من المفروض دفن الفرعون إخناتون،

****

تولى "سمنغ كارع" الحكم ثلاث سنوات، ومات حزنا وكمدا على إخناتون أخيه وصديقه الحميم.. قيل أن حور محب دس له السم البطيء.

تولى الحكم الأمير الصغير توت عنغ آمون.. ابن الملكة كيا ابن الثلاث سنوات

عادت نفر إلى العاصمة القديمة فى بيت زوجها باكا، ولكنها عادت مريضة لا تستطيع الكلام، وعاد باكا معلما..

وهل قام الكهنة بسرقة جثة إخناتون ودفنها فى مكان مجهول حتى لا يخلد ومحو كل آثار معابد آتون وهدم المعابد كلها؟

من ضبط وهو يصلى لآتون إلها واحدا يتم القبض عليه..

أيا بلادا.. تقتل الأنبياء، وتمحو تاريخ النبلاء من ذاكرتها..

ذات صباح وجد باكا نفر فى حالة انتعاش وصحة جيدة.. قامت من الفراش واتجهت إلى المطبخ، ووجدها تتحدث وخرجت فى الساحة وجلست تحت شجرة مورقة فتجمع حشد من العصافير فوق الساحة ووقفت على أكتافها وفوق رأسها.. فرح باكا، وخرج يحمل عصير التوت إليها؛ فناداها:

- نفر.. نفر..

لم تجب.. لم تلتفت

ذهب إليها، وجدها جثة هامدة، وفوقها تبكى الطيور..

***

بكت سهر بقوة.. قالت شهرزاد:

- ما بك يا جميلة الجميلات؟.. ما بك يا سهر؟

- ماتت نفر

- لكل أجل كتاب..

خرجت سهر من بيت شهرزاد، دموعها على خدها.. نظرت لأعلى وجدت العصفور يطير وسرب فوق رأسها.. همست والدموع على خدها:

- أيا عصفورى الجميل أنت ورفاقك.. هل ستبكون علّى لحظة الفراق وتكونون معى

عندما دخلت سهر إلى بيتها.. رأت أمها الدموع فى عينيها.. سألتها:

- ما بك يا سهر؟

- ماتت نفر.. ومات حزنا عليها زوجها باكا...
- لا حول ولا قوة إلا بالله.

لم تفهم الأم ما تقول..

سألها والد سهر:

- ماذا حدث؟.. لماذا تبكى سهر؟
- صديقة لها ماتت.. والله ما نا فاهمة شيء..

مر يومان، ثم مرت شهرزاد على بيت سهر، وبعد تناول القهوة والضيافة.. همست سهر

- ومن هى الروح الثانية يا خالتى شهرزاد؟
- هى بنت جميلة عاشت فى عهد النبى موسى
- ما اسمها وحكايتها؟
- اسمها نور.. غدا نبدأ الحكاية

إلى اللقاء فى الجزء الثالث حكاية.. "نور والنبى موسى"

دراسات نقدية
فى رواية قهوة سادة قهوة زيادة

"قهوة سادة" فسيفساء روائية
بقلم : أحمد فضل شبلول

هذه رواية كتبها صاحبها "بحثا في روح مصر المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى، للإنسان فيها معنى وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا"، كما يقول في إحدى عتبات الرواية، وهي في حقيقة الأمر ليست رواية واحدة، أو روايتين كما يدَّعي الكاتب، وإنما هي ثلاث روايات جمعن في كتاب واحد تحت عنوان "قهوة سادة"، استطاع مبدعها الكبير السيد حافظ أن ينسج بينها خيطا حريريا لا يراه إلا من تذوَّق سحر الكتابة الإبداعية، وسحر تداخل الأنواع والأجناس الأدبية، أو الكتابة عبر النوعية.

إنها فسيفساء روائية يرصِّ ع صاحبها كلماتها وجملها وعباراتها بحروف من نور الإبداع.

ثلاثية روائية يجمعها طعم القهوة المر، التي لا يخلو فصل من فصولها دون ذكر لها، وكأن مرارة الأيام تصاحب أبطال هذا العمل الضخم وكذا قارئه. الرواية الأولى هي رواية "سهر" التي استيقظت على رؤية بقعة دم على قميص نومها في ٥ يونيو ١٩٦٧ وكأن الكاتب يرمز إلى روح الأمة العربية من خلال بطلة الرواية "سهر" التي "رأت أباها يبكي يومي ٨ و٩ يونيو وهو يرى عبدالناصر يتنحى.. ذهبت أمها بها إلى شهرزاد وقالت لها: البنت صارت أنثى".

هكذا يفتتح السيد حافظ "قهوة سادة" بهذا المشهد المؤلم، ومن هنا تتصاعد الأحداث ويمر الزمان ونشم عطر سهر الفواح الذي يُسكر كل من يشمه من على البعد، والذي يكون سببا في تطور الرواية والأحداث، وفي ظهور شخصية كاظم معلم اللغة العربية في مدرسة سهر، لنكتشف أن أحداث الرواية الأولى (ضمن الثلاثية) تدور في الشام،

وليست في مصر، وأن سهر ولدت يوم الاتفاق على الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير ١٩٥٨.

ثم يدخلنا الكاتب بيتَ "سهر" لنتعرف على أسرتها والبيئة المحيطة بها وعلى مدرستها وصديقاتها وعصفورها الذي ينام على كفها وفي صدرها. كما يجعلنا نحلق في عالم كاظم وثقافته وأحلامه وعاطفته نحو "سهر".

وفي نقلة أخرى للرواية الثانية نعيش مع "فتحي رضوان" الشاب المصري الثوري (الذي سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عاما) وهي العبارة التي يفتتح بها الكاتب سيرة فتحي رضوان، ومع انتهاء الرواية لم نر ذكرا لهذه الرؤية التنبؤية (ربما تأتي هذه الرؤية في جزء تال).

ولكن على أية حال فإن الجزء الخاص بـ فتحي رضوان ما هو إلا تأريخ فني وسياسي واجتماعي لمصر، وأكاد أقول أن هذا الجزء ما هو إلا سيرة ذاتية لمؤلف الرواية السيد حافظ، خلال فترة الستينيات وما بعدها، وفيه يقدم الكاتب صفحات أقرب إلى التوثيق الصحفي أو المعلوماتية، منها إلى الفن الروائي، وفيه مقارنة بين عبدالناصر ومحمد علي، وفيه نقد عنيف للشعب المصري يصل على حد جلد الذات، ومنه قوله: "ضيعت قلبي في وطن حقير اسمه مصر والوطن العربي"، و"عبد الناصر ديكتاتور عادل ومحمد علي ديكتاتور عادل والحاكم بأمر الله دكتاتور عادل.. مصر لا تنهض في تاريخها إلا بديكتاتور عادل.. الشعب متمرد كسول لا يحب العمل ويحب الشر والكذب والفهلوة والنصب والتحايل على القانون". هل هذا توصيف للشعب المصري، أم هي لحظة غضب يصبها الكاتب على الورق لينفث من خلالها همومه وأحزانه؟

وهكذا تمضي "قهوة سادة" متراوحة بين حكاية سهر وحكاية فتحي رضوان، وكلاهما متباعدان عن بعضهما البعض ولا يلتقيان طوال الرواية رغم العبارة التي يصدرها لنا الكاتب في معظم الفصول بقوله: "سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عاما". غير أني لاحظت أن الجانب التوثيقي هو الأوفر حظا في الجزء الخاص بفتحي رضوان، فأحيانا نجد

الكاتب يثبت صفحات من مذكرات محمد فريد، أو يثبت بيان ٣٠ مارس الذي ألقاه جمال عبدالناصر عام ١٩٦٨ للإصلاح السياسي، أو يلجأ إلى التفسيرات اللغوية في بعض الأحيان كتفسير كلمة "طاغية".

وعلى هذا نجد اختلافا بينا بين شخصية فتحي رضوان الثوري الذي تعددت علاقاته الجنسية منذ أن كان طالبا بالجامعة، وشخصية كاظم العاطفي الذي أحب سهر بجنون ولم يحب غيرها والذي يرى أن سهر لا تضع عطرا، بل هي رائحة السماء في جسدها، وأنها قمة الشهوة والاشتهاء.

غير أن عبد الناصر لا يفارق الجزء الخاص بكاظم الذي سأله أحد الضابط: أنت شيوعي يا ولد؟ فيرد كاظم: لا. فيقول له: تحب من؟ قال كاظم: جمال عبد الناصر. قال الضابط: من سيء لأسوأ خليك أحسن شيوعي يا ولد".

وكأن "قهوة سادة" تحاكم في بعض مفاصلها أو صفحاتها الزعيم جمال عبدالناصر والفترة الزمنية التي حكم فيها مصر وسعى للوحدة العربية الشاملة، وبدأها بوحدة مصر وسوريا، والتي فشلت فيما بعد، فتقوّض الحلم الناصري، ومن ذلك قول فتحي رضوان عن اختيار عبد الناصر للسادات ليكون نائبا له: عبدالناصر اختار أضعف واحد من رجال الثورة كان خادمه هو أنور السادات".

وفي موضع آخر نجد: "الله يسامحنا إن نسينا أو أخطأنا إلا عبد الناصر لا يسامح من أخطأ". وفي موضع ثالث نجد: "طلب عبدالناصر حكيم للعشاء معه .. ثم أرسل عبدالمنعم رياض ومحمد فوزي ليقتلاه بعيدا عن مرأى عبد الناصر (كما قال جمال ابن عبد الحكيم عامر في حديث له مع التلفزيون المصري). و"قدم عبدالناصر جثة عبدالحكيم للشعب كي يدفن غضبهم من النكسة في قبر المشير عبدالحكيم عامر".

أيضا يحدثنا فتحي رضوان عن كره أبيه لعبد الناصر بشدة بسبب طرده للأجانب وخاصة أصحابه، ويكشف لنا في أكثر من موقف عن كراهية أبيه لثورة يوليو ورجالها لأنها

خلعت محمد نجيب. كما يتساءل: كيف حدثت النكسة وهزيمة يونيو؟ من سيكتب عنها؟ وما هي الحقيقة؟ هل من جرئ يخبرنا؟ أين الجبرتي؟

وفي موضع آخر، يمثل إحدى عتبات الرواية الكثيرة يورد الكاتب قصيدة "الله يجازيك يا عم عبد الناصر" لعبدالرحمن الأبنودي، وبها نقد لاذع للزعيم يقول فيها الأبنودي:

الله يجازيك يا عم عبد الناصر

أما أنت خميت مصر دي خمة

يوم ما ناديت بالعشق للأمة

ورطتنا نعشق خريطة عبيطة

وبشر ما نعرفهاش.

وهذه العتبة تتواءم مع موقف الأب الذي ورثه الابن من شخصية جمال عبدالناصر.

وما أكثر عتبات الرواية التي يتوقف عندها الكاتب ابتداء من الإهداء لحفيدته كادي وابنه محمد ثائر "الثائر على أبيه فقط".

أما العتبة الثانية "أنسى أن النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح" فهي تتواءم مع "سهر" وعطرها الذي هو سر تميز شخصيتها. مرورا بعتبات أخرى سنشير إليها فيما بعد.

وبذكاء سردي شديد ينتقل الكاتب إلى الرواية الثالثة بتمهيد من الخالة "شهرزاد" التي أخبرت "سهر" بأنها تتقمص روح فتاة فرعونية اسمها "نفر"، لتبدأ "حكاية إخناتون مع نفر" في الصعود ولتحكي شهرزاد "قهوة سادة" متقمصة روح شهرزاد الأصلية فتقول: "كان يا ما كان في سالف العصر والأوان في العصر الفرعوني بنت اسمها نفر".

هنا يتصاعد سرد تاريخي جديد، وأجواء روائية جديدة، يهديها الكاتب – في عتبة جديدة - لأخيه الراحل "رمضان حافظ.. نفحة الروح إذا أظلم الكون"، بل يذكر في المتن على لسان فتحي رضوان لحبيبته ناهد: "اقرئي كتاب الفراعنة العرب للدكتور رمضان حافظ".

ويشعرنا الكاتب بوجود حبل سري بين سهر ونفر عن طريق تناسخ الأرواح، وانتقال العطر من نفر إلى سهر عبر نفق تاريخي وزمني طويل يصل بين مصر والشام. وهو ما تؤكده عبارة شهرزاد لـ "سهر": "تلك أول روح خلقها الله لك يا سهر".

وتتكرر عبارة العطر عند "نفر" كما رأيناها عند "سهر": "رائحة جسدها عطر من السماء لا يشبه أي عطر". هذا العطر الذي سيرفع نفر من عالم أسرتها الفقيرة إلى عالم القصور والمعابد والكهنة وصولا إلى إخناتون الذي يدعو إلى عبادة التوحيد فتتبعه نفر.

ويظهر الثائر فتحي رضوان مرات ومرات في الرواية الثالثة منتقدا أوضاع مصر وتاريخها مثل قوله: "معظم شوارع مصر بأسماء الخدم والخونة من تاريخها" أو "مصر تسمي أسماء الشوارع بأسماء القاتل والمقتول" مفسرا ذلك بقوله:

"في القاهرة في حي الزيتون، شارع باسم طومان باي البطل الذي قاوم الاحتلال العثماني، والشارع المقابل له باسم سليم الأول العثماني الذي قتل طومان باي .. في عقل مصر عقلين: عقل عظيم، وعقل عبيط".

في الجزء الثالث أو الرواية الثالثة نكاد ننسى كاظم إلا قليلا، بسبب الحضور الطاغي لقصة إخناتون والدراما المصاحبة لها، والحضور القوي لفتحي رضوان الذي ذهبنا من قبل إلى أنه الشخصية التي تعكس الكاتب نفسه، أو الجزء السيرذاتي في "قهوة سادة"، خاصة بعد أن نكتشف أنه يذكر أسماء شخصيات وأماكن بعينها كان لها حضورها في الواقع الثقافي، مثل قوله في شكواه لوزير الثقافة الدكتور ثروت عكاشة عام ١٩٦٩، وينعته بالوزير المثقف الصامت:

"بالإسكندرية قصران للثقافة الأول في شارع طريق الحرية يسمى قصر ثقافة الحرية القائم عليه اسمه محمد غنيم.. يمتاز بالثورة الكلامية ويرفض فكرة تكوين اتحاد كتاب الأقاليم التي يطالب بها بعض الكتاب وطردهم من القصر، وبها فرقة مسرحية مع مخرج هارب من القاهرة يدعى أنه يقدم مسرح الجيب".

أيضا هناك أشخاص آخرون كانوا موجودين في الحياة العامة في الإسكندرية يذكرهم الكاتب بأسمائهم الحقيقية مثل الأستاذ باسطة مدرس الأحياء في مدرسة الإسكندرية الثانوية التي تخرج فيها الكاتب، ويصفه بأنه شديد القسوة.

وعلى الرغم من معايشتنا للأحداث الفرعونية وأجواء التآمر على اخناتون الذي دعا إلى التوحيد، سواء من الكهنة أو زوجته نفرتيتي، فإننا نجد إسقاطات سياسية على العصر الراهن من خلال بعض البرديات التي يلجأ الكاتب لإثباتها. أو من خلال بعض العبارات التي وردت على لسان إخناتون مثل: أخاف على مصر من المؤامرات التي تحاك ضدها من كل صوب.

توسلت الرواية بالكثير من التقينات الفنية إلى جانب الإسقاطات السياسية، وهو ما جعلني أقول منذ البداية إننا إزاء فسيفساء روائية، استطاعت أن تستفيد من تقنيات المسرح (والكاتب في الأصل كاتب مسرحي متمكن له العديد من الأعمال المسرحية المهمة) ومن تقنيات السينما وخاصة تقنية المشاهد والتقطيع والمونتاج، ومن تقنيات الشعر، حيث يتوسل الكاتب بعبارات شعرية تجئ من خلال بطله كاظم (حبيب سهر)، أو من خلال المعلم باكا (الذي أحب نفر) في الجزء الخاص بإخناتون، وغيرهما.

كما توسلت الثلاثية بالكثير من العتبات الروائية، بل سنجد أكثر من عتبة في مطلع الفصل الواحد، وعلى سبيل المثال في مطلع العمل نرى عتبة الإهداء، ثم مقولة للكاتب نفسه ومنها: "يا أيها العابرون على ذكرى طفولتي ألقوا عليها الورد والابتسام"، ثم الآية ٨٥ من سورة الإسراء "ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، ثم مقولات متعددة للكاتب نفسه.

وعلى مدى العمل نرى عتبات لجبران خليل جبران، ونزار قباني، وميخائيل نعيمة، وأدونيس، ويوسف الخال، ومحمود درويش، وصلاح جاهين، وعبدالرحمن الأبنودي، وحافظ إبراهيم، وغيرهم، ومقولات للكاتب نفسه، إلى جانب عتبات قرآنية، وإنجيلية، ومقولات لإخناتون، بل أننا نجد عتبة لأحد أبطال الرواية وهو فتحي رضوان خليل.

ولاشك أن هذه العتبات تحتاج إلى دراسة فنية منفصلة نظرا لكثرتها، وتنوعها من ناحية، والأجواء التي تشيعها من ناحية أخرى، سواء الأجواء الروحانية أو السياسية.

ويبدو أننا على عتبات عمل روائي ضخم آخر يستكمل فيه الروائي السيد حافظ تلك الثلاثية الروائية التي اسمتعتنا بها في "قهوة سادة"، ولعل عمله القادم هو "نسكافيه" أو "كابيتشينو"!

بقعة دم على جدار التاريخ
بقلم د. أمجد ريان

قراءة فى "قهوة سادة"

ليس مطلوباً من الكاتب أن يقوم بالتنبؤ، ولكن الكثير من أعمال الأدباء لفرط اندماجها بروح الواقع، ولفرط صدقها، تصبح قادرة على التنبؤ بمراحل من مستقبل الوطن، فالكاتب ليس مطالباً بأن يتنبأ بما يمكن أن يحدث للوطن، ولكن المسألة قد تتوقف على اختيار الكاتب لموضوع عمله وشخصياته، وعلى منطق العلاقات التى تطرحها الدراما الروائية فى النص، مما قد يصل دون قصد متعمد إلى شىء من أحداث الغد، وكاتبنا "السيد حافظ" يطرح نصاً يعالج فيه الحس الشعبى الشامى فى المجتمع السورى، وكأنه كان يستشعر ما سيحدث لإخواننا فى سوريا، وبخاصة أن سوريا بلغت اليوم حدًا لا يطاق من العنف والقتل والدمار والمأساة الإنسانية بكافة أشكالها.

الجزء الأول من الرواية عنوانه: "سهر" الروح السابعة"، ثم يضع الكاتب عنوانًا أصغر هو "٥ يونيو ١٩٦٧"، ليذكرنا بهذه النكبة التى جسدها حدث الهزيمة الذى أثر على دول المواجهة تأثيراً عظيماً، وغير مجرى الحياة العربية، بعدما أحدثت النكسة صدمة هائلة للأمة ولملايينها التى لم تصدق ما حدث، وقد كانت هذه الحرب المعاصرة مدعاة لإثارة التساؤل والتأمل والدهشة، فقد انهارت منظومة كاملة من الدفاعات، والمعاهدات العسكرية المشتركة أمام دولة صغيرة الحجم كانوا يسمونها دويلة، دولة ذات طبيعة عدوانية منذ نشأتها، وسر الدهشة هو كيف لم تستعد دول المواجهة للدفاع عن أرض وطنها وكرامة شعبها، بالرغم من الخطب والأناشيد الحماسية الرنانة التى كانت تهدد

بإلقاء إسرائيل فى البحر!! وبالرغم من علو صوت شعارات من مثل : (يا أهلا بالمعارك)، وبعد أن أخذ الإعلام الحكومى يعلن من خلال الإذاعات والصحف عن إسقاط الطائرات الإسرائيلية، ويدلى بالبيانات الثورية، ولكن على الأرض كانت الكارثة التاريخية تتحقق بأسوأ صورها.

ثم ينقلنا الكاتب بعد عنوان "الخامس من يونيو" ليضعنا مباشرة فى الشطر الشامى من وطننا العربى، لذلك نستشعر كما لو كان هذا التاريخ للنكسة قادرًا على جمع الروح العربية فى كافة الأقطار، وكأن التفاصيل المحكية تنتمى لكافة الأقطار العربية معاً . ولا يستطيع العرب أن ينسوا هذه النكسة التى أثرت عليهم جميًعا، بعد أن شن العدو الصهيونى حرًبا عدوانيةً غاشمةً استهدفت ثلاثة من الأقطار العربية هى: مصر وسوريا والأردن، أطلق عليها وصف "الحرب الثالثة" لأنها كانت ثالثة الحروب بين العرب وإسرائيل، الأولى فى عام النكبة ١٩٤٨، والثانية فى أثناء العدوان الثلاثى فى عام ١٩٥٦ وقد جاءت الحرب فى اللحظة التى كانت الأمة العربية تعيش فيها أوج مجدها ومدها القومى، ليضرب الصهاينة وبعمق مشروع تحرير فلسطين.

وتبدأ السطور الأولى من الرواية بلحظة درامية ونفسية شديدة الوطأة، فالصبية الجميلة "سهر" ابنة إحدى القرى العربية الشامية، تعيش حياتها كما تعيش كل صبية فى أية قرية عربية، وفى ذات مرة، وعلى حين غرة، تكتشف بقعة دم حمراء فى ثوبها فتخاف وترتعد، فقد فوجئت الطفلة البريئة بالمسألة دون سابق إنذار، فوجئت ببقعة الدماء النازفة من مكان حساس، وهى ككل طفلة لا تمتلك أى سند معرفى، أو حتى مجرد تفسير، وهى متأكدة أنها لم تجرح، وقد تعتقد أن هذا النزف لابد له من سبب خطير، وأحياناً تصاب الطفلة فى المجتمع العربى بالهلع، أو تصرخ،وأحياناً يجبرها مكان النزف المحاط بالأسرار على أن تدفن مأساتها وتكتم فضولها وتنتظر المجهول، والأطفال بشكل عام يخافون من منظر الدم. وهناك الكثير من الممنوعات والمحظورات والتابوهات تخلقها الأسرة العربية حول البلوغ الجنسى لبناتهم، وهذا بالتأكيد سيدفع البنات نحو صراع

نفسى شديد ما بين الخوف والخجل، ويتم انتقال المسالة من جيل إلى جيل، فتستمر الأسرة العربية داخل المأساة نفسها دواليك، وهذه الطفلة ستمارس السلوك نفسه مع طفلتها فى المستقبل.

ولكن عندما جرت "سهر" إلى أمها مهرولة، قابلت الأم هذا الخوف بزغرودة عالية الرنين، فقد بلغت "سهر"، وأصبحت طفلتها ذات الاثنى عشر عامًا أنثى من الإناث اللائى يتفتحن مبكراً، وحالة الدراما الغنية فى هذا المشهد ناتجة عن هذا التضاد بين الخوف والرعدة من ناحية، والفرح والبهجة والزغاريد من ناحية أخرى.

وبلوغ الطفلة فى مجتمعاتنا العربية بشكل عام مسألة حساسة وخطيرة لأن البلوغ عملية ديناميكية مستمرة وليست وظيفة مؤقتة، ولا تزال الدورة الشهرية فى المجتمع العربى من التابوهات المرعبة، وقد اخترعت لها النساء أسماء غريبة، وإشارات تنتمى للريبة؛ ففى مرة تسمى الدورة برمز للمعنى المجهول وهو الحرف الأجنبى "X"، وفى مرة أخرى تسمى بلفظة إنجليزية **Period** بسبب الخجل والرغبة فى المداراة كما لو كانت شيئًا أقرب إلى العيب الذى يدعو إلى الخجل.

والمعنى السياسى ـ وكما هو واضح أمام القارئ ـ مندمج بقوة بهذا العمل، برؤاه الكلية الكبيرة ، وبتفاصيله الدرامية الصغيرة ، وقد شهد العصر الحديث هذه العلاقة القوية بين الإبداع الروائى والأيديولوجيا، وهى العلاقة التى أثرت الكتابة، وأكد هذا عدد من النقاد التقدميين الذين أعادوا تقدير قيمة الشكل فى العمل الروائى، وحريته فى تصور واقتناص طبيعة مجتمعه الخاص، ولا ننسى فى هذه الطريق كتابات: "تيرى إيجلتون"، و"ماشيرى"، و"لوى التوسير"، وغيرهم، وهم الذين اعتمدوا عناصر هامة استمرت فى الدراسات والنقد الأدبى حتى الآن من مثل: التناص والتاريخ والمجتمع، وتأثر هذه العناصر فى المراحل الحديثة بالمنطق الأيديولوجى.

ثم عرفنا بعد ذلك اتجاهات النقد السوسيولوجى الذى يعالج كافة الأبعاد الاجتماعية والسياسية والأخلاقية فى الرواية، وهى اتجاهات تؤكد تأثير الأدلجة على فنية الرواية

وتغذيتها لها، لأن حركة الفكر تحدث بالضرورة تأثيراً قوياً فى البناء الفنى، أو بلغة أخرى الحراك الفكرى يوجد دائًما حراكًا فنًيا موازًيا يطور التجربة، ويؤكد هويتها السياسية، وكل هذا صار يندرج داخل علم الاجتماع الأدبى على أيدى منظريه البارزين، ومنهم: "لوسيان جولدمان" و"روبيراسكاربيت" و"ببيير زيما".

والتوجه الأيديولوجى فى هذه الرواية ـ وكما سبقت الإشارة ـ يبدأ من دلالات العمل الروائى الكلية، وينتهى عند أصغر التفاصيل، وعلى سبيل المثال فالفتاة "سهر" تراقب أبيها وهو يبكى يومى ٨ و٩ يونيو، وهو يرى الزعيم "عبد الناصر" يتنحى، بعد أن قال كلماته التى لن ينساها التاريخ، من خلال بيانه إلى الشعب والأمة بإعلان التنحى عن رئاسة الجمهورية، وقد ألقاه من مبنى الإذاعة والتليفزيون بالقاهرة فى التاسع من شهر يونيو فى عام ١٩٦٧ وقد جاء فيه: [لقد اتخذت قراراً أريدكم جميعاً أن تساعدونى عليه: لقد قررت أن أتنحى تمامًا ونهائيًا عن أى منصب رسمى وأى دور سياسى، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدى واجبى معها كأى مواطن آخر] وكان "عبد الناصر" يعبر من خلال هذا عن تحمله المسئولية التاريخية عن الهزيمة، ولم يكن والد "سهر" فقط هو الذى تأثر بهذا التنحى، ولكن حدث رد فعل عنيف على بيان التنحى على المستويين المصرى والعربى، وقامت مظاهرات عارمة فى القاهرة يومى ٩، ١٠ يونيو تطالب باستمرار عبد الناصر فى الحكم، أما مجلس الأمة ومجلس الوزراء فقد رفضا قرار التنحى، فأصدر الرئيس عبد الناصر بيانًا آخر فى يوم ١٠ يونيو، جاء فيه : [إننى سوف أبقى حتى تنتهى الفترة التى نتمكن فيها جميعاً من أن نزيل آثار العدوان] .

وتضعنا هذه الرواية فى حالة من الرومانسية الثورية، وكان المصريون جميعاً ممتلئين بهذه الحالة، ومن المعروف تاريخياً أنه اذا فقد الثائر رومانسيته، تموت الثورة في صدور الرجال؛ فالثورة حالة عشق طوباوية جميلة يتّحد فيها الثائر مع فكرة الثورة بشكل عقلانى وعاطفى معًا، وتحب الثورة دائًما أن تطلق نفوس الثوار على سجيتها، والثائر يكون مندفًعا لتحقيق هدفه بعقله وبقلبه معًا.

وتعمل هذه الرواية على تقديم جوانب متعددة، بل ومتضادة أحيانًا، فى الوقت نفسه، لكى تؤكد هذه الروح الواقعية الحية، وكأن كل مقطع يقدم شريحة فعلية من الحياة، وأم "سهر" امرأة جميلة كما تقول الرواية، ولكنها منذ البداية، ومثل القاعدة الأعم للنساء العربيات تؤمن بالجانب الغيبى كأحد أساسيات الحياة التى تعيشها..ولم يكن غريباً إذن أن تذهب بابنتها إلى العرافة "شهرزاد"، وتقول لها: (البنت صارت أنثى)، فتزغرد "شهرزاد" وتنثر عليها بخورًا به "حبهان" و"عين الشيطان" محروقان فى النار.. وعلى الرغم من تطور الأساليب الطبية المتقدمة تكنولوجيًا والأجهزة العلاجية الحديثة، إلا انه مازال هناك وجود للطب الشعبى وطرائقه العلاجية، ليس بسبب نجاعة الطب الشعبى، أو بسبب فائدته العلاجية الفعلية، ولكن الأمر متعلق بجوانب دينية وثقافية، وبجوانب اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فى الوقت نفسه. والممارسات الشعبية تكشف دائمًا عن تلك القوى الروحية الكامنة، والتى يمكن أن تتجسد أيضًا فى الغيبيات السردية بين العوام، وفى قصص البطولات والملاحم الشعبية، ويتجسد فى ذلك السلوك الجمعى الذى يرتضيه الناس استجابة لظروفهم الحياتية ومتطلباتهم وحاجاتهم، مما يمكن أن نراه فى الاحتفال بالأولياء وبالموالد، وفى كل العادات الشعبية المرتبطة بدورة حياة الفرد من خلال الممارسات الحياتية المتعلقة بالوجود، منذ الميلاد حتى الزواج، ثم الموت.

وبعد أن تمر الأيام والشهور والسنوات، تكبر "سهر" لتنتقل من مرحلة الصبا إلى مرحلة الشباب المبكر، فقد صارت فى الخامسة عشرة من عمرها، ولأن هذا العمر هو عمر يفيض بالرومانسية، فهى تستيقظ فى فراشها، وتتجه إلى النافذة مباشرة، وتفتحها فتجد عصفوراً يرتعش، فتمسكه وتحتضنه فينتفض نهدها، وتدخل العصفور إلى صدرها ليتدفأ فى مشهد رومانسى خالص تتعمده الرواية لكى تثرى الروح الواقعية التى تريد أن تتضمن كل لحظات حياتنا الفعلية، وحياتنا الفعلية بالضرورة لابد أن تتضمن هذه الأوقات التى تنتعش فيها الرومانسية، لأنها أحد مطالب الإنسان الأساسية، وبخاصة في مرحلة البلوغ والمراهقة.

لقد كبرت "سهر"، وفى كل صباح كانت تطالع وجهها الفاتن بشكل مبهر فى المرآة.. لقد زاد جمالها، حتى لو أن فتنتها وزعت على كل النساء العابرات فسوف يفتتن رجال العالم العابرين.. إنها فتاة نشطة محبة للحياة، تمارس حياتها اليومية بحماسة بالغة، ففى أقل من نصف الساعة بعد استيقاظها وتركها الفراش، تكون قد أنهت كل المهام التى تنتظرها، تكون قد أنهت غسيل وجهها، وإطعام الدجاج والبغل والحصان، وألقت بعض الغلات للعصافير والحمام واليمام، ثم تتجه إلى المدرسة.. ص١٩ .

والرومانتيكية بالطبع جزء لا يتجزأ من صميم حياتنا الفعلية، ليس فى مرحلة المراهقة فقط، بل على امتداد الحياة كلها، وكل إنسان سيجد أن حياته ليست سوى مزيج من لحظات متعددة، أو أبعاد متعددة، والرومانسية الخالصة هى واحدة منها بالتأكيد، والحياة جماع للحظات متباينة وجوانب مختلفة بين البعد الرومانسى، والبعد العملى، والبعد الروحانى، والبعد المادى، وهكذا.. والتنوع فلسفة الحياة التى تعبر عن الانفتاح على كل شىء، والتفاعل مع كل شىء لتحقيق جدلية ذات طبيعة شديدة الخصوصية، ومسألة التنوع تطرح ثراء التفكير، وثراء الأحداث، وتلغى أساليب الفهم البالية التى توحد بين معطيات الوجود توحيدًا تعسفيًا مثاليًا، يفقد الإنسان قدرته على الفهم، ولكن فلسفة التنوع عميقة تتأسس على دعائم إبستمولوجية جديدة، وتنتج معقولية واقعية تتناسب مع ما يدور حولنا فى الحياة اليوم، وترفض الفكر الأحادى المبطن بأشكال مختلفة من القهر، وفى النهاية سيكون هناك فهم جديد للتعامل مع الواقع ومع المعطيات العلمية المعاصرة.

ثم تمعن الرواية فى الحس الرومانتيكى عندما تقدم "سهر"بعدِّ ها نموذجًا للجمال الساحر الذى يسيطر على كل شىء من حوله

("سهر" اسم يعرفه الليل والبحر والشجر وأحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين والمحلات فى الجبل فى بلاد الشام ص١٥)

ونلاحظ هنا بقوة ملمحًا رومانتيكيًا أصيلًا ناتجًا عن مزج معطيات الطبيعة: (الليل، البحر، الشجر) بالمعطيات الآدمية: (أحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين)، والمزج بين الطبيعة والإنسان كان الملمح الأساسى لكل رومانسية عرفها الفكر الجمالى فى كل مكان.

وتستطيع "سهر" أن تسيطر على قلوب الرجال ببساطة ويسر بسبب حسنها وجمالها الفياض، لأن صباها وأنوثتها ورقتها ترسل بإشارات كهرومغناطيسية مفرحة لا تتوقف، إشارات إلى كل الاتجاهات. يقول أحد الأثرياء فى المنطقة التى تسكن بها "سهر": (أقسم بالله أنا على استعداد أن أدفع وزنها ذهبًا . ص ١٦) .

ونموذج الأنثى الجميلة ساحرة القلوب معروف فى مجتمعاتنا العربية، فالأنثى تظل تمتلك الجاذبية والجمال والغموض والقوة بهدوئها ووداعتها أحياناً، وبحيويتها وحركتها فى أحيان أخرى. ولكن دائماً يظل للأنثى ذلك السحر الخفى، وذلك الحضور القوى بجاذبيتها وعاطفتها التى تحمل كل هذه القدرة على التأثير.

ولكن العرّافة "شهرزاد" كان لها رأى آخر فى مجال تقييم جمال "سهر"، فقد قالت أنها ستسافر إلى بلاد النفط، وسوف تتزوج من رجل ثرى، وهناك ستفتح لها المدن ألف نافذة نور لكى تتمرغ فى الذهب، وأبوها صار ينتظر هذا الفارس القادم لترحل معه "سهر" على سفينته، وقالت العرافة أيضاً أن علم السفينة التى ستحمل "سهر" إلى خارج البلاد سيكون شمسًا وقمرًا. ليس هذا فحسب، بل ضربت "شهرزاد" حصارًا على "سهر"، فهى تريد أن تمتلك جمالها، وتفرض عليه وصايتها، وهى لا تريد لرجل أن يقترب منها، وما أن تعلم أن رجلًا من الحى، أو من القرى أو المدن القريبة قد تجرأ وطلب يدها، حتى تهجم عليه، فتقرأ كفيه، وتقول له محذرة:

"لا تقترب من "سهر"، فهى عشيقة القمر، ومن يتزوجها يصاب بالعمى (ص١٩).. وكان الكثيرون يصدقونها ويهربون!

لقد ظل العرافون . ومازالوا بنسبة كبيرة . جزءًا لا يتجزأ من تكوين مجتمعاتنا العربية. ولا يزال البسطاء والشعبيون والفقراء يحتمون بالعرافات وقارئات الكف والطالع، كما لو كان ذلك يمثل إنقاذًا لهم بسبب ظروفهم الاقتصادية الصعبة، والمسألة ليست وليدة التو واللحظة بل القضية أبعد من ذلك بكثير، وجذورها يمكن أن تعود للعصور السحيقة، حينما كان الناس فى العصر الجاهلى يضربون السهام ويقدمون النذور للآلهة كى تغير ظروفهم وتعدل مسارات حياتهم، بل ويمكننا أن نصل إلى مراحل أبعد فى القدم منذ بداية البشرية.

وقضية الرجوع للعرافين تتصف بها كل شعوب العالم وليست حكرًا على منطقة أو مجتمع بعينه. ولعل العوامل الاقتصادية بالإضافة إلى عوامل أخرى من مثل عجز الطب العصرى عن علاج كثير من الأمراض، وبسبب ارتفاع الأسعار وعدم قدرة الفقراء على الاستفادة منه، قد أوجد كل ذلك، وغيره، فرصة كبيرة لانتعاش الغيبيات بكل أنواعها، وارتدت المجتمعات العربية إلى ما وراء الحقائق المنظورة، وإلى عالم الجن والقوى الخرافية، حتى صار البسطاء يستسلمون لتأثيراتها، بحثاً عن النجاة فى عالم قاس لا يرحم.

و"شهرزاد" العرافة الحسناء، بيضاء وعيناها زرقاوان، وعلى ذقنها وشم أخضر، وهى نموذج للعرافة المتمكنة من قلوب النساء، ولها مكان رئيسى فى حياتهن.. والثقافة العربية بشكل عام لم تغب عنها القضايا الغيبية طوال التاريخ، وتربط "شهرزاد" بين مجالات تنبؤاتها من ناحية، وبين الجنس وفنون العشق والغرام من ناحية أخرى، وهى خبيرة خبرة موسوعية بالأوضاع وبالأسرار وبالخصوصيات، يلتف حولها النساء ويشتكين ضعف أزواجهن فى الجسد والغرام، وهى تستمع لهن، وتطمئنهن، وتريحهن، وتخبرهن بالعلاج، بل وتتوسع فى قضايا الإنجاب، فتخبرهن كيف ينجبن الذكور دون الإناث. وهى لفرط معارفها تظل تحكى عن أسماء النكاح وأساليبه وأوقاته، فتجذبهن وتذهلهن بثقافتها الحسية، وهى قد ورثت عن أبيها مكتبة كبيرة تحوى كتب الشيخ الإمام "جلال الدين السيوطى"، وكتاب "ابن حزم" طوق الحمامة فى فن النكاح، وغيرها.. وهكذا خلبت

"شهرزاد" لب النساء، وشغلتهم كثيراً، فظللن يتحدثن عنها بلا انقطاع، فقلن عنها: قديسة، وقلن: لعوبًا، وقلن: تزوجت من ألف رجل.. وقلن تزوجها جنى جميل، ومنع كل الرجال عنها، فهى عرافة الجن، يمدها عشيقها الجنى بالسر.. وبأسرار كل البشر. ص١٨ وقلن، وقلن، وقلن، والناس دوماً تقول. البشر يحبون إطلاق الأقاويل، بل ويميل الإنسان إلى نقل الإشاعات والأخبار الغامضة، كما لو كان يعبر بهذا عن حبه لاستقصاء المجهول، وكشف الأسرار، مستمتعًا بنقل الأخبار الغامضة، ومن هنا سيكون تقبل الشائعات ونشرها، وخصوصًا تلك التى تغطى المناطق التى يجهلها البشر، أو تلك التى يمكن أن تحدث دوياً، لتشبع رغبته فى خلق الدراما.. وبهذا احتلت الشائعة منذ القدم حيزًا مهمًا من أنشطة المجتمعات البشرية. وصارت القضية الآن علمًا يتتبع كيف تنشأ الشائعة وتتغذّى، وما هى أنواعها، وعلاقتها بتطلعات الناس الاجتماعية والإنسانية، وخصوصاً ما يتعلق بأحلامهم واحتياجاتهم ومصيرهم.

***

ومن جهة أخرى . ومن الباب السياسى الذى تمعن فيه الرواية . يمكن عد "سهر " رمزًا للوحدة المصرية السورية، فقد ولدت فى فبراير من عام ١٩٥٨ يوم ١٢ رجب ١٣٧٧، وهو اليوم الذى تم فيه الاتفاق على الوحدة بين مصر وسوريا، وهى الوحدة التى وصفت بأنها ما يغلبها غلاب، على حد قول أغنية شهيرة أذيعت فى هذا التوقيت بعد الوحدة مباشرة، بعد أن أصبح لمصر وسوريا اسم جديد هو "الجمهورية العربية المتحدة" ليصبح "جمال عبد الناصر" زعيم الدولة الجديدة المكونة من البلدين، وقد أطلق حينها على "شكرى القوتلى" لقب "المواطن العربى الأول"، ورغم أن الرئيس "جمال عبد الناصر" كان يريد اتحادًا لا يقوم على الدمج، ولكن ظروف سوريا، واضطراب الأوضاع فيها بسبب السياسات التسلطية التى كان السوريون يعيشون فيها، جعل الشعب العادى يريد التخلص من هذه السياسات عن طريق الاندماج مع مصر، وأصبح اسم البلدين "الجمهورية العربية المتحدة"، والقاهرة صارت العاصمة.

وكانت مصر قد خرجت بانتصار سياسى فى عام ١٩٥٦ بعد فشل العدوان الثلاثى عليها، وهنا بدأت مخططات جديدة بهدف تحقيق ما عجز السلاح عن فرضه، وأصبحت منطقة الشرق الأوسط محور صراع سياسى شديد الضراوة بين الغرب وقوى التحرر العربية، على امتداد مرحلة المد التحررى العربى الذى ساندته مصر بكل قواها فى اليمن، وفى الخليج، وفى جنوب شبه الجزيرة العربية. وعلى حد قول "هدى عبد الناصر"، فإنه بالرغم من استمرار قطع العلاقات الدبلوماسية بين مصر وبريطانيا منذ العدوان الثلاثى فى 1956 فإن الوثائق البريطانية تحتوى على معلومات مهمة توضح اهتمام بريطانيا، والغرب عمومًا، بتتبع عملية الوحدة بين مصر وسوريا، مما يبين مدى خطورتها على المصالح البريطانية والغربية فى منطقة الشرق الأوسط، وأخطر ما فى هذه الوثائق البريطانية المتعلقة بالوحدة المصرية السورية: التفاصيل التى ذكرت عن مخططات الدول الغربية، لمنع انضمام أى من الدول العربية الأخرى إلى دولة الوحدة.

وإذا تتبعنا وقع أحداث الوحدة بين "مصر" و"سوريا" على أسرة "سهر"، سنجد أن أباها سيفرح فرحًا بالغًا فى لحظات قيام الوحدة، ثم سيتأثر تأثرًا شديدًا أيضًا بعد ذلك، حين يحدث الانفصال، حتى أنه سيبكى مثل الأطفال!! وكان الانفصال قد وقع فى ٢٨ سبتمبر ١٩٦١م، بتدبير عسكرى قام به عدد من ضباط الجيش السورى بدعم بريطانى سرى، فانفصمت عُرى الوحدة، وقوبلت المسألة بالطبع بارتياح بالغ من قبل بريطانيا والدول الغربية، بعد أن أجهضت واحدة من أهم التجارب السياسية العربية فى العصر الحديث.

ثم تعرفنا الرواية بشخصية "كاظم" وهو معلم "سهر" فى المدرسة، وعاشقها الرومانتيكى المهذب الوسيم، الولهان، لم يتجاوز عامه الثلاثين، يحب كل الصباحات لأنه يرى فيها حبيبته "سهر"، وهو يريد أن يتنفس وجودها فى الفصل، وفى المدرسة، وفى الحى، وفى القرية التى يعيشان فيها، بل وفى الكون كله. وعقل الإنسان العربى يعج بالمعانى الأسطورية عن الحب، حيث المحبوب مرسوم بمفردات من الطبيعة كالقمر والبحر والورد والسماء والشمس والفراشات والطيور والمطر، وهى عبارة عن صور تركز على جمال

الحبيب، حتى أن الحبيبين يبذلان مجهودًا كبيرًا فيما بعد لإعادة الحب من السماء إلى الأرض، أو إعادة الحب من المثالية إلى الواقعية.. ومن المعروف فى المجتمع العربى أن الرجل ضعيف عاطفيًا أمام المرأة، يتغير كثيرًا حين يجلس معها، أو يكون محط نظرها، فيبالغ فى مجاملتها، أو يسعى للفت انتباهها، وغالباً ما يعشق الرجل كل امرأة تهتم به، أو تكون قريبة منه مكانيًا، أو علائقيًا.. وتدرك المرأة دائمًا أن الرجل الذى يحبها لا يتوقف عن الاهتمام بها والغيرة عليها وملاحقتها، وتقديمه كل أشكال المودة لها.. كما يظل للجانب الجنسى سطوة خفية، وهكذا يصبح للحب وجهان فى المجتمع العربى: جانب مثالى معلن، وجانب حسى خفى.. ويعيش المحبون والعشاق هذه الازدواجية القدرية التى يضطرون إليها فى ظروف واقعنا.

وتقدم الرواية هذه السطور العاطفية التى تفيض بالرومانتيكية النقية، وهى مشاعر "كاظم" تجاه تلميذته "سهر":

[لا تتركينى بين ظنونى القاتلة.. أنا قلبى عصفور يطرب كل الطيور ولكن اللحن من قلبك أنت وروحك أنت وعطرك أنت.. وغيابك موت بطىء ص٢١] .

وعلى الرغم من إغراءات أبى "كاظم" المستمرة لكى يترك ابنه هذه القرية، ويترك وظيفة التدريس، ويرحل إلى العاصمة حيث جهز له أبوه عروساً جميلة، هى ابنة العم، ولكنه يرفض لأن قلبه قد تعلق بـ "سهر"، ولا يستطيع أن يتركها، فقد غرق فى حبها. وعندما تكون كراستها فى التعبير الإنشائى أمامه يحس أنها توشوش له بحكايا ليلها، ويرى الفراشات والأزهار المرسومة على الكراسة كأنها رسالة حب بلا عنوان، إنه يحبها حبًا عنيفًا يجعله يراجع قضية الحب بين الرجل والمرأة، ويقرأ الكتب التى تشرح قضايا الحب والجنس: يقرأ "كولن ولسون"، و"فرويد"، ويطالع الدراسات العربية والغربية. ويبدو أن "سهر" أيضاً بدأت تميل لمعلمها، وتبادله حبًا بحب، وبخاصة بعد وصايا العرافة "شهرزاد" التى أشعلت قلبها وجسدها بنار الحب، وبدأت تعلمها فنون العشق وتقدم لها الوصايا:

[إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار.. وهواء بحر عشقك نار فى روح الرجال.. اجعلى قلوبهم تطير وتصعد حتى سابع سماء.. عشقك سيهزم الرجال.. وهوى قلبك لن يعرف هزيمة. ص٢٧]

وهكذا ظلت توصيها، وتحذرها من الرجال الذئاب من مثل المختار "بسام" زير النساء، وظلت تقدم لها نصائحها الغالية الصادقة، لأنها أحبتها من قلبها، ولأن جمالها الأخاذ يذكرها بشبابها، وبسحرها الذى كان يشد قلوب الرجال.

وهكذا تعبر القصة الغرامية عن حب عاطفى كبير، يدفع "كاظم" ليس لمراجعة العلاقة بين الرجل والمرأة فقط، بل يراجع قضايا الوجود، والفكر والصراع العربى الإسرائيلى!!، ويتأمل الحكومات العربية وكيف أنها نجحت فى جعل المواطن العربى يكره وطنه، ويبحث عن وطن آخر، فيتذكر قول الإمام "على" رضى الله عنه: [الفقر فى الوطن غربة]، ويتأمل "كاظم" فى النهاية وضعه، بعد أن بعثر أحلامه بالوطن، وسجن نفسه بين الفصول، وبين عقول التلاميذ، وأصبح مثل السجين، وبعد أن صار ضائعاً، ورغم أنه معارض للنظام لكنه لا يستطيع أن يفتح فمه، أو يعبر عن كونه معارضًا، وهذا بالفعل حال المواطن العربى البسيط، المواطن المأزوم الذى تعصف به السلطة، وكأن الرواية تمكنت من أن تتنبأ بما سيحدث فى القطر السورى الشقيق، الذى يتعرض فيه البسطاء اليوم لأبشع أشكال العصف والقتل والتشريد.

المصادر:

السيد حافظ ـ قهوة سادة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ٢٠١٢

أمجد ريان ـ صوت صارخ فى الشوارع (قراءة فى أعمال إدوار الخراط) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨ ـ

بسام بركة ـ النص الروائى: المعنى وتوليد المعانى.. الفكر العربي المعاصر العدد ٤٢ تشرين الثاني/كانون الأول ١٩٨٦ ـ

تيرى إيجلتون . النقد والأيديولوجية . ترجمة وتحقيق فخرى صالح . المؤسسة العربية للدراسات والنشر . بيروت ١٩٩٢

حميد لحمدانى . القول الروائى . المركز الثقافي العربي للطباعة والنشر . بيروت . ٢٠١١.

بنية النص السردى (من منظور النقد الأدبى) المركز الثقافى العربى للطباعة والنشر، بيروت . ط٠٣ . ٢٠٠٠.

فاروق خورشيد . عالم الأدب الشعبى العجيب . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧.

محسن جاسم الموسوى . رواية النص، خطاباً نقدياً فى الكتابة العربية المعاصرة . ضمن الإبداع الروائى اليوم . مؤلف جماعى . دار الحوار للنشر والتوزيع سوريا . ١٩٩٤ .

مراد عبد الرحمن مبروك . آليات السرد فى الرواية العربية المعاصرة . الهيئة العامة لقصور الثقافة . سلسلة كتابات نقدية (١٠٠) .

هدى جمال عبد الناصر . الوحدة بين مصر وسوريا . موقع النهى:

http://alnoha.com/mu8alat13.htm

"قهوة سادة" للسيد حافظ
من سلطة العنوان إلى حكايا شهرزاد
بقلم د. جميلة رحماني

المملكة المغربية

في البدء كانت الحكاية

ظل حبر الروائي السيد حافظ – الذي تنوع قطافه الإبداعي بين الرواية والمسرح- يخفق شغبا بانيا لجوهر الجمال الناطق والحقيقي، سخِيا في طرح القضايا الساخنة؛ يطرقُ بابَ التمرد على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية، مشعلا فتيل ضياء السرد. كاتب مشهود له بجرأته وشجاعته المعرفية والثقافية، يعلن موقفه دون مواربة أو خفاء وهو يحدثنا عن كوة ضوء، عبر احتراف هتك الحجب واستنطاق المساحات المسكوت عنها، وكشف المعاني الإنسانية الثاوية في أعماقها. يصيخ السمع لنبضات نصوصه بغية الوصول إلى عمق بوح إنساني قائم على تنوع كوني وشمولي، ممتد إلى تطلعات الإنسانية الرحبة التواقة إلى باحة سلم وقت انبلاج فجر الحرية.

***

يسألونك عن "قهوة سادة" قل هي:

رواية مصنوعة بذكاء، تحمل بين طياتها حبكة مثيرة ومشوقة. أصر السيد حافظ بإصدارها ضخ دماء جديدة في صلب الكتابة السردية، محاولا تشييد جسور إبداع رجل في جعبته ما يبشر بمستقبل سردي به عمق، وروح، وحياة. فعندما تكون الحروف تائهة على الشفاه، فيعقد معها الكلام؛ ينبثق السرد ويتغلغل الدفْء إلى الأعماق؛ ليتسرب من ثقوب الأيام مزيج من عطر الحكايا.

رواية وأنت تقرأها تطالعك باقات نرجسية فواحة من خلجات النفس والروح والذاكرة؛ ونبض الوجدان، يعطر أريجها دنيا الحب الصوفي. حاملة في ثناياها الشعور الوطني المدثر برداء المعاناة، والمزمل بوشاح الاغتراب، المستعر بلظى نار الألم. حتى أضحت صرخة في وجه الظلم والفقد، حيث حاول الروائي السيد حافظ رسم بدقة معاناة الشعب المصري والإنسان العربي ليكتسب حيويته، فيساعد نهر السرد على شق مجراه. مخترقا التراث اختراقا معرفيا، ومستنطقا إياه استنطاقا فنيا. متكئا في ذلك على التراث والتاريخ والأسطورة. وهو ما أشار إليه في روايته بقوله: "أحبت سهر الجغرافيا والتاريخ.. ذاكرة التاريخ تغذيها بالوهج والخيال"[١]. استلهم التاريخ ليشيد فوقه معمارا من خياله الوثاب، فتمتد معها مخيلته لصوغ التاريخ صياغة جديدة لتمنحه قراءة جديدة بل حياة جديدة. ومنح هذا التضافر بينهما – أي بين الخيال والتاريخ- الرواية حيوية ونبضا وحرارة. كما كان بارعا في توظيفه أسطورة شهرزاد اقتباسا وتضمينا؛ دون أن يُخلّ ذلك بإيقاع سرده ولا بنبض كلماته أو بصمات تعبيره، وهي ميزة المتمرسين بالكتابة الراسخين في الإبداع. وهو عنوان ثراء مخزون الأدبي الكاتب وغناه، الذي تمثّله واستوْعبه، ثم أجراه متدفقا منسابا عصيا على التقليد.

***

هل أتاك حديث السيد حافظ المسرحي والروائي

الذي ظل لعقود طويلة يبحث عن دائرة ضوء يخرجه من ظلمة العتمة الذي دثرته لفترة طويلة. ليتحوّل السرد على لسانه، وتحت قلمه، إلى أداة بوح يلملم جراحاته فيصوغها في قالب حكائي يروي عبره عنف المتناقضات داخل مجتمعه؛ فأضحى والسرد متلازمين كالظل منذ بدء الحكاية إلى سدرةِ منتهاها. يقول السيد حافظ:" اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء ألقيت أشواقي على أحرف اسمك يا وطني.. فتحولت على الورق إلى

---

[١] ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦.

ثلاث زهرات ذابلة"[١]. فاقتراف فعل الكتابة هو فعل إثبات الذات والوجود، وتفجير منابع الإبداع ليجري نهرا من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظمأ وجودها. وتعبير لصيق بالحياة، ورفض معلن للتبدد والإقصاء. يقول السيد حافظ: "وأبعث في الكلمات ورد الحياة"[٢].

فلا مناص من أن الكتابة لم تعد عنده سردا للتسلية بل هي اختراق لعقل الإنسان، وسحبه من غيابات جب الواقع، ودفعه للاندماج بالنص، لأن: "الروائي كالشاعر يعذبه وعي حاد بالواقع، وإدراك مرير لتناقضاته المخيفة، لذلك ليست الكتابة بالنسبة له مجرد اشتراك مع اللغة أو مغامرة بريئة مع شطحاتها الصافية، بل كانت صورة لوعيه المعذب، وتجسيد لمواقفه الفاعلة في الحياة، مراجعة ضغوطها"[٣]. إنها صرخة موجعة ومدوية نكاد نسمعها على جدار الرواية؛ للكشف عما يمور في النفس الانسانية من معاناة، وألم، وقلق، وخوف. ما يؤكده قوله: "أحب البحث عن المجانين في الكتابة لأشبع عطشي للمستحيل"[٤]. فعلى طاولة الزمن الجريح ثمة حكايات تستنشق عبق الأمل؛ وهي تبحث عن فسحة من التفاؤل عبر نافذة الحلم المؤجل، يقول السارد:

"كلما حاصرني حب الوطن بنيرانه.. وأسهم حقده.. وحاول قتلي.. هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جروحي. قررت أن أكتب مذكرات شاب في العشرين رواية.. ولم لا"[٥].

يخرج الروائي كلماته ليبعثرها فوق بياض صفحات حياته، وهو يداعب حرف السرد الذي جمع الكل حوله كأم رؤوم توزع حنانها على كل من سوّل له قلمه أن يدخل غمارها، لتأخذه في حضنها الدافئ كأنها تريد أن تعيده طفولته الأولى وهو متأبط أحلامه وآماله.

---

(١) ـ المرجع نفسه، ص ٣٥.

(٢) ـ المرجع نفسه، ص ٤٦.

(٣) - الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، دار الشروق، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص: ١٣٢.

(٤) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٩١.

(٥) ـ المرجع نفسه، ص ٤٦.

وما إن صار على بعد حضن دفعته إلى تقمص شخصيات مختلفة، ومعايشة أحداث متعددة في لحظة واحدة. فيلقى ما بيمينه ليعبر عن درامية اللحظة وقساوتها؛ فلا "بديل للكتابة إلا الكتابة"[١]. ففي حضرتها يصمت اللسان؛ ويطلق للقلم العنان ليعبر عن خفايا النفس ومكنوناتها، فتهب نسمات الكتابة محملة برائحة حروف رقيقة اقتلعت من أرض الواقع. يقول:

"وجدتني بلا حيلة أمام نور الكلمة وأمام ورقة بيضاء"[٢].

فعندما يختلط حبر السيد حافظ السردي بمشاعره وإحساساته، تنهمر شلالات من البوح والرغبات المتصاعدة في ترسيخ الحضور. ووسيلة لتحرير أحاسيسه؛ والتعبير عن أحزانه وأفراحه، وعن عاطفته المتأججة وعنفوانه المعطّر بمعاني الحب. يقول السارد:

"لمن أكتب؟ لمن؟ أكتب لك أنت.. يا من تراني بقلب الأولياء والشعراء والزاهدين والمترفين بنور العشق وللعشق يقين"[٣].

فالكتابة عنده بمثابة الرئة التي يتنفس بها، والهواء الذي يتنسم منه. فهي التي ستعوضه بعض ما ضاع منه قهرا؛ ولم يستطع حينها إداركه، يقول:

"يا ناهد الكتابة تعوض لي بعض أيام من عمري الذي سرقه الوطن مني"[٤].

***

جمالية العتبات وشعرية العنوان

شكلت العتبات النصية حقلا معرفيا قائما بذاته باعتباره مكنونا جوهريا؛ فهي: "ذات سياقات توظيفية، تاريخية ونصية، ووظائف تأليفية تختزل قسما من منطق الكتابة"[٥]. بفضلها يصبح من السهل على القارئ الولوج إلى عوالم النصوص وفهم معانيها، وأهم

---

[١] - المرجع نفسه، ص ٣٨٣.

[٢] - المرجع نفسه، ص ١٠٩.

[٣] - المرجع نفسه، ص ٢١١.

[٤] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٣٦.

[٥] - أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، منشورات الجمل، ص ١٥

هذه العتبات "العنوان" فبواسطته تنكشف المعاني؛ وتتوضح الأفكار؛ ويتلاشى كل غموض. وهو بمثابة المفتاح الإجرائي المساعد على اقتحام أغوار النص؛ وفتح مغاليقه ومجاهيله؛ واستقراء جل أفكاره الخفية، ومدى "ارتباط بنيته ومحدداته الذاتية بشروط السياق الثقافي والاجتماعي الذي أنتجه"[١].

"قهوة سادة" عنوان وَسَمَ به الروائي السيد حافظ روايته، وهو عبارة عن بنية مختزلة، شديدة الاقتصاد لغويا، حيث يلعب هذا الإيجاز في بنية العنوان اللغوية دوره في اختزاله للنص مبنى ومعنى، فإن ما تم تكثيفه وتركيزه سيتم توسيعه وتفصيله في النص الأكبر. وبذلك سيفتح العنوان أفقا توقعيا لدى المتلقي فتتكون لديه فرضيات، إذ لن يدخل فضاء القراءة صفحة بيضاء، وإنما لديه خبرة قبلا. فيصير ثريا ذات إشراق دائم في مساحات المتن. لأن اختيار السيد حافظ لعنوان روايته لم يكن اعتباطيا، بل اعتمده على رؤية فكرية ومرجعية.

"قهوة سادة" عنوان عبارة عن جملة اسمية دالة على ثبات الانتعاش الذي يصاحب شرب القهوة وديمومته. جملة اسمية ذات طابع وصفي إنشائي؛ يغيب عنها الفعل كبنية دالة على شرط الزمان. ومن ثم الإمساك بجوهر المدلول؛ دون العَرَضِ الذي يشي به الفعل. عنوان يلبس دثار القوة، لأن الروائي بحار يجيد اقتناص المعاني وامتلاك الخطاب. بحيث ستصبح "قهوة سادة" محور الكلام السردي؛ وقطب الرّحى في عملية الإبداع اللفظي. وأمارة قوية وعلامة ثابتة على نهل السيد حافظ من نكهتها؛ لينسج رواية حلوة المذاق عصية على النسيان.

فلا ريب من أن القهوة قد احتلت مكانة بارزة في وجدان البشرية كلها؛ ومكانة روحية مهمة في الحياة الاجتماعية والثقافية للإنسان العربي، وهي شراب شعبي لكل فئات المجتمع؛ وشراب أولياء الله الصالحين حيث اقترنت بجلساتهم وحلقات الذكر، وهي أول

---

(١) ـ عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، الناشر مقاربات، ص ٣٢.

ما يستفتح الإنسان به تباشير يوم جديد من الشراب. يقول السارد: "الصباح بدون القهوة خطر"[1]. كما كانت جلسات الحكي لا تحلو إلا في حضرة القهوة:

"قالت شهرزاد وهي تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفىء ركوة النار: الآن اذهبي إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب.

قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر."[2]

فالقهوة والحكي متلازمان لا ينفصلان عن بعضهما؛ لأن الانتشاء بمذاق القهوة يجعل الحكايا تنساب ماءً زلالا، فلا يمل سامعها بل يقول هل من مزيد. وقد ينتشي شاربها حدَّ السكر ولعا بمذاقها المميز يقول: "القهوة قبلات للروح كي تنهض"[3]. مشروب ينبه العقل ويوقظ الروح، إنها ثنائية العلاقة بين القهوة والوجدان، بمثابة الحبل السري الذي يربط القهوة بالعشق، حتى أضحى الحديث عن أحدهما هو استدعاء للآخر. يقول "اشتاق لشرب قهوة سادة معك وارتشاف قبلة مع كل رشفة"[4]. فثمة علاقة ذاتية ذات ارتباط خاص ينبع من حنين نوستالجي للعودة لسحر جنة العشق ودهشتها؛ حاضرة في وعي شاربها وفي وجدانه، وتوازٍ بين اللهفة لشرب قهوة وبين الارتماء في حضن أنثى يقول السارد:

"آه في البرد أحتاج إلى قهوة سادة.. وإلى حضن أنثى وإلى سيجارة وإلى وردة وإلى لحم طري يغطيني يدفئني ينسيني أنثى ليس لها مكان إلا في جنة عشقي ولا يعرف قدرها إلا ملك على قلوب النساء مثلي أحتاج أنثاي في البرد والقهوة السادة قبل وبعد المضاجعة"[5].

---

(1) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦٦.

(2) - المرجع نفسه، ٢٥٦.

(3) - المرجع نفسه، ص ٢٦٦.

(4)- المرجع نفسه، ص ٩٩.

(5) - المرجع نفسه، ص ١٠٦.

تأكيد كثافة الحالة الشعورية الطاغية؛ والنزوع لاختراق حدود المسافة بين شرب القهوة واللذة بحثا عما يبقي هذه العلاقة على قيد الاستمرارية.

"قهوة سادة" عنوان مفتوح غير مقيد؛ كما السرد لولبي أبوابه مشرعة، يبرز عناد السيد حافظ لاجتراح مغامرة حكايا أخرى. يقول في نهاية الرواية على لسان شهرزاد:

"هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نور غدا نبدأ الحكاية"[١].

***

ثلاثية الفقد والجرح والاغتراب

يُعَدُّ الروائي السيد حافظ من هؤلاء المبدعين، الذين فجروا منابع الإبداع ليجري نهرا من الأحاسيس والانفعالات حتى تروي ظمأ وجودها. روائي لا حول له سوى سحر حرفه، ولا قوة له سوى عبق كلماتها. طوَّع حرفه ليخرق جدار الصمت كمبدع يحس بالواجب المفروض عليه. يلامس هموم الواقع قصد تغيير كل ما من شأنه أن يسيء إلى إنسانيته، وكإنسان يحترم إنسانية غيره لم يتوان في تعرية وضع لا يتماشى وحقوق الإنسان[٢]، وفضح القبح وإحداث هزات داخلية ترج الذوات المتلقية. يسجل رؤيته حيال مجتمعه عبر بوابة السرد؛ لنرصد عبرها علاقة جدلية بين الإبداع وبين المجتمع، تلك العلاقة التي يبدو للوهلة الأولى أن المجتمع مفعول به موصوف؛ لكن الحقيقة أنه هو الفاعل لأنه هو الذي كون الكاتب وجعله يقتات منه[٣].

"قهوة سادة" عمل سردي صادر عن وعي حقيقي؛ ونَفَس جديد غير معهود في الكتابة يتغلغل في أعماق الشعب مسجلا نبض الحياة اليومية، راسِما بكل أمانة معاناة المواطن المصري في حقبة تاريخية كانت فيه كل الدول العربية على صفيح من نار:

---

[١] ـ قهوة سادة ص ٣٩٣.

[٢] ـ جرت أحداث رواية "قهوة سادة" على عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر.

[٣] ـ سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكاربيت، ترجمة آمال عرموني، دار عويدات، بيروت، ١٩٩٩، ص٢١.

"أوقفوا ذبح الإنسان وتشريد الأطفال والنساء.. اعلنوا بقوتكم بأنفسكم: إننا لا نرغب في إنفاق الأموال على السلاح.. كفانا سلاح.. أنفقوا الأموال على الفقراء.. على العلم.. على النهوض بالإنسان في أحراش أفريقيا.. في صحراء آسيا.. أنفقوا الأموال على الأراضي غير القابلة للزراعة.. إن العالم يحتاج إلى الكثير"[١].

يحاول أن يلامس حالة البؤس التي يعيشها المواطن في حقبة تاريخية، ولا سيما في فترة الحرب الكبرى التي طحنت الشعب المصري:

"وجدتني حلما يمسح مؤخرة الوطن الذي يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو الذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وباشوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان.. وجدتني بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء.. وجدتني أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه.. إذا مر قلبي على بابكم أخبروني فقد ذهب يبحث عن وطن ليتدفأ به في هذا الشتاء"[٢].

فنجده يسخر قلمه لفضح حالة الاغتراب الحادة؛ ومدى قساوة وقعها حين يعانيها المرء وهو في وطنه، وبين ذويه، إنها حالة نفسية يشعر فيها الإنسان بألم أشد وأصعب. ونجد مثل هذا الاحتدام في قول صاخب للسارد وهو يصف الحكومات العربية بأنها:" نجحت في جعل المواطن العربي يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر.. في أوربا أو أمريكا"[٣]. رسم بريشة دقيقة معاناة الشعب المصري، كما رسم تيه ذات تلوك قسوة الخذلان، وصور البيئة المصرية تصويرا دقيقا، حيث التقط أدق جزئياتها ترتيبا عضويا لتصبح الشخصية حية في الرواية. "نحن التلاميذ لم نكن نحمل فقط الكتب في حقائبنا التي كنا نحملها على أكتافنا.. بل نحمل معها هموم عائلاتنا وأحلامنا ومشاكل بيوتنا"[٤]. وهذا لم يمنعه محاولة العثور على بعضه المتلاشي ليرمم كلا روحيا،

---

[١] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٦٣.

[٢] - المرجع نفسه، ص ٣٥.

[٣] - المرجع نفسه، ص ٢٥.

[٤] - المرجع نفسه، ص ٧١.

والاستئناس بحلم يضج بالحياة، منسوج بدفء واستقرار.

جاء سرده طافحا بمرارة الغربة معبرا عنها بأصدق الأحاسيس، إنها غربة دائمة تهيمن بظلالها على هذا النص السردي، يقول:

"منذ نشأة القاهرة في العهد الفاطمي وهي متسخة كما قال الجبرتي وحتى الآن.. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة.. ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير"[١] شفاف في فضح القبيح والدنيء، "العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء"[٢]. صارم في التنقيب عن عيون المرارة والمعاناة الإنسانية. يقول السارد:

"قتل وحرق هتلر آلاف اليهود في المحرقة.. قتل الأمريكان آلاف الآلاف في هيروشيما باليابان بقنبلة ذرية.. قتل الفدائيون الفلسطينيون مئات اليهود.. قتل اليهود مئات وآلاف الفلسطينيين"[٣].

نتلمظ سفرا نُسج في غيابات الوجدان، ونقتفي أثر لواعج الكيان المُكتوية. فنتعثر خلف تنهيدات تعج انكسارا وحسرة، وشوقا دفينا مغلفا بنوبات العتاب، تذرف الروح هسيسا صاخبا يلف نذوبا لا تقبل الإنمحاء. يقول: "العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صبحا ومساء"[٤]. فبالرغم من أن القهر قد نال، وبالرغم من أن النغمة الرئيسة هي الحزن والفقد، فإن الشعور بالاغتراب والضياع يمثل بعدا آخر قد يمتد إلى الصراع القائم بين الذات والوجود لأن: "محور الشعور بالغربة والضياع هو في الحقيقة؛ تفريع عن المحور الأساسي العام؛ محور الذات والوجود؛ أو هما يتوازيان على مستويين مختلفين"[٥].

---

[١] - المرجع نفسه، ص ٤٥.

[٢] - المرجع نفسه، ص ٤٥.

[٣] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٤٦.

[٤] - المرجع نفسه، ص ٤٦.

[٥] - الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، ص ٣٥٦/٣٥٧.

فحينما تصطدم الذات بالوجود؛ فإنها تعجز عن تحقيق تطلعاتها وأحلامها لأنها عندئذ تتحرك وتسير وحدها، وتظل محبوسة في إطارها الضيق مادامت تؤمن بمنطقها ونظرتها الخاصة في تقييم الوجود، وهذا ما نلمسه في كلامه:

" الفقراء ليسوا أبناء الله على الأرض.. بل أبناء الشيطان.. الفقر الذي وأد أحلامهم فصاروا أعداء بعضهم بلا سبب.. يكرهون بعضهم بلا سبب.. الفقراء أبناء الشيطان في كثير من الأحيان لأن الرجال الفقراء من كثرة التعب والهزال والمرض لا يضاجعون النساء.. فيضاجعهن الشيطان نيابة عنهم.. فيخرج أولاد الفقراء مجرمين عشوائيين.. سفهاء.. لا يعرفون الله إلا كلمة لا فعل.. أولاد الفقراء أبناء الشيطان إلا من رحم ربي واصطفى.. أما أولاد الأغنياء معظمهم أغبياء بسبب أكل اللحوم بكثرة.. إلا من وهب ربي وأعطى.. الفقر هو الذي قال للرب لا"[١].

جعل الكاتب من إبداعه مرآة للنفس الضائعة والممزقة في متاهات الاغتراب؛ التي تلقي بظلاله الكئيبة على ذات السارد، وتشده إلى قاع الرتابة والإحساس بالضياع مثقلة بالآلام، مضمخة بالحزن على ما مضى؛ والتحسر على ما بات سائدا يقول: "أصبحت الحياة مظاهر.. الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان أناقة لا ثقافة.. لا شيء يهم بعد ذلك"[٢]. حس الضياع والفقد والاغتراب دفعه أن يشعر بفقد الإنسان لقيمة إنسانيته؛ وعدم جدارته؛ أو قدرته على التكيف حتى صرخ بضياع اليقين.

والناظر في سرده يلفت نظره إحساس مريب بوقع الفقر على نفس المواطن، وشكوى صارخة من هوان منزلته الاجتماعية؛ وعدم تقدير المجتمع له، وعجزه عن الأخذ بنصيبه من الحياة. جاء على لسان السارد:

"أنا ممن يصنعون ضوضاء أثناء صعودهم وهبوطهم.. دائما أريد أن أشعر أنني من الأحياء بضوضاء الحذاء. أو أثبت لنفسي أني شيء على الأرض"[٣].

---

[١] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٤٩.

[٢] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٥٢.

[٣] - المرجع نفسه، ص ٤٧.

فبين رفاث من أمنيات سحيقة تنقب الذات عن خلاص، عن فجوة صبح تسكب تباشير شمس وفية تداري اختناقا وثقلا قاسيين؛ فأخذ من الحياة فوضى ليخرجها نظاما، والاضطراب ليصوغه ترتيبا، والانطماس ليجلوه نورا.

وكمثقف واع بما يجري حوله؛ واع بما يحاك ضد الإنسانية؛ سواء عاش في ظل الاستعمار أو في ظل الأنظمة القمعية المصادرة لحرية الإنسان؛ يعاني كل أنواع الضياع، إذ أصبح رقما من أرقام المدينة فقد فيها إنسانيته وشل فيها تفكيره، وأصبح عاجزا عن التواصل مع المجتمع ومع ذاته المعطلة. فحين يفقد الإنسان الرضا بما يريد؛ تجف الحياة تماما وتغشاه مسحة من الكآبة لأن الرضا يجلب السرور وفقد الرضا يفجر البكاء من العيون يقول متذمرا:

"أنا أتلاشى.. أشعر بأني غير موجود.. ربما أكون ذبت في الأشعة ورحت إلى السماء لكي أركع تحت أقدام الإله.. أخبره عن رغبتي في أن أكون شيئا بدلا من كوني لا شيء "[1].

تحول كل شيء إلى مرارة مخزنة حطمت الإحساس بالرضا والقبول؛ وغدت الأيام سجنا أبديا للإنسان، والأرض وجودا ملعونا، القادم إليها مفقود والذي يغادرها مفقود. فهي سجن مفتوح كل شيء فيها غامض، وسديمي يمشي فيها الإنسان كالأعمى لا يفرق بين الليل والنهار، ولا بين القبح والجمال. يقول:

"الطغيان لا يعرف جنسية أو هوية.. الطغيان لا يعرف عنوانا.. أنا أكره الظلم والطغيان"[2].

لايزال ذاك الإنسان الطامع في وقت انبلاج فجر الأمل؛ ينام في الحصباء ويلتحف الألم، يعيش في معمعة الواقع باختياره. وهو إحساس تام بالضياع تتساوى فيه الإرادة الدافعة؛ والإرادة المعطلة. فلا شيء يتغير؛ ولا أمل في التغيير. هو ذا اغتراب الإنسان الذي ضاق

---

(1) - المرجع نفسه، ص ٦٠.

(2) - المرجع نفسه، ص ٧٧.

من قسر الواقع بعد انقلاب حاله لدرجة أصبح من الصعب – إن لم يكن من المستحيل- معها بوجود شيء يطلق عليه "إنسان". يقول في هذا الصدد:

"يا أيها الإنسان.. ما أجمل هذه الكلمة عندما يصبح الإنسان إنسانا أو يوجد إنسان بالفعل في الوجود"[1]. صارت الأيام للإنسان سجنا أحكم إغلاق أبوابه في ظل الهزيمة والضياع، حتى عندما يفيق على صباح يوم جديد فإنه يعيش غربة عن نفسه مادام قد فَقَدَ القدرة على امتلاك ذاته وتحقيق إنسانيته فيها، يقول:

"هبطت إلى أمريكا إلى الدمعة الحزينة في عينها إلى تمثال الحرية الذي يشكو لي مهزلة التقدم المادي"[2].

حتى أضحت المدنية بصراعاتها المختلفة وضوضائها، بوتقة تذوب فيها إنسانية الإنسان، ويصبح قطعة من مكوناتها لا يملك القدرة على فرض وجوده وتحقيق ذاته؛ فيمضي في الأرض منقسما على نفس، وحيدا غريبا متلفعا بأحزانه.

وبمكر سردي تشويقي مقصود، من شأنه أن يجذب المتلقي المفترض نحو مشاركة السارد في حلمه، الذي يرجوه أن يتحقق، يقول:

"نحن صعاليك الشوارع نملك الحلم والأحلام في بلدنا تداس بالأقدام"[3].

ساعيا إلى التخلص من الاغتراب الذي يستبطنه، والتمرد على العصف النفسي الحاد الذي ينتابه، ويهز مشاعره وأحاسيسه، لأنه لا يستطيع أن يعزل نفسه عما يجري في عالمه فهو يتفاعل مع هذا العالم، ويتأثر به، ومن الممكن أن يؤثر فيه. يقول بإصرار الغيور على حال أمته:

"اسمع يا راجل إنت انت ليه ما بتبطلش تتكلم عن مصر والعرب والتغيير.. إزاي بس أغير نفسي قوليلي.. نفسي أكون حمارا وغبيا زي كثير من الناس مش عارف.. يبدو

---

(1) - قهوة سادة، السيد حافظ ص ٦٠.

(2) - المرجع نفسه، ص ٦١.

(3) - المرجع نفسه، ص ١٠٨.

أن نعمة الفهم والثقافة نقمة وعذاب"[1].

فتجده يعتصر من السحاب رذاذا يروي ظمأ أفئدة مفعمة بعشق الجمال، هذا الفيض من العطاء ودفء المشاعر؛ لا يمكن أن ينبع إلا من روائي مرهف الإحساس؛ إنسان عشق قلما يموت في الكلمات ويذوب فيها. فكتب روايته "قهوة سادة" بحرقة وقلق، دون اغتصاب لحظة الكتابة بردة فعل رقيب وحسيب، فجاء عطاؤه متحررا، أبيض ناصعا لا يخنقه سواد الأغلال. فهو مبدع بتركيبة معجونة بماء الجرأة في تعرية الخلل في المجتمع، وفي القيم، وفي الذات، وفي الإنسان.

***

الحكي فعل تحرري وانعتاق الذات من سجن الألم

استرفد السيد حافظ من الإرث الأسطوري؛ عبر استغلال الأصوات المندثرة في تعرجات شفهية عريقة في القدم؛ عاملا على تشكيل الواقع الأسطوري وفق رؤية جمالية، تكشف عن تناقضات الحياة لا تروي أحداثا جرت في الماضي وانتهت، وإنما تصور صراعا أبديا تعرفه الحياة الإنسانية، وهو صراع موجود على الدوام ومظهر من المظاهر الحياتية التي قد تصيب الإنسان في أي وقت وحين.

إنها "شهرزاد" المرأة التي دخلت معبد الحكاية، لتدفع القتل عنها وعن بنات جنسها. المرأة الإنسان التي زرعت وردا لاقتلاع شوك الحقد من حديقة الإنسانية، شهرزاد التي كانت ولا تزال قائمة، حكيها مستمر. لأنها لم تقل كل شيء، فحالة الصراع بين الخير والشر؛ الصراع الدائر بين السلطة والشعب في الماضي والحاضر لا يزال قائما لأجل البقاء والحياة.

"شهرزاد" الأسطورة التي ومنذ القديم نالت حيزا كبيرا من اهتمام كل من سوّلت له نفسه اختراق قلاع لياليها، فكانت تفكيره الذي يفكر به، ويده التي يبطش بها، وعينه التي يرى بها العالم، فلقد كانت سراجه المنير الذي يقتفي أثره. فكما شغلت ابتسامة الموناليزا

---

[1] - المرجع نفسه، ص ٧٩.

الغامضة الكتّاب والأدباء والرّسامين والفلاسفة، وأسالت حبر العديد، ظلّت شهرزاد دون ابتسامة، لكن بدهائها وذكائها سلبت العقول، فكانت وستظل اللّغز الذي حيّر وسيحير الأدباء؛ فهي العنقاء التي تبعث مع مداد كل مبدع فنان.

فلا مناص وشهرزاد بهذه القوة أن يستلهم الروائي السيد حافظ هذه الأسطورة الشهرزادية، فيعيشها كإنسان وناقد لأوضاع اجتماعية وسياسية واقتصادية عاشتها وتعيشها مصر، وكل البلدان العربية بله الإنسانية جمعاء . فشهرزاد الأسطورة مثال للمرأة الذكية والفدائية التي ضحت بنفسها لأجل الحفاظ على بنات جنسها، ومن ثم الحفاظ على الحياة والاستمرارية، هو بعث من جديد يقول: "آه يا سهر لو تعلمين كم أحبك"[١]. فبر سلاح الحكي تراوغ ملكاً مدفوعاً بهوس الانتقام وتغويه بسلطة المعرفة. وبالحكاية المروية بسحر تقهر الموت؛ وتبعد أطيافه. إذ لم تكن تحكي وتتكلم، وتؤلف فحسب، لكنها كانت أيضا تواجه الرجل، ومعه تواجه الموت من جهة، يقول الدكتور عبد الله الغذّامي:

"تدافع عن قيمتها الأخلاقية والمعنوية من جهة أخرى، كانت تتكلم والرجل ينصت، فإذا سكتت تعلق شهريار بصمتها يوما كاملا إلى أن تتكلم مرة أخرى لتمارس عليه سلطة اللغة وسلطان النص"[٢].

لتمثل هذا الانتصار العجيب للبريء والضعيف؛ الذي ينجح في تغيير مصيره بمداهنة جلاّده؛ محولاً الحقد إلى حبّ.

نافلة القول.. لم يحاول استدعاء شخصية شهرزاد التي حظيت بامتداد عبر الزمن للإمتاع، إنما بغرض تشكيل خيوط متينة في النسيج العام للبناء الروائي، وبلورة طرائق مستحدثة تضمّ خواص الأسطورة العجائبية لتؤلّف نسيجا سرديا تلتقي في رحمه أساليب وبنيات تعكس علامات التجريب بمختلف أنساقها، ومن ثم خلق نص سردي جديد.

---

[١] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٦٨.

[٢] - المرأة واللغة، عبد الله الغذامي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي، ص ٥٧.

باعتبارها رؤية "مغايرة للأشياء.. ولذلك تكون الكتابة المتشّبعة بروح الفانتاستيك مغامرةً واستجلاءً للبقايا والهوامش والمقصي من كينونتنا المحاصرة بضغط القوانين والمحّرمات وشتى أنواع الرقابة"[١]. ولإماطة ستر طالما حجب شمس الحقيقة عن الأبصار، فهي ببنائها السردي ومضمونها الخرافي تعتبر هروبا من الأوضاع الواقعية المتردية، حدَّ يمكننا القول إن الكاتب يصنع أسطورته الخاصة.

***

هذه صورتها وذاك شأن الحكي

في النهار تولد الحكاية، وفي أول الليل نحكيها، وفي آخره ننام على وقعها. كان شهريار يسهر كل ليلة مستوحشا فصار سجين حكايا شهرزاد. هذه المرأة التي أوتيت "علم" الحكايا فتسللت لتروي للعالم دور امرأة ليست ككل النساء، أسطورة خلقتها الأزمات والمحن وتواتر الألم. "شهرزاد" أنموذج صقلته الصعاب فكانت أسوة في التحدي، والصبر، والذكاء، يقول السارد:

"تلك المرأة الشامخة، أسطورة كل العصور. "قالوا عنها عرافة الجن يمدها عشيقها الجني بالسر.. وأسرار كل البشر.. شهرزاد تحب سهر لأنها تذكرها بشبابها تذكرها بالجمال الذي فتن العقول في شجن.. وألهب خيال الرجال"[٢].

فهي لم تركن إلى سيل الدموع، وتخفي وجهها وراء غلالة الحزن وتتوقف عن الحياة. بل لملمت شمل حزنها، وابتدأت غدها بفكر مسؤول يعي حجم ما بانتظارها، وما يحمله من تحديات. متأهبة لتكون في عون كل من لجأ إليها وطلب مشورتها؛ فلا تبخل عليه؛ ولو بالقليل. يقول:

"ذهبت أمها بها إلى "شهرزاد" وقالت لها: البنت صارت أنثى. زغردت "شهرزاد" العجوز..

---

(١)- مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص: ٥/٤.

(٢) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٨.

نثرت عليها بخورا به حبهان وعين الشيطان حرقتها في النار"[١].

راهنت شهرزاد/ الحكيمة على أن إشاعة الفرح يأتي دوما بالغد المضيء؛ الذي يرتب الأحزان هنا وهناك، حتى لا يدع المستقبل يتوقف عبر زمن مظلم حاسَر الرأس، مكلوَم الفؤاد. يقول السارد:

"تؤمن بكلام شهرزاد العرافة التي تسكن في كوخ بعيد.. شهرزاد لم تتزوج ولكن سميت باسم شهرزاد لأنها أسعدت أناسا كثيرين بقراءة كفهم"[٢].

حققت شخصية "شهرزاد" طموح انعتاق الذات الأنثوية فاستطاعت بالذكاء؛ والقدرة على الإبحار في دهاليز الحكي؛ أن تتغلغل في أعماق الذات الجماعية، وتعبر عن فضاءات الكائن والممكن. وهي في ذلك مسكونة بفكرة انعتاق الذات، وفي محاولة دؤوبة لمعانقة جماليات الكلمة في أقصى درجات اشتغالها وبوحها ومعاناتها. تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي في كتابها "شهرزاد ليست مغربية":

"السرد فن ننجح أو نخفق فيه لكننا نحتاجه لنحيا ونجعل الآخرين يحبوننا، يجب معرفة الآخر جيدا لإغوائه بشكل أفضل"[٣].

فليس خافيا أن شهرزاد جعلت من إنتاج الكلمة/ الخطاب الذي يحررها/ المرأة من بطش الآخر، حيث اعتمدت بدكائها لولبية السرد لإبقاء البطلة سهر على قيد التفاؤل بغد مشرق؛ ينقذها من قبضة كل رجل سولت له نفسه الارتباط بها؛ والاستمتاع بعطرها الساحر، يقول السارد:

"لكن العرافة شهرزاد قالت لأبيها: لا.. ابنتك ستسافر إلى بلاد النفط .. بلاد الذهب تتزوج من رجل ثري وتفتح لها المدن ألف نافذة نور.. وستتمرغ في الذهب.. الأب ينتظر أن يأتي هذا الفارس القادم الرحالة.. لترحل معه سهر على سفينته.. ويكون علمها شمس

---

[١] - المرجع نفسه، ص ١٥.

[٢] - المرجع نفسه، ص ١٨.

[٣]- شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٣، ص ٢٣.

وقمر.. كما قالت العرافة العجوز"[1].

تبدأ شهرزاد حكيها مع بداية اللّيالي متخذة من فكرة قطع الحكي/ السرد أداة إغراء تنال من البطلة سهر؛ فتجعل قلبها معلقا بحكاياها، فتنال منها حتى تصل حدَّ الإدمان فلا تستطيع أن تعيش دون حكي.

"قالت شهرزاد: إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر.. من باع باع.. ومن اشترى اشترى.. لقد باع أخته.. واشترى الكاهن نفر بثمن بخس.. لقد حول كي إلى غاسل للموتى.. غدا نكمل الحكاية أو بعد غد"[2].

جعلت شهرزاد/الساردة حكيها مفتوحا، إذ تنهي كل ليلة قصتها بموقف شائق مفتوح، مردوف بعبارة "غدا أو بعد غد نكمل الحكاية"، وهذا ما يلزم على البطلة سهر إبقائها لسماع نهاية الحكاية،

"مرت شهرزاد على بيت سهر.. وبعد تناول القهوة والضيافة همست سهر ومن هي الروح الثانية يا خالتي شهرزاد؟ ضحكت شهرزاد وقالت: هي بنت جميلة عاشت في عهد النبي موسى؟ ما اسمها وحكايتها؟ قالت: اسمها نور غدا نبدأ الحكاية"[3].

نسيج حكاياها كنسيج عنكبوتي متداخل ومتشابك الخيوط، معلوم المركز. فمركز الليالي ومحور دورانها هو القصة الإطار؛ التي لخصت دوافع السرد؛ تتتبع حيوات الروح الأولى التي تنحدر منها سهر البطلة، ومن ثم معرفة سر عطرها الساحر الذي سلب لب كل من استنشقه ولم يعرف سره، هذا السر الذي بات لغزا لا يفقه كنهه سوى شهرزاد التي أوتيت من العلم دون سواها. فالحكاية الأم لها قدرة على توليد حكايات مرتبطة ببعضها البعض، بسمات مشتركة،

"قالت شهرزاد وهي تشرب آخر رشفة من فنجان القهوة وتطفئ ركوة النار: الآن اذهبي

---

(1) ـ قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٧.

(2) ـ المرجع نفسه، ص ٢٣١.

(3) ـ المرجع نفسه، ص ٣٩٣.

إلى بيتك يا سهر تأخر الوقت اذهبي قبل الغروب. قالت سهر: ونفر. قالت شهرزاد: غدا سنكمل الحكاية يا سهر."[1]. فبين عبارتي "بلغني يا أجمل بنات الجبل" و"إلى هنا صاح الديك وغدا نكمل الحكاية يا سهر" ترسم شهرزاد عالمها بفضاء معماري وهيكل لولبي يرتكز إلى رؤية شمولية. إذ تكمن وظيفة الليالي في كونها تجسد تقطيعًا يبعث على إغراء المتابعة والترقب، ويحث على التتبع والاستمرار، وبدون هذا الفصل السردي ستبدو حكايات شهرزاد تراكمًا لا حضور له، حتى تمر البطلة "سهر" بمحطتي توقف لا غنى له عنهما؛ نهاية الحكاية ونهاية الليلة، وبين هاتين المحطتين تتزايد متعة السرد وبهجته.

لا ريب أن شهرزاد التي أنقذت حياتها وبنات جنسها من الموت بـ"القصة المحكية" عندما قبلت التحدي لتحطم الجبروت والظلم، كانت لها "خزانة مفترضة" وإلا فمن أين لها هذه الذخيرة النصية، يقول السارد:

"شهرزاد قد ورثت من أبيها مكتبة بها كتب الشيخ الإمام جلال الدين السيوطي وكتاب ابن حزم طوق الحمامة في فن النكاح.. لم تقل سر علمها بالعشق والغرام"[2].

فشهرزاد كانت على قدر كبير من العلم والمعرفة وهذا ما أكده كل من اخترق حصنها. تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي:

"أعود إلى ذي بدء: علم المرأة وثقافتها. إن مأثرة شهرزاد ما كانت لتتم لو لم تختزن كمّا هائلا من الأخبار التي استخدمتها لتبني قصصها حيث التفاصيل الواقعية المدهشة تنم عن معرفة استثنائية وإلمام عميق بالعالم والكائنات"[3].

الأمر الذي سيمكن شهرزاد من تصريف المعرفة لممارسة سلطتها على كل من دق باب حكاياها، إذ ستشكل مصدر قوتها لإحداث التغيير المرغوب، ونقل معرفة ما بالعالم، إلى معرفة أوسع وأشمل لتحقيق التجاوز وفرض البديل الممكن لإعادة الحياة لمجراها

---

[1] - المرجع نفسه، ص ٢٥٦.
[2] - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ١٧.
[3] - شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص ٢٧.

الطبيعي والإنساني جاء على لسان السارد قوله:

"تجلس النساء تحت ركبتها يشكين من ضعف الرجال الجنسي وجهلهم بالتعامل معهن. فقط هي شهرزاد التي تعرف.. وتنصح بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحة قبل الجماع بنصف ساعة حتى ينجبن ذكرا.. وتعرف للنكاح مائة اسما فتجلس النساء أمامها في ذهول.. تقول إن النكاح له أسماء كثيرة"[1].

فشهرزاد السيد حافظ تشبه شهرزاد ألف ليلة وليلة؛ في سعة علمها وتنوع ثقافتها فأضحت لغزا حيّر عقول المفكرين وسلبه، فهي وحدها قادرة على تفسير نفسها. يقول السارد:

"والنساء يجلسن في ذهول أمام علمها قالوا إنها قديسة وقلن عنها لعوبا قلن تزوجت من ألف رجل.. قلن وقلن والناس دوما تقول"[2]

حملت شهرزاد العالمة على جلب انتباه الآخرين؛ وحملهم على الشهادة لها بقدرتها على الإمتاع في السرد؛ والمعرفة التي هي في الأصل حصيلة ذهنية لتراكم التجارب الإنسانية في بعدها الكوني، وقيمتها في تكسير النظم القاهرة المؤطرة لوجودها. فأضحت قبلة العارفين السالكين طريق البحث عن كينونتهم يقول:

"خرجت سهر من المدرسة مبكرا.. ذهبت إلى بيت شهرزاد.. لم تجدها جلست سهر أمام بيت شهرزاد.. الروح تعطش لحكايا المعرفة كأنها طفل يعطش لثدي الأم"[3]

وفّقت سلطة اللغة لتجعل من المستمع/ البطلة سهر بعد كل ليلة من الحكي والسرد طفلا متعلقا بالصمت.

حرص الروائي السيد حافظ على استلهام ذلك التلقي الإيجابي الذي حظي به كتاب "ألف ليلة"، وحضوره الفاعل لنص الليالي في الذاكرة. وشخصية شهرزاد المعجزة التي قاومت سلطة الرجل بسلطة الكلمة تقول الدكتورة فاطمة المرنيسي: "شهرزاد تتكلم والمعجزة

---

(1) - المرجع نفسه، ص ١٧.

(2) - المرجع نفسه، ص ١٨.

(3) - قهوة سادة، السيد حافظ، ص ٢٦٤.

تحدث"[1].

***

على سبيل الختم

هنا تنتهي رحلتنا مع روائي رسم بسرده وثقافته لوحة جمالية، طرزها بأدبه الأصيل، وزينها بدخيرته المعرفية. ولأن الزمن الإبداعي لا يقاس بالعمر البيولوجي، فسيظل هذا المبدع المتمرد القلق الحالم خالدا، سيتجلى مشرقا كلما أظلم ليل في وجه الإنسان. فما زال له حلم الكتابة والإنتاج طالما قلمه متوهج ينبئ بالإبداع والإمتاع. هنيئا للروائي السيد حافظ المبدع الذي تيمم بتراب الوطن وتوضأ بنور الحرف وصلى في محراب الكلمة..

***

(١) ـ شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، ص ٢٣.

لائحة المراجع :

- الرواية: قهوة سادة، السيد حافظ، ٢٠١٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- أرض الأبدية قراءات في تجربة الشاعر سيف الرحبي، مفيد نجم، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، منشورات الجمل.
- سوسيولوجيا الأدب، روبير إسكاربيت، ترجمة آمال عرموني، ١٩٩٩، دار عويدات، بيروت.
- الشعر والتلقي، علي جعفر العلاق، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، دار الشروق، الأردن.
- الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، عز الدين إسماعيل، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي.
- شهرزاد ليست مغربية، فاطمة المرنيسي، المترجمة ماري طوق، الطبعة العربية الثانية، ٢٠٠٣.
- عتبات النص بحث في التراث العربي والخطاب النقدي المعاصر، يوسف الإدريسي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، الناشر مقاربات.
- مدخل إلى الأدب العجائبي، تودوروف، ترجمة الصديق بوعلام، الطبعة الأولى، ١٩٩٣.
- المرأة واللغة، عبد الله الغذامي، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦، المركز الثقافي العربي.

مقام البوح على شرفة الجسد
رشفة من فنجان قهوة سادة

بقلم د. حنان حطاب

أستاذة بجامعة محمد لمين دباغين

سطيف – الجزائر

قد تعجز الذات عن فهم ذاتها واستيعاب الآخر من حولها، حينها يتحول العالم الإنساني إلى كتلة من التناقضات التي لا تحيلك إلا على أزمة حقيقية، غير أن الذات بوصفها تمردا/ ثورة، تحاول الخروج من مأزقيتها نحو عالم التكشف والبوح عن اللامعبر عنه، فلا تجد سبيلا لها غير هداية الكتابة، والانطلاق في كشف عوالمها الداخلية، لتغدو كتابة الذات طوقا للنجاة، وحبلا للخلاص الذي يقود الذات لذاتها وإلى آخرها، وتغدو الحياة فعلا كتابيا تحفه الأسئلة والقراءات والتأويلات، وكأن الكتابة إعادة خلق شيء من شيء آخر، أو بعث للروح بعد أن جفت القرائح والأجساد وتهاوت جثثا مواتا لا ذوات فيها. من هنا تغدو رحلة الذات كشفا عن المنطقة المظلمة فيها وبحثا في مناطق السواد وتكحيلها ببياض البوح وزرقة السؤال الدائم.. من هنا تغدو الكتابة سحرا لمن لا سحر له.. وفعلا وجوديا يضمن توازن الذات وتجددها واستمراريتها.. فلا تكف مساءلة الذات لذاتها عن مداعبة وعينا في محاولة للانوجاد؛ فالبحث عن الذات رحلة وجودية ترتحل عبر مفاصل الحياة الإنسانية، وعبر جسد "قهوة سادة*" فتنطلق الـ "أنا" متحدثة عن

(*) قهوة سادة (رواية) للسيد حافظ: من ٤٠٠ صفحة تضم فصلين: الفصل الأول: حكاية **سهر** والعشق والقمر وهو الفصل موضع الدراسة / الفصل الثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل.. صدرت الرواية عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام ٢٠١٢.

رغباتها وأهوائها وتمثيلاتها الغريزية وما تفتقد في الواقع، وتتحول الكتابة من مجرد سواد إلى بياض، إلى نوع من الفلسفة في الحياة، ويتحول فعل الكتابة رغبة في بلورة الأسئلة التي تمنح للوجود معنى حقيقيا، معنى يحرر المبدع ويحرر معه القارئ والمتهم من احتمال التحول إلى مجرد رؤوس وسط قطيع.. فالذات حين تشعر بثقل العالم فوق كاهلها، تلجأ للكتابة فيصير فعل الكتابة معادلا للنجاة، والمخرج الوحيد المضمون للانفلات من ثقل الروح المتعبة؛ فالكتابة تمكننا من مساءلة المجتمع وتسعى لخلخة قيم استشرت بعنف فيه".[١]

قهوة سادة جاءت لتجيب عن تقلبات هذه الذات وأوجاعها.. كيف تتموقع هذه الذات أمام ذاتها؟.. ثم كيف تنكشف أمام آخرها، كيف تتعرى ذات سهر بطلة الرواية وتنكشف أمام ذاتها وأمام آخرها ممثلا في كاظم (العاشق الولهان) وشهرزاد (رمز الحلم والرؤيا) وفتحي رضوان (زوجها بعد ١٥ عشر عاما).

كيف تكون شرفة الجسد مقاما للبوح، وسبيلا للبحث عن هوية الذات، وكيف ينكشف الجسد أمام الذات؟.. كيف تتعرى الذوات في مرآة فنجان من القهوة السوداء المعتمة الثقيلة المحملة بالأسى والهروب، والمتعبة بسواد الليالي الحالكات، وبأرق القلوب العاشقة.. بين صخب أجساد متعطشة وأرواح متمردة.. ذوات تفتقد لذواتها وتبحث عنها من خلال كل رشفة من فنجان قهوة سادة.

***

على شرفة الجسد(*)

يطرح النص السردي اليوم إشكالا محوريا على صعيد القراءة والتأويل حول طبيعة اللغة

---

(١) ـ عمر محمد منيب إدلبي، سرد الذات فعل الكتابة وسؤال الوجود دراسة في فن السيرة الذاتية، إصدارات الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٨، ص ٦٤.

(*) هناك فرق جوهري بين الجسم والجسد، فالجسم مرئي ومنظور وملموس، بينما الجسد دلالة خطابية، ولذلك لا يمكن لمسه أو قياسه بمعايير كمية سوى من باب القراءة والتأويل بحيث يمكن الشعور بهالته وجماله وجلاله، إدراك دلالاته الإيحائية والخطابية والإشارية والأيقونية. ولذلك يقال عن الجسد: إنه بناء رمزي لا غير.ينظر رسول محمد رسول: الجسد المتخيل في السرد الروائي، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط١، ١٩، ٢٠١٤.

وعلاقتها بالمتلقي، ومدى إسهامها في تحويل إدراكاته المعرفية اتجاه آفاق جديدة ومدى احتوائها على أبعاد دلالية ومعرفية وأخلاقية سيما بعدما كثر الحديث عن لغة الجسد الذي يمثل"معطى حيويا وحياتيا يتمفصل فيه البيولوجي والسيكلوجي ليشكلا أنا جسدية، تدخل في علاقة مباشرة مع الآخر فضاء وزمنا"[١]

منذ الأسطر الأولى، تعلن الرواية وبكثير من الجرأة صرخة الجسد في كل ركن من أركانها، وعبر كل شخوصها التي تتداخل ضمن لعبة درامية تتحكم في تصرفات مربكة، متناقضة تعبث بذواتنا وتخدعنا برائحة قهوة تتسرب إلينا عبر أحداث الرواية بداية من عنوانها "قهوة سادة" رواية تنطلق من تعانق الأجساد لتروم تفجيرها والانسلاخ عنها.. تبدأ رواية "قهوة سادة" حكاية سهر والعشق والقمر، بعلامات النضوج الأنثوي عند سهر واقترانها بحادثة تنحي الزعيم عبد الناصر لتأخذ خيوط الرواية* بالتشكل وتتبدى للقارئ – تدريجيا - شخصيات/ أجساد النص...

سهر: "اسم يعرفه الليل والبحر والسحر وأحلام الشباب المراهقين والرجال العجائز على أبواب الدكاكين والمحلات في الجبل في بلاد الشام"[٢]

أما كاظم، فعاشق سهر "معلم اللغة العربية في مدرسة سهر ٤٠ سنة، أشقر وسيم.. العاشق لها في صمت يحب كل الصباحات كي يراها.. يريد أن يتنفس وجودها في الفصل.. في المدرسة، في الحي في القرية.. في الكون"[٣]

وأما شهر زاد؛ فالمرأة ذات بصيرة حادة، قارئة للمستقبل، وملمة بعديد الكتب والتفاسير. قارئة للكف ومفسرة للأحلام. "شهر زاد لم تتزوج، ولكن سميت بشهرزاد لأنها أسعدت أناسا كثيرين بقراءة كفهم. شهرزاد على ذقنها وشم أخضر، هي بيضاء عيناها زرقاوان..

---

[١] - النص والجسد والتأويل: إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ،٢٠٠٣. ص٢٠.

* "بقعة دم على قميص نوم **سهر**: خافت.. ارتعدت.. بكت.. جاءت الأم مهرولة.. وجدت بقعة دم حمراء في ثوبها.. زغردت الأم.. ثم ارتعدت.. لقد بلغت **سهر** نضجت اليمامة... الحمامة.. الوردة.. تفتحت مبكرا.. أصبحت طفلتها أنثى.. طفلتها ذات الاثني عشر عاما".. السيد حافظ: قهوة سادة. ص ١٥.

[٢] - قهوة سادة:ص٢٠

[٣] - قهوة سادة، ص ٢٠.

قالوا من جمالها تزوجها جني جميل ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها".[١]

أما فتحي رضوان.. "سيكون حبيب سهر بعد ١٥ عشر عاما(...) شاب ١٧ عاما، مصري الملامح عربي الفكر عالمي الإحساس بالجمال، كان يذاكر الثانوية العامة أدبي"[٢]

شخصيات محورية في رواية قهوة سادة تتواطئ على حب الجسد والغرق في متاهاته، تتعانق مع سهر الليالي، يفضح السارد من خلالها تورط العربي وفشله الذريع في علاقته مع الجسد، ولهذا يحاول من خلال الخوض من مناطقها المحرمة الكشف عن الذاوت من خلال الأجساد. وهنا يكون مقام البوح على شرفة الجسد.

ترسم الرواية ملامح شخصياتها من خلال لغة الجسد الذي يصبح مصدرا للتخييل والبعث بعديد الشيفرات الوجودية، فهو يتجاوز الجانب الفيزيقي ليكون حمالا لفلسفة أو فكر، ويعكس بشكل أو بآخر الذات التي تختبئ وراء ذلك الجسد دون أن تنفصل عنه... "فالجسد – والقول ل مين دوبيران–Maine de Biran- ليس جسدا عضويا وليس كيانا حيا ولا جسدا إنسانيا، إنه جسد يتعالى عن هذه الظواهر التي من خلالها يقدم لنا نفسه، و بما أنه جسد يعيش في العالم، فإنه يوحد بين شكلين أو نمطين من أنماط وجوده أي وجوده ومظهره في الجسد الشخصي".[٣] فالجسد الذي سنقف عنده قراءة وتأويلا يتجاوز الجانب الفيزيولوجي إلى دلالته الرمزية المخبوءة خلف شخصيات الرواية والتي تخفي بدورها دلالات متعددة ومتناقضة.

لم تسلم سهر الطفلة البريئة من لعنة الجسد التي تضفيها قهوة سادة على كل من يرتشفها فتحوله الشخوص إلى مجرد أجساد تتراقص على موسيقى العشق أو الغريزة "ابنة السابعة عشر ربيعا التي كلما سارت في الأزقة أو الشارع يبعث نهداها في قلوب الرجال إشارات كهرومغناطيسية بفرح.. هي تعرف أن الله جميل.. وأحيانا يمنح أنثى من

---

[١] - قهوة سادة: ص ١٨.

[٢] - قهوة سادة: ص ٣٢.

[٣] - فريد الزاهي: النص و الجسد و التأويل

روحه ومن وجهه ألقا"[١]

سهر مثلما رسمت صورة طفلة جميلة بريئة مثلت نزوة صغيرة في بداية تشكلها، وفتنة كبيرة في قلوب الكثيرين "كل صباح تنظر سهر في المرآة.. تنظر في عينيها.. يرتعش رمشها، تجد فتنة مختزنة لو وزعت على النساء العابرات في مدن الجمال لفتن رجال العالم العابرين على جسور العشق..."[٢]

بل إن السارد يبالغ في فتنه هذه الطفلة المراهقة وجاذبيتها من خلال تلك العلاقة التي ربطتها بعصفور الكناري الذي لطالما تسلل إلى غرفتها وداعب أحلامها وخصلات شعرها، والذي لم يسلم هو الآخر من فتنة جمالها وإغماءة عطرها إلى درجة أنه تمنى أن يتحول إنسيا بشرا يتسنى له عشقها: "أخذت العصفور في حضنها ونامت. وتدفأ المجرم الصغير ونام بين النهدين يحلم ويسأل الله أن يتحول إنسيا، ولو ليلة.. ساعتين.. نصف ساعة.. دقائق، لكن لا فائدة تقدم ببطء من شفتيها ونال قبلة.. فتحت عينيها.. "أي... أي".. ضحكت ضمته، وضمته مرة أخرى إلى نهديها وشدت اللحاف، لم ينم العصفور وطاف بخياله ألف حلم.. آه لو كان بشرا لطاف بها في الفراش حول الكرة الأرضية واغتصبها ألف مرة.. تزوجها رغما عن أنف كل البشر"[٣]

وهنا تحاول الرواية أن ترسم أول انحراف لها اتجاه لعنة الجسد أو العدوى التي انتقلت من البشر إلى طائر الكناري الذي فتن بسهر فتمنى أن يصبح بشرا إلى درجة أن بقية الطيور كما تسرد الرواية أرادت معاقبته لارتداده عن أصله وجنسه ويبدو أن تفاحة آدم فعلت فعلتها حتى مع طائر الكناري.. ويواصل السارد الحديث عن الجسد مع كاظم عاشق سهر، وبعيدا عن هيمنة الذكورية التي كثيرا ما طبعت النصوص السردية العربية وعبرت عن ملامح الرجل العاشق الدنجواني والذكر الفحل، تبرز لنا شخصية كاظم الذي يعيش قصة حبه في صمت قاتل، حب تحت وقع المسكنات، وأقصد أحلام اليقظة وكتب الجنس

---

[١] - قهوة سادة: ص ١٦.

[٢] - قهوة سادة: ص ١٩.

[٣] - قهوة سادة: ص ١٦.

ومهدئات فرويد وكولن ويلسن، كاظم الذي "لم يلمس امرأة في حياته، لم يضاجع أنثى ولكن أمامه الكتب تشرح ما هو الجنس.. يعرف الجنس بأنه جملة من الخصائص التشكيلية والفيسيولوجية العضوية التي تؤمن التكاثر الذي يتلخص جوهره بالتلقيح في نهاية المطاف".[1]

وتناقش هذه الرؤية علاقة كاظم بالجسد من خلال الاكتفاء بعالم الأحلام والتخيل واللذة المقترنة بالعالم الافتراضي.. الأمر الذي يكشف عن رؤية السارد للرجل العربي والجنس والتي تتسم بالغباوة واللا حرفة: "العربي لا يفلح إلا في مضاجعة النساء، وهذه المقولة ثبت فشلها بعد أن كتبت الأجنبيات الأوروبيات مذكراتهن مع العرب في الفراش، فسمعة العربي في فراش الجنس صدفة وليست حرفة، فمستواه ضعيف ومترد وهمجي مثل الكلاب.. المرة الوحيدة التي نجح في جيش مصر بكرباج محمد علي الذي دربهم على القتال وضعوا في أذن الفلاح المصري اليمنى بصلة واليسرى قطعة قطن حتى يعرف اليمين من اليسار؛ فكانوا يقولون باتجاه أذنك التي بها بصلة أو القطنة"[2]

والأمر ذاته كان مع فتحي رضوان زوج سهر بعد ١٥ عاما والذي عرف بمواقفه السياسية ودفاعه عن الوطن غير أنه تخبط بين ألاعيب النساء وأجسادهن وجنسياتهن المختلفة وأكاذيب السياسة ومشاكلها: "كان فتحي يسأل نفسه دوما. لماذا النساء في حياتي ضرورة كالماء والهواء وخطب عبد الناصر والميثاق، ومقالات هيكل يوم الجمعة.. ولم يرتشف الوجود والعدم من سارتر والعبث من ألبير كامي وصامويل بيكيت، لماذا تبحث عن كل كتب كولين ويلسن.. لماذا يبحث عن الجاحظ ويعشق المتنبي ونهود ناهد حجازي وفيفيان وماجدة، والمظاهرة التي يخرج بها الطلبة من أجل فلسطين والجزائر واليمن"[3] فتحي رضوان الذي اهتم بالأحداث والمواقف السياسية وساند المظاهرات والثورات

---

(١) - قهوة سادة، ص ٢٣.

(٢) - قهوة سادة، ص ٤٥.

(٣) - قهوة سادة: ص ٨٤.

الشعبية، لكن لسان حاله لطالما ردد: "يدها الحانية، أحن من يد الوطن على كتفي".[1]

وفي مقابل هذا الانخذال الذكوري تقتحم الأنثى خصوصية جسد النص لتعبر عن فحولة من نوع خاص، هي فحولة الأنوثة في زمن غاب فيه الرجال وضاعت الرجولة بين نظريات فرويد.. أين تقبع العقد وتتوارى الأمراض، لتبرز لنا هيمنة الأنثى من خلال شهرزاد، فهي عكس كاظم (الفاشل جنسيا) مثقفة جنسيا.. لعوب وذكية وقارئة للمستقبل، وقد مثلت هي الأخرى مساحة للصخب الجسدي من خلال الخبرة في تعليم النساء والرجال وتلقينهم آداب وفنون العلاقات ووصفات الحب، فكانت بمثابة مدرسة للتربية الجنسية.. والمفارقة أن هذه المرأة الناصحة لأهل القرية وخاصة هي امرأة فقد قلبها بوصلته إلى بر الأمان، وصار جمالها فتنة ونقمة منعتها من الزواج "هكذا الجميلات يا وردة يسحرن الرجال ويتزوجن القلق والصداع في صمت".[2]

عبر هذه الشخوص وغيرها ولجت قهوة سادة، واحدا من أكثر الطابوهات خطورة وحساسية في المجتمعات العربية، حيث مثلت لعنة الجسد فيها بوصفه هاجسا مرضيا لكثير البشر رغم أنه يمكن النظر للجسد في حاجاته البيولوجية والجنسية في مضماره المعقول والطبيعي بعيدا عن العقد اللاأخلاقية والمرضية، ولا تقصد الرواية الوقوف عند هذه الأجساد وكفى بل تروم ما وراءها من بعد دلالي ورمزي.. فهل يمكن لهذه الرواية أن تكون مجرد عبث جسدي أو رواية تستفز غريزة القراء وتلعب على وترهم الحساس؟؟

مقام الروح

في حضرة الجسد تولد أسئلة الهوية والانتماء، وفي حضرة الجسد ينحت السرد وتتفاعل الكلمات وتتناسل الأفكار وتتهاوى؛ فداخل جغرافية الجسد تكتب الكلمات وتسافر في أبعادها الدلالية باحثة عن كيانها/ هويتها/ وجودها، إذ يغدو الجسد وسيطا لإدراك العالم وتحسسه وفهمه، فكما يقول ميرلوبونتي: "علمتني تجربة لحمي بما هي غلاف إدراكي،

---

(1) - قهوة سادة: ص ٧٣.

(2) - قهوة سادة: ص ٢٤١.

أن الادراك لا يولد أينما كان بل ينبعث من خفايا الجسد"[١] فيتحول الجسد من معناه الفيزيقي إلى وسيط، ويعبر عن الذات والكيان؛ فخلف الأجساد تتوارى شخصيات متباينة وعقد مرضية وهواجس داخلية، ومن الأجساد أيضا تبنى الهويات وتولد الانتماءات وتتحقق كينونة الكائن في علاقته بالآخر، "فلا وجود للجسد إلا بالغير أو الآخر الذي من دونه سيبقى الجسد كينونة افتراضية تعيش كمونها في خبايا ودياجير عالم دامس الظلام، عالم غير مرئي، سواء كان هذا الآخر أو الغير شيئا تكوينيا يدخل في بناء الجسد أم بؤرة تلق يأمل بأسرها خطاب الجسد"[٢]

هكذا بدت الرواية عالما من الأجساد التي لا تحسن غير لغة الجسد والحركات، أجساد تتآكل من الداخل، تتهاوى نفوسها وتختنق من شدة الحلم لا الظفر.. أجساد ترفض الانكشاف لأنها اكتشفت أنها بلا هوية بلا انتماء، أجساد عارية لا وجود لها لكنها أجساد تبحث عن الانتماء والهوية، فإذا كانت الهوية إحساس الأنا بالانتماء - سواء كان هذا الأنا فرديا أو جمعيا- فإنه لا يتحدد إلا بالآخر. فلو عدنا إلى فلسفات الأنا، تلك التي وسمت في تاريخ فلسفة الحداثة بفلسفات الكوجيتو، أي الذات أو الأنا المفكر، سنلاحظ بأنها كلها تخلص إلى إحدى نتيجتين: إما الاعتراف بالغيرية واستدخالها ضمن كينونة الأنا، وربط الأنا بها، وإما السقوط في الأنا المتوحد بما تفيده من توحد وانغلاق".[٣]

غير أن الأنا لا تتشكل خارج الجسد الذي يمثل دعامة أساسية لتشكل هذه الهوية وتحديد ملامحها، ورغم سطوة لغة الجسد على رواية "قهوة سادة" إلا أن هذا الجسد يحدد هوية الرواية بعيدا عن كونها رواية جسد أو رواية جنس. إنها رواية جسد يبحث عن هويته، عن روحه، يبحث عن السكينة بعيدا عن المساومات فـ "الجسد حتما

---

[١] - موريس ميرلوبونتي :المرئي واللامرئي ، ترجمة عبد العزيز العيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط٢٠٠١، ص٦٢
[٢] - رسول محمد رسول: الجسد المتخيل في السرد الروائي، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط١، ٢٠١٤،ص٢٩.
[٣] - حاتم الورفلي : بول ريكور...الهوية السردية، دار التنوير، ط١، ٢٠٠٩، ص٢٦.

ينتمي إلى الأرومة التي تحدد هوية الانسان، فدون الجسد الذي يعطيه وجها لن يكون الانسان ما هو عليه"[١]

إنها رواية وقوع الذوات تحت وطأة الجسد وتلاشي الهويات تحت رحمة الشهوة، إنها انعكاس لقلق وجودي ولحياة عبثية وسجن إنساني داخل بوتقة الجسد. هذا الأخير "قد يكون مجازا إيديولوجيا يمكن الفرد من التعبير أو النفي بعدد الممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي يعيش فيها الجسد، إنه يرتبط بالضغوط وعوامل الضبط الاجتماعي بالإحباطات والحرمانات الكثيرة التي يحياها المرء" [٢]

اللعبة التي أرادت الرواية أن تتخفى وراء ها لترسم ملامح الذوات العربية الحائرة والأجساد المتمردة.. إنه الجسد العربي الذي استبيح للجميع فاغتصبوه دون رحمة، إنه جسد الوطن العربي وأي وطن هذا، و طن عار من اللباس، من الأمان، من الحقيقة، من الحياة والحياء، وطن بلا روح، وطن من ورق.. وهذه العقد التي تحدثت عنها الرواية إنما هي أمراض هذا الجسد العربي وعقده الجسدية والجنسية التي تنم عن علاقة مشوهة بعيدة عن الأمان والراحة والاحترام للآخر جسدا/ كيانا / هوية.

إنه الوجع المصري الذي يتملص من المسؤولية، فلا يجد غير وسوسات الشيطان وإغراءات النساء "كلما حاصرني حب الوطن بنيرانه وأسهم حقده، وحاول قتلي هربت منه تحت جلد النساء حتى أضمد جراحي"[٣] وهو تعبير عن حالة الاستسلام الروحي.. أين تغيب الروح وتعلو سلطة الجسد التي تعري عفن النفوس فتهرب من خطاياها ومآسيها عبر متاهة الجسد؟.

كما تعبر الرواية عن حالة من الاغتراب الروحي والاضطراب النفسي الذي تعيشه شخصيات الرواية لتنكشف من خلال المخاوف والأوهام التي يعيشونها؛ فها هي سهر

---

(١) - دافيد لوبرتون: أنثروبولوجيا الجسد والحداثة، تر:محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الحمراء، بيروت، ط٢ ،١٩٩٧ ، ص.٥.

(٢) - عبد الناصر هلال خطاب الجسد في شعر الحداثة قراءة في شعر السبعينات ص٧٠ ١.

(٣) - حافظ السيد، قهوة سادة

تعيش حالة خوف من مستقبلها وجمالها، وتخشى أن يكون جمالها لعنة عليها مثلما كان مع شهرزاد، وها هو كاظم غارق في أوهامه ينام على حمى سهر، ويستيقظ معانقا أحد كتبه الجنسية وأما شهرزاد فقارئة المستقبل التي عجزت عن قراءة مستقبلها وفشلت طقوسها وكتبها وثقافتها عن نزع لعنة جمالها، وها هو فتحي رضوان أسكرته المظاهرات والشعارات وأتعبته النساء المتعددات الجنسيات وقاتله الشعور بالازدواجية واللانتماء ليجد نفسه بلا كيان بلا وجود وبلا وطن:

"وجدتني أثناء محاكمتي أبكى لأني سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبي.. وجدتني مواطنا بلا وطن.. وجدتني مشروع كاتب في وطن أمي.. ومثقفا وسط أدعياء.. وطيبا وسط أشرار.. وجدتني حلما يمسح مؤخرة الوطن الذي يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو الذين سرقوا مجوهرات الملك فاروق وسنوات مصر وأصبحوا باشوات هذا الزمان.. وجدتني بسمة على شفاه أطفال لا تعرف الرياء.. وجدتني أعشق كل الأنبياء وأنه من الغباء ألا نشعر أن الإنسان خليفة الله على أرضه وتحت سمائه".[١]

أليست هذه أجساد حائرة تشعر باللانتماء واللا هوية بعد أن سجنتها أجسادها وأفرغتها من روحانيتها. أفرغتها من حب الوطن وملأتها بحب الأجساد الفانية، أفرغتها من الأمان وملأتها بالوجع، وأي وجع هو:

"أه.. أشرقت في نفسي لحظة اكتشفت فيها أن الوجع ليس له هوية وليس له انتماء.. اكتشفت أن حب الوطن والكتابة عناء.. ألقيت أشواقي على أحرف اسمك يا وطني فتحولت على الورق إلى ثلاث زهرات ذابلة"[٢]

رواية "قهوة سادة" تحاول رسم ملامح الجسد العربي عموما والمصري بشكل خاص، الجسد الهارب من هويته وانتمائه والمتخفي وراء لعنة أجساد عارية.. غير أن بذور الأمل مازالت تبعث فيه الأمل لغد أفضل، ووطن أفضل. "الوطن يذبل ويموت

---

[١] - قهوة سادة: حافظ السيد، ص ٣٥.

[٢] - قهوة سادة: حافظ السيد، ص ٣٥.

كالزهور ثم يحيا بعد أن نلقي فيه ببذور عشق جديدة".[١] وهي نظرة استشرافية لمستقبل أفضل وأحسن بعيدا عن لغة السلب والإحباط، فالرواية بعد غرقها في اليأس والعدمية ترمي ببذرة أمل للقارئ بعد أن ذاق مرارة القهوة السادة في وطن عربي يعيش في العتمة والسواد والفساد لكنه يتوق الى غد أفضل .

كانت هذه رشفة من فنجان قهوة سادة سوداء كالليالي الحالكة، ومرة كمرارة الحياة في وطن غريب تاهت روحه واغتصب جسده.. فـ "إذا مر قبلي على بابكم أخبروني فقد ذهب ليبحث عن وطن ليتدفأ به في هذا الشتاء".[٢]

"أكتب هذه الرواية بحثا عن روح مصر

المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى، للإنسان فيها معنى وقيمة و حضارة حقيقة فعلا وقوة" .. السيد حافظ

---

[١] - قهوة سادة، ص ٣٥.

[٢]- قهوة سادة، ص ٣٥.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

السيد حافظ: قهوة سادة (رواية): الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر، ط١، ٢٠١٢.

المراجع:

١. رسول محمد رسول: "الجسد المتخيل في السرد الروائي"، النايا للدراسات والنشر،سوريا، ط٢٠١٤،١.

٢. دافيد لوبرتون: "أنثروبولوجيا الجسد والحداثة"، ترجمة :محمد عرب صاصيلا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، الحمراء ، بيروت، ط٢ ،١٩٩٧

٣. فريد الزاهي: "النص والجسد والتأويل": إفريقيا الشرق، الدار البيضاء ،٢٠٠٣.

٤. عمر محمد منيب أدلبي، سرد الذات فعل الكتابة وسؤال الوجود دراسة في فن السيرة الذاتية، إصدارات دار الثقافة والإعلام، حكومة الشارقة، ٢٠٠٨.

٥. كاترين هالبيرن وآخرون: الهويات الفرد، الجماعة، المجتمع، ترجمة إبراهيم صحراوي، دار التنوير، الجزائر، ط١، ٢٠١٥.

٦. عبد الناصر هلال: خطاب الجسد في شعر الحداثة، قراءة في شعر السبعينات، مركز الحضارة العربية القاهرة، ط١ ،٢٠٠٥ .

٧. موريس ميرلوبونتي :المرئي واللامرئي، ترجمة عبد العزيز العيادي، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط١، ٢٠٠٨.

٨. حاتم الورفلي : بول ريكور...الهوية السردية، دار التنوير، ط١، ٢٠٠٩

الموتيف في رواية " قهوة سادة "
بقلم أ. دينا نبيل

توطئة :

في محاولة لتصنيف الحكايات الشعبية العالمية، قام عالم الفلكلور الأمريكي ستيث طومسون بوضع "معجم الموتيفات في الأدب الشعبي" عام ١٩٣٢، مؤثثاً بذلك مصطلح "الموتيف" لأول مرة والذي صار فيما بعد أساس نظرية فلاديمير بروب في دراسته وظائف بُنى الحكاية العجائبية. ولم يتوقف مصطلح الموتيف عند حدود الحكايا الشعبية والأساطير، وإنما تجاوز كونه (أصغر وحدة جزئية في الحكاية الشعبية [...] لتصبح منهجاً متكاملاً لفهم كثير من الظواهر الثقافية والفنّيّة)[١]؛ فصار جزءًا من الفنون التشكيلية والموسيقى إلى جانب الدراما والقص. والموتيف كما يعرّفه د. سليمان العطّار، هو (موقف نمطّي يتكرر منتزع من الواقع على يد الخيال، وله ملامح محددة لها قدر كبير من الثبات بعد انتزاعه من موضعه في سياق عدد غير محدد من الأعمال الأدبية الشعبية والفردية ثم تجريده، ثم يصنف في مجموعات يطلق على كل منها إطاراً موتيفياً)[٢]، ومثال ذلك الفتاة التي تغادر المكان مخلفة فردة حذائها، فيمكن أن يتغير تشكيل وحدة التعرف على الفتاة ليصبح منديلاً في حكاية أخرى، ومثال آخر الشخص الذي يعود بعد غياب ولا يتعرف عليه أحد إلا من علامة في جسده، وقد تتغير تلك الوحدة وتصير خاتمًا مثلاً أو قرطًا، فبالرغم من اختلاف تشكيل الموتيف إلا أنّ ملامح الموقف ذاته تبقى نمطّية.

وقد يحوي العمل الأدبي الواحد أكثر من موتيفة، فتبدو الموتيفات كتمفصلات وتعشيقات تفرز ظواهر وتقنيات تؤثر في البنية السردية، ومن ناحية أخرى تسهم في تحفيز الموضوعة الرئيسة التي يدور حولها العمل الأدبي.

ورواية "قهوة سادة" للأديب السيد حافظ الصادرة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب لعام ٢٠١٢، رواية ملحمية ليست الأولى للكاتب المسرحي الكبير، الذي أضافت تجربته المسرحية حسّاً فريدًا في كتابته الروائية، فـ(كاتب المسرح ليس إلا سياسًيا مبدعًا، يسيطر على ما حوله من واقع مفتت سيطرة الوعي المضيء، فيسعى للملمة شمل الفتات المتناثر خالقاً منها صورة متناسقة ذات نظام في عالمه)[٣]. والرواية تنقسم إلى جزئين: "حكاية سهر والعشق والقمر" والتي تمثل الواقع المعيش بين مصر وسوريا بعد حلّ الوحدة بينهما عام ١٩٥٨، والجزء الثاني: "حكاية نفر وإخناتون والنيل" والتي هي حكاية داخل حكاية، يتنقل فيها القارئ بين مصر الفرعونية ومصر الحديثة والشام، وهي محاولة لسبر أغوار الشخصية المصرية في واقعتين تاريخيتين فاصلتين من تاريخ مصر: هزيمة ٦٧ وثورة إخناتون لتوحيد الآلهة، بوصف الرواية الشكل (الملحمي المرن القادر على تصوير وتحليل وتجسيد بانوراما الحياة المصرية في كليتها الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في سباق التطورات والتحولات السياسية والاقتصادية)[٤]، ثم يجمع الكاتب تلك المشاهد المتوالية - الأشبه بالمشاهد المسرحية التي تنبثق من بعضها وتتنقل عبر الزمان والمكان - في توليفة واحدة مما أضاف إلى ثرائها وعمقها. استعان الكاتب في لحم هذا التقطيع بتعشيقات موتيفية استعارها من الحكايا الشعبية في التراث العربي والأساطير المصرية القديمة والسومرية والإغريقية مما أعطى العمل عالمية أشمل، إلى جانب توظيف الرؤى الصوفية والتوثيقات التاريخية والصحفية، للتركيز على موضوعة وحداوية العالم وانبثاقه من ذات واحدة ألا وهي الروح .

المحاور:

١- مأتم الجسد (الفناء)

٢- البناء والهدم

٣- الثورة

٤- البحث عن الذات والخلاص

مأتم الجسد (الفناء):

يأتي العنوان الموضوعاتي "قهوة سادة" معتمدًا على مضمون الرواية عن طريق (المجاز المرسل والكناية المتعلقة بموضوع لا يتموقع الحديث فيه كثيراً)[٥]، فاستعان الكاتب بالوحدة الدلالية - القهوة السادة – التي ترسل للمتلقي منذ مصافحته عتبة النص الأولى إيحاءً بالموت وما يصاحبه من مأتم يسترعي انتباه القارئ لتعقب الجسد الفاني في النص.

وهذا الارتباط بين القهوة السادة والمأتم من الموروث الشعبي العربي، لذا فيؤكد الكاتب في "صدر الرواية" على موضوعة فناء الجسد وما يرافقه من غرائز جبلّية: "أنسى أنّ النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح /٩"، فيجذب معه المتلقي نحو التسامي عن مطالب الجسد الدنيوية. وقد قام الكاتب بتخليق موتيفة جديدة من وحدة شُرب "القهوة السادة" وربطها بالموت أو القتل من ناحية، والنشوة الروحانية من ناحية أخرى، ويظل الكاتب يرسلها على دفعات مقدماً معها ارتقاءات إنسانية تبدأ من الجسد وشهواته منتهية إلى الروح.

ففي أول تقدُمة لموتيف القهوة السادة يربطه الكاتب بشهوة النكاح، "تنصح [شهرزاد] بعض النساء بعمل فنجان قهوة على الريحة قبل الجماع بنصف ساعة/١٧"، ثم يستعين به الكاتب لإظهار شهوة من نوع آخر وهي السلطة وفساد الحكام، يقول البطل - فتحي رضوان: "دعا ابن عباد القاضي [...] كل حكام الإمارات في الأندلس [...] للغداء ثم الاستحمام في الحمام الجديد الفاخر.. وشرب القهوة السادة هناك.. وأثناء الاستحمام أغلق عليهم الباب بالطوب والخشب وجعلها مقبرة جماعية/ ٧٧"، فهذا دليل على تفشّي الدكتاتورية واستغلال المكر والدهاء وتحليل القتل للانفراد بالسلطة – أكثر الشهوات إغراءً للإنسان - ثم يربطها بتوثيق تاريخي لمواقف مشابهة في أزمان مختلفة: محمد علي، وجمال عبد الناصر، وصدام حسين؛ لأنها أكثر المشاكل التي عصفت بالأمة

العربية.

كما استخدم الكاتب الموتيف بإيحائه الحسي – المذاق المُر– كناية عن استنكار الأوضاع في الوطن، يقول فتحي: "هل خدعت الشباب بحبها؟ وأنها أم الدنيا وأنا لست أولهم؟ [...] أنا قلت لهم إن لبن ثديها نقي تقي ثم وجدت اللبن في ثدي مصر هو دم رائحته قذرة ممزوجة بطعم القهوة المرة/ ٨٩"، فهذه ثورة ضد الجسد المصري الهجين الذي يتسّيده الخدم والرعاع محبو التملق والنفاق، وتعلو فيه رؤوس فساد لا تنظر إلا إرضاء نزواتها.

وفي تمفصلٍ فارق في الرواية تبدأ الروح بالانفصال والعلو عن الجسد الضائع، يقول فتحي: "آه في البرد أحتاج إلى قهوة سادة.. وإلى حضن أنثى [...] ينسيني أنثى ليس لها مكان إلا في جنة عشقي/ ١٠٦"، فتلك الموتيفة وما يصحبها من ملامح جديدة كانقطاع الكهرباء في الشقة ومرافقته زميلته الجديدة ماجدة، التي تجسد في سمراوتها مقومات الشهوة، وشعور البطل بالضياع والتخّبط في الظلام، توحي بظلمة دونية الجسد ومتطلباته، لتبدأ بعدها مرحلة الارتقاء الروحي والتصّوف.

تتمظهر الرؤية الصوفية بجلاء في الرواية، كون (الصوفية في العصر الحديث دخلت ساحة الإبداع الأدبي بوصفها أحد العناصر المهمة في التيارات الحديثة وخاصة السريالية)[٦]، فتسلّم بفناء الجسد - أحد مقامات الصوفية - متخذة من "القهوة السادة" وسيلة للتنبيه الروحاني، يقول فتحي: "القهوة قبلات للروح كي تنهض [...] أكره أن روحي تغفل وعقلي يتوقف عن التأمل/ ٢٦٦"، فالقهوة لصيقة بمجالس الذكر الصوفية، لأنها تعطي فسحة للتأمل إلى حدّ يصل أحياناً إلى الهلوسة، "هذا هو فنجان القهوة أمامي قد برد.. وزهرة على المائدة ذابلة [..] أيتها المدينة التي تدعى القاهرة.. تعالي من وسخ الشوارع [...] تعالي ولو مرة واحدة لتشربي معي القهوة وأنتِ طاهرة/ ٣٥٩".

إنّ الجسد في نهاية الرواية يذوي تدريجياً حتى يصل إلى الفناء وعندها تتطهر النفس من جميع الأدران وتتمكن من الرؤية بصورة سليمة؛ وهذه الرؤية (مزيج من استعداد

فطري ومؤهلات اكتسابية بعد رياضة وإجهاد وسياسة للنفس)[٧]؛ فقد عانى البطل واقعاً مؤلماً إثر انهيار كثير من المسلمات عن حاضر الوطن، "فتحي رضوان كان نموذجاً لملايين الشباب العربي والمصري الضائع الذي تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أميركا والغرب/١٨٥".

وتتداخل الرؤية الصوفية لموضوعة فناء الجسد مع موتيفة البحث عن الخلود بعد الفناء في أسطورة كلكامش السومرية، فحين وصلت رحلة كلكامش إلى نهاية مطافها، بدت له حقيقة الوجود الإنساني الآيل إلى الفناء الجسدي، فبدأ التفكير في الخلود الأخلاقي من خلال الصنيع الطيب. ومن ثّم تتضح الرؤية الصوفية عبر الموتيفة كون التصوف (حاجة إنسانية ونفسية للخلاص والسمو والصفاء الروحي الذي لا بد وأن تسعى إليه النفس البشرية)[٨]، بل وتظل الروح تتنقل عبر الأجساد الفانية بغية الخلود، وبإسقاط تلك الرؤية على واقع البلد المرير الذي أودت شهوات أصحابه من حكام ومحكومين به فصار وردة ذابلة، يقول فتحي:"الوطن يذبل ويموت كالزهور ثم يحيا بعد أن نلقي فيه ببذور عشق جديدة/ ٣٥" فيدعو الكاتب على لسان البطل أبناء الوطن للتطهر من الشهوات والانبعاث الروحي من جديد.

وبسبب ارتباط القهوة بالتصوف فقد أضيفت لها إحدى لوازم الصوفية وهى ادعاء علم الغيب والكشف عن المستقبل بقراءة فنجان القهوة الذي لم تكن تجيده في الرواية سوى "شهرزاد العّرافة" ، إلا أنّ الكاتب استخدم تلك الموتيفة بشكلٍ مغايرٍ، فرغم تنبؤ شهرزاد لمستقبل "سهر" بخروجها من الجبل والشام لتتزوج في الخليج إلا أنّ موتيفة القهوة السادة لم تكن لتلك النبوءة وإنما لكشف واستجلاء روح "سهر" الماضية: "مالت شهرزاد [...] وأخذت تصبّ القهوة، قالت: بلغني يا أميرة سهر أن الجميلة نفر عاشت في قصر الفرعون إخناتون/٣١٠"، وهي محاولة للبحث في الروح الإنسانية الأصلية، الذات الصافية التي لا تتغير عبر العصور ولا الأماكن.

وتبعاً للرؤية الصوفية والأسطورة الفرعونية فإن الأرواح تتناسخ وتحل في أجساد

الآخرين؛ ومن ثّم تظهر علاقة اسمي "كاظم" مع "باكا" واشتراكهما في الفونيمة "كا" والتي تعرف في اللغة الهيروغليفية بكونها (مظهراً من مظاهر الطاقة الحيوية كقوة خلاقة وكقوة تحفظ الحياة)[٩] يعني الروح، وتلك الرؤية جعلت الكاتب يتحكم في عجلة الزمان فيعيدها من الحاضر إلى الماضي ثم إلى الحاضر مجدداً بحلول وأجوبة أصيلة لواقع معاصر محّير.

البناء والهدم :

تركز الرواية على موضوعة دورة الحياة وتكرار أحداثها حد الثبات، فتلتقي موتيفة القهوة السادة وفناء الجسد بموضوعة الثبات التاريخي، إذ (التاريخ حلقات من عصور تتكرر، فالزمن ليس تقدماً إلى الأمام بل هو عود على بدء)[١٠]. إن موضوعة العجلة الزمنية المفرغة إحدى إحالات موتيفة البناء والهدم المنبثقة من موتيفة الغزل والنقض في ملحمة الأوديسة الإغريقية، ففي الليل تنقض "بنيلوبي" ما تغزله في النهار في انتظار زوجها "أوديسيوس" وهكذا دواليك، ومثل تلك الدائرية حاصلة في الرواية، فنجد مثال ذلك ما ذكره الراوي على لسان فتحي رضوان، أنّ الحزب الوطني الذي أسسه مصطفى كامل، أعيد بناؤه على يد السادات بعد تداعيه وسُمّي بالحزب الوطني الديمقراطي ليرأسه رئيس مصر، وهو ذاته الذي حُطّم في ٢٠١١ على يد الثوّار، "وتم تغيير اسمه إلى الحزب الوطني الجديد بعد تولّي طلعت السادات رئاسته [...] حتى تم حل الحزب نهائياً بقرار من المحكمة الإدراية /٢٠١". إنها لُعبة تغيير أسماء وشعارات فحسب وليس تغييراً حقيقياً يتدخل فيه الإنسان بقوة ليرغم تلك العجلة على التوقف عن هزليتها..

يقول فتحي: "كان لابد ولزاماً علينا بعد النكسة مباشرة أن يتغير المناخ الثقافي في مصر [...] كان لابد أن تتغير الكلمة وتنبع من أعماق الشعب وليس من أعماق الزيف [...] تغييرا جذريا ولكن للأسف لم تتغير سوى شعارات أو تغيير بعض الأفراد وتعيين مرتزقة جدد/ ٢٩٧ " فإن الرضوخ والتسليم للواقع يقّيد الإنسان في عجلة الزمن وتجعله يرسف تحت نيرها دون توقف، ومن المفارقات أنّ هذه العقلية من الموروثات الفرعونية،

يقول "بتاح حُتب"- أحد حكماء الفراعنة: (نحن أمام من هو فوقك [...] حتى يستمر بيتك مفتوحاً ويستمر رزقك ومرتبك جارياً ولا تعصه، فإن عصيان من بيده السلطة شر مستطير)[١١] فالنفس المصرية لديها إيثار الاستسلام للواقع بدائرية حركته على تحمل صعوبة التغيير.

بينما تظهر الحالة الفريدة للبناء الحقيقي فيما أراده إسخناتون من تغيير العبادة في مصر لتوحيد شتات العقل والوجدان المصري بين آلهة دونية في سبيل النظر إلى السماء وعبادة آتون "الشمس".. "كان إخناتون أول قائد فعلي في التاريخ لم يهتم برأي الشعب في العبادة، ووقف ضد الرأي العام [...] ومن سوء حظ إخناتون أن يفرض عقيدته في بلد لم يكن فيه رجل يستطيع نسيان الماضي غير إخناتون نفسه/٣٣٣"، فبينما هو ينقض ما قبله بتحطيمه تماثيل الآلهة القديمة في الليل، ليحكم غزله ببناء المعابد الجديدة لآتون، وتراتيله وأناشيده لتمجيد الإله الجديد ودعوته الرعية لاتباعه في مبادئه ثم إنشاء أكثر من مدينة تحمل الاسم ذاته "أخيتاتون" أي مدينة آتون، إلا أن غزله كان ينقض يوماً بعد يوم من زوجته "نفرتيتي" وقائد الجيش "حور محب" والكهنة المتآمرين على قتله.. "وقد أعاد الكاهن الأعظم باسم توت عنخ آمون [ابن إخناتون] عبادة الآلهة القدامى [...] إن سقوط إخناتون كان يعتبر في نظر أعدائه المنتصرين إعادة للنظام الخلقي القديم [...] كان مذهب إخناتون كشهاب لامع وسط ظلام دامس فجذب النظر وترك بعض الأثر/ ٣٩٢" ، وهكذا نُقِض الغزل لتعود الأمور إلى ما كانت عليه. وإن كانت تلك الأحداث منذ آلاف السنين، فإن إسقاطها على حاضر مصر بعد ثورة يناير ٢٠١١ ينقل وعي الكاتب وقلقه على مستقبل البناء الآخذ في التصاعد بعد الثورة وخشية الأيدي الخفية من اللعب بالبناء فيعود النظام السابق كما كان.

وتتجسد موضوعة دورة الحياة قرب نهاية الرواية في آخر مشهد لفتحي رضوان مع دودة القزّ – الرمز الموتيفي للغزل والنقض- لتجسيد الفكرة في بساطتها؛ فالدودة تغزل شرنقتها بالحرير الثمين وتظل خاملة حتى تصير فراشة، يقول فتحي: "فراشة دودة القز

ربما هي روح أنثى.. ربما هي أنثاي المسحورة/ ٣٨١" ، إلا أنّ عمرها قصير، لأن القاهرة "مدينة لا تحب المواهب الكبيرة ولا المبدعين الكبار.. الحسد يفتك بعقلها/ ٣٨٣"، وبالرغم من عنصر النقض بموت الفراشة المحتوم إلا أنها حلّت غزلاً حريرياً ثميناً وبيضاً يعود مجدداً لإكمال دورة الحياة، وبإسقاط هذه الرموز على الواقع، تتبين بارقة الأمل لدى الكاتب بظهور أجيال جديدة تشبه دودة القز، تغزل النفع والخير، وتنسى نفسها في سبيل مصلحة الوطن.

الثورة:

نطلاقاً من علاقة الأدب بالسياسة، تظهر الملامح السياسية في رواية "قهوة سادة" في تبنيها قضايا الثورة على الاستبداد والأوضاع السلوكية بوجه عام وبث الوعي بحقيقة الأزمة العربية. ونتيجة للهزائم المتكررة في تاريخنا العربي، فقد جنح الأدباء إلى استجلاب شخصيات تاريخية وتراثية وأسطورية، إذ (كان من الطبيعي أيضاً أن تتلازم أسئلة التراث والمعاصرة [...] مع أسئلة الهزيمة التي أنتجت معاً حراكاً ثقافياً عربياً عنَيبالعودة إلى الجذور لاستلهام التراث بأشكاله كافة)[١٢]، وهو بالضبط ما قام به السيد حافظ في الرواية معتمداً على موتيفات متنوعة.

لجأ الكاتب إلى موتيفات تراثية وأسطورية تجسّد الواقع العربي على الصعيد السياسي وما يعصف به من استبداد من قبل الأقوياء، وموضوعة الثورة في مقابل الاحتكار والاستبداد تتماس مع موتيفة أسطورة "بروميثيوس" الذي تمرّد على احتكار الآلهة للنار، فـ (يرفض الاستسلام ويأبى الخضوع والانسياق ويحلم بالانتصار على الرغم من العذاب الشديد)[١٣]، وإنّ رفض الاحتكار والانفراد بمقومات السلطة من الأسس الأولى للثورة، يقول فتحي: "الطغاة كلما نهبوا طمعوا، كلما دمروا وهدموا، كلما موّناهم وخدمناهم زادوا جرأة واستقووا وزادوا إقبالا على الفناء والدمار. فإن أمسكنا عن تموينهم ورجعنا عن طاعتهم صاروا بلا حرب ولا ضرب/ ٢٣٧"

ومن ثّمتتضح علاقة الموتيفة بالثورة ضد مظاهر الاستبداد والاحتكار مع تحمل تبعات

الوقوف في وجه من بأيديهم السلطة، فمصير الثّوار في الغالب إما العذاب والسجن مثل "كاظم" عند اتهامه بالشيوعية أو القتل كما يقول فتحي عن الأمير فخر الدين الشامي المستنير: " يا ويلك يا فتى هكذا يموت الثوار بلا صوت / ٦٠"، أو مصيرهم في طيات النسيان ولا يبقى منهم سوى تذكار، يقول سالم والد سهر: "كان الماضي حياً.. كفاح ونضال وتحرير [...] الآن الأمور ليست هكذا أعطوا كلاً منا نيشاناً ووساماً وشهادة تقدير[...] ولا شيء حصل.. الجنرالات حصلوا على كل شيء المناصب وأراضي ومال.. وأصبحت المقاومة في خبر كان/ ١٥٣" ، فهذا ما يحذّر منه الكاتب ومن مصير الثورة، لاسيما وأنّ الرواية كتبت بعد ثورة يناير ٢٠١١، فهو يتكلم بلسان البصير للأمور كي لا تؤول الثورة وحال الثوار إلى مثل من كان قبلهم.

وعلى الصعيد المجتمعي، تتبدّى الثورة على أوضاع المجتمع من خلال موتيفة العمل من أجل اللاعمل المنبثقة من أسطورة "سيزيف" - رمز العبثية - الذي تحدى الآلهة وقَبِل العقاب الأزلي بحمل الصخرة إلى قمة الجبل لتسقط إلى السفح فيعود ليحملها من جديد، و(ترمز أسطورة سيزيف باختصار إلى مجانية العمل الإنساني وضياع الجهد)[١٤]، ويترتب على ذلك وجود من يعمل ويكدح في مقابل من يقبض ثمن هذا العمل دون عناء، لذا فـ (طبقات المعنى الكامنة تحت رمز هذه الموتيفة ستمثل صراع الإنسان الطبقي)[١٥].

ويبدو عبر هذه الموتيفة المجتمع مصغّراً بطبقاته: أسرة "سهر" الشامية البسيطة ذات الكبرياء، فبالرغم من الفقر إلا أنّ "الأب كان سياسياً يحارب العدو الفرنسي المحتل/ ٨١"، والتاجر "شداد" الذي يمثّل الرأسمالية البورجوازية، "شداد تاجر فاجر يشتري ويبيع كل شيء.. شداد يشتري النساء كما يشتري الفاكهة.. النساء عند شداد مثل التفاح والتفاح أنواع حسب الطعم والمكان/٨٦" ، فينظر إلى "سهر" كونها صفقة تجارية يدفع من أجل الفوز بها بأي طريقة حتى وإن وصل الأمر إلى الرشوة والخطف، وهذا البَون بين الطبقتين يفرز طبقة دنيئة من البشر تتخلى عن المبادئ وتستغل فاقة الآخرين،

مثل مختار القرية "بسام" الذي تبدو فيه موتيفة زير النساء، تقول شهرزاد: "بسام القصير المكير الذي لا يتوارى أبداً عن فعل أي فاحشة في السر وخاصة مع النساء والمطلقات، واللائي يسافر أزواجهن إلى العمل بالخارج بحجة أنه يرعى النساء المكسورات الجناح/١٠١"، بل ويضحي بأمانيه - الزواج من "سهر" - في سبيل أمانٍ أكبر "التاجر شداد وعده أن يعطيه أوتوموبيل فرنسي هدية للزواج/ ١١٣"، ومن ثّم تظهر الهوة الكبيرة بين والد "سهر" الذي يحارب المحتل الفرنسي، وبين بسام وشداد اللذين يتاجران مع المحتل في سبيل إرضاء رغباتهما..

ومن خلال هذا الصراع يتبين لدى المتلقي العلاقة بين "سهر" والوطن كون (العالم المرجو تخليصه هو المرموز إليه بالمرأة)[١٦]، إذ الجميع يطمع في الوصول إليها بطرق شريفة وغير شريفة ويحاولون شراءها إلا أنّ والدها الثوريّ القديم يرفض كل ذلك بحس ثوري بسيط، ومن ثّم تتضح أصناف البشر أمام الوطن وتناحر الطبقات إما بالحفاظ عليه أو التفريط فيه والتهاون في حقوقه من أجل المصلحة الخاصة.

كما عمد الكاتب إلى استخدام موتيفات تراثية عربية وتوظيفها مع موضوعة الثورة بطريقة حداثية، ولعل أكثرها وضوحاً هي شخصية "شهرزاد" التي تتناص جزئياً مع "زرقاء اليمامة"، ومن ناحية أخرى مع موتيفة "شهرزاد ألف ليلة وليلة". فتلتقي مع زرقاء اليمامة لا في زرقة العينين فحسب وإنما في بُعد النظر، فإن كانت زرقاء اليمامة حادة الإبصار، فشهرزاد حادة البصيرة، فهي أول من تنبأ لسهر بمستقبلها: "اسمعي يا بنت سالم.. أنت لن يتزوجك ولا واحد من الفلاحين.. سيأتي من يأخذك إلى الخارج صاحب علم وفهم.. ويسافر بك إلى بلاد الذهب/ ١٥١".

وتلتقي مع موتيفة شهرزاد ألف ليلة وليلة إذ يقدّم الكاتب شهرزاد بشخصيتها في الرواية أقرب إلى الأسطورة "شهرزاد تعرف قصة لسان امرأة مسمّاة بالألفية جامعها ألف رجل/ ١٧"؛ فهي التي تحفظ الحكايات وكتب جلال الدين السيوطي وابن حزم وطوق الحمامة، وتفسّر الأحلام وتنصح النساء بنصائح المعاشرة ويتناقل الناس عنها الأخبار:

"قالوا عن جمالها تزوجها جنّي جميل.. ومنع كل الرجال عنها أو الاقتراب منها/ ١٨"
وهذا من منطلق الحكي الشعبي أنّ (تصور الزواج بين الإنس والجن وأحياناً تصور الحب بينهما بصورة سعادة واكتساب القوى ومعرفة المستقبل)[١٧]، وهذا سبب امتيازها عن بقّية النسوة.

وهي إلى جانب ذلك تمثّل أحد عناصر الثورة ضد الأوضاع المجتمعية الخاطئة؛ فإلى جانب شربها مشروب "المتي" الذي كان يشربه جيفارا – الثوري اللاتيني المعروف، كانت تقف أمام قوى الرأسمالية التي يمثّلها التاجر شداد - الذي بدوره يمثّل موتيفة عقدة شهريار –

"فهو لا يمانع أن يتزوج أي أنثى [...] شداد لا يتوانى عن شراء أسرة العروس أبوها وأمها وأخوها وأختها.. وعندما يتم الطلاق يترك لها بعض المال ومصاريف العيال [...] لا يعرف أسماء العيال ولا عددهم [...] وإذا تزوجت امرأة قطع عن أولاده منها أي زاد أو زوّاد أو مال.. عقاباً لها لأن أي امرأة تتزوج شداد يجب ألا تتزوج بعده/ ٨٧"

فإن كان شهريار يقتل النساء قتلاً حقيقياً، فإن شداد يقتلهن معنوياً وحسّياً معاً ويقتل معهن أبناءهن، فكل عام يتزوج من امرأة جميلة ويتركها ويرحل، فكانت شهرزاد "قهوة سادة" من أوضحت للأهالي وكشفت سره وألاعيبه على الفلاحين الفقراء لاسيما "سهر" - رمز الوطن في النص - تقول شهرزاد: "الحمد لله كشفت سره لأهل القرية.. حتى أنهم سيمتنعون عن بيع التفاح والزيتون له/ ١٥٢"

وهذا أساس الثورة الذي تكلّم عنه فتحي رضوان من إمداد الضعفاء للأقوياء في طغيانهم وبغيهم، فكان الامتناع والمقاطعة خير عقاب لهم.

البحث عن الذات والخلاص:

إن موضوعة البحث عن الوطن لا تقتصر على الغياب الحقيقي عن الوطن الذي ولد وعاش به المرء، وإنما قد يكون البحث مجازّياً فتكون الغيبة روحية أو غيبة الإنسان عن ذاته حتى يعثر عليها في الأخير. وباستقراء شخصية البطل – فتحي رضوان -

نلاحظ أنّه يعيش حالة من القلق الوجودي، فـ (يواجه الفرد بمسئوليته، ويدعوه لإدراك وجوده الأصيل)[١٨]، وتساوره الشكوك ولا يفتر عن طرح الأسئلة حول العالم الذي يعيش فيه لتمييز حقيقته عن زيفه حتى فيما يتعلّق بأكبر الحقائق في حياته – الوطن - "كان يبحث عن سؤال لماذا سميت مصر أم الدنيا؟ مع أن كل حياتها وتاريخها العسكري محتشد بالهزائم المنكرة/١٨٢" وغيرها كثير عن العروبة والازدواجية وأصل فلسطين هل هي عربية أم يهودية!، حتى يصل به الحد إلى الاغتراب الوجودي وهو (اغتراب عن وجود الإنسان ذاته، وإحساس المرء بأنه في العالم لا في بيته)[١٩]

يقول فتحي: "سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبي.. وجدتني مواطنا بلا وطن.. وجدتني مشروع كاتب في وطن أمّي.. ومثقفًا وسط أدعياء.. وطيبا وسط أشرار/ ٣٥" ومن ثّم فيفتقد الشعور بالانتماء ويفكّر في السفر، وتتماس تلك الموضوعة مع موتيفة التنقل والأسفار في حكاية السندباد البحري وبحثه عن الكنوز والترحال؛ (فالسندباد من حيث هذه الدوافع وغيرها رمز لقلق الإنسان وطموحه اللامتناهي إلى الحرية والانسلاخ من القيود، والرغبة في الكشف عن المجهول والغامض بالمغامرة وركوب الخطر وتخطى الصعاب، وتجاوز المكرور السائد)[٢٠]، فشخصية فتحي دائمة التنقل والسؤال للكشف عن حقيقة المسلمات، لذا فاستعان الكاتب بالتوثيق الصحفي والتاريخي لإظهار صدق وديمومة بحث البطل عن زيف الحقائق التي يسلم بها الناس بلا تفكير، فأدرج الكاتب اقتباسات من الصحف الرسمية ومذكرات الزعيم محمد فريد وخطابًا لجمال عبد الناصر وغيرها من كتب السيوطي وابن كثير.

وبالرغم من حداثة هذه التقنية إلا أنّ الكاتب أحسن في إدماجها بشخصية البطل ومقارنتها بأحداث مشابهة، وكان تنقل فتحي الجسدي كذلك بانتقاله من الإسكندرية إلى القاهرة ثم التفكير في السفر للكويت بغية حرية التعبير، وكذا التنقل بين الوظائف من خطيب باتحاد الطلاب إلى مصحح لغوي ثم مراسل للأدباء، فكل هذه التنقلات بما فيها التنقل بين النساء اللاتي أحببهن – ناهد وفيفيان وماجدة – باختلاف دياناتهن

وجنسياتهن تؤكد رغبته الجامحة في البحث عن ذاته ووطنه الذي ضاع بضياع ذاته. وإن كانت حالة الشك الوجودية مسيطرة على البطل، فهو (يحاول خلالها أن يجد طريقاً للخلاص من سجن العالم الذي أُلقي فيه دون إرادته)[٢١]، يقول فتحي: "أعلن أنا فتحي رضوان خليل حتى لو هزمتنا إسرائيل والعالم كله والأمريكان.. لن أهزم أبدا أبدا.. أنا روح وصمود هذا الشعب العنيد العبيط [...] ومن روحه أستضيء .. وأبعث في الكلمات وردة الحياة/ ٤٦"، ففتحي الخطيب الذي يحرك الطلاب ومشاعرهم، أشبه بالمخلص، ومن هنا تتلاقى شخصيته مع موتيفة المخلص الذي يضحي بذاته في سبيل الآخرين ووصول الآخرين إلى الحقّ، فبالرغم من امتلاك فتحي أدوات تجعله يتحكم بالجماهير – الكتابة والخطابة – إلا أنّه لم يضحِ بمبادئه ولم يسلك طرقاً ملتوية أو سهلة ككثير من أصدقائه.

وقد عمد الكاتب إلى موتيفة المخلّص بسبب الإحباط العاصف بالذات العربية فاستنهض (شخصية المخلّص بوصفها رمزاً أسطوريّاً معّبراً عن تطلّعات الجماعة المقهورة وأحلامها، والباحثة عن قوّة تبعثها من رمادها، وتستعيد لها إمكاناتها المضيَّعة)[٢٢]. وطبقاً للرؤية الصوفية في الرواية، فإن وسيلة الخلاص هي التخلّص من دنس الشهوات الدونية بالتحرر من ربقة الجسد للانطلاق في فضاءات الروح وكذلك (العودة إلى رحم الطبيعة، أو إلى قيم البداءة الأولى، لتحرير الإنسان من بطش القوى السالبة)[٢٣]، بل والاتحاد مع سائر العصور والحضارات السالفة، يقول فتحي: "من تلك المنطلقات يدخل في أحرفي العصر اليوناني والروماني والفرعوني يصيرون وحدة واحدة وفضاء بلا خريطة من تلك المنطلقات أشعر أني مجرد نقطة بيضاء وخطوط حمراء وصحراء مزروعة بياسمين شفتيكِ/٣٦٠"، وقد أعان الكاتب في تلك النظرة الشمولية كون الإسكندرية هي المسرح الرئيس للأحداث وهي مدينة (كوزموبوليتانية يتعايش فيها الجميع بكل حب وود وسلام منذ الأزمنة القديمة)[٢٤]، فالأجانب من جميع الأجناس والملل يعاشرون المصريين يقاسمونهم الألم والهم المشترك فيه الجميع كونهم ينتمون إلى المكان ذاته.

وتتمظهر موتيفة المخلّص في أكثر مظاهرها جلاءً مع إخناتون بوصفه الإنسان الوحيد في الرواية الذي استطاع تحقيق الصفاء الروحاني، والتجّرد من الاستبداد السلطوي والجسدي والأكثر استنارة وحرصاً على شعبه، فكان جزاؤه الخيانة والقتل، يقول إخناتون: "الكهنة سبب بلاء هذه البلاد باسم الآلهة يلعبون بعقول الشعب الساذج البسيط. أنا جعلت الآلهة إلها واحدا [...] أنا أجادلهم بالتي هي أحسن ولم أقتل أو أحاكم أحدا يعبد إلها غير آتون/٢٤٤ " ومن ثّم يسمو بأناشيده وخلقه عن الدنايا، فجاء مشهد قتله أثناء الصلاة واختفاء جثّته ليذكرنا بالمسيح وصعوده إلى السماء، فإن فَني جسد إخناتون المخلّص فإن روحه لا تزال موجودة وطبقاً للرؤية الصوفية التي تتلاقى هنا مع موتيفة المخلّص فإنها ستنزل من جديد.

وبإسقاط تلك الأحداث ورموز هذه الموتيفة على حاضرنا تتضح رؤية الكاتب وأمله في ظهور تلك الروح من جديد، ومن ثّم تتماهى تلك الموتيفة مع رؤية الكاتب التي ذكرها في "الإهداء"، يقول: "أكتب هذه الرواية بحثاً عن روح مصر المتخاذلة سبعة آلاف عام، وبحثا عن روح مصر أخرى للإنسان فيها معنى وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا.

خاتمة:

"قهوة سادة" رواية ملحمية دسمة تتزاحم بها الرؤى الصوفية والوجودية الفلسفية مع النظرة الواقعية التوثيقية للأحداث مما يضع المتلقي في مواجهة قوية مع ماضيه وحاضره وزمانه ومكانه وذاته والعالم بأكمله. وبالرغم من طغيان المسحة المسرحية على شكل الرواية إلا أنها كانت شديدة الترابط والتناغم بين المشاهد فيما بينها، وساعد على ذلك الموتيفات المتنوعة التي استخدمها الكاتب، وقد كان لتنوعها الأثر الكبير في أسطرة الكثير من جوانبها وشخوصها بل والنزوع إلى عالميتها فلا تكون قاصرة على شعب دون غيره، بل وكأنها اختزال كامل للحضارة الإنسانية بأسرها وهو مكمن إبداعها.

الإحالات :

١ - الموتيف في الأدب الشعبي والفردي "نحو منهجية جديدة": د. سليمان العطّار، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ط١، ٢٠١٢: ص ٩
٢ - المصدر ذاته: ص ٢٩
٣ - المصدر ذاته: ص ٢١١
٤ - أوراق نقدية في الأدب: عبد الرحمن أبو عوف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦ ص ١٧٠
٥ - عتبات (جيرار جينيت من النص إلى المناص) عبد الحق بلعابد، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف الجزائر، ط١، ٢٠٠٨ ص ٧٩
٦ - الواقعية السحرية في أدب نجيب محفوظ رواية "ليالي ألف ليلة": حامد أبو حامد، مجلة إبداع مجلة فصلية للأدب والفن، العدد ٩، شتاء ٢٠٠٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة : ص ١٠٨
٧ - بنية السرد القصصي الصوفي(المكونات والوظائف والتقنيات): د. ناهضة ستار، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٣: ص ٢١
٨ - المصدر ذاته: ص ٢٣
٩ - معجم الحضارة المصرية القديمة: جورج بوزنر، سيرج سونرون، جان يويوت، أ. أ. س. إدواردز، ف. ل. ليونيه، جان دوريس، ترجمة: أمين سلامة، مراجعة: د. سيد توفيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٦: ص ٢٧٩
١٠ - قال الراوي، تأملات في فن الرواية: أحمد عبدالمعطي حجازي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص٥١
١١ - آثار حضارة الفراعنة في حياتنا الحالية: محرم كمال، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص ١٩
١٢ - النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة: د. نضال الصالح، منشورات

اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠١: ص ٧٣
١٣- أثر التراث الشعبي في القصيدة العربية المعاصرة (قراءة في المكونات والأصول) دراسة: د. كاملي بلحاج ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، ٢٠٠٤: ص ٨٥
١٤- المصدر ذاته : ص ٨٧
١٥- الموتيف في الأدب الشعبي والفردي: ص ٦٧
١٦- المصدر ذاته: ص ٧٢
١٧- فنون الأدب الشعبي: أحمد رشدي صالح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧: ص١٤٠
١٨- المحاكاة السردية للقلق الوجودي في رواية "عزازيل": د. حجاج أبو جبر، مجلة الرواية قضايا وآفاق، العدد ٦، سنة ٢٠١١ الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة: ص ٣٥٧
١٩- المصدر ذاته : ص ٣٥٨
٢٠- أثر التراث الشعبي في القصيدة العربية المعاصرة: ص ٩٢
٢١- المحاكاة السردية للقلق الوجودي في رواية "عزازيل": ص ٣٥٨
٢٢- النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة: ص ٧٣
٢٣- المصدر ذاته: ص ١٤٥
٢٤- رواية الإسكندرية في الربع الأخير من القرن الماضي: أ. شوقي بدر يوسف، مؤتمر اليوم الأدبي الواحد، تطور الرواية السكندرية في الربع الأخير من القرن العشرين، ٢٠١٠، الهيئة العامة لقصور الثقافة، الإسكندرية: ص١٥١

قراءة في رواية "قهوة سادة"

بقلم أ. عواطف الزين

مشاهد مسرحية يمتزج فيها التاريخ بالواقع، بسير العشاق.. رواية "قهوة سادة" للسيد حافظ هي نمط مستحدث لفن الرواية العربية الذي بدأ يخلق أنماطه المختلفة البعيدة عن التقليد للغرب وعن "التقليدية" السائدة لهذا الفن السردي في عالمنا العربي منذ حوالي نصف قرن من الزمن.. في "قهوة سادة" نقرأ حكاية سهر والعشق والقمر.. عنوان رومانسي لمشاهد واقعية مكتوبة بعناية ودقة يمتزج فيها النضوج الأنثوي لسهر بوقائع مؤلمة مثل تنحي الزعيم الخالد عبد الناصر حيث نتعرف على واقع سهر وأسرتها، ومن ثم على كاظم معلم اللغة العربية في مدرستها لنكتشف أنه يعشقها بصمت، كما كثير من الأحداث التي تتداعى بصورة فيها من التلقائية والصدق تشعرك بأن الراوي هنا هو "حكواتي زمانه" ينتقل بك كقارئ من مشهد إلى آخر بيسر وسهولة، لكنها ليست السهولة المقدور عليها بقدر ما هي تطويع للغة وللمضمون وللمشهد بكل تفاصيله..

الانطباع الأول الذي كونته من خلال قراءاتي لهذه الرواية هو أنها عبارة عن مشاهد مسرحية تاريخية ملحمية ممزوجة بسير عشاق ليسوا من الخيال وإنما من الواقع.. وتلك الواقعية أكسبت الرواية مسؤولية تقديم العرض الروائي إذا صح التعبير، على شكل مشاهد مغرقة في الشفافية والصدق.. ليس بالضرورة أن تبنى الأحداث على خيال الكاتب، وإنما أن يوظف الخيال لخدمة الواقع من دون أن يؤثر ذلك في بنية الرواية.. ينتقل بك الكاتب من حالة عشق وحبيبة إلى حالة عشق وطن رغمًا عن مآسيه وكراكيب وحرتفات خياله.. هناك قدرة فائقة على التأثير والغوص في غمار ذلك الواقع التاريخي لسيرة الأوطان والأشخاص، وهما الركيزتان الأساسيتان للرواية من ألفها إلى يائها..

لست هنا في صدد عرض تفاصيل الرواية كمضمون وكبنية فنية وكلغة آسرة حتى في أدق تعابيرها ودلالاتها ومفرداتها؛ فالمشهد الروائي يحيط بكل ما تقع عليه الأحداث على خشبة الزمان والمكان.. ومن خلال عناوين تلك المشاهد يمكننا تلمس جو الرواية العام.. البداية مع حكاية سهر والعشق والقمر.. شعب كالعبيد "العروبة وهم أم حقيقة؟ هل يعود بك الفجر؟ الوطن ليس وردة.. أنت رعشة في الدم ..حكاية إخناتون.. لمن أكتب.. المساء والقمر في طيبة.. وتحكي شهرزاد "الشام".. أخجل أن أقول أنا مصري.. إخناتون قبل الضربة القاضية.. وعناوين أخرى كثيرة موزعة على ٣٩٣ صفحة من المتعة الروائية يجسدها السيد حافظ عبر قهوته السادة أي المرة التي تشبه الزمن المر.. أي زمن الرواية وزمن الواقع..

في ص ٤٤ نقرأ: "حب الوطن أكبر خطيئة لأنه كائن هلامي يسكننا ونسكنه رغمًا عنا.. لو علمنا أن الله يرث الأرض وما عليها لعشقنا الله فقط "

في ذات الصفحة:

"هزمت سوريا معنا واحتل الإسرائيليون الجولان والضفة الغربية من الأردن.. قال الأستاذ هيكل أن الملك حسين خان عبد الناصر والأسد، وأبلغ إسرائيل بموعد الحرب وساعة الصفر.. وكتبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل في مذكراتها نفس الكلام.. الجيش السوري خلع سراويله وترك الجولان، والجيش المصري خلع سراويله وترك سيناء وغزة والعريش، والجيش الأردني خلع سراويله وترك الضفة.. والجيش الإسرائيلي السري خلع سراويله أمام هتلر وحرق هتلر اليهود في المحرقة.. والجيش الألماني خلع سراويله أمام الجيش الأمريكي والإنجليزي في الحرب العالمية الثانية.. والجيش الأمريكي خلع سراويله أمام الجيش الفيتنامي تحت قيادة هوشي منه في حرب فيتنام.. والجيش الفيتنامي خلع سراويله بعد الحرب وقرر التمتع بالقمار والملابس والاستيراد والتصدير وممارسة البغاء.. يا صديقي إنها حرب السراويل.. العالم والبشر حقراء يشربون دم بعضهم صبحًا ومساءً.. إسرائيل حقيقة وليست كما قالوا، هزمت ثلاثة جيوش عربية في ٦ ساعات مصر وسوريا

والأردن"

وفي مكان آخر من الصفحة أو المشهد نقرأ: "منذ نشأة القاهرة في العهد الفاطمي وهي متسخة كما قال الجبرتي وحتى الآن.. إحنا شعب غلبان.. كيف نحارب ونحن لا نستطيع تنظيف شوارعنا من الزبالة ولا حتى صناعة كبريت صالح للتصدير؟"

هذا جزء من مشهد عربي واقعي يتسم بالسخرية والتهكم وهو يعكس حالة العرب المتردية ويعكس هزائم جيوشها في الحروب ويعري مجتمعاتها.. ويذكر في ص ٤٥ أن المرة الوحيدة التي نجح فيها جيش مصر بكرباج محمد علي الذي دربهم على القتال.. وضعوا في أذن الفلاح المصري اليمنى بصلة واليسرى قطعة قطن حتى يعرف اليمين من اليسار.

ولشهرزاد أيضا حكاياتها في هذه الرواية التي تشربنا القهوة السادة، بينما تمتعنا بكل تفاصيلها العميقة والشفافة في آن واحد، من وجهة نظر الكاتب السيد حافظ، الذي يقدم تصورًا لروايته من خلال رده على بعض ما تجمع لديَّ من أسئلة حول الرواية وحول عنوانها الملفت.. ماذا يقد الراوي هنا؟ هل للاسم من دلالة معينة تخدم الهدف الرئيسي منها؟ وكيف يترجم هذا الاسم ترجمة واقعية من خلال رسم ملامح عامة لزمان الرواية وأمكنتها المختلفة أو لنقل عصورها المختلفة.. إذ ليس بالضرورة أن تكون حاضرًا يستشف المستقبل أو محملًا بذكريات الأمس البعيد وعبق زهوره الوارفة حًبا وعشقًا ودفئًا.. فقط هي مزيج من هذا وذاك..

يقول السيد حافظ: شهرزاد إحدى بطلات الرواية هي امرأة سورية من الجبل تحب القهوة فأحببناها معها اندماجا وتقديرا وتوحدا، والقهوة عند الصوفيين هي تنبيه للعقل والروح للذكر فإنك تذكر الله وأنت بكامل الوعي والتفكير، والقهوة والشاي عندي مدد الروح للكتابة وعند الجنس في العشق القهوة وهكذا.

ما وظيفة قصص الحب مع ذلك الخيط الشفاف من الجنس في بعض المشاهد؟ وإلى أي مدى تتأثر رواياتك بالمشهد المسرحي الذي تجيد صياغته ككاتب مسرحي متميز وله مؤلفات مسرحية عديدة؟

أعتقد أنى متأثر بالشعر والمسرح والسيناريوهات التي قدمتها للشاشة، متأثر أنها تجربة القلم وخبرة العشق فلا مناص أن تجدي العشق والمسرح والسيناريو.. أن أخذ الرواية إلى فضائي الحياتى والكتابي

رواية قهوة سادة أيضا تعكس مرارات واقعنا المتأزم من خلال إسقاطات الماضي على الحاضر وتدور في فلك الأحدث كأنها تحمل قنديلًا للدلالة على مكامن الخلل الإنساني لأي مجتمع من المجتمعات؛ فعلاقات الحب أو العشق لا تحمل دائمًا دلالة سلام للنفس أو المشاعر قد تكون نابعة من حالات هروب من ذلك الواقع، وقد تحمل أيضًا الأمل في الخلاص من الظلم أو الكراهية أو الحقد أو التعصب ومعايشة الحقيقة وتقبلها.. يسعى الكاتب من خلال روايته إلى وضع النقاط على الحروف بوضوح حتى لا يختلط الحابل بالنابل ويفسر التاريخ على غير محمله.. من ناحية ثانية ليس بالضرورة أن يكون الكاتب هو الذي يحسب ويقيم ويعيد صياغة الوقائع إذا يكفي أن يدلنا عليها، وألا يفقد الكاتب معنى كتابته وهدفها.. في رأيي لا توجد كتابة خارج تأثيرات الواقع سلًبا أو إيجاًبا ولا يمكن فصل التاريخ عن الحاضر عن المستقبل.. هذا تماما ما يظهر في هذه الرواية العميقة التأثر بالتاريخ الإنساني أولا قبل تأثرها بوقائعها على الأرض..

قهوة السيد حافظ السادة أو المرة هي قهوة ممتعة بعد أن طوع مرارتها بفنية ومهارة.

قراءة لرواية "قهوة سادة"
للمبدع السيد حافظ
رؤية: فهمى إبراهيم

حين تجلس على طاولة المتعة الثقافية تقرأ رواية "قهوة سادة" للمبدع السيد حافظ، فإنك تـُسحر برائحة التحويجات الصوفية الرائعة في رواية شديدة التميز في أشخاصها وأحداثها زمانًا ومكانًا، وفي أجوائها المشبعة بعبق تاريخ يغذي الروح ويهب الحلَم فضاءً لا نهائي ويمنح العقَل قدرةَ التحليق.. بجناحين من تأمل للواقع واستشراف لما يتوقع.

تحويجات صوفية تضيف لذائقة الفكر طعمًا ممتعًا بنكهة الرؤيا الكاشفة، والإبداع الاستثنائي. "قهوة سادة" فنجان تحويجات تبوح للجسد بأسرار الروح، حتى تتخلص من كل ما يحاصرها من ذنوب وآثام، تقص عليك حكايات أسطورية الملامح عبقرية القسمات.

تحويجات صوفية.. تنبهك بأساطير فراعنتها وأبطالها، وطقوس كهنة معابدها.. تقرأ عليك طلاسم سر التوحيد.. وحكايات التوحد.. وتقمص الروح للجسد.. وتسمح لك بدخول عالمها الصوفي، المحاط بعبق أساطير تسترجع الماضي، لتضيف للحاضر سحرًا أسطوري الملامح، حبًا لتراب الأوطان وعشقًا للبطولة والتضحية، من خلال تصاعد إيقاعها الرشيق وتطلق عليك بخور ملوك جن تحويجاتها المنقوعة بالعشق والمطحونة برحي التاريخ والمعجونة بالدهشة.. وخلاصة متعة المعرفة. تنبه فيك الوعي بعشق خرافي الطلعة سحري القسمات.. خلطة تحويجات سحرية المذاق عطرية التأثير تتمرد على واقع تنبهك إلى تغييره أو تصنع لك حلمًا كنت تحتاج إلي تفسيره.. تنبه فيك الروح

والعقل وتتجاوز بك أسوار الممكن، ربما تصل بك إلى رؤية المستحيل.. إبداع حقيقي لكاتب متميز، استطاع أن يوظف أبطال ملحمته شخصيات تتكامل سلوكيتها مع الحدث تؤثر فيه وتتأثر به.

تتطور دراما الأحداث في أسلوب شعري يتميز به الكاتب، مع التطور الدرامي السلس لشخصيات الرواية، وطقوس سلوكياتها اليومية بارتكاب الحدث أو التأثر به، وارتباطها بساحات انفجاراته، وأجواء الصراع الناشئ مع هذه الشخصيات، ليأتيك حامل الربابة، ملك السحر والعطر بربابته الشجية، يلقي عليك تعاويذه وطقوسه، واضعا في فنجان قهوتك السادة، تحويجاته الصوفية الرائعة، يعطر جو الحدث ويلقي عليك حكمة تفسيره، أو يجعلك هائمًا في تيه اندهاشك، بعد أن أدخلك فيه وجعلك شريكًا وأنت لا ناقة لك ولا جمل.

ومنذ الرشفة الأولي تجد نفسك غارقًا في استمتاعك الخفي، باحثًا عن سر هذا الاستمتاع، الذي يأسرك بتحويجات أسلوبه الشعري الراقي، وتعدد شخصياته وتقارب خطوط مغناطيسيتها التي تكون لك مجالًا من السحر والعطر والمسك وتصعد بك آفاقًا صوفية المواسم والأمكنة وتلقيك في محطات تطهير الروح بعد أن يمنحها سبع فرص لتطهيرها حتى تأتي يوم الحساب لتأخذ حسابها بيمينها.

***

لقد استعاض الكاتب بإضافة تحويجاته الرائعة بديلًا موضوعيًا عن سكر القهوة التي تجعل من مرارتها مذاقًا يفوق مذاق السكر طعمًا وحلاوة وواقعًا وخيالًا حتى لا تخطئ الروح وتتحول إلي طبيعة حيوانية تفعل ما يروق لها من آثام وترتكب ما يدنسها من ذنوب.

هذه الرواية الرائعة تقع في حوالي ٤٠٠ صفحة مُقسمة إلى جزأين: الأول حكاية سهر والعشق والقمر، والثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل

عتبة أولي: إهداء

منذ بدايتها، ومن أول الإهداء تشعر بلوعة الكاتب في إهدائه إلي حفيدته وابنه، ويلقي إليك بإحدى تحويجاته.. تغريدته الصوفية الأولى التي هي بطعم البن المر ولكنها بنكهة وعطر الروح. {يا أيها العابرون علي ذكري طفولتي ألقوا عليها الورد والابتسام.. أنسى أن النساء جسد من لحم ودم وأتذكر أنهن عطر له روح } ص٩

عتبة ثانية

{وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا } صدق الله العظيم - سورة الإسراء الآية (٨٥)

إن هذا الجزء ما هو إلا تعبير عن وجع الوطن الذي وقف أبناؤه يوم ٢٥ يناير يحملون أرواحهم علي أكفهم ضراعة للقاء وطن ضاع منذ سبعة آلاف عام تحت أقدام الطغاة وبين سحب الظلم والتخاذل بحثًا عن روح مصر أخرى فيها معني وقيمة وحضارة حقيقية فعلا وقولا.

عتبة ثالثة

ببقعة دم علي قميص نوم "سهر" رمزًللبلوغ وتحقيقًا للنبوءة.. البنت صارت أنثى.. تبدأ الشخصيات نموها مع نمو الحدث في توازٍ لا يحمل نفورًا ولا تضادًا؛ فالشخصيات موظفة توظيفًا دراميًا لخدمة تسلسل الأحداث في نعومة وسلاسة وانسيابية مرحة.. تحمل خفة الدم المصرية، وتجهمات بعض أحداثها.. تصنع لك مفارقة صارخة تثير شغفك وتستثير شجون النفس أحيانا بملامح أشخاصها وتركيبة شخصياتهم وكأنهم يتحدثون أو يتعاملون معك ليأخذوك من عالمك دون أن تدري ويضعونك في ساحات عالمهم مسحورًا في نوبة متعة لها طعم القهوة السادة التي أضافت إليه تحويجات الكاتب السحرية الرائعة عطرًا من البهجة والسحر.

***

عتبات شخصيات الرواية

" سهر "

"سهر" الروح السابعة: الروح الممتدة الوارفة التي تمد غطاء سحرها على كل ما ومن حولها الكل أجمع علي أنها لا تضع عطرًا، بل هي رائحة من السماء في جسدها.. هي شخصية تسحب غطاء سحرها على بقية الشخصيات التي تدور في فلكها الأحداث والأشخاص.

"سهر" هي السحر الخفى: { "سهر" اسم يعرفه الليل والبحر والشجر وأحلام الشباب والرجال والعجائز على أبواب الدكاكين والمحلات في الجبل في بلاد الشام"} ص ١٥ التطور الدرامي لشخصية "سهر" باليوم والشهر والسنة تتابع ينمو مع نمو الشخصية سنًا وعمرًا ومكانًا مما يسهل لك صعودك مع الحدث واستمتاعك برشفات فنجان قهوته السادة.. بتحويجاتها الصوفية الرائعة فما بين اكتشافك رمزية بلوغها - مرحلة الأنوثة - ونمو خط شخصيتها مع أحداث الرواية محطات تجمع الناس وتفرقهم.. فيهم من يصعد ومن ينزل.

"سهر" رمز العشق وجماله.. عشقها كل أشخاص الرواية رجال ونساء.. ولها مع كل شخصية حكاية عشق جديدة "سهر" التي ترفرف روحها.. تحوم حول سواحل العالم.. وتريد أن تنطلق فوق السحب والبحار.. تريد أن تكون كل يوم في بلد.. ترى أن الحرية تمتد وتمتد إلى ما لا نهاية.. "سهر" قطر ندى يأخذك بين محطاته المتنوعة يسقيك فنجان قهوة سادة جعله الكاتب بتحاويجه وتحابيشه وسحر وعطر شخصياته لا يحتاج لشيء من السكر لأنه أحلى منه.

"سهر" هي الشخصية الرائعة الشفافة تتميز بالإباء واحترام الذات يعشقها كل من يقع في مجال مغناطيسيتها يعشقها الآباء والأبناء.. عشقها المختار ولما أراد أن يستميلها بثمن بخس بالنسبة له قصور وضيعات وعزٍ وجاه. {"نظرت له نظرة احتقار وبصقت على الأرض ومشت"} ص١٠٢ وكذلك أرادها ابن المختار زوجة له كما أرادها المختار

كان عشقها إباء وعفة حتى "عم فالح " البستاني في مدرستها يهتم لأول مرة بالزهور..{"لأنه يريد أن يهدي "سهر" وردة كل صباح.. البنات تغار منها رغم أنهن جميلات مثلها"}

"سهر" تضحك مع زميلاتها وروحها المرحة مثل الصباحات الربيعية ولأن العشق ابتلاء كما كان أبو سهر يؤمن بذلك حتى الطيور حينما علمت بقصة عشق عصفور الكناري الشقي الذي أسموه عصفور"سهر" رمز الروح المتقمصة. {"جاءت العصافير والطيور فوق سطح بيتها.. جاءت لها وعندما تسير في الطريق تكون العصافير سربا يطير فوقها" } ص ٨١

"سهر" هي الطبيعة كلها عندما كانت تنام كان العصفور الشقي ينام بين نهديها في حضنها. {"والعصافير التي في أوكارها علي الشجر المقابل لبيت سهر تحسد العصفور اللا منتمي.. العاشق لأنثى من البشر علي استحمامه كل ليلة بعطرها.."} ص ١٠١

عصفور سهر له رمزية ساحرة المتعة.. طوال رحلتك مع أحداث شخصية "سهر" وتطور الشخصية دراميًا يتفق مع تطورها زمنيًا ومكانيًا وأحداثًا وبالأرقام أيضا بتميز وسلاسة ونعومة وارتقاء يجعلك تشعر أنك قد صاحبتها ماضيًا وحاضرًا متعاطفًا معها ومستمتعًا بها متمنيًا أن تكون قريبًا منها، أو ملازمًا لها، أو منغمسًا فيها.. وقد لاحظت أن الكاتب كما يستخدم التاريخ الميلادي يؤرخ بالتاريخ الهجري ليؤكد انتماءه لعروبته كأنك أمام مؤرخ عربي يلقي محاضرة أعدها بدقة واحتراف محدَّدَة التأريخ والمعالم ولكنها متعددة الرؤى.. وقد ركز الكاتب علي السحر الخفي في هذه الشخصية بالرغم من أنها ليست الشخصية المحورية الأولى ولكن هذا يدل على أن كل شخصية بعالمها الخاص وبمدارها المنفرد تشع بأجوائها السحرية وتتماس عند نقطة التقاء أو تتقاطع في مساحة وارفة تجمع لك من حقولها سنابل متعة ساحرة وأعشابًا نادرة يضعها الكاتب في تحويجات قهوته السادة.

إن شخصيات السيد حافظ جميعها شخصيات محورية نجوم قائمة بذاتها، تدور كل

شخصية في فلكها وتدور كلها مجتمعة في مجرة واحدة هي قهوة سادة التي تتكون من كل هذه النجوم والكواكب والأقمار.

***

"شهر زاد"

"شهرزاد" العرَّافة التي أحبت "سهر" لأنها تذكرها بشبابها وجمالها ولأنها تنبأت لها بسفرها إلي بلاد النفط وأنها ستتزوج من ثري وتفتح لها المدن ألف نافذة نور والتي كانت تهجم على أي رجل يطلب يد "سهر" "سهر" لتقرأ له كفه محذرة إياه بأن "سهر" عشيقة القمر ومن يتزوجها يصاب بالعمى، وكان الكثير يصدقونها ويهربون.."شهرزاد" عرَّافة الجن التي يمدها عشيقها الجني بالسر وبأسرار كل البشر؛ فتعرف للنكاح مائة اسم، وخبيرة بأوضاع إثارة المتعة وكيفية عمل فنجان القهوة قبل الجماع بنصف ساعة حتى تنجب المرأة ذكرًا.. "شهرزاد" شخصية مميزة بخصوصيتها وظفها الكاتب لخدمة شخصيات الرواية دراميًا فهي اسم على مسمي يحمل معه الأساطير والحكايات الممتعة المسلية التي تعرف مدينة العلو والإيضاح في أسرار الليل وتحكي لك بلسان امرأة جامعها ألف رجل فحكت عن كل رجل منهم.. وكأن الكاتب كان يتمني أن يكون واحدًا منهم حتى تحكي عنه "شهرزاد" لكن للأسف ما كان قد ولد بعد.

"شهرزاد" التي أنهت الجزء الأول من الرواية لتبوح بسر عطر العرق الطبيعي لـ "سهر" قائلة لها {"إن روحك هي التي تعطر جسدك يا صغيرتي الأرواح تتناسخ وهناك تقمص الأرواح"} و"سهر" قد تقمصتها روح فتاة اسمها نفر وأن {"هذا ليس عصفورا.. بل قلب عاشق هائم بعشقك يا سهر.. المريد يسير والمراد يطير وللعشق حكايات نعجز عن فهمها.. الله هو رب القلوب"} ص ٢٣٩

"شهرزاد" التي ستحكي حكاية نفر مع إخناتون في الجزء الثاني من الرواية، ثرية الأفكار والتدابير تشدك إلى سحر عالمها لتضيف لمسة العطر وهمسة السحر وتمتعك بحكايات بديلًا عن شخصية الراوي مما عمق أبعاد الشخصيات بنبوءاتها وبخورها وعبق

حكاياتها.. "شهرزاد" تحويجة أضافها الكاتب باحتراف وبراعة."شهرزاد" هي العرَّافة التي أنهت الجزء الأول من رواية قهوة سادة لتقول لـ" سهر" أنت تتقمصك روح فتاة اسمها نفر ومن هي نفر؟ كان يا ما كان في سالف العصر والأوان في العصر الفرعوني، وهنا يتركنا الكاتب المبدع السيد حافظ مشدوهين يرتعش الشوق فينا رغبة ورهبة لمعرفة حكاية نفر في الجزء الثاني من الرواية.

***

"كاظم "

صاحب العشق الخفي أو العاشق الهارب.. هذه الشخصية عدة دوائر متقاطعة تتفاعل مع أحداث الرواية: الوسامة، العشق الخفي، سجين المهنة دائمًا يحاول الهروب لكنه متردد. "كاظم" معلم اللغة العربية في مدرسه "سهر" المواطن العربي المعارض للنظام الذي لا يستطيع أن يفتح فمه إلا عند طبيب الأسنان، والذي كان يحلم بأن يكون سياسيًا فصار معلمًا لنتمتع بالمفارقة الرائعة في ازدواجية هذه الشخصية بين المعلم والسياسي.

** "كاظم" أشقر وسيم ذو ثلاثين عامًا

*** سجين بين فصول الطلاب وعقول التلاميذ وبرغم ثقافته وقراءته لـ "فرويد"، و"كولن ولسون": الجنس هو أحد أقوي الرغبات التي يجربها الإنسان.. يغلق "كاظم" الكتب وينام يحلم بالجنس والباء والنساء و"سهر".. هنا تتجلي ملامح شخصية العاشق الذي كما يدور في فلك عشقه الخاص يدور أيضا في فلك الشخصية المحورية "سهر".

"كاظم" الذي حلم أن يعيش في مصر وتكون سهر معه

"كاظم" يعشق سهر في صمت وينسى نفسه وقد كتب على الماء وريش الطيور والحجر.. "حبك قدر".. والذي يغلب عليه صدق حبه في حركاته وسكناته ويدفعه لاختراع الأسباب والحجج من واقع عمله ومحيطه الخاص الذي سهل له عملية التواصل مع أهل من يحب.. وقد أبدع الكاتب بأسلوبه الشعري في تصوير عالم شخصيته بمفرداتها وخصوصيتها وأجوائها ووصفها في مراحل الحب المختلفة مما ساعد محيط هذه

الشخصية المركبة أن يتفاعل مع مستويات شخصيته.. داخلًيا وخارجًيا بجو خبير وكأنه هو كاظم نفسه الذي أحب طالبته "سهر" الجميلة وبالرغم من أنه معلًما للغة العربية ألا أن عشقه أنساه بعض حروفها فنسي نفسه.

آه يا "سهر".. ثلاثة حروف نسيتها حين عرفتك "ألف نون ألف"

كاظم العاشق {"الذي يهوي "سهر" يقف أمامها أحيانا وينظر نظرة ربما تمتد عمًرا أو زمنًا أو ما لا نهاية.. كل الأزمنة باطلة، لأن زمن العشق الدقيقة فيه بألف عام مما تعدون.. ويبحر في عينيها إلي حدود اللا مرئي"} ص٨٣

كاظم الولهان: يعيش حالة الوجد تجاه سهر {"يشرح الحصة وعيناه في عينيها.. والبنات يثرن ضجيجًا وصخًبا وحقدًا وحسدًا ولهوًا وعبثًا، خاصة "وردة" ابنة المختار بسام"} ص ١٠٠_الذي كان {"في البيت يدور ويدور مسجونًا بالعشق مسجونًا بالعطر"} ص١١٢

ويتجلي صراع شخصيته السلبية مع الإيجابية عندما: {"حدثه أبوه في الهاتف وعرض عليه مجموعة أسماء من البنات للزواج لكي يختار واحدة منهن"} ص ١١٢ لأنه لا يفكر إلا في سهر.. العكس والتضاد والصراع الخفي بين الشخصيات وبعضها البعض يتجلى في شخصية "كاظم" الذي تنتابه الهواجس ويتجلى الصراع الداخلي لشخصيته المذعورة بهواجسها في مونولوج داخلي رائع حينما أطل من شرفته ذات يوم ورأى أبا سهر وهو يحمل بندقيته فاعتقد أن أباها قادم إليه ليقتله (صفحة ١٧٩ ، ١٨٠) وأنه سيصبح صورة وخبًرا في صفحة الحوادث بدلًا من صفحة السياسة والوزارة وحزب جديد غير حزب البعث.. مفارقة رائعة تثير الضحك أكثر مما تثير الشفقة..

"كاظم" الذي لم يلمس امرأة في حياته حتى تزوج من وردة برغم حبه لسهر.

"كاظم" بشخصيته المترددة عكس "وردة" بشخصيتها المقتحمة الواثقة التي تفعل ما تريد حين اقتحمت علي "كاظم" عالمه وهو هيمان بحب "سهر" واستخدمت أسلحة الأنثى الجبارة لتفترس حصاره وتوقعه في براثن أنوثتها المتوحشة.

"وردة"

"وردة" من أجمل بنات الجبل ابنة المختار "بسام" وأخت "راغب" وزميلة "سهر" في الفصل وفي المدرسة وبرغم زمالتها لـ "سهر" إلا أنها لا تحبها ولكنها تحب خالتها "جمال" الجميلة رمزًا للتحضر والرقي التي تسكن في دمشق ولها بيت في الجبل.. تفهم الحياة دون تعقيد.. تحب السفر والرحلات.. تحب الرقص.. لذلك هي المثل الأعلى لوردة يخاف أن يقترب منها الشباب لأن أباها المختار مع أنها إحدى أشهر الجميلات..

وكأن الكاتب أراد أن ينبهنا بأن الجاه أو الجمال أحيانًا ما يكون نقمة أو سبب في ابتعاد الرجال حتى وإن كانوا مناسبين.. وتتجلي المفارقة أيضا بين سمات شخصية وردة وأمها فأمها تزوجها المختار "بسام" رغما عن أنف أبيها لم تعرف الحب.. تسمع عنه من النساء فقط ويحمرُّ وجهها خجلًا عند الحديث عنه فهو بالنسبة لها من المحرمات، وعندما تشاهد في التليفزيون فيلما أو مشهدًا عاطفيًا.. تشعر بغياب عقلها وجمود قلبها.. وأنها خطفت إلى سيبيريا وجمدت هناك.

***

"سلمى أم سهر" الأنثى الجميلة..

من الطبيعي أن تكون الشخصية غير المؤثرة في الأحداث، ولكنها مؤثرة بأمومتها فهي غير طاغية وغير مؤثرة كابنتها لكنها تمثل روح الأمومة بكل أبعادها "سلمى أم سهر" تدور في فلك العرافة "شهرزاد" والتي اقتصر دورها علي أنها أم سهر.. وعلي إطلاق البخور في البيت لمنع الحاسدين لـ"سهر".. ويتجلى التوازي للشخصيتين بين شخصية "سهر" وأمها في توازي اتفاق، من حسن الجمال والخلق والروح الطيبة ومن التأثر بالعرافة "شهرزاد" وتأثير العرافة على الأم وابنتها "سهر"

***

"سالم" أبو "سهر"

شخصية المحارب الثابت الجأش الذي لا يبيع ابنته بقفص فاكهة الذي رفض إلا أن يحارب للدفاع عن وطنه والذي كان دائمًا عندما يجلس، يجلس ممددًا ساقه التي عليها

نيشان الشرف من الحرب وهو إصابته في قدمه اليمني والذي كان يشرب "المتى" مشروب أهل الجبل خلطة أعشاب، والذي كان يشربه جيفارا.. الكاتب هنا يركز علي مشروبات الأبطال كما هو الحال مع مشروب قهوته الصوفية المحوجة بكل حكايات أبطاله وأساطير شخصياته الأولين.

"سالم" {"الأب الذي يحمل من الحرب إصابة في قدمه اليمني.. ويقول أنها سوف تكون تأشيرة دخوله للجنة يوم الحساب، وسوف يدخله الله الجنة مع الشهداء والصديقين والعاشقين، لأنه يؤمن بأن العشق ابتلاء، وأنه أحب سلمي أم "سهر" ودفع الثمن غالًيا هرب بها ذات يوم في جوف ليل كافر بالبشر.. اغتصب فيه الأعداء الفرنسيون نساء القرية.. وهرب هو بسلمي"} ص ٨١

"سالم" أبو "سهر" هدوء المقاتل وتصرف الأبطال قوي الشخصية والذي كان يجلس في مضيفة البيت عندما جاءه المختار "بسام" والتاجر "شداد" ليخطبا "سهر" ورفض أن يبيع عقله وقلبه وشرفه بقفص، وتصرف بهدوء مقاتل وبطل فاز علي فرنسا ولم يهزمه البرد ولا الجبل فاتجه إلى الحائط وسحب بندقيته وصوبها نحوهما فخرجا مهرولين خوفا من البندقية وأغلق الباب وراءهما.. مفارقة بين ثبات شخصية المحارب الواثقة وشخصيتي المختار والتاجر الماكرة المستغلة

"سالم" أبو "سهر" الأب الحنون الذي عندما شعر أن ابنته غير سعيدة قال لها: {"الحب قدر.. والزواج قدر.. فى كل بقعة ارض يحاصرنا قدرنا.. على كل بقعة ارض نطأها يوجد لنا قدر ورزق.. لو رفضت العريس سأرفضه"} ص ٢٨٤

هناك قلة ولدت لتكون سعيدة، أما الباقون جميًعا يمضون حياتهم في سعى للبحث عنها...

***

"سامي" العاطل المتطلع للسفر{"أخو "سهر" الذي يجلس علي المقهى التي تطل على الجبل.. يشرب الشاي والشيشة.. ويحلم بأن يذهب إلى أمريكا ويرتدي قبعة.. ويركب

سيارة أمريكي ويتزوج من حسناء أمريكية"} ض١٩٣

سامي طويل عريض المنكبين يحلم بالطيران حول العالم والذي حلم ذات مرة بأن يتزوج "وردة" ابنة المختار لكنه لا يحب الريف والذي أكسبته التجربة أن غياب الرجال عن النساء في السفر مدة طويلة يدفعهم للبحث عن رجل ما.. أي رجل وأن الشهوة تفضُّ بكارة الفضيلة دون رحمة.. وأن رحمة السماء التي تخص بعض البشر أحيانا تكون العفة والعفاف.

"سوسن" أخت سهر الفتاة الجميلة التي كانت تشعر بالغيرة من أختها سهر لكثرة خطابها "المختار بسام" المسئول المستغل: {"المختار بسام القصير المكير الذي لا يتوارى أبدًا عن فعل أي فاحشة في السر وخاصة النساء الأرامل والمطلقات.. واللائي سافر أزواجهن إلى العمل بالخارج بحجة انه يرعى النساء المكسورات الجناح"} ص١٠١ والذي حاول تسهيل الزواج للتاجر شداد مقابل أوتوموبيل فرنسي هدية الزواج وذهب معه إلى بيت سهر ولكن أبو سهر سحب عليهم بندقيته ولقنهم درسًا فروا من أمامه كالفئران المذعورة وكانت ليلة سوداء عليهما.

ومن مفارقات ليلة الطرد.

تتمثل في قمة المفارقة المضحكة حينما صاح المختار

{"آه أيها القدر من أين أتيت لي بـ "سهر"؟.. فلم يتحمل ليلتها حتى أصابع زوجته أم راغب علي كتفه العاري كأنها أشواك جبلية فصرخ فيها:

- جسدي لا يتحمل.. نامي وما تتحركي يا امرأة"} ص ١٣٣

وبينما نامت سهر في فراشها في أحضان العصفور بلا قلق.. أيضا كان "شداد" في الفراش حتى الصباح في قلق.

التاجر شداد: رمز الجشع رجل ثري وتاجر.. يتزوج كل عام من امرأة جميلة ويتركها ويرحل {"أربعون عاما.. طويل عريض له شارب كثيف ويرتدي معطفًا وغطاء رأس عربي"} ص ١١٤ وصوته أجش.. أكبر تاجر يشتري من القرية الزيتون والتفاح ولديه

معصرة للزيتون وعنده وعنده.. الذي حاول أن يستخدم ماله وثروته للزواج من "سهر" عندما كان عمرها حينئذ ١٧ سنه.

***

الخاطبة ميثاء: وكالة الأنباء المتحركة الخاطبة العجوز الحيزبون، وهي تميز شخصية الجبل بعلاقاته الاجتماعية في الزواج والتي كانت تعرف كيف تتصرف لتحصل على عنوان كاظم في الشام لتأخذ وردة معها لزيارته في المشفى لتسهيل زواج وردة من كاظم والتي جاءت بمنقذ عريسا لـ "سهر" من أجل أن يخلو الجو لوردة لتنفرد باقتحام كاظم، والتي ما إن علمت وردة بخطوبة سهر حتى انطلقا إلي بيت كاظم الذي تتجلى مظاهر شخصيته المترددة حينما وجدهما أمامه حتى أصيب رعًبا ثم أبلغاه خبر خطبة سهر فأردياه قتيل العشق واللوم لعدم تقدمه لخطبة سهر..

وتأتي المفارقة الرائعة بين الحزن والارتياح وتأثير خطوبة سهر بشخصيتها الطاغية على القرية؛ فعندما علم الشباب والرجال بخطبتها انطفأ شرر لهيب العشق وحزنوا وعندما علمت الفتيات والنساء بخطبتها تنهدت قلوبهن ارتياحًا من الغيرة..

شخصية الميثاء المستغلة المنتقمة والتي كان جزاء انتقامها أن أمرها المختار أن تترك البلد واشترى منها البيت..

مروِّج الإشاعات أبو الريش.. الرجل الداهية الأعرج وعصاه وحماره الذي يحب نقل الكلام والإشاعات، والذي استغلته الميثاء لتنتقم من وردة التى لم تساعدها فى محنتها وهى ابنة المختار الثرى لعدم مساعدتهم في علاج أخو الميثاء فهو يعيش آكلًا شاربًا من هذه الوظيفة.. وظيفة نقل الحكايات والإشاعات.. والذي نال جزاءه حين وشي بزيارة وردة لكاظم في المشفى في الشام بأن قام راغب أخو وردة بربطه على شجرة وضربه بالكرباج.

"منقذ" العريس

منقذ العريس الجديد لسهر الذي يرتدي أحلي الثياب ويعمل في الإمارات، وهو مثقف

ومتعلم ويحصل على راتب كبير، ويمتلك سيارة وله شقة جميلة ورصيد في البنك.. وهنا يسلط الكاتب من مصابيحه الكاشفة دائرة المقارنة بين من تقدم لخطبة سهر بين المختار والتاجر والعريس الجديد منقذ، ثم يظهر لك بشخصية سهر في هذه اللحظة وما يعتريها من قلق.. هي وأختها سوسن التي كانت تنظر من ثقب مفتاح الباب لتخبر سهر بالأحداث، وسهر في متاهة لا تعرفها

***

نأتي إلي الفخامة في الرواية ليقدم لنا الكاتب شخصية ثرية عاشقة متعددة الأبعاد والأعماق ممتعة بحضورها وقوة تأثيرها علي بقية شخصيات الرواية

فتحي رضوان.. الإنسان.. حلم تحرير الأمة من التخلف، وثورة المطر، الذي ولد في نفس اليوم الذي استشهد فيه في فلسطين البطل أحمد عبد العزيز قائد قوات مصر في حرب ١٩٤٨ الأحد ٢٣ أغسطس ١٩٤٨ وأشعر أن لهذا التاريخ دلالته عند الكاتب بدوائر شخصيته المتميزة الخارجية والداخلية والنفسية: مصري الملامح، عربي التفكير متناقض الشخصية، وإن كان تناقضه إيجابي فهو لا يحب الرياضيات والمواد العلمية لكنه يملك رغبة دفينة في أن يفهم سر الذرة.. يكره النحو لكنه يحلم أن يلتحق بقسم الحضارة والآثار.. بسيط الحال يحلم أن يجوب العالم، كل العالم.. عالمي الإحساس بالجمال.. دائرة هذه الشخصية أكبر دوائر الرواية إذ تضم معها العديد من الدوائر لتكون مجرة قائمة بذاتها..

هنا يأخذك الكاتب إلى مسرحه، ويقوم بدور المخرج المسرحي حيث يثبت دائرة الضوء على البطل فتحي رضوان، وبعدسة الزوم المكبرة يقرب لك مراحل نمو الشخصية دائرة فدائرة، وكلما اقتربت منه دائرة زاد حجم شخصية فتحي رضوان، وزاد بريقها وسطوعها ويزداد انبهارك بها، وإعجابك بها رغم ما بها من تناقض يبرز المفارقة ويوضحها بإبداع سردي يحمل لك قطوفًا من معلومات عامة جاءت في سياق الأحداث في أماكنها وتواريخها بأرقامها وتفاصيلها ويصعد بك دراميًا في أحداثه المتلاحقة ليسلط على هذه

الشخصية بقعة الضوء الكبيرة الكاشفة لتجد شخصية "فتحي رضوان" الملحمية بطل الفتوحات والأساطير كان نبتة صغيرة زرعتها بيدك وتابعتها يومًا بيوم، وحدثًا بحدث حتى صارت زهرة مكتملة تشع العطر والسحر وتملأ أرجاء المكان حركة وأحداثًا..

فتحي رضوان نموذج لملايين الشباب العربي والمصري الضائع التي تطير أحلامهم في السماء كل صباح وترحل في المساء مع السفن المهاجرة إلى أمريكا والغرب ضحية الزمان والمكان؛ فحين يسلط دائرة بداية البلوغ ليشعرك بفزع فتحي رضوان عند بلوغه وهو يجري نحو جده {"صاح بفزع جدي ظهرت شعرتان عند قضيبي ضحك الجد وقال لقد بلغت وكبرت صرت رجلا"}ص ٣٤

التوازي بين الشخصيات :

بقعة دم على قميص نوم "سه".. الفزع البنت صارت انثي.. الفرح والشعرتان عند فتحي رضوان.. الفزع الصبي صار رجلًا.. الضحك رمزية بقعة الدم للبلوغ عند سهر ورمزية الشعرتين عند فتحي رضوان، وبعد اكشاف البلوغ بست سنوات يكتشف هزيمة ٦٧؛ فعندما تبلغ الأشياء نضجها يمكن اكتشاف الحقيقة وهنا تظهر الشخصية الكاشفة من دوائر شخصيته..

يثبت الكاتب مايسترو المسرح دائرة الضوء على شخصية "فتحي رضوان" ويدخل لك بدوائر الشخصيات الأخرى التي تدور في محيط دائرة "فتحي رضوان" حتى يتم التماس أو التقاطع أو التداخل ويبدأ بشخصية "رغيدة" {"رغيدة ١٨ سنة بيضاء عيناها زرقاوان.. شعرها أشقر.. متفتحة الأنوثة"} ص ٣٢ زوجها "محمد الطويل" يكبرها بـ ١٧ سنة موظف يجهل العشق والنساء.

وتظل تتضخم شخصية فتحي رضوان كلما تقاطعت وتداخلت فيها دوائرها المحيطة بها ليكتشف في نفسه لحظات الإشراق عندما اكتشف أن الوجع ليس له هوية وليس له ميناء واكتشف أن حب الوطن والكتابة عناءً حين خرج مع جموع الشعب على رأس مظاهرة في ميدان المنشية محمولًا فوق الأعناق والجماهير تهتف..

وبتنامي الشخصية نجد أن صيغة السرد تحولت إلى سيرة ذاتية يحكيها لنا الكاتب بكل مواقفها الممتعة وطرائفها ومفارقاتها المضحكة حتى البكاء في أسلوب سلس ممتع، وكأنك تستمع إلى جد يحكي لك قصه حياته فصلا بفصل وموقفا بموقف.

فتحي رضوان الذي يعرف أن نعمة الفهم والثقافة نقمة وعذاب {"إن الثقافة عذاب ولكنني أرغب في تغيير هذا البلد إلى بلد آخر حتى لو تخلصنا من ٥٠ مليون زي الصين أو روسيا لازم نتخلص من العشوائيين والسفهاء والبلطجية والعبيد.. عاوز مصر دوله مثالية زى اليابان زى ألمانيا"} ص ٧٩

فتحي رضوان الذي يمثل الثائر المثقف الذي لا يستسلم الذي مهما خسر معاركه يقوم ويقاوم من جديد ومن قصيدة للأبنودي لم تقتحم السرد بل خدمت الشخصية في تطورها الدرامي

"الله يجازيك يا عم عبد الناصر الليل مليل والألم عاصر
لسه اللي بيبيع أمته كسبان وكل يوم أطلع انا الخاسر

فتحي رضوان الضائع بين الثورى والكاتب..! الذي يعتقد نفسه مخلص العالم من الفقر والجهل والمرض والذي هزه موت جيفارا.. وقهره هذا الإحساس بالثورة والثورة المضادة وموت بابلوا نيرودا.. وحيرة أبي ذر الغفارى الثائر حتى الموت.. كأن الثوار روحهم تجرى فى دمه حتى لا يكاد يعرف نفسه من هو؟.. ضاع بين الثوري والكاتب لا يستطيع أن يكون الاثنين لأنه يعتقد أن السياسة في تماس مع الدعارة، والسياسيين يحصلون على مناصب وشقق فاخرة وأموال.. الأدباء فقراء إلا من ولد ثريًا منهم.. فاختار الأدب لأنه يجد نفسه في الكتابة وهو أيضا يكتب لكي يحرر نفسه من القلق ويحلم بجائزة نوبل وإن تأخرت؛ فكثير ممن نالوها كان يعتبرهم كتابًا ضعافًا عملًا برأي برنارد شو الكاتب الإنجليزي عن جائزة نوبل.

فتحي رضوان العاشق قاموس من العشق والغرام منذ بلغ ١٧ عاما إلى أن تجاوز الستينيات عندما كان رئيس اتحاد الطلبة.

***

عتبة عشيقات فتحي رضوان

ناهد حجازي أجمل بنات الإسكندرية.. وابنة ضابط جيش.. والذي أحيل للتقاعد.. بعد أن كتب لعبد الناصر رسالة ينتقد فيها الجيش، زميلة فتحي رضوان في الكلية التي أحبها بجنون

ناهد مثل الصباح توقظ القلب والعين والأذن بجمالها الهادئ الفاتن.. المسحورة بكلام فتحي رضوان والتي لا تعرف كيف تنفك من حصاره لها، حتى وهو بعيد عنها.. ناهد لوحة رسمها فنان من الطبقة البرجوازية العليا.. ناهد مثل ملح البحر وبلح الشام.. لا تستغنى عنهما فى المذاق والحياة.. شتاء الإسكندرية بلا ناهد يعنى غياب المطر والحنين.. كل من يرى ناهد من الأصحاب يقول أنها أنثى المستحيل.. كانت ترى فتحي رضوان زعيمًا ضل الطريق للأدب، وأديبًا ضل طريقه للجماهير؛ فحكايات عشقه وحبه لا تنقطع.

فيفيان عشقها فتحي رضوان.. مسيحية مصرية الأب.. أمها لبنانية شقراء.. أنثى لا تتكرر إلا بصعوبة في الحياة والتي كان يمارس معها الحب الخفيف في محطة ترام رشدي بالإسكندرية، والذي لقن أخو خطيبها المصارع لفتحي رضوان رئيس اتحاد الطلبة الثوري الكلمنجي الذي يدعو إلي التغيير درسًا غاب فيه عن الوعي ليفيق وله خدان متورمان، وقميص ملئ بالدم.. وفضيحة بجلاجل والتي كادت أن تسبب صراع طائفي في مصر.

ماجدة السمراء نوبية من أجمل بنات النوبة إنها ملكة هربت من قصر أبيها ملك النوبة وجاءت من كتب التاريخ والتي حكى تفاصيل عشقه معها ص١٠٥ ، ١٠٦.

فتحي رضوان الشاب المثقف العاشق الثائر الحائر المقتحم الذي كان يخاطب حبيبته ناهد حجازي: يا ناهد.. الكتابة تعوض لي بعض أيام من عمري الذي سرقه الوطن منى.. سوف أمضى وحدي أمام الله ومعي ما كتبت حتى يغفر لي ما فعلت.. ويمنحني

فرصة للجنة كي أراك

فتحي رضوان.. خبير العشق وثقافته الذي أحب أبطال مصر وكان يستدعي هؤلاء الأبطال ويحكي قصص حب هؤلاء الرجال وملهماتهم ويقرأ مذكراتهم كمؤرخ خبير واع بتاريخه باليوم والساعة وبمكان الحدث وأدق تفاصيله وأسباب حدوثه ونتائجه، ويجلس على مقهى سيد درويش في محطة الرمل على شاطئ الإسكندرية معه كتاب وحلم ضائع بين نهد الوطن العربي وفرج مصر المستباح من كل استعمار منذ سبعة آلاف عام.. مقهى سيد درويش.. ومسرح سيد درويش.. وشارع الشيخ سيد درويش في كوم الدكة في الإسكندرية فتحي يحب التاريخ كي يفهم ما يجرى في مصر الآن لأن الحاضر هو الابن الشرعي للماضي..

فتحي رضوان العاشق الصوفي. الصوفي الذي كان يتمني أن يتقمص روح الأنبياء تشعر أنه خليط من سياسي.. أديب.. مفكر.. قس.. شيخ.. صوفي كان يقول: "الصوفي قوته ما وجده.. ولباسه ما ستره.. ومسكنه حيث نزل"..

بطة التي هربت مع "شكير" في أحداث ٥ يونيو ١٩٦٧والتى كانت تسكن أمام بيت فتحي رضوان في الدور الأرضي مع أمها بجانب بيت "المحبش" والتي لم يستطع أن يراها أو يراقبها بسبب تكعيبة العنب التي زرعتها أمها.

شخصيات هامشية لم تأخذ حقها من الرواية، وهي شخصيات "بطة" و"شكير" و"المحبش" وقد مر عليهم الكاتب مرور الكرام.

عتبة علاقته بالشخصيات الأخرى

أبوه.. الحاج رضوان لم يشرب الخمر أبدا. لم يلعب القمار أبدا، لم يزن أبدا.. كان يتحاشى النساء لأنه يعتقد أنهن شر وبلاء ولكنه تزوج مرتين وظلت زوجتاه تكرهان بعضهما طوال العمر.. أنجب منهما ١٥ ولدا وبنتًا ماتت البنت.. ومات تسعة أولاد.. وبقي خمسة أولاد كان يتشاجر بلسانه وصوته المهاب يشرب الشيشة بغزارة كان إذا غضب يمسك العملة النقدية الفضية ويضغط عليها فيمسح كل ما بها من كتابة في

الوجهين.. كان يحب صوت نجاة الصغيرة بلا سبب.

أصدقاء الحاج رضوان

الأول: الخواجة ميمي (اجريجي) يوناني.. ومن مواليد الإسكندرية يقول الناس عنه خواجة صايع مصري لحام أكسجين في سن الأربعين أعزب

الثاني: الخواجة نيقولا.. إيطالي ميكانيكي يتحدث المصرية بطلاقة

الثالث: المعلم منعم حداد أبواب وشبابيك هذا غير يوسف الترزي اليهودي، والأستاذ سعيد الفراش في مكتب الصحة والذي يعمل قوادًا عند الخواجة ميمي، والحاج مرعي صاحب محلات الخضار وكان يحب الجلوس في البيت مع المعلم حمودة البناء الذي تزوج أربع مرات.

فتحي رضوان كان يبحث عن فردوس الكلمة، وكاظم كان يبحث عن فردوس العشق والجمال.. "سهر" كانت تبحث عن الفردوس نفسه

أسماء الشخصيات :

في رواية قهوة سادة أسماء الشخصيات تدل عليها وعلى سماتها وتتناسب معها ومع جوها النفسي.. "شهرزاد" الشخصية الأسطورية بديلًا عن الراوي.. "راغب" ابن المختار اسم على مسمي لرغبته في الزواج من "سهر".. "شداد" التاجر رمز الجشع لشدته شكلًا ومضمونًا.. رجل ثري وتاجر.. "سامي" الذي يسمو بتطلعاته وميله للطيران حول العالم، وهكذا.. "منقذ" العريس الثري لسهر والذي أنقذها من طامعيها

مواقف المقابلة والتضاد

أحد تحويجات رواية قهوة سادة، والتي لا تكاد تخلو منها أي صفحة تولد في الرواية دائمًا سحرًا يشع إحساسًا مبهجًا فمثلا في حجرة "سهر" {أطفأت شهر زاد النور، ونامت "سهر"} نجد هنا هدوء وطمأنينة وراحة بال.. وفي غرفة كاظم {أشعل كاظم مصباح الكهرباء وشرب "المتى"} نجد هنا عشقًا وخيالات وهواجس عاشق.. وفي غرفة وردة {خفضت وردة ضوء المصباح} نجد هنا قلقا وخطط الأنثى المقتحمة، رمزيه رائعة بين

الضوء والحالة النفسية..

التطور الدرامي لشخصيته " كاظم "

يتناسب مع سلوكها في المواقف المتعددة بكل أبعادها المترددة حينما استدعى "راغب" أخو "وردة"، الأستاذ "كاظم" لبيت أبيهم المختار ليعطي "وردة" دروس تقوية في اللغة العربية وحين دخل بيت المختار وذهب لغرفة الدرس وبينما كان يتأمل الجدران دخلت عليه "وردة" بكل أسلحتها التي تجندل الرجال في حوار ممتع لمدرس لغة عربية وطالبته التي صممت أن تقلب له حياته المقلوبة أصلا (ص ١٩١ – ١٩٣)

لقد برع الكاتب في عرض وتصوير أدق تفاصيل سلوكيات المدرس في حصته، لأنه كان يعمل بالتدريس فترة من عمره، وكما في الجزء الثاني من الرواية عندما ذهب إليه المختار يخطبه لابنته ليرفع عن نفسه كلام الناس ومنعا للفضيحة عندما زارته وردة في المشفى بالشام ويتدخل والد "كاظم" بالموافقة علي طلب المختار وكاظم غارق في رعبه وارتعاده من ذنب لم يقترفه، وبعد زواجه من وردة برغم حبه لسهر..

وردة هنا هي المعادل الموضوعي لواقعه كله من أشخاص وأماكن وأزمنة وارتباك شخصيته المترددة؛ فيحاول الهروب دائمًا عندما يواجه واقعه.. إن داخله المتردد ينعكس على حركته الخارجية في تردده ذهابًا وإيابًا داخل حجرته يختلق المبررات.

شخصية أجاد الكاتب تصويرها بكل أبعادها ببراعة ودقة خدمت أحداث الرواية، وحققت واقعية الشخصية في كل مراحل تطورها فجعلتها متعة حقيقية يتعلم منها الشباب صور ومراحل العشق، ولكن ليس بمثل شخصية كاظم..

إن فتحي رضوان كان يبحث عن فردوس الكلمة، وكاظم كان يبحث عن فردوس العشق والجمال، وسهر كانت تبحث عن الفردوس نفسه

***

الروائي السيد حافظ لا ينسى صلته بالمسرح.. هنا لا يتركك المخرج المسرحي هائمًا وغارقًا في محيط شخصية واحدة طوال الوقت، بل يسلط ويقرب دوائر وبقع كشافات ضوء

كل الشخصيات من بعضها البعض؛ فحينما يبقى الضوء مسلطًا على دائرة شخصية معينة يستدعي إحدى دوائر شخصياته الأخرى ويظل يقربها حتى تتماس في نقطة التقاء أو تتقاطع لينتج لنا مزيجًا جديًا من مناطق التقاطع يحمل جمالًا فريدًا وسرًا جديدًا بألوان ممتعة ومبدعة..

فحين تتقاطع دائرة "شهرزاد" مع دائرة "سهر" ويحدث هذا التفاعل، وينتج لنا السر الخفي بين الاثنتين قد يكون توازي اتفاق وهو عشق الرجال لكل منهما وتأثيرهما عليهم: {"قالت "شهرزاد" لسهر: إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار، وهواء بحر عشقك نار في روح الرجال.. اجعلي قلوبهم تطير وتصعد حتى سابع سماء.. إن عشقك سيهزم الرجال وهوى قلبك لن يعرف هزيمة" } ص٢٧ أو توازي تضاد: كعشق أحداهن.. وخوف الأخرى وبذلك فإن مساحة الضوء التي لا تشع من إحدى الدائرتين قد تغطيها المساحة الأخرى؛ فتكتمل لنا الصورة إنه الاستخدام المسرحي الثري لعرض الشخصيات.

عتبة الأماكن

شارع محسن الموازي لشارع الإسكندراني بالإسكندرية به قصر أميرة تركية من العائلة العلوية: {"هجم الغجر على شارع محسن في قافلة.. بنوا علي ترعة المحمودية بيوتًا من الصفيح والخشب، وعملوا في التجارة وفي السح والحواة والجزارة والحدادة، وزحفوا إلى شارع محسن"} ص ١٤٧ وكان الغجر يتوددون للحاج فتحي لأن له بيتًا من طوب وأسمنت وليس صفيحًا

الجبل والشام وتتجلى فيها روح الجبل وانعكاساته على كل من الشخصيات من خلال سرد ممتع.. يجرفك إلى مجرى أحداث الرواية وأنت مستمتع بغوصك فيها

المقارنة بين المدينة والقرية

{"المدينة عاهرة بلا أخلاق.. المدينة كافرة.. والقرية ليست لها شهادة في بلاد الدنيا القرية دائما منسية من خريطة السياسيين والمسئولين في العاصمة.. العاصمة أم عاهرة للقرى فى كل بلاد الدنيا.. تمارس كل شيء وتفعل كل شيء وتعيش في رغد.. تاركة

سكانها للضياع.. هكذا عواصم المدن.. المدينة تدوس أهل الريف بالأحذية المدينة تغازل خيال الفقراء فيذهب تجارها إلى القرى يشترون العنب والتفاح والزيتون.. والحقول مفتوحة الساقين يمارس الجشع الفحشاء فيها.. بلا خجل.. يستباح الفلاح ويأخذ التجار أعداء الله المحاصيل بأقل الأسعار في عربات ضخمة للمدن لتباع بمائتي ضعف السعر"} ص ٨٢

الشام ملجأ كاظم مريض العشق حيث قام الأطباء بعمل الأشعة والتحاليل له ولم يجدوا سببًا للحمى التي إصابته...

المقارنة بين طيبة والعاصمة الجديدة أخيتاتون

طيبة القديمة أسطورة عشق.. شوارع طيبة ضيقة بها بيوت كثيرة مصنوعة من الطين أما بيوت الأثرياء تتكون من ثلاثة غرف وحديقة صغيرة.. سكان طيبة يحبون الأثرياء ويحبون فرعون وكهنة المعبد والنيل.. طيبة مختومة بالمسك والعنبر مدينة المعابد والآلهة وأجنحة الأحلام المنكسرة على ضفاف النيل التعيس أحيانا.. طيبة توشوش الليل والنيل والبحر..

العاصمة الجديدة أخيتاتون

المدينة الجديدة التي بناها إخناتون والتي كانت معابدها كلها تعبد آتون.. إلَهًا واحدًا.. عاصمة التوحيد للإله الواحد آتون.

القادة والتجار

{"القادة العرب تجار في الخفاء يتقاسمون المال مع الأغنياء والتجار أمراء لأنهم يحكمون دون حاجة للظهور"} ص٨٢

عتبة حكاية نفر

حكاية أول روح لـ "سهر" أجمل بنات طيبة (عاصمة مصر القديمة) في عصر إخناتون فرعون مصر (نَفَرْ) عشيقة القمر.. وأحلى بنات هذا الزمن.. عندما كانت تقترب من أي بائع يصاب بالهلع.. لقد شم عطرًا لم يشمه من قبل إنه عطر (نَفَرْ)..

(نَفَرْ).. ست الحسن والعطر والمطر والحضور والجمال دون نقاش.. المدن الجميلة تحب البنات الجميلات.. جمال البنات يجلى صدأ المدن.. وحب المدن للبنات.. يجبر الرجال على الاستحمام والتعطر لتليق بالمدن أولا والنساء ثانيا (نَفَرْ) كان أبوها نجار السفن التي تسير فى النيل.. كانت تسكن مع أبيها فى كوخ بسيط يطل أيضا على النيل.. اشتهت (نَفَرْ) أن تكون أميرة وأن تتزوج من أمير عندما اكتشف أهل طيبة رائحة عطر(نَفَرْ) الجميلة بدأت الأقاويل عنها: أن النيل وقف أمامها فى الليل وطلب منها أن تستحمم فيه.. رفضت.. فأعطاها سره بعضًا من ماء مقدس مسحور.. استحمت به فى بيتها صارت أجمل وجلدها أملس وعرقها عطر

عتبة أخو نفر الفتى (كى)

ابن العشرين عامًا يسير على النيل حزينًا.. لا يحب أن يرث مهنة أبيه النجار وقانون البلاد أن لا يتخلى أى فرد عن وظيفة والده التى ورثها منه. ولكنه حاول الالتحاق بكهنة المعبد فى طيبة.. سلطة كهنة المعبد أقوى من كل السلطات.. وهو الذي ذهب إلى الكاهن الأعظم ليرشح أخته (نَفَرْ) عروسًا للنيل التى تقدم كضحية وهدية حتى يأتى بالفيضان فهى أجمل فتاة فى طيبة وعطرها يخلب العقول.. وقد استخدمه الكاهن الأعظم فيما بعد ليقتل الملك إخناتون.

عتبة الكاهن المعلم (باكا)

استثنى أخو نفر للدخول إلى المعبد عندما علم أنه أخو (نَفَرْ) وضمه للكهنة لمدة عام لا يرى العالم الخارجي المذنب إلا بأمر الآلهة لأنه قدم أخته (نَفَرْ) فدية للمعبد والنيل، وذلك لأن الكاهن (باكا) ذات غروب وبينما (نَفَرْ) عائدة بسلة السمك قابلها على النيل (باكا) المعلم.. معلم اللغة الهيروغليفية فوجئت بهذا الرجل وقوامه الشامخ وسماره كأنه من وحى الأساطير ظهر.. التفت لها فالتفتت له.. ارتبكت وهى تخطو على الرمل بالحذاء.. وقعت سلة السمك.. جرى المعلم (باكا) إليها ليساعدها لتنهض.. لمس كتفها العارى.. وشم عطرها وهو يحملها من الأرض لتنهض، كانت هذه اللحظات وهو يحملها

للنهوض كأنها سنوات وكأن عطرها يتسلل فى دمه فيضيء فى روحه.. من أين أتيت أيتها الأنثى الخرافية ؟

وعندما خرج الجميع يبحث عن الفتى (كي) لتأخره ذهبت نفر إلى المعبد وفى الوقت الذى كانت تدخل المعبد كانت الملكة نفرتيتي خارجة منه.. شمت نفرتيتى عطرها وهى قادمة من بعيد.. أعجبت الملكة نفرتيتي بنفر واتخذتها وصيفة لها وضمتها للحرس لتسير معهم خلف الملكة تاركة قلب المعلم (باكا) يفترسه الشوق ويذيقه وجع الالتياع والذي لولا مساعدته لإخناتون علي نشر عبادة الإله الواحد آتون لما وافق له إخناتون أن يتزوج (باكا) من (نفر) رغما من أنه قد وعد (حور محب) قائد جيشه أن يزوجها له.

إخناتون هو الملك أمنحوتب الرابع

تزوج أخته نفرتيتي لأنه إله أما عوام الشعب لا يجوز لهم هذا وأخوه سمنخ كارع المقرب إلي قلبه بعد موت أخيه الأكبر تحتمس إخناتون الذي خرج من عباءة أبيه ومن بطانة عقيدته لأن إلهه رمز القوة آتون لم يكن رب شعب ما.. أو مدينة معينة بل هو رب كل الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب المصريين وشعوب آسيا وشعوب النوبة وهو راع لا يفرق بين أحد من رعيته.. هو الذي أعطى كل جنس شكله وطبعه بإرادته.. كان يقول الكهنة يفعلون كل شيء باسم الآلهة. مصر الآن تعبد أكثر من ٤٧ إلها.. مصر لا تحتمل كل هذا.. النيل هو الحضارة والحياة.. ولأن إخناتون يؤمن بإله واحد.. لا يعبد الجعران.. ولا الزهور.. ولا الخنفساء

كانت نفرتيتي تقول له: {"أنت تسبح ضد أقوى تيار فى البلاد، الكهنة.. الكهنة على مر الزمان هم القوة الحقيقية للمحاربين وللفرعون وللبلاد." وكان يقول لها: "سأقف أمامهم.. ومعى الشعب"} ص ٢٥١ معى الله الذى يرسل لنا الشمس كل صباح..

وكان كبير الكهنة يقول: "إن مولاى أصابه مرض من إله الشر ست." لأنه يصلي للإله الجديد.. {"لقد تجاوز الملك إخناتون الحدود إنه يجلس مع الحرفيين والرعاة والفلاحين

وهم فى القانون ممنوعون من العمل السياسى.. ويستمع إلى شكواهم ويحقق فيها"} ص ٢٥٤

كان يقول لنفرتيتي زوجته {" الكهنة يدعون الى آلهة عدة فى كل مكان.. شاهدى مصر الان انظرى إلى ما يكتب الادباء.. انظرى هذه البردية..ماذا يكتب هذا الاديب..يقرأ ما فى البردية كل شيء فى مصر يقبل الرشوة إلا الله لأنه عادل و نزيه.. " } ص ٣١٣

إخناتون الذي قال عندما غضب: {"الكهنة سبب بلاء هذه البلاد باسم الآلهة يلعبون بعقول الشعب الساذج البسيط.. أنا جعلت الآلهة إلهًا واحدًا فقالوا إن هذا لشيء عجاب.. وقالوا هذا اختلاق.. الكهنة زاغت عنهم الأبصار فلا يبصرون.. ما من إله إلا الله الواحد القهار.. أنا أجادلهم بالتي هي أحسن.. ولم أقتل أو أحاكم أحدًا يعبد إلهًا آخر غير آتون"} ص ٢٤٤

إخناتون أبوه الملك أمنحوتب الثالث، أمه الملكة الأم (تي) التي نصحته بزواج الأميرة كيا لأنها ستنجب له ولدا إخناتون يحلم بصبى ونفرتيتى لا تنجب إلا البنات.. الولد ظهر أبيه.. والبنت قلب أبيها..

نفرتيتي أجمل ملكات التاريخ، أخت إخناتون وزوجته أم لثلاث بنات هن: ميريت آتون.. وميكيات آتون.. وعنخ إسن آمون.. ابنتها ميريت تحب حور محب قائد الجند من طرف واحد وبالرغم من حبها لحور محب قائد الجند إلا إنها تزوجت من "سيمنخ كا رع" الأخ الأصغر لإخناتون الذي حكم مصر بعد مقتل أخيه إخناتون، وحور محب فارس يحلم بالحرب وبالنصر وبالفوز ولم يفكر في ميريت لأن العسكري حلمه المجد والنصر والحرب والوسام وليس النساء..

نفرتيتي التي كانت تقول لأخناتون كي تبعده عن عبادة إلهه الواحد آتون: "أنت ملك قوتك ليست فى الشعب قوتك فى الجيش والكهنة"..

أما حور محب قائد الجيش رجل فى الأربعين ضخم الجثة أبوه كان من أمهر الرماة فى طيبة علمه فى صباه الرماية، عسكري لا يعرف كيفية التعبير عن نفسه جامد المشاعر..

يعرف ألف طريقة للقتال ولا يعرف طريقة لغزو قلوب النساء.. قفز قلبه من الجليد حين شاهد نفر.. وحين عرض عليه إخناتون أن يزوجه إحدى بناته قال له حور إنهن صغار وطلب من إخناتون أن يزوجه إحدى وصيفات الملكة "نفر" ووعده إخناتون بهذا ولكنه لم يف بوعده له بل وافق إخناتون علي زواج نفر من المعلم باكا، وكان حفل زفاف نفر تاريخيًا مما أثار حنق حور محب قائد الجيش على الملك إخناتون فاتفق مع الكاهن الأعظم وبعض قادة الجيش الموالين له أن يكون عيد الفصح هو ساعة الصفر لقتل إخناتون، وكان ذلك بيد كي أخو نفر الذي قتله الكاهن هو الآخر علي الفور.

الملكة كيا التي رشحتها الملكة الأم "تي" للزواج من إخناتون حتى ينجب منها ولدًا يرث العرش لأن زوجته الملكة "نفرتيتي" أجمل ملكة في التاريخ لا تنجب إلا إناثًا وقد أنجبت لإخناتون الأمير توت عنخ آمون.

كور ابن كبير الصيادين ٢٤ سنة..أسمر أعزب.. ثرى.. وسيم.. يعشق طيف "نفر" كور العاشق الثانى لنفر.. أبوه يعبد الصقر، وكانت أمه تعبد الثعبان، ثم عبدت آتون لأنها أحبت إخناتون.. كان كور يطارد نفر فى الذهاب والإياب.. تقدم فى صفوف الذين يرغبون فى الزواج من نفر.. وكثيرًا ما فاتح العم "سوات" والد "نفر" فى رغبته فى الزواج من "نفر"

أبو نفر "سوات" النجار صانع السفن

الأب الذي يحب أبناءه: "نفر" و"كي" والذي كان يخاف أن تفسد عقيدة أبنائه ويعبدون آتون.. كان يعبد الخنفساء.. ويعتقد بأن آمون هو الإله الأكبر فقط.. وليس آتون الإله الواحد كما يعتقد إخناتون.. وهكذا بعد أن قتل اخناتون بيد (كي) أخي نفر.. قام الكاهن الأعظم على الفور بقتل (كي)، وبعد دفن الملك إخناتون تولى سمنخ كارع الحكم، ثلاث سنوات، مات بعدها حزنًا وكمدًا على إخناتون أخيه وصديقه الحميم.. وتولى الحكم الأمير الصغير توت عنخ آمون.. ابن الملكة كيا.. ابن الثلاث سنوات وقد حزنت "نفر" وعادت إلى العاصمة القديمة مريضة تاركة زوجها (باكا) لعمله الجديد في الجيش وبعد

أن قام الكهنة بسرقة جثة إخناتون ومحو كل آثار معابد آتون وهدمها كلها.. قررت "نفر" أن تقفز إلى نهر النيل فجأة قائلة لأمها لا تخافي سيأخذني النهر إلي حبيبي.
ماتت نفر، ومات زوجها باكا حزنًا عليها بعد شهر، وبعد أن بني لها مقبرة تليق بها وتحكي شهر زاد لسهر عن الروح الثانية، وهى البنت الجميلة التي عاشت فى عهد النبى موسى اسمها نور غدا.. ليتركنا ملك التحويجات الصوفية الرائعة، ننتظر الجزء الثالث وهو حكاية نور والنبي موسى

***

إن الجزء الأول هو المعادل الموضوعي للجزء الثاني ومرآته العاكسة لكل الأبعاد وبكل الوضوح لنلمح التقارب والتطابق في الشخصيات في حروف أسمائها وسلوكياتها وتشابه أحداثها حاضر لا ينفصل عن ماضيه وماض يطل علينا بكل ما فيه.. إن كلا من الجزأين مرآة للآخر ننظر في الماضي لنستشرف الحاضر وربما نتنبأ بالمستقبل وربما أراد الكاتب أن يفسر بعض حكايات الماضي لأن الإنسان لا يملك أن يفر من ماضيه.
إن السيد حافظ الكاتب والمخرج المسرحي استخدم أسلوب التقطيع السينمائي "المونتا ج"، ليضعك في بؤرة حدث معين.. ثم ينقلك للقطة جديدة لمتابعة حدث آخر ليلهب اشتياقك لما يحدث مع أبطاله بحرفية تشعر معها أنك علي مسرح ترى الأحداث والأشخاص تتحرك أمامك بوضوح.. وأنك أمام قائد فرقة موسيقية لا يقطع عليك إيقاعه السريع بل يصعد بك بمقاماته الموسيقية المتنوعة دون تنافر أو تداخلات آلات عزفه المنفرد مع آلاته النحاسية الزاعقة أو وترياته الحالمة لتري أبطاله وقد طلت عليك من كهف فرعونيتها بورقها وزيها ولغتها تختصر أحداثا وأزمانا لتثبت لك أن الأماكن باقية.. وستبقي مهما تغيرت أو تشابهت الأحداث وتوالت الأزمان من خلال رشفة سحر وعطر.. وتحويجات صوفية رائعة في رواية رائعة غير عادية.. لكاتب غير عادي حوارات تنطلق كتدفق البراكين حوارات ساخنة تمتزج بمونولوجات داخلية تلطف حرارة انطلاق الموجه بإيقاعاتها التي تتضمخ بعبق الروح في الجسد وتكشفت واقع الأعماق البشرية حين

يتسلط عليها الاستبداد والقهر.. وحين يستغلها فساد المتاجرة بالدين والمال وتوضع تحت طائلة المقامرة واستغلال النفوذ تكشف بسر تحويجاتها سوءات ماض تلبسه ثوب أساطير عشق خرافية أو تعريه بقسوة أحيانًا.. إنها رؤية كاشفة لكاتب مبدع أراد أن يقول لنا أن الروح باقية.. وأن الحاضر والمستقبل ما هما إلا روح تتقمص الجسد.. ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

"قهوة سادة" للروائى السيد حافظ
أ.د. كمال الدين عيد

الجزء الأول: حكاية سهر والعشق والقمر (قرار امتلاك الذات والحرية)

الجزء الثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل (خلْفاً دُر. إلى مصر الفرعونية)

- **من بداية البداية ...**

تخرج سهر بطلة الرواية إلى الحياة يوم ١٢ رجب ١٣٧٧هـ الموافق الأول من فبراير ١٩٥٨م يوم الاتفاق على الوحدة (وحدة ما يغلبها غلاب) بين مصر وسوريا (الجمهورية العربية المتحدة) بداية تربط الميلاد بالسياسة.. ميلاد سهر ذات السبعة عشر ربيعاً المفعمة بتخييل الروائي السيد حافظ الجمالي

"العشق يا سهر سِرُ الحياة، العشق راحة الروح. إن عطرك سيصيب الرجال عبر الهواء بدوار، وهواء بحر عشقك نار فى روح الرجال. أنت بحر يهدهد القلوب قبل العيون، وصوتك به نبرة خفية، تتحرك فُتحرك ظُلمة الروح للنور. قبلاتك سكر ولؤلؤ خفى لا يتذوقه إلا رجل يعبر بحرك بالطيران، ويدق قلبك بجناحه المكسور، وبدقة قلبك له تصبحين وطناً للعشق".

الوطن الوطن.. والسياسة سياسة.

يضع السيد حافظ هذه اللفظة الغالية فى صدر روايته، ليدخل عبر سردياته إلى تفسير معنى المواطنة. "هل هى فطرية أم مكتسبة؟ مكتسبة فمن أين نرضعها.. من الدساتير أم من القانون.. أم من النظام .. أم من الدولة؟"

يحلم بطل الرواية (كاظم) بأن يكون سياسًيا، لكنه ومعه قدره يصبح معلًما. لكن المعلم (الذى كاد أن يكون رسولاً) يصبح أشقى الأشقياء فى الوطن العربى. جعلته الحكومات العربية "يكره وطنه وأرضه ويبحث عن وطن آخر له. أو كما قال الإمام على رضى الله عنه: الفقر فى الوطن غربة، والغنى فى الغربة وطن. يؤمن بقول أفلاطون من يعزف عن المشاركة فى الحياة السياسية يستحق العقاب بأن يحكمه جاهل أو لا يرعى شؤونه ويتجاهله ديكتاتور.. ونحن العرب هكذا"

يعترف كاظم بحلمه بالسياسة اعترافًا ويقينًا، فيصل إلى معارضة نظامه السياسى يقينًا وحُججًا، فهو مطبق الفكين إلا عند طبيب الأسنان. والدليل.. لماذا قتل على ابن أبى طالب؟ ولماذا قُتل الخلفاء الراشدون؟"

وُيذيل السيد حافظ فقرته السابقة بشعر "جبران خليل جبران":

ليت لى ألف عين

ترى كل ما ُيعرض على الوجود.

من عجائب وطرائف....

- الرواية سردًا وتخييلًا.

جاء منذ القديم، جاء السرد قبل التخييل.. أى أن الروايات قد استعملت الواقعية الحقيقة، حتى دخل (العقل) فى عالم الرواية ووجدان الروائيين النفسي، فزامل الخيال الواقع الظاهر والمعتمد قبلًا لإضافة شكلًا ونوعًا من أشكال الإبداع العصرى الُمشّبع السيد حافظ الواقع بالخيال اللامع الذى يكمل صورًا سياسية واجتماعية وبيئية داخل لوحات روايته (حكاية سهر والعشق والقمر)، ولا ينسى أن يجعل نكسة ١٩٦٧ حجًرا أساسًيا كفعل استثنائى غير عادى مثل تغيرات وتحولات كبرى فى السياسة العربية بأكملها، وعلى خريطة الوطن العربى بأطرافه البعيدة والقريبة (ذكريات وطن!).

يسرد السيد حافظ تاريخ الوطن المصرى ضمن ذكريات بلده ووطن (استشهاد البطل المصرى أحمد عبد العزيز قائد القوات المصرية فى حرب ١٩٤٨)، خطاب الزعيم جمال

عبد الناصر ٨ يونيو معلنًا التنحى!، مظاهرات وطنية فى الإسكندرية). سمع فتحى رضوان – أحد أبطال الرواية يبكى "لأنى سمعت دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبى، وجدتنى مواطنًا بلا وطن! وجدتنى مشروع كاتب فى وطن أُمى، ومثقف وسط أدعياء، وطيًبا وسط أشرار، وجدتنى حُطًما يمسح مؤخرة الوطن الذى يضاجعه الأثرياء من عسكر يوليو..."

الآن يعلم قراء الرواية كلمات السيد حافظ وكيف أوضعها فى ذكاء وحكمة على لسان بطله فتحى رضوان.

يستغل السيد حافظ عامل الحرية فى روايته استغلالاً جيداً، حين يكتب عن الحرب الخاسرة لنا وللأمة العربية جمعاء؛ فالحرية تُحزّم الفكرة السياسية، وتكشف أخطاء السياسيين، وهى لفظة واسعة المعنى عريضته، تصل إلى إعلان الحب والعشق وحتى التمرد والثورة.

"هُزمت سوريا معنا، واحتل الإسرائيليون الجولان والضفة الغربية من الأردن. قال الأستاذ هيكل إن الملك حسين خان عبد الناصر والأسد، وأبلغ إسرائيل بموعد الحرب وساعة الصفر. وكتبت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل فى مذكراتها نفس الكلام.. هل الجيش العربي جيش من صلصال وورق مُقوى؟.. أمجاد يا عرب أمجاد.. كلام قوادين. الجيش الإسرائيلى خلع سراويه أمام هتلر، والجيش الألمانى خلع سراويله أمام الجيش الأمريكى والإنجليزى فى الحرب العالمية الثانية، والجيش الأمريكى خلع سراويله أمام الجيش الفيتنامى، والجيش الفيتنامى خلع سراويله بعد الحرب، وقرر التمتع بالقمار والملابس والاستيراد والتصدير وممارسة البغاء. إنها حرب السراويل"...

"كيف سنطهر وننظف إسرائيل من القُدس ونحن غير قادرين على تنظيف شوارع القاهرة من الزبالة والقذارة؟"

لاحظ ذكاء الروائى السيد حافظ فى الإسقاط والمفارقة التاريخية **anachronism** فى غير الزمان الصحيح، هل أصبحت الحياة مظاهر؟ الملابس والأناقة هما عنوان الإنسان.

أناقة لا ثقافة؟ لا شئ يهم بعد ذلك!.

بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ يقدم الإصلاح السياسي لعبد الناصر، (لا صوت أعلى من صوت المعركة)، (لا نداء أقدر من ندائها)، (تعبئة كل جماهيرنا بما لها من طاقات وإمكانيات من أجل واجبات التحرير والنصر)، (تحقيق السيطرة الديمقراطية على العمل الوطنى فى كافة المجالات)، تدعيم القيم الروحية والخلقية، والاهتمام بالشباب وإتاحة الفرصة أمامه للتجربة)، إطلاق القُوى الخلاقة للحركة النقابية سواء فى نقابات العمال أو نقابات المهنيين)، (تعميق التلاحم بين جماهير الشعب وبين القوات المسلحة)، (ضمان حماية الثورة فى ظل سيادة القانون).

"كلمات كلمات! لم ينفذ شئ من بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨"!.

أقوى من رابطة الدم والابن والأب والزوجة والأهل والبلد والبشر!" "شعبنا تحّول إلى ذئاب.. قلبى مع الوطن.. لست حُرًا... الوطن مهزوم. الأحرار فى شعبنا نسبة ٢٠٪ وأنا منهم، يبدو أن نعمة الفهم والثقافة نقمة وعذاب!" "الشعب متمرد كسول لا يحب العمل، ويحب الشر والكذب، والفهلوة والنصب، والتحايل على القانون"! أظن ذلك صحيحًا وإن أغضب الكثيرين.

"قال نزار قبانى لعبد الناصر بعد النكسة:

أرغمنى جُندك أن آكل من حذائى

يا سيدى..

يا سيدى السلطان

لقد خسرت الحرب مرتين.

لأن نصف شعبنا ليس له لسان

ما قيمة الشعب الذى ليس له لسان

لأن نصف شعبنا

محاصر كالنمل والجرزان

لو أحد يمنحنى الأمان

من عسكر السلطان ..

قلت له : لقد خسرت الحرب مرتين

لأنك انفصلت عن قضية الإنسان".

"العاصمة أم عاهرة للقرى فى كل بلاد الدنيا.. كل التجار خونة يشربون دماء الفقراء ويأكلون لحمهم نيئاً ، التاجر لا ينال رضى الله – أو قد يناله بصعوبة. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. خير الأماكن المساجد وشر الأماكن الأسواق، والسوق يحكمه التجار الفُجاّر. القادة العرب تجار في الخفاء يتقاسمون المال مع الأغنياء ، من التجار أمراء لأنهم يحكمون دون ما حاجة إلى الظهور" وكل تاجر شاطر في هذه الأيام الملعونة).

لكن أين مصر وسط هذه الحياة الخرفة؟

يعود بطل آخر من أبطال رواية السيد حافظ ليقول: "مصر التي في خاطرى ليست هي هذه المأزومة المصدومة المهووسة، لأن مصر المنحوسة بالهزائم، مصر المحروسة بأهل البيت، مصر المحظوظة لكل من حكمها وسرق مالها، يومئذ تحدّث أخبارها. وأنا عشقت مصر تلك السافلة العمياء ، الجاهلة القذرة الوسخة، الرائعة أحياناً وجميلة القلب، معشوقتى في الصباح والمساء. هل خدعت الشاب بحبها؟ وأنها أم الدنيا وأنا لست أولهم؟ هل علّمت الشباب عشقها الذى كان خطاً ؟ وجدت جيشًا من عبيد ورعاع، أو شعبًا من العبيد يحب الانحناء والتملق، وعرفت بعد النكسة كم نحن سيئون كشعب، سيئون كقادة، سيئون كسياسيين، سيئون نحن كمدرسين، سيئون نحن كبشر. "وطن فاسد، شعب ٨٨٪ منه فاسد، ماذا جرى للوطن؟"

بعد هذه المعاناة من الهزيمة والأسى والعذاب، يقف السيد حافظ في محطة عنوانها (العشق والحب) وضمن عالم الحرية وأزماتها وانفراجاتها مُلقياً بروحه وشفافيته الناعمة، ووفق هذا العالم الذى يحتل أولويات مهمة في صدر الروايات، وأقصد به التجربة

الإنسانية في المفاهيم السردية بكل علاقاتها المتعددة المنفتحة على أغلب مستويات الوعي الساخنة والدافئة وغير الساخنة، بغية اكتشاف حقيقة الإنسان البيولوجية والاجتماعية، والكشف عن المشاعر الحسية التي وهبها الله للإنسان في الطبيعة، بلا خجل أو مداورة، وعلى نسق الانفتاح المعرفي الحقيقي والطبيعي.

لا حياء في الدين ، ولا العاطفة، أو العشق الدنيوى.

كاظم يخاطب الحبيبة سهر:

"حتى أتمكن من شفتيك علّى أن أعبر بحولٍ، حتى أتمكن من أن أرسم على نهديك، سأصعد جبالًا وأعبر جسورًا، حتى يتمكن من قلبك احتاج سيف روميو ورمح دون جوان. أحتاج ليلة القدر وصوم الليالي العشر، حتى أتمكن من جسدك ألف ليلة وليلة أحتاج مأذونًا وشهودًا ومهرًا ألف أغنية وألف كتاب عشق، حتى أتمكن وأنا الممكن وغيرك لا يوجد بالإمكان. حتى أتمكن منك لن أكون، وبك أكون أو لا أكون"

عشق متبتل يخاف الله، ويعشق حب الله وعشق حبيبته سهر. أليس عشق الجسد هو الرمز الحي والآبد الذي يعبر عن مكنوناتنا الحسية والثقافية والحضارية؟

ثم يعود الروائي النابه إلى الوطن، وحرياته ومساراته. يعود ليكمل شعلة الحرية في روايته.. إلى مصر، والى الأمة العربية التي باتت مكلومة جريحة.

"كل العروبة جريحة.. العروبة وهم أم حقيقة؟.. فلسطين وهم أم حقيقة؟.. إسرائيل وهم أم حقيقة؟.. كل شيء وهم أم حقيقة؟.. البلاد العربية ليست بلادًا حقيقية أمام إسرائيل التي أثبتت أنها حقيقة.. إسرائيل هم أولاد العم، اليهود في الأصل مصريون ونبيهم سيدنا موسى كان مصرياً، والدعوة نزلت في جبل الطور.. هل نحن وهم واحد، لنا اسم واحد في التاريخ اسمه (الكراهية) الكراهية التي تنتشر فتصيب المسيحيين والبشر الآخرين. آه! ما أقسى الإنسان ذا القلب الحجر!".

الوطن ليس وردة.

ولا هو بحلم أو ظلمة أو ظلام. يقبض على بطل الرواية كاظم –زورًا – بتهمة الشيوعية،

هو لم يكن شيوعًيا، لكن السلطة انتزعت منه اعترافًا زوراً وبهتانًا" أي وطن هذا الذي عشنا فيه، ونعيش الآن فيه. الزور والتزوير هو مبدأ الدكتاتوريين ويحسبونه العدل! تحمل الشتائم (اعترف يا ابن الكلب) بعد الضرب والإهانة والتعذيب، أطلقوا سراحه الأغبياء. "الشيوعيون تهمة في الوطن العربي، كرههم عبد الناصر، وكره الشيوعيون القوميين العرب، وكره الإخوان الاثنين، وكره السلفيون الإخوان المسلمين، وكره السلفيون الإخوان المسلمين، وكره الكاثوليك الأرثوذكس، وكره البروتستانت الاثنين، وكره اليهود المسلمين، وكره المسلمون والمسيحيون اليهود. نحن نعوم على بحر من الكراهية. هل يكرمنا الله بنبي جديد؟. لا أظن.. هل نحن في نهاية العالم؟ ويوم الحساب ونقابل رب العالمين، ونوزّع بين الجنة والنار؟"

"الوطن ليس وردة، ولا حديقة. الوطن إما مقبرة مظلمة أو جنة رضوان، الوطن إنسان ومشاعر. آه يا قلبى المهاجر مع الأحلام"

السيد حافظ يحلم بوطن آخر، غير وطنه أو وطننا جميًعا. أحلامه في جزيرة زاهرة بالورود والرياحين، وبالمشرف والأمان.

"كان الوطن بالنسبة لي في الحلم بستانًا وأمانًا وشجرة زيتون وشجرة أرز. الوطن حنان".

الواقع التاريخي:

لا تخلو رواية من السرد الواقعي الذي عادة ما يتناول في أجزاء منه التعامل مع التاريخ الإنساني، الذي ُيقدم أعظم أنواع التاريخ بعيدًا عن تواريخ الأحداث أو الِفعال. فالأهم في التاريخ، هو ذلك الذي يكون الإنسان هو الضحية فيه، وهو الُمغتال والمظلوم المتظّلم دوًما، وبلا نتيجة في النهاية.

يصر السيد حافظ على نبش تاريخه وتاريخ موطنه مدينة الإسكندرية، أو هو يحددها بلد بطله فتحي رضوان (والذي من المحتمل أن يكون هو نفسه السيد حافظ. عارضًا ميراث الوطنية المصرية من والده العبق بعمل الخير للأهل ولغير الأهل. متنقلًا بنا بين الأحياء والشوارع والمنازل والأسر، وعدد من الشخصيات الإسكندرية (السمراء حفيظة

زوجة الدوكش، حماصة أخت حفيظة، عبد الإله بائع الخضار، عزيزة زوجة عبد العال، حندوقة الأكثر إثارة بينهن جميعاً) كل شخصية تحمل عالمها وسلوكها الخاص، ومهنتها وبريقها في الحياة الاجتماعية السكندرية التي تكشف جانًبا جميلًا من جمال وتاريخ الثغر.

الوطن مرة ثانية:

يظل الوطن هو هاجس الروائي الوطني السيد حافظ. ولَم لا وقد شب منذ نعومة أظافره، وفى الجامعة على الثورة، على الظلم والاستبداد مهما كان مصدره وصاحبه.

"آه! الحاضر كسول وُمل وتعيس. كان الماضي حياً ، كفاح ونضال وتحرر واشتباكات وانتصارات.. الآن الأمور ليست هكذا.. أعطوا كل منا نيشانًا ووساًما وشهادة تقدير.. ولا شيء بعدها.. لا شيء حصل!

الجنرالات حصلت على كل شئ، المناصب وأراضى ومال، وأصبحت المقاومة الشعبية في خبر كان!

تاريخ الوطن في المقاهي لا يجمعه أحد، وتاريخ الجنرالات في المدارس تسعة وتسعين في المائة (٩٩٪) منه كذب في كذب، والمدرسون يعلمون تاريخ الوطن الكاذب الذي كتبه الجنرالات!".

عودة إلى العشق:

الرواية بشتى أشكالها تبدو مرة طليقة في القرن الحادي والعشرين بعد مرورها على أشكال ما بعد البنيوية والحداثة **modernness** قرن الرواية بامتياز، خاصة إذا كانت أشكالًا سياسية أو دينية أو اجتماعية، تزرع الرواية الأمل في النفوس، والعشق في النفوس، والأمل بل الآمال لُتسعد البشر والبشرية بلحظات الحب والغرام.

ولتكون أكثر جرأة من المجهول والمخفي، في ثوب رومانسية تشفى غليل العشاق والمحبين. "آه يا سهر! عندما تغفو عيناك على وسادة الماء، تتسلل روحي منى وتغادرني إليك، إلى روحك، إلى قلبك، إلى عقلك، كي تحميك من الأحلام الُمزعجة.. هل

أنت الحضور؟ أم ملكة ملكات التاريخ؟ أم رعشة في الدم؟ واشتعال الروح؟ أم أنت زهور ارتوت بدم الحسين والمتنبي وبلقيس وكليوباترا؟ أنت شرفة للشهوة تطفئ القلب"
تتوافق مع هذه العودة إلى العشق خيالات وتخيلات الروائي الكبير السيد حافظ ليبعث لروايته بصورة جميلة غير مألوفة إلا في الخيال الجميل. يتحدث فيها العصفور الطائر مع الله عز وجل:
"ربى، ورب الناس وكل الناس، ارفع عنى البلاء واجعلني بشرًا، أنا لست معترضًا ولكنى أطمع في العفو والرحمة والعتق من مكانة العصفور. أنزل لي آية واجعلني بشرًا. اللهم ارفع عنى شقاء عقلي وقلبي من جهلاء العصافير. اللهم لا تجعل رزقي بين عبيدك الجهلاء . اللهم أسألك أمن نفسي، وأن ترحمني من كيد الأعداء من الصقور والصيادين".
صورة مبتكرة في الخيال التواق إلى الأمن والقلب الحنون بعيدًا عن الجهلة والجهلاء من بني البشر.
تتميز الرواية – في عدة جوانب منها – بالإيحاء بعشق الوطن الذي يحلم به الشرفاء وكاتبها. الوطن مصر أم الدنيا، وعشق الوطن عذاب، ومصر السبعة آلاف عام. مصر التي في ظني أنها لم تتحرر بعد. وما معنى لفظة وطن؟ ولفظة مواطن؟ غاب عنا الوطن، مصر الوطن، وغابت المواطنة هي الأخرى!.
"عالم كاذب يغزو مصر أم الدنيا، أم السيدة هاجر أم أنبياء الله، وأم سيدنا إسماعيل، وأم العرب، وهي مصرية.. مصر عالم كاذب في سير حُكامه عند مذكرات محمد علي بتاريخ كاذب وكذوب.. تُخرّج المدارس فيه أغبياء تجهل حقيقة تاريخها وحقيقة الأشياء فالأوطان أحلام وأكفان وأماكن وهمية تصنع لنا جواز سفر في الروح قبل المدن".
حقاً إن الهوية عار على حاصلها. ألم تقتل مصر سيد درويش بأغانيه وألحانه المستحدثة؟ (زورونى كل سنة مرة حرام تنسونى بالمرة؟).. هذه مصر (وهى هي حقيقة مصر) كما صورها لنا بكل الصدق الروائي السيد حافظ حفظه الله.

الجزء الثاني: حكاية نفر وإخناتون والنيل

(خلْفاً نُور. إلى مصر الفرعونية)

يستهل الروائي السيد حافظ الجزء الثاني من روايته الطويلة (قهوة سادة) بمقولات هي حروف من نور تضئ مدخل وبداية روايته بقول إخناتون

إلهى .. إنك صانع ومُصور دون أناشيد منقطع

مُصور لأعضائك بنفسك.

ومُصور دون أن نُصّور.

منقطع القرين في صفاته يخترق الأبدية.

مُرشد الآلاف إلى السبيل.

(إخناتون)

ومن الإنجيل اختار الفقرة الجميلة:

"الحق أقول لكم: إن جميع الخطايا تُغفر لبنى البشر والتجاديف التي يجدّفونها(٢٩) ولكن من جدّف على الروح القُدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية) مرقس ٣ : ٢٨.

وينتهى الروائى بمقولة ثالثة، وأخيرة ينطق بها لسان بطله فتحي رضوان خليل تذكر: "الصراعات والمتناقضات التي يمر بها شعبنا الآن هي القوة المحركة للتاريخ.. ليس عيًبا أن أي ثورة بلا مبادئ، معظم الثورات التي كان لها مبادئ سقطت وقتلت.. نحن نحتاج إلى ثورة عقلية.. متى ينتهي الصراع المفجع بين العبد والسيد؟ إن معظم المبادئ خادعة وليست حقيقية.

(فتحى رضوان خليل)

إخناتون ، والنيل، ومصر الفرعونية:

زوايا ثلاثة تتربع وتستند عليها رواية الروائي السيد حافظ ليعدم من خلالها – عبر

روايته الطويلة– أفكارًا قديمة أصيلة، وأخرى حديثة مستقاة من فكر فرعوني، أو لعلها تمثل إسقاطات لها من العصرية والآنية الكثير الكثير الذي يؤكد غيرة السيد حافظ على مصر، وعلى الوطن، إيمانًا منه بالخلاص الذي يضع وطنه مصر بإذن الله في أوج التألق والازدهار.

يذهب الروائي – في صدق وواقعية – إلى حقب التاريخ ليفحصه في دقة وأمانة عجيبين تؤكد شخصيته الرائعة ونظرته الثاقبة المؤكدة حين يفصح في إسهاب دقيق ورقيق عن شخصية الملك إخناتون، أمنحتب الرابع، متعمقاً في سلفه (النمرود) أمنحتب الثالث الذي علّم شعب مصر الفرعوني أن يعبدوه ويصلوا له وحده، باعتباره الله والإله، حتى أن المصريين كانوا ينحنون لقصره الأبيض من أبعد المسافات وحتى ولو تجاوزت خمسة كيلومترات ُبعداً ! استغلالٌ لمستبد حاكم ُيدخل من شارك في البناء له الجنة يوم الحساب! وُقيد بالحديد وسلاسله الرافضين لأوامره وجبروته، وبالكرباج الفرعوني الغليظ.

ينتقل السيد حافظ بين الفرعونين الثالث والرابع، منتقلًا في ذكاء إلى فكرة الحرية عند الشعب القديم، شعب ما ظلّ يبحث عن العدل في الخفاء في موقف تضاد وعناد ومقاومة للفرعون أمنحتب الثالث اللعين.

حرّرت كتب عديدة تاريخ إخناتون (أمنحتب الرابع) لكنني مع ذلك لم أشهد تقريرًا وافًيا، وتشريحًا دراميًا أصيلًا يكشف عن خبايا تلك الشخصية في التاريخ الفرعوني، كما أوردها لنا في روايته السيد حافظ، كاشفاً عن خصائص الشخصية، وإيمانًا بالله عزّ وجل. هو لا يعبد التماثيل (كما عصر والده أمنحتب الثالث)، ولا يدّعى الألوهية، ويعرف لغة كائنات حية كالطيور والحشرات، وُيحس بالشفقة الأبوية لكل مواطن على أرضه.

<u>إخناتون المؤمن بالإله الواحد</u> ، وبشعبه من بعده، ُيجسد درجة عالية شاهقة من درجات الإيمان القوى المتعافي "هو يصلى للإله رمز القوة آتون"، ويعتبر الشمس رمزاً للإله الموحد، ونور آتون يفيد جميع الأجناس (بعيداً عن العنصرية والتمييز)، وآتون ليس رب شعب ما أو مدينة معينة، بل كان رب الناس التي تشرق عليهم الشمس فهو رب

المصريين، رب شعوب آسيا، شعوب النوبة، وهو راعٍ لا يفّرق بين أحد من رعيته".
وليؤكد السيد حافظ الشخصية الكبيرة المؤمنة بالله وحده إخناتون، يسجل ديالوجًا دراميًا بين الملك والملكة (إخناتون، نفرتيتي) على النحو التالي:

"إخناتون: مصر الآن تعبد أكثر من راعٍ إلهًا. مصر لا تحتمل كل هذا. النيل هو الحضارة، والحياة.. المصريون يبتعدون عن حقيقة الله.. الحضارة لا تقوم على التفتت. أي طريق يسير فيه الوطن؟ أشعر أنى حاكم لشعب ضائع!.

نفرتيتي: كُن مثل أبيك أمنحتب الثالث، أنت الإله وأنت الله، الذي يعبده الناس.

إخناتون: إن أبى قد جُنْ.. لقد مات أبى، الله لا يموت. إذن هو ليس إله. إن شعبي ُمزق قلبه بين أيدي الكهنة. إن الفرعون وسيط بين الشعب والرب.

نفرتيتي: شعب؟ أي شعب؟ من هو الشعب؟ مزارعون حقراء يزرعون القمح والشعير ليس لهم أية قوة.. القوة في الدين وكهنة المعبد يسيطرون على المحاربين وجيشك.. الله هذا في خيالك أنت الذي تراه.

إخناتون: سيراه شعبي معه.. أنا لن أتعامل مع الكهنة، لست بوقًا للكهنة، ولا نفيرًا للجند... لقد ألغيت كل الآلهة".

الشعب في عين إخناتون هو الحرفيون، والرعاة، والفلاحون، وهم في القانون ممنوعون من العمل السياسي!

إخناتون والإيمان:

في رأى السيد حافظ تمتع إخناتون بإيمان قوى وعزم من حديد "يعلم أن الطريق إلى الله به أشواك، وبه عناء، وبه شقاء وألم، الطريق إلى النور يفنى الجسد فيه، ولكن الروح تظل ُتفنى بالإيمان والاشتعال والوهج". إخناتون ُصلى في شروق وغروب كل شمس. جعل الله الإنسان خليفته، وهو يعلم أنه ُيفسدها ويفسد فيها، كما يقتل ويذبح فيها. وقف إخناتون حقاً ضد الرأي العام".

- يا إلهي، كل شئ قبيح هو منى، عندما يغيب نورك عنى، وأعرفك حين

أصلى، إلهي.. ماذا، وكيف، وأين الخلاص منك، وأنت حولي وفّى تسكن، وفوقي وتحتي في السماء والأرض، إلهي.. إني في غاية العشق لك، والجهالة نار تحاصرني، أنا أدرى ولست أدرى. إلهي .. طهّرني من الكآبة والغربة، وليس لي سفينة أبحر بها إلى قلبك إلا الدمع.. آه آه".

يعترف إخناتون لملكته نفرتيتي بحظه العاثر في حياته الملكية، وبالوطن أي العقل الضيق، وبتدني أناشيد دينية هابطة، وبسلوك المصريين شعبه في الوطن. لقد ضاق بالنفاق وبالشر وبغياب الخير والفطنة وبكل ضجيج فكرى تافه (ضجيج في غير طائل) على خط مسرحية شكسبير التي جاءت بعد عصره **Much ado about nothing** .

يستطرد إخناتون فيقول: "أخاف على مصر من المؤامرات التي تحاك ضدها من كل صوب (وكان الفرعون الملك إخناتون – أمنحتب الرابع يتحدث إلينا اليوم في مصر مرة ثانية بعد ثورة الخامس والعشرين من يناير الخالدة) أستشعر شيئًا قادمًا سيطيح بي!! الكهنة، أم نفرتيتي، أم الجيش.. الجميع يا أخرى!.

كما يتجلى إيمان إخناتون بالله في حواره التالي:

"أيها الواحد العظيم.. اهتم بأمري، واجعلني أتحدث عن أعمالك العظيمة في أي أرض أحل بها.. تعالى إلّى ونجنى أنا الرجل الصامت. إلى الله الواحد.. أنت تشرف بجمالك يا آتون الحي يا رب الأبدية.. ساطع، وقوى، وجميل.. إيه أيها الإله الذي سوى نفسه بنفسه، وخالق كل أرض وكل من عليها والناس، وكل قطعان الماشية والغزلان، وكل الأشجار التي تنمو فوق التربة

تحيا عندما تشرق عليهم، وأنت الأب والأم لكل من خلقته.. وعندما تشرق ترى عيوبهم بوساطتك وتضئ أشمعك كل العالم، وينشرح بسبب رؤيتك كل قلب.. عندما تشرق بصفتك سيدهم".

هذا الإيمان الإخناتوني لا يفارق روح وعقل وجسد إخناتون حتى وهو بين أحضان زوجته كيا. إنه يفكر في عالم جديد، متخيلًا نفسه وقد انتقل صاعدًا فوق جبال النور،

مصطدًما بتاريخ فرعوني كتب ووثق حال العبيد وحال العبادة القاتل الذي حوّل الناس كلها إلى عبيد أذلاء. إنه يستشعر وحشة هذا العالم، حتى وجد نفسه يثور عليه ويتمرد لنمطه ونظامه وشكله ومضمونه، حين أحس بوهج الإيمان في قلبه، والنفاق في ذلك العهد الماضي هو الفجر الحر بعينه!.

يعود إخناتون – بكل إيمانه وأمانيه – إلى الصلاة في أكثر من مكان في الرواية الرائعة.

- أنت في السماء (يا الله) ولكن أشعتك فوق الأرض

أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر الأخضر العظيم.

أشعتك تحمل ألف ألف من الأفراح الملكية وحينما ترسل أشعتك تشمل الأرضين، وحتى كل ما صنعت وسواء أكان في السماء أم في الأرض، فإن كل الأعين تشاهده دائماً".

يظل إخناتون – بفضل من الله – واعًيا لأمور ُملكه ودنياه. عارفًا بالكهنة وُمدعي الدين وحُزمة آلهة العبادة التي كرسّها أبوه أمنحتب الثالث الدكتاتور الفرعوني السابق على ملكه. يشكر إخناتون ربه على منحه الوعي واليقظة، وانكشاف هوية الجهل والجهلاء أمام ناظريه، وعلاقته بسريره نفسه الشفافة الخلاّقة:

"لقد سئمت من المراوغة بيني وبين كهنة آمون ومعبد آمون.. لا مراوغة في الإيمان!. فالدين لا يقبل كذًبا، ولا يطيق الكذابين"!.

النيل.. نهر النيل الفرعوني – المصري:

طيبة، عاصمة مصر القديمة، مدينة المعابد والآلهة، طيبة أسطورة العشق المختومة بالمِسك والعنبر، زكية الرائحة. والنيل الذي يستحم فيه الرجال والنساء.

يصف السيد حافظ مدينة طيبة المحظوظة بالنيل فيقول عنها: "محظية الكهنة، الكهنة من كل لون وكل صنف واتجاه.. آلهة كثيرة. آلهة في كل شبر من أرض طيبة.. كم تدفع لكبير الكهنة لتحصل على وظيفة كاهن! (أي نوع من الرشى جرى على أرض طيبة قديماً !؟).

الكهنة والكهنوت، السر والأسرار، قُدس الأقداس، والتحنيط وغسْل الموتى والبركات.

المهنة للكاهن لا تتطلب منه سوى الجلوس في المعبد طوال اليوم للصلاة، والأكل، وجْمع الهدايا! (مهنة مريحة!). النيل هو الزراعة، و الانتظار والصبر.

"المصريون هم الصبر...

هم الانتظار..

انتظار الزرع لينضج..

انتظار الفيضان أن يأتي..

انتظار فرعون أن يرضى

انتظار المطر..

انتظار الانتظار"

قال هيرودوت "مصر هبة النيل" يعطى النيل ويمنح سره وعطاياه للبشر القدامى – الفراعنة بعضًا من ماء مقدس مسحور لْيجّمل النساء بعد استحمامهن به، والى الأبد (أية أساطير قديمة هذه!)

يحمل النيل عطايا الحب والعشق يهبهما للعشاق والفلاحين لُيقدم لكل منهم أملًا في الحياة، ونوراً يضئ طريقهم. شخصية (نفر) عندما تغيب عن ضفاف النيل تشعر بالوحدة، "فالمساءات رتيبة، وقابلة النجوم الليلية على سجادة حزينة، والحب بين الماء والنار جليد وجمر". وسرعان ما يفقد صوتها البريق، والشبك، والصيد فلا ترى شيئًا أمام بصرها.

تعود الرواية (قهوة سادة) بالنيل إلى عصرين ُمهمين: العصر القديم الفرعوني، والعصر الحديث المعاصر الذي تجري أحداثه بطريق المزج **Mixture** أو بين اختلاق الأحداث **Invention** بشريطة إيجاد وحدة **unit** بين العصرين والزمنين. ويستند الراوي الذكي في روايته إلى وحدة تنتج عن عامل الارتجاع الفني الروائي **Flash-back** فيلجأ إلى قطع – مرات ومرات – للتسلسل الزمني في الأثر الروائي الأدبيبإيراده أحداثًا أو وقائع أو مشاهد وقعت في زمن سابق.

يؤيد السيد حافظ رفض إخناتون لعروس النيل ضحية الغباء وأسطورة ملكة النيل التي ترمى له في كل عام. لكن ذلك يغضب الكهنة ورجال الدين. يا لهم من قلوب قاسية متحجرة! لا تفهم كثيًرا.

ثم تجار طيبة على جانبي نهر النيل! الذين لا يقلون قسوة وفجًرا عن كهنتهم. إنهم صناع التماثيل والحاصلون على المال والهدايا من الطيبين الغلابة فلاحى الأرض، وهم الذين يخدعهم أصحاب المال والمنافقون للسلطة، والطامعون في قتل إخناتون.

"يذكر إخناتون لزوجته نفرتيتي: يا أجمل ملكات مصر بلا استثناء.. أنا إخناتون زوجك وحبيبك، أرفض الخضوع إلى الكهنة، والانحناء للتجار أعداء الله، يسرقون أموال العامة، ويخفون السلع والبضائع القادمة من بلاد بونت وغيرها. هؤلاء يريدون أموالًا في جيوبهم، لا يريدون مصر أم الدنيا".

يختار إخناتون على ضفاف النيل فلسفة الحرية في التفكير، والحرية طريقها السلام لا الحرب. فالسلام أمن وأمان، "والحرب لا تنشر أي عدل أو عدالة، لأنها تنشر الويل والدمار والخراب ودموع الأرامل، وجيوشاً من الأيتام التي بلا حُلم".

مصر الفرعونية، مصر المعاصرة:

الروائي البارع السيد حافظ يفتتح الجزء الثاني هذا من روايته (قهوة سادة) بعبارة تكشف عن آلامه وآماله في الوطن المصري المعاصر، نابذاً الماضي العتيق، وناقدًا لكل أوضاع الفكر العفن الذي ساد مصر وطنه بين فترات وفترات.. "في بلادي يمُو الحلم ويسافر ويعود بلا أجنحة (قطّع الظلم أجنحته)، في وطني صُنعت للأحلام أضرحة (يدفنون فيها الوطن)، لمن أكتب؟ لمن؟

وأنا أقول له: سوف تكتب وتكتب، وحقك في الكتابة هو رواياتك وإبداعاتك.. قدّمت مصر الفرعونية، وطيبة، ونهر النيل العظيم – في السابق - كما أفردت في روايتك (قهوة سادة) المعابد والآلهة القدامى والكهنة الكسالى، وتجار المال والخضروات، والعبيد المساكين. ودكتاتورية الفرعون أمنحتب الثالث، ثم أوضحت سُلطة الدين الغاشمة ند الفرعون الجديد

إخناتون.

ولجأت بعد ديالوجات درامية رائعة إلى نفسك عبّرت عنه مونولوجاتك يا من تلبست روح بطل روايتك (فتحي رضوان خليل) جاهدًا في عصرك الآني خلاص العالم من الفقر والجهل والمرض

"ربما هزني موت جيفارا.. ربما قهرني هذا الإحساس بالثورة والثورة المضادة، وموت بابلو نيرودا، يحيرني أبا ذر الغفاري، الثائر حتى الموت، ربما اغتيال شهدي عطية الشافعي وحسن البنا... لا أكاد أعرف نفسي من أنا؟ ضائع أنا بيد الثوري والكاتب".

وقفت سيدي الكاتب إلى جانب صف الفقراء والكُتاب، وعاديت السياسيين الحاصلين على المناصب والشقق الفاخرة والأموال (الحرام). أردت تحرير نفسك الصافية من القلق والحيرة، اعتبرت كتب الأرصفة الغثيان بعينه، ذهبت بك كتاباتك إلى اكتشاف حقيقة العالم، ثم... فهمت أخيراً أن ما لك كله يعيش في وطن عبيط. إذن، لقد اكتشفت الحقيقة الخالية من التزويق، المفتقدة للذوق، الحالمة بالثقافة والتنوير.

حّررت مدة حقائق عن مصر القديمة والحديثة: معظم شوارع مصر بأسماء الحزم والخونة (تاريخ مُزيف لمصر) خدم الفاطميين لهم شوارع بأسمائهم تخليدًا لذكراهم. بهاء الدين قراقوش، وحارة تُخلد اسمه اللعين والذي أذاق المصريين الأمّر جلدًا وسجنًا وسخرية. وهكذا، وعلى نفس منوال الكذب والإدعاء (حارة الدليم، حارة درب الملوخية، قصر الشوك – قصر الشوق، حارة العطوف) هذه هي مصر العبيطة تاريخًا ومعاصرة.

نعم، سرق الوطن أمانيك العزيزة الغالية. الشعب المصري جاهل أمية ظروف، وأمية ثقافة. وتعلق فتقول "يا لذلّشعوب فقدت العقل لبؤسها، يا لأمم أمعنت في أذاها وعميت عن منفعتها. تُسلب (أيها الشعب) أحمل مواردكم وأنتم على السلب عيان، تتركون حقولكم تُنهب ومنازلكم تسرق وتجرد من متاعها القديم الموروث عن آبائكم! تحيون نوعًا من الحياة لا تملكون فيه الفخر، حتى لكأنها نعمة كبرى في ناظركم لو بقى لكم ولو النصف من أملاككم وأُسر له وأعمالكم".

كيف استطاع هذا الروائي الذكي المزج والخلط بيد آلاف السنين والقرون؟ وكيف به، وهو يلحظ داخل (الفلاش باله) هذا التعدد وهذه الثنائية المتطابقة المتماثلة في الحالين، حال الماضي البغيض، وحال الحاضر البغيض هو الآخر؟

وتحاول الملكة نفرتيتي أن تكسب ود زوجها الملك إخناتون، تسعى للاقتراب من زمرة الشعب، تحاول منع رجال الشرطة من ضرب الفلاحين المصريين بالعصي ليسلموا الحبوب وحصار الزراعة عنفاً. إلى ما بعد ذلك من وثقهم والقذف بهم في بئر ورأسهم إلى أسفل، وأمام زوجته للأسف أو بغير أسف. (ألم تسمع عن هذه البربرية الآن في زمننا المعاصر، وأشد منه غباءً وبلادة؟) لك الله يا مصر القديمة والحديث العصرية!.

فتحي رضوان بطل الرواية يذكر: "الشاعر نجيب سرور قابلني في محطة الرمل في مقهى إيليت وقال لي: اليسار أكثر خيانة من اليمين، وأنا لم أصدقه"، مصر خايبة طول عمرها.. المصريون يحتاجون غسيل عقولهم حتى ولو مرة في السنة.. اقرأ صحف الكويت تُذهل، لدينا الأخبار مثل الأهرام مثل الجمهورية، مسخرة، كله تمام (نفس حال اليوم المعاصر!) مصر مش عاوزانا.. مصر عاوزة الحرامية والكدابين والمنافقين واللصوص واللى بيحلبوها. مصر لا تحب الشرفاء. مُعظم الشعب ملوث بفيروس الفهلوة والنصب والكذب. تعبت، يا بنى إدينى قهوة سادة. ناداني عمري الضائع بيد (مصر) الوطن والحروف.

عبر حكايات ومشاهد فتحي رضوان بطل الرواية، وبين أحداث ماضٍ يروى الكاتب الروائي حكايات وحكايات عن مصر. فضّلها الله في التاريخ، مشيًرا إلى أحاديث نبوية عن الرسول صلى الله عليه وسلم "إذا فتح الله عليكم بعدى مصر، فاتخذوا منها جُنداً كثيفًا، فذلك الجند خير أجناد الأرض لأنهم في رباط إلى يوم القيامة". مصر التي حظيت بميلاد العديد من الأنبياء موسى وهارون، ويعقوب ويوسف والأسباط وأرمياء. ودخل إليها دانيال ولقمان الحكيم، ودفن بها العديد من العلماء. لم يترك السيد حافظ ساعًيا إلى مصر إلا وذكره مستعرضاً فعاله وإرادته (أقوال المسعودى، كعب الأحبار القضاعي)

ومن الفلاسفة القدامى الذين تحدثوا عن مصر كتب الروائي المتمكن من تاريخ الحضارات: هرمس، أبقراط، جالينيوس، ألينوس، فيثاغورات. كتاب أحمد حسين (تاريخ مصر). هذه مصر التي يتبول مصريون في الشارع، ليس كلهم بالطبع، لكن الغالبية العظمة مما أفقد الحاكم بأمر الله صوابه، فبنى لهم مراحيض عمومية. الناس تحتاج إلى وعى وثقافة!. والى رفع الروح المعنوية.

يحلم فتحي رضوان بمصر الأمة، وبتحريرها من التخلف، يخاطبها في شخص حبيبته سهر بالعشق البائن الظاهر: أكتب لك قصته (مسافر زاده الخيال) "يا عصفورتي، هذه الدنيا بدونك تعنى الوحشة والقلق والفزع والخوف، عيناك مرافئ الأمان والحنان والآمال. آه. عندما أراك أشعر كأنني غريبة عن الديار، وقمر عاد للكواكب ليدور، اسمحي لي أن أكتب بعض الكلمات، في زمن تفقد الكلمات براءتها ونقاءها وسُموها، ونبض قلبها الدافئ.. أنت من أنت؟ أسمع هفيف أنفاسك ليلاً فيطاردني الحلم إلى ضوء الفجر فأصلي، وأراك أمامي كأنك نجمة في السماء".

عشق لمصر، ومن أجل مصر يكتب السيد حافظ ليسجل تاريخًا مصريًا وطنيًا صادقًا وأصيلًا. مصر القديمة "بردية سليم حسن القديمة، وما كتبه الأدباء في مصر منذ أربعة آلاف عام قبل الميلاد. تقول البردية: "كل شيء في مصر يقبل رشوة إلا الله، لأنه عادل ونزيه. الرجل يذبح أخاه من أمه فما العمل؟ الرجل ينظر لابنه نظرة عدوه. الرجل يذبح بجوار أخيه فيتركه وحيدًا لينجى نفسه! العدو يحرم البلاد من العمل، إن من حصد المحصول لا يعلم عنه شيئًا. قوانين قاعة العدل، والأحكام قد ألقى بها ظهريًا فصارت تدوسها الناس بالأقدام في المحال العامة، والفقراء يقضونها على قارعة الطريق. أوراق العدل على الطريق ملقاة، لا تنفذ أحكام العدل في البلاد، لا قيمة للعدل عند الأغنياء. الناس تسلب السائح ماله في الليل ويجردونه مما معه (البلطجية) ويضربونه بالعصا أو يذبحونه كالشاة. نظام البلاد قد قُلب رأسًا على عقب. فمن كان عصا صار رب ثروة، والغنى الأصلي صار إنسانًا منهوبًا، والمتحلي بالفضائل يسير وهو محزون (مكتئب)

البؤس عم في هذا الزمان والفساد والفوضى.. لكنني عندما أقرأ، فإني أسمع نبض مصر، مصر الناس، وليست مصر الكهنة والحُراس. إني أدوس على أرض طاهرة تئن بأوجاع الناس ويحتشد فيها همس المظلومين والجياع. الحب بين ضفتي النيل يغيب. إن مصر تنتحر على ضفاف التشتت والصمت والاستسلام.. وأنا لا أريدها كذلك".

يعلن الروائي السيد حافظ عصيانه وتمرده، إنه لا يقبل بمصر الوطن أن يسير بها الحال على ما هي عليه الآن. إنها أفضل من ذلك بكثير بكثير.. "يكره الله السياسيين (سبب هذا المصير المظلم والظالم لمصر العصرية اليوم) لقد أنزل الله رسالات الأنبياء من السماء لمقاومة هؤلاء الطغاة. إن الله يحب الفقراء المستنيرين، ويكره الأغبياء الذين لم يفكروا ويتأملوا في خلق السموات والأرض والمجتمع والتاريخ. إن الله يحب كل ما هو جميل الروح والقلب، ويكره الأشرار به ثم يردد.." إنني مصري. أكيد أنا مصرايم بن بنصر بن حام بن نوح عليه السلام".

يعود قرب ختام الرواية، فتحي رضوان إلى القاهرة العاصمة المصرية الآن، يعود إلى الوطن القاتل والمقتول والعاهر والمتدين في وقت واحد. "فنجان القهوة أمامي قد برد، وأيامي تهترئ أمامي في ساحة الغفلة والأمية الثقافية. يا فاجرة أنت أيتها المدينة التي تدعى القاهرة. تعالى من وسخ الشوارع، ولا تستحمي في النيل لأنه مُلوث "تعالى ولو مرة واحدة لتشربي معي القهوة (السادة) وأنت طاهرة".

من مصر الآنية أم الدنيا، إلى مصر أم العروبة "والخونة الفلسطينيون الذين يُعطون إسرائيل رقم البيت والشارع والشقة واسم الناشطين لإسرائيل حتى تضربهم وتقتلهم بدم بارد. تُرى كم مليون خائن عربي يتعاون مع إسرائيل؟ تُرى كم مصري خائن؟ الخيانة مهنة، الجاسوسية مهنة هي الأخرى، أكل عيش. كم خائن في تاريخ مصر وتاريخ العرب؟"

الحرية مرة أخرى:

يتعامل السيد حافظ بمفهوم ومضمون الحرية تعاملًا يحمل معها الخير للبشرية، يظل يعمل على تأكيدها لإعطائها البعد الإيجابي وأمل الحياة لعيشها واستمرارها داخل حياة معاصرة أليمة. آن الآوان لكي تنهض الحرية متجاوزة آلامها والماضي الرديء الذي حبس وجودها في حيوات عربية متخلفة، خارجة عن حدود المصداقية والموضوية. لقد تحطمت آمال القراء العرب فغفلوا عن القراءة وفترت إرادتهم، وتخلفوا عن البحث عن الجديد في عالمي الآداب والثقافة.

فقد روائيو اليوم – العرب على الأقل – دورهم التنظيري الذي يعنى التحليل والتشريح والدراسة والنقد كنتاج طبيعيلأحوال المجتمعات حتى تعبر الرواية تعبيراً شاملاً وأمينا عن الواقع الحي أو الخيال الناشط الجميل الذييضيف إلى الواقع تشويقاً وتطلعاً إلى غد روائي أفضل . لقد جهّزت (قهوة سادة) للسيد حافظ إشراقة فعالة تعيد لنا جميًعا صورة النقد البناء للمجتمع العربي عامة. وحتى تكسب معركة الموقف، فقد زودت القارئ بالتواريخ، والتحليل الفلسفي والأدبي، وبالأمثلة تلو الأمثلة التي لا تنضب، ولا تختفي بين الحين والحين، لتظل الروح الروائية ممسكة ومتعلقة برأس القارئ وعقله وأحاسيسه ونبضات قلبه حتى يقبل ما يرويه الراوي من تاريخ يسير بين القديم والحديث.

(قهوة سادة) عمل أدبي رصين يضيف إلى جانب التاريخية، الحقائق والحقيقة، والعشق الفني، معنى آخر مسار الرواية. يتجول الروائي الكبير السيد حافظ بين القضايا المهمة والمعاصرة، فيتحسس ويتلمس السياسات التي تطيح بالإنسانيات، ويلقى الضوء الأبيض الناصع على مؤامرات التجار آكلي لحوم البشر واستغلالهم للدين بعقد صفقات الحوار مع الساسة والسياسيين الجهلاء، ويفكر في مصر الجديدةآملاً الخير لها ومؤملاً رخاءها وعزّتها على يد ثورة ٢٥ يناير الصاعدة بإذنه تعالى، مبتهلاً إلى الله اكتمالها ونصرها مع الشعب المصري العظيم، آمين.

المرأة والحب فى رواية قهوة سادة

د/ لبلبة فتحى خليفة
مدرس مسرح بكلية التربية النوعية

أن المرأة فى صراع دائم نحو الحب هذا الصراع هو الذي يشكل وجودها وماهيتها، فهي تصارع العدم المتأصل بداخلها من أجل الوجود وتقاوم اليأس من أجل الأمل وتسعي إلي الحرية والالتزام وتحيي حاضرها، وفي الوقت نفسه تتطلع إلي مستقبل مختلف عنه، فالحب هو الذي يعطي لها معني للوجود.

يسعي الروائى "السيد حافظ" للبحث عن مستقبل الحب فى حياة المرأة ويرهنه بالخلفية الثقافية علي مر التاريخ من خلال قصة "سهر" بطلة الرواية والتي اكتملت أنوثتها فى يوم تنحي عبد الناصر بعد نكسة ٦٧، وكأن مصير سهر فى البحث عن الحب هو مصير مصر فى البحث عن الحرية والاستقرار.. وبدأت حكاية سهر بالبحث عن العريس المناسب فالابنة هي مستقبل الأب ومستقبل المجتمع وتطلعاته وأمنياته فى أن يكون له مستقبل أفضل من حاضره..

ويربط الكاتب القصة بضرورة تغير المناخ الثقافي بعد النكسة فى مصر وأن يتغير كل فناني مصر وتتغير الكلمة وتنبع من أعماق الشعب وليس من أعماق الزيف، ويعبر الكاتب عن الحلم بالحرية بحلم عصفور من الزواج بسهر لتحويل حلم الحرية إلي ممارسات.

لجأ الكاتب للتاريخ بحثاً عن هذه الحرية الضائعة التي تعبر عن الحب فى كل مكان وزمان والتي إن وجدت كانت الحضارة وكانت قيمة الإنسان المهدرة علي مر التاريخ سواء رجل أو أمرأة ليكتشف "فتحي رضوان" الشخصية المؤرخة لفترة ما بعد ٦٧ أنها

عصور بربرية فوضوية.

ويتساءل الكاتب علي لسان "فتحي رضوان" ما سبب ازدواجية الشخصية المصرية.. هل جينات العبيد الذين اشتراهم محمد علي واشتراهم المماليك، هم بلاء الشخصية المصرية للخضوع والاستلام، وهل ستظل مصر بين قبضة الفساد والمفسدين؟؟؟، فمشكلة مصر الدائمة هي الدستور – دولة القانون – العدالة الاجتماعية، وإذا سلّمنا بتشريط الشخصية المصرية على مر العصور فهذا دليل علي ازدواجية مصر بين الأنا والأخر، الرجل والمرأة، السياسة والمبادئ، النور والظلام، الحرية والطغيان.. هي جميعها تجسيد لازدوجية "الحب والقهر" فالمرأة دائماً مقهورة علي مر العصور مثل هذا المجتمع تماماً حتى أن وجد الحب يستغله المتسلط كمظهر من مظاهر القهر لتبرير طابعة الاستغلالي، كما قال "مصطفي حجازي" فى كتاب "سيكولوجية القهر" إذاً فما هو الحد الفاصل بين العشق والكره كما يتساءل الكاتب؟

وسنتعرف علي تفاصيل هذا التساؤل من خلال جدل أبطال رواية "السيد حافظ" قهوة سادة ليوضح لنا علاقة المرأة بالمجتمع ومصير الحب فى الرواية، والتي تنقسم شخصياتها بين العشق والكره، وفي تجريب تاريخي فى مختلف العصور يخرج الكاتب من عصر إلى عصر بشخصية المؤرخ "فتحي رضوان" ليروي لنا باقي القصة بشخصية الرواية "شهرزاد" مكملة لهذا العصر وملابساته وظروفه وثقافته ومصير الحب فيه..

اختار الكاتب شخصية شهرزاد كعرَّافة، وهي شخصية لها خلفية تاريخية من فنون الحكي، ولكن الكاتب أراد أن تكون "شهرزاد" نفسها معبرة عن عصر فى الماضي له امتداد فى الحاضر، وهي "سهر" بطلة الرواية إشارة إلى أن الزمن متوقف عند شهرزاد التي لم تعثر بعد على الفارس المناسب الذي يخرجها من التخلف؛ فجميع رجال بلدتها غير قادرين على اكتساب حبها لوجود نقص ما يحول بينهم وبين حبها ولذلك فهي تجسد الماضي الأليم.. وسهر هي الحاضر الذي لم يمل فى البحث عن الحب الذي لم تجده شهرزاد، وتبحث عنه هي الأخرى مع سهر فى توحد لمصير لم يتحدد بعد.

تحاول العرافة "شهرزاد" أن تتنبئا لمستقبل "سهر" من خلال قصة فرعونية "نفر" حيث تربطهما نفس الروح العطرة، فإذا اعتبرنا أن مصير الحب والمرأة فى أي عصر هو عنوان تقدم العصر أو تخلفه، نجد تساؤل الكاتب عن مستقبل الفترة من ٦٧ إلي ٢٥ بناءاً علي المقدمات والمعايير الأدبية التي وضعتها القصة وهي مصير المرأة ومستقبلها وعلاقتها بالرجل باعتباره سلطة أو نظام ينظم العلاقات ويحدد الحقوق والواجبات والمسئوليات، لا ترى "سهر " مستقبلًا واضحًا مع المنقذ خارج البلاد؛ فتلجأ إلي شهرزاد لتربط قصة "سهر" العصرية "بنفر" الفرعونية فسهر لها نفس عطر نفر الذي يسحر الألباب؛ فروحاهما واحدة علي مر العصور وبدون حواجز الزمان والمكان قصة العشق والعطر واحدة، فما هي قصة "نفر" التي وصلت إلى نهاية فلسفة الوجود من خلال مواقفها.. فالأب نجار وكان يفضل ابنه "كي" على ابنته "نفر" فى حين يحاول الأخ أن يستغل أخته ليعتلي منصب الكاهن وبينما "نفر" فى أسرتها الصغيرة لا تستطيع أن تأخذ حقها فهي مباحة ومستغلة فأسرتها الصغيرة تجسد عامة الشعب ونجد على صعيد الحكام والقصر صراع بين الأم "تي" أم الفرعون وزوجته "نفرتيتي" كأنه صراع علي المصير فأم الملك "إخناتون" "تي" تكره زوجة الابن وتحاول إقصاءها؛ فهي لم تنجب سوى البنات؛ فقامت بتزويجه بالملكة "كيا" التي أنجبت له الولد وكان صراع الملكة "تي" هو صراع على تثبيت نظامها وعقيدتها فى عبادة "أمون" وترسيخ لكهنة المعبد، ولكن إخناتون كان يفكر فى عبادة الإله الواحد "أتون" وكان يكره كهنة المعبد ويعتبر هذا انقلابا علي نظام الملكة وثورة علي السائد والموروث وبرغم نجاحها فى تزويجه إلا أنها لم تنجح فى تثبيت عقيدته فقد تعلقت روحه بعقيدة التوحيد.

فعقيدة نفر وإخناتون هي تحدٍ للثقافة الرسمية والعقيدة السائدة التي استطاع إخناتون أن يثور عليها لأنها ضد "نفر" ولا تجسد الحب الحقيقي فهي ثقافة استغلالية يشوبها التبرير الكاذب لمصير الهلاك الذي ينتظر نفر علي يد الأب والأخ، فقد استخدم "كي" أخو "نفر" شعار الحفاظ علة العقيدة من خلال التضحية بأخته كعروس للنيل ولكن فى

الحقيقية هو الحفاظ على السيطرة والتسلط يتجسد أيضا في خوف الأب علي غياب الابن دون الانتباه علي غياب الابنة بالرغم أنها هي التي تدير المنزل فى حين أن الابن عاطل.. هي صورة لمجتمع أبوي متسلط.

ومن هنا تتضح فكرة الكاتب في أن صراع وهلاك الأمم يكمن فى الفئة المستغلة التي تطفو علي أكتاف الأمم بدعوى المصلحة الرشيدة والحب المزيف والوصايا الماكرة، فهي مبررات لإقصاء الحب الحقيقي من أجل المصالح الذاتية وبالتالي إقصاء القيم المطلقة فى قيم نسبية لا تبغي حضارة ولا إنشاء دول عميقة بقدر ما تبغي السيادة والسيطرة. ومن هنا تبرز مشكلة الحب والمرأة التي تعاني من ازداوجية الحب فهناك من يحب بدافع المصلحة ومن يحب بدافع الحرية.

يربط "السيد حافظ" مصير الحب بالموقف التاريخي من خلال "فتحي رضوان" حيث بعد كل موقف تاريخي للوطن تتطور الأحداث فى قصة "سهر" بشكل يؤكد صراع الشخصيات نحو حبها، ونصل لنتيجة حتمية ملزمة لموقف كل شخصية تتصارع فيه الأحداث وتتشابك بين قصة سهر والظروف المجتمعية فى زمانين ومكانين مختلفان وكأن "فتحي رضوان" فى قصته وحكايته فى صراع مع ذاته لتحديد مصير الوطن الذي يراه فى حكاية "سهر مع الحب" لإثبات أن شرط وجود الحب وتحقيقه هو التزام ومسئولية من أحب ويمكن التنبؤ بذلك من خلال ردود أفعال الشخصيات فى مواقفها المصيرية نحو الحب والاستقرار فى قصص "فتحي رضوان" مع النكسة حتى ٢٥ يناير ومع حكاية سهر مع من أحبوها والعكس، وذلك لأنها عندما تعي حقيقة الموقف تعي حريتها وبالتالي تستطيع تحقيق الحق أو اختيار المستقبل الأفضل، ولكن سهر طالبة الثانوي لم تكتمل علمياً وثقافياً تستمد بعض المعارف والخبرات من عرافة القرية "شهرزاد"..

وفي ضوء موقف سهر تجاه من أحبوها يأتي موقف من أحبوها، لنجد الأستاذ "كاظم" مدرس اللغة العربية لم يحدد موقفه تجاه سهر لأنه لم يحدد موقفه من الحاضر الذي يحياه لكي يصنع مستقبله الذي يبغاه ولذلك فشل فى الوصول إلى سهر لأنه لم يستطع

فعل شئ من أجلها فكان بمثابة رد فعل لإرادة "وردة" ابنة المختار فى زواجها منه حيث انتابه إحساس بالقلق بين اشتهائة لوردة التي يخاف من وجودها فى منزلة وخوفه من معرفة سهر بذلك لأنه ألزم نفسه بحبها، ولكن بالرغم من حبه لسهر إلا أنه لم يستطع مواجهة راغب أحد سماسرة الأوطان فى كل زمان ومكان فأصبح صراعه ضد راغب وأخته وردة حتى لا ينجرف فى تيار دنياهم الزائفة غير متكافئ بسبب فقر كاظم فحبه وعلمه لا يكفيان فلابد أن يدعمهما قوة المال والنفوذ، وذلك لأن سماسرة الأوطان فى كل زمان ومكان تستطيع إفساد أي مشروع أمثال ابو راغب المختار، ابنه وابنته وميثاء العجوز الحيزبون؛ فكل منهم كان له دور فى حجب حب كاظم فنجد ابنه راغب وقد تقدم للزواج من سهر من جانب وأقدمت وردة لإيقاع كاظم فى حبها من ناحية أخري وهي إرهاصات باقتناص روح كل من كاظم وسهر ليعيشا دنيا المختار وأبنائه الزائفة.

فكاظم فى حياة سهر يعبر عن الحلم بالمستقبل الذي لم يأت ومازال فى الغيب.. هل ستنهض سهر بحبه؟ هل سيستفيد "كاظم" من قصص "فتحي رضوان" عن التاريخ والماضي لوضوح رؤية مستقبلية يهتدي بها هذا الحب؟ أما أن هناك نقص ينتاب تجربته ولابد أن ينظر فى نفسه أولاً ليتدارك أي نقص يهدد هذا الحب وما هي المقومات الأساسية لبناء أي مجتمع حضاري.

يتضح أن هناك تواز فى قصص فتحي رضوان عن التاريخ ومصير الحب فى حياة الوطن وفي حياة كل من "سهر ونفر" فكما استطاع راغب المختار وابنته وردة من السيطرة علي حياة كاظم، سيطرة الكهنة علي حياة نفر من خلال أيديولوجية وعقيدة راسخة على مر التاريخ وهي "حذر الحب" التي ترسخت فى أذهان الشرقيين وثقافتهم، ولذلك استطاعت شخصية "المحبش" أن تثير الفتنة علي أجمل فتاتين فى حارة فتحي رضوان جعلت أخوها يزوجها إلى إسكافي ليستر الفضيحة الوهمية وبذلك حبس جمالها فى الأحذية وهجر الجمال الحارة، فعندما شبه الكاتب هزيمة سوريا ومصر أمام إسرائيل وترك سوريا للجولان ومصر لسيناء بحرب سراويل حيث خلعت مصر وسوريا سراويلهما

أمام الإسرائيليين فإني أرى إسرائيل فى كل من "المحبش، وراغب المختار، وكهنة المعبد" فهناك تواز فى المصير يفعله المتسلط دائماً ضد ضحيته والذي ينجح فى أغلب الأحوال لنقص فى مقومات التكامل ينتاب الضحية، هذا النقص نتيجة لانفصال الفكر ومحاولة ابتلاع الأنا للأخر، فسفاحو الأوطان ينتصرون فى كل زمان فحرب الكهنة فى قصة "نفر" علي ترسيخ وإرساء شرعية العقيدة والدين ليجعلوا العامة تلتف حولهم ويجردوا العقيدة من مضمونها وروحها بقتل روح إخناتون التي تجسد روح العقيدة.. أما فى قصة سهر فقد انتصر راغب المختار فى حربه دفاعا عن الشرف وتزويج ابنته لكاظم هو إدعاء كاذب لإرساء شرعية وجود ابنته فى حياة كاظم. وبالرغم من أن فكرة انتهاك شرفه ادعاء مزيف إلا أنه استطاع أن يزوج كاظم من ابنته "وردة" الوردة التي ليس لها رائحة، وفرض دنياه المزيفة الخالية من الحب.. ويرضخ كاظم لمصيره بعد استعلاء على فكرة الزواج لفترة عامين.

وبهذا نجد المتسلط يستغل الحب كمبرر لطمس طابعه الاستغلالي من خلال إحاطة ضحيته بمجموعة من الأساطير تجعله يبدو مشروعاً وطبيعياً فعندما أراد "كي" أخو "نفر" أن يتزوج منها حاول أن يطمس طابعة الاستغلالي من خلال شرعية معينة ولكنه ليس إله حتى يسمح له بذلك وعندما لم يجد بدا من ذلك ذهب لكي يقدمها للكهنة "قرباناً للنيل" ومن هنا استغل "كي" أخته "نفر" تحت شعار الحفاظ على الهوية والعقيدة، ولكن فى الحقيقة هو الحفاظ على السيطرة والتسلط وعندما يضحي "كي" بـ "نفر" فهو فاقد للعقل والحكمة بالإضافة إلى الفقر غير قادر على العطاء، ولذلك عمل بالمعبد مغسلا للأموات.

أما راغب المختار فجعل من ذهاب ابنته إلى كاظم بالمستشفي وحبها له أسطورة حول انتهاك شرفه وخطيئة أُرتكبت فى حقه، وكان هذا مبررا لتزويجه كاظم لابنته على غير إرادته ليصبح المختار تجسيدا للعبودية المختارة فى حياة كاظم.

لقد استطاع السيد حافظ أن يوضح أن المفارقة بين الماضي والحاضر والمستقبل

هي جوهر الحرية الإنسانية، فالمفارقة بين الحب والحرية لتخذت أشكالاً مختلفة عند التطبيق فى ضوء الظرف الاجتماعي والتاريخي بين فتحي رضوان وقصة كل من "سهر وكاظم"، "نفر وإخناتون"، وتذكرني الأخيرة بالتجريب فى المسرح باعتباره تحدياً للثقافة الرسمية والهامشية معاً وخروجاً عليها حيث يجسد إخناتون الثقافة الرسمية وتجسد نفر الثقافة الهامشية، وكيف انتقلت نفر من ابنة نجار إلى قصر فرعون حيث كانت نفر فى توحدها مع فكر إخناتون أكثر تضامنًا من زوجته التي تضامنت مع عقيدة الكهنة الموروثة لانقلاب الفرعون ضد السائد والموروث والتطلع إلي عقيدة التوحيد، وكانت نهاية إخناتون على يد الكهنة و"كي" أخو "نفر" هي نهاية لنفر، فإذا كان جسد إخناتون يجِسّالدنيا، فروح نفر العطرة تجِسّعقيدة إخناتون للتوحيد، ومن هنا نصل إلى النقص الذي ينتاب المحبين ليصلوا بمن أحبوا إلى بر الأمان، وهو ضرورة أن يستند الحب إلى فكر تنويري حتى لا يصبح الحب وهمًا زائفًا أو شكلاً بلا مضمون، فقصة "نفر" هي الصورة المثالية لمستقبل "سهر" التي سردتها العرافة "شهرزاد" على "سهر" حتى تتنبأ من خلالها بمستقبلها والتي تحمل فكرة الكاتب عن الحب والوجود؛ فوجود الحب لا يكمن إلا فى انتفاء الذات ذوبان الجسد من أجل بقاء الروح.. والوجود الحقيقي للحب هو الإيمان بفكرة أن الوجود مستمد من التوحيد، وأن كل الأعمال الطبية من أجل الله.. ومن هنا جاءت نهاية قصة "سهر" منطقية، حيث اكتشف الأستاذ كاظم بعد استعلائه على زواجه من "وردة" أن السعادة الحقيقية هي الاتصال بالذات الإلهية، وأن يفني ذاته وجسده فى سبيل السعادة الأبدية وأن الجسد شئ نسبي يجسد سعادة وقتية دنيوية فأخذ يمارس حياته ولأول مرة مع "وردة" بصورة طبيعية، أما حرية "سهر" التي ستأخذها علي يد "المنقذ" هي حرية لا تلتزم بشئ لأنه لا معني لوجودها أو حريتها فى وطن آخر غير وطنها فما معني وجودها بدون انتماء، ولا حرية بدون التزام، ولا حب بدون مسئولية، فالمنقذ العريس المنتظر اختيار الأسرة لن يحقق الحرية لسهر وبالتالي لن يكون هو الحب الحقيقي حيث لا حب ولا حرية بلا وطن والتزام ومسئولية، فأمواله لا قيمة لها

بدون وطن تنتمي إليه "سهر"

يقول الكاتب: "حب الوطن أكبر خطيئة فهو شئ هُلامي يسكننا ونسكنه رغمًا عنا، لو علمنا أن الله يرث الأرض وما عليها لعشقنا الله فقط".

تجسد هذه المقولة فكرة الكاتب عن الحب والوجود. ولكني أري أن حب الوطن عندما يكون فى المطلق فأنا أعشقه لكي يكون للجميع ولكن لو نظر كل فرد للوطن علي أنه ملك له ما أستطعنا أن نحافظ علي هويتنا وكرامتنا فالحب المفقود يجهله كل من يحاول أن يصنع القيود فى أيدي "سهر" أو يمنع طائر الحرية أن يسكن صدرها فغياب الحب هو غياب الحرية. ودعاء عصفور الحرية إلى الله من أن ينقذه من الصيادين والصقور وأن يجعل صدر "سهر" وطناً له وأن يعتقه من كونه عصفورًا إلي بشر هو دعاء بأن تصبح الحرية التي نحلم بها ونحن نحلق فى سماء الحب إلي حقيقية تلامس أحضان الوطن وأن يرحمه من البخلاء والصيادين والصقور هو تجسيد للكهنة والمختار وابن الصياد الذي يريد أن يتزوج من "نفر" فهم بلاء لا يسمح للحب بالعيش على الأرض وليس فى كوكب واحد بل فى كوكب الأرض.

يؤكد السيد حافظ فكرته عن أهمية الخلفية الثقافة والتاريخية علي لسان فتحي رضوان من خلال حكاية (الجبرتي) مع محمد علي وعلاقته بالحب والوطن من خلال قصته الشخصية فثقافة الجبرتي هي القرآن الكريم وعلاقته بالحب والمرأة تكمن فى زواجه للمرة الثانية بعد ثلاثين عامًا عندما اكتملت ثقافته عندها عرف الحب وأنجب مستقبلاً من لحرية والحب متجسداً فى أحب أبنائه "خليل"، وعندها لم يفلح محمد علي فى تحويل (الجبرتي) إلى مجرد موظف يحدد مواقيت الصلاة ويكتشف الهلال وحتى لا يدون الجبرتي تاريخ ويوميات مصر اغتال محمد علي ابن الجبرتي "خليل" وبإغتيال "خليل" أُغتيل الحب والحرية من حياة الجبرتي، ففي كل عصر نجد الديكتاتور يحوّل المثقفين بعيداً عن دورهم التنويري لإقصاء الحرية وبالتالي إقصاء الحب؛ فنحن مجتمعات تربت على الإقصاء حتى في ثقافة الجنس نجد ظاهرة "الختان" التي تمنع

المرأة من حقها، فمشكلة المرأة هي مشكلة الرجل فى الأساس فكيف يأخذ الرجل حريته حتى تستطيع المرأة أن تعطيه الحب.. إذًا فالحرية والحب مستهدفان على مر العصور وكل من يحاول التجريب ُيغتال جسديًا أو نفسيًا ،ومن هنا نستطيع أن نقول أن مأساة "سهر ونفر" هي فقدان الحرية؛ فالحب المفقود يجهله كل من يحاول أن يضع القيود فى أيدي "سهر ونفر"؛ فغياب الحب هو غياب للحرية والجهلاء الذي يضعون القيود أمثال "المحبش" فى قصة فتحي رضوان هم دائماً متفقين مع النظام السائد ضد الحب والحرية لأنهم فقراء العقل والقلب أمثال "ميثاء" جارة "سهر" التي أرادات أن تساعد التاجر "شداد" فى خطف "سهر" لتزوجها؛ فميثاء عجوز حيزبون فقيرة ناقمة على رفض أم سهر لشداد الغني، كما أراد المختار أن يزوج سهر لتجار الوطن، فالحب البديل المزيف لا يعرف إلا التجار وسماسرة الأوطان والمضللون من الجهلاء وأصحاب القوة والنفوذ.

فنهاية حب كاظم لسهر بزواجه من وردة هو انتصار لأصحاب القوة والنفوذ وانتصار الحب المزيف ليصبح الوطن مقبرة فى شكل وردة وترتفع الروح إلي السماء فلا وجود للحب علي الأرض.

بخطبة سهر للمنقذ وهي تجسيد لهجرة من أحب الوطن من حضن الوطن وروحه العطرة إلى بلاد النفط وتركهم لروح الوطن بعد نكسة ٦٧.

قهوة سادة
بقلم د. وفاء كمالو

كتب المؤلف السيد حافظ بعضًا منه على ضوء القمر، رسم على النجوم قصائده، أهدى الوطن أغنية، فظل ينتظر شروق الشمس، سأل الأرض عن مبدأ الزلزلة، واعترف ضمير الشتاء بأنه هو.. غيمة مثقلة، إذا أُجهشت بالبكاء فإن الصواعق في دمعها مرسلة.. جاءت الدموع إبداعًا ووعيًا وجموحًا ومساءلة، وكان ميلاد قهوة سادة هو وشم ناري على ذاكرة الروح والجسد، فهي ليست رواية عادية.. إنها شرارة ضوء كوني مختصر الزمن العملاق لتبوح وتروي عن العشق والأوطان، والهمس، والليل.. وأساطير التكوين والتوحيد، تلك الحالة الاستثناء التي يفتح بها المؤلف مسارات للدهشة والميلاد، ليواجهنا بملحمة روائية مسكونة بقسوة الأقدار ودعارة السياسة ومراوغات التاريخ، ملحمة تمردت على السائد والكائن وامتلكت وعيها الثائر وقانونها الخاص لتصبح قراراً بامتلاك الذات والحرية.

ترتكز القيمة الأساسية على فكرة ذهبية، رشيقة ثرية.. تسكن أعماق البشر وتروى ظمأ المعرفة للمصير عبر حركة الروح واندفاعات الجسد في كون غامض يلونه الإنسان بالدم والرغبة والأحلام، ليكتب تاريخ القهر والاستبداد، والتمرد والعصيان. وفى هذا انسياق يقفز الماضي إلى قلب الحاضر وتتجاوز الأزمنة حدودها.. فنعلم أن المؤلف يصدق الروح قبل الجسد، يصدق الله والمعرى والمتنبي وجمال عبد الناصر والحلاج، ولا يصدق القمر ولا النساء في المساء، وعبر الاشتباكات الثائرة تكشف الصياغات الشاعرية الدافئة عن أن هناك أوطان مومس وشعوب مومس.. وعن عذابات الوعي بأن الوطن لا يحب الفقراء، نذل مع الشهداء والشرفاء، وأن الغرباء من الحكام ظلوا يضاجعوه سبعة

آلاف عام.

تتكون رواية قهوة سادة من جزأين منفصلين متصلين، الاتصال يبدو وهمًا وحقيقة وألوانًا وظلالًا، الدهشة تسرى في شرايين المعنى، والزمن يراقص الإنسان، لنضيع أمام أحد أهم تقنيات الكتابة الحديثة التي تطرح مفهومًا جماليًا مغايرًا للوجود والإنسان عبر الماضي والحاضر والمستقبل، مفهومًا يبدو شاعريًا روحيًا، لكنه يشتبك بقوة مع إيقاعات العلم الحديث حيث الفمتوثانية والكلونتج والضوء وطاقة الحياة، وتطل بشاعرية كاشفة عن تجربة متفردة تبعث حضورًا طاغيًا يشاغب المشاعر والعقل والأعماق.

قد تكون القهوة السادة طقسًا وعزفًا وبهجة، أو استعدادًا لامتلاك السر والسحر والرغبة، وربما تكون تحققًا وعناءً ورفضًا، أو اندفاعًا إلى الضوء والبوح والمعنى. في هذا السياق يأتي الجزء الأول من الرواية بعنوان "حكاية سهر والعشق والقمر"، حيث البدء والمسارات والمنتهى والعشق والليالي والهوى، وإيقاعات البحث عن حقيقة عابثة تسكن أعماق وطن أدمن القسوة، واشتهى الفرار المجهول.

سهر.. أنثى الليل والبحر والسحر.. ابنة السابعة عشر الساكنة في أحلام المراهقين والرجال، على أبواب الدكاكين في الجبل.. في بلاد الشام كان ميلادها عام ١٩٥٨ زمن الوحدة بين مصر وسورية، وفى يونيو ١٩٦٧ زمن سقوط الحلم العربي، كان صعودها إلى مدارات النضج والاكتمال واندفاعات الوهج، فقد أدركت أن الله جميل.. وأحياناً يمنح أنثى من روحه ومن وجهه ألقًا.. في تلك الليلة تحرك نهدها في الفراش بقلق.. قامت إلى النافذة.. فتحتها، وجدت عصفورًا يرتعش.. أمسكته.. احتضنته، انتفض نهدها الأيمن، أدخلت العصفور في صدرها.. فتدفأ.. انتعش نهدها الأيسر وطرب، أخذت العصفور في حضنها ونام بين نهديها.. يحلم ويسأل الله أن يتحول إنسيًا ولو ليلة واحدة، طاف تحيا له ألف حلم، لو كان بشراً لطاف بها في الفراش حول الكرة الأرضية..

تمددت سهر ونزل شعرها على كتفيها فظللت العصفور.. شعرها غابة من الحرير، يموج بعطر لم يشمه من قبل، لا على الزهور ولا البخور ولا الغابات ولا أي بشر.

كان الرجال مأخوذين بجمال يسهر، وكان أبوها مسكوناً بالرغبة في الخلاص من هذا القلق.. لكن العرافة "شهرزاد" أخبرته أن الصغيرة ستسافر إلى بلاد الذهب لتتزوج ثريا يفتح لها أبواب المدن ونوافذ النور، لذلك ظل الأب ينتظر.. شهرزاد ليست امرأة عادية، هي قديسة ولعوب، مفارقات نبوءات، تراث وميراث وأساطير، هي الحقيقة والخيال، وهمس الليل وجموح الرغبة.

قالوا إن شهر زاد تعرف قصة امرأة جامعها ألف رجل، فحكت عن كل منهم أشكالاً وأوضاعاً، تعرف مدينة العلو والإيضاح في أسرار الليل.. بعض النساء قلن أنها هي التي عرفت ألف رجل، وجلسن أمامها في ذهول، وظلت هي تخفى سر علمها بالعشق والغرام، وتقرأ أكف النساء، وتثير الأقاويل بجمالها الأخاذ، فهي بيضاء عيناها زرقاوان.. تحب سهر، تعلم سرها وتعرف أن عرقها عطر لا يوجد في أي أنثى إلا ما ندر...

تنتمي شهرزاد دلالياً إلى عالم "ألف ليلة وليلة" وتتجه الرواية بشكل عام إلى منطقة الكشف والبوح والاحتفال بالجسد وبهجة الحياة، حيث يرتبط الحسي بالروح في نسيج حريري ناعم يستعصي على القولبة والتصنيف، وتظل حدائق السرد والوصف تبعث طاقات اختراق الزمان والمكان لتصبح ملامح الإنسان وأسرار التكوين وجدل الموت والحياة، أما شخصيات حكاية سهر والعشق والقمر فقد جاءت واضحة المعالم، كاملة الاستدارة، تمتلك الهوية والإطار التاريخي وتشتبك مع الوعي الاجتماعي والثقافي والتراث والأساطير، ويذكر أن البناء النفسي للشخصيات قد كشف عن مستوى أعمق للقراءة يتشكل فيه نص موازى يبعث تيارًا من الصراع العنيد بين الإنسان والسلطة والتاريخ ومسارات تكوين اللاشعور الجمعي المسكون بالردة والجهل والسقوط.

كان كاظم مدرس اللغة العربية يحب كل الصباحات كي يرى سهر.. يريد أن يتنفس وجودها في الفصل.. في المدرسة.. في الحي.. في القرية.. في الكون.. كان يشم عطرها عن بعد فيقترب ويبتعد، وحين وصلته خطابات أبيه بدعوة أن يأتي إلى دمشق العاصمة، أخبره أن حياة الجبل أجمل.. ففي فؤاده وردة من سهر توشوش له بحكايا

الليل والفجر والصبح.

لم يلمس الشاب الأشقر الوسيم امرأة في حياته.. لم يعرف الأنثى، لكنه قرأ كتب الجنس وعرف أراء كولن ولسون، وفرويد والكتاب العرب.. فكان يغلق الكتب وينام يحلم بالخنساء والنساء وسهر.. وفي هذا السياق يشتبك السرد مع السياسة ومعنى الوطن ويرتفع صوت المؤلف وهو يروي عن كاظم الذيأراد أن يكون سياسياً فأصبح معلماً، وتتبلور وجهة نظر السيد حافظ في أن الفلسطينيين والإسرائيليين يحلمون بالعودة إلى فلسطين الوطن.. فمن المصيب ومن الكاذب؟ التاريخ يقول أن الاثنين على صدق.. عاشا بالفعل على هذه الأرض منذ آلاف السنين، فهل المشكلة صنعها الأنبياء سليمان وداود وموسى أم صنعها الأشقياء من الزعماء؟ أم صنعها وعد بلفور؟؟

وعبر المزج الجميل بين صوت كاظم وصوت المؤلف نلمس عذابات واغتراب الفتى الذي بعثر أحلامه وشحن روحه بين الفصول وعقول التلاميذ وظل يشعر فقط أنه معارض.. ولم يمتلك أبداً القدرة على الكلام.

وفي اختراق مثير للمكان ننتقل عبر نفس الزمان من سورية إلى مصر، لنتعرف على فتحيرضوان بطل الرواية وأكثر شخصياتها دفئاً وثراء وخصباً وجموحاً وكبرياًء.. في يونيو ١٩٦٧ كان الفتى مصري الملامح في الثانوية العامة.. يجلس في البالكون ينظر إلى الشارع المقابل ليرى جارته "رغيدة" وهى ترقص عارية أمامه.. يجلس كانت امرأة متفتحة الأنوثة بينها وبينه بحر بعيد من الشبق والرغبة.. وكان يحلم بأن يقفز إلى حجرتها.. وفى يوم ٨ يونيو الساعة ٦ مساًء فوجئ بعبد الناصر يعلن تنحيه، خرج إلى الشارع في محرم بك وظل يبكي، سمع دقات قلب الوطن تلازم دقات قلبه.. أحس أنه مواطن بلا وطن، مشروع كاتب في وطن أمي.. ومثقف وسط أدعياء..

جاء النسيج الروائي مدهشاً في المزج بين الحب والجنس والناس والسيارة والزعماء والوطن.. وأثارت موجات الحقيقة جدلاً عارماً حول مصر وشعبها كما جاءت في كتب المقريزي وابن حزم وجمال حمدان وغيرهم من علماء الفقه والدين والتاريخ، تلك الحالة

التي نزعت أقنعة الزيف وفتحت المسارات أمام قراءة حقيقية للواقع والسياسة وعذابات الإنسان.

أعلن فتحي رضوان خليل أنه حتى لو هزمتنا إسرائيل والعالم كله والأمريكان فهو لن يهزم أبداً؛ فهو روح هذا الشعب العنيد العبيط الغريب الحبيب. الذي يستضئ روحه، ويبعث في الكلمات وردة الحياة.. وكلما حاصره حب الوطن بنيرانه وأسهم حقده وحاول قلته.. هرب منه تحت جلد النساء..

وحين ذهب الى محطة الرمل كانت الشمس مزهوة ببريقها، وكان هو مشدوداً الى بائع الجرائد.. لمح سارتر يبتسم له.. راحت بدلال تلعب بيديها فى أنفه.. شعر أنه انتهى تماماً.. إيليا أبو ماضى يحاصره بكلماته.. أنفاس جبران خليل جبران تحرك قلبه، ميخائيل نعيمة يداعب جبينه.. زوجة النبى موسى تدعو له.. العذراء تباركه وعائشة زوجة محمد عليه السلام تستغفر له.. هبطت فتاة الصورة العارية من الصورة.. تحاول أن تخطفه.. لكن تدخل الأنبياء موسى وعيسى ومحمد وإبراهيم انقذوه بالدعاء الى الله الذى استجاب لهم.. فعادت الى الصورة.

يأتى هذا التيار الفانتازى ليواجهنا بحركة لاهثة.. مشاغبة ومدهشة تقبض على جمرات الفن النارية، وتنطلق رشاقة عبر مسارات الوجود الإنسانى، حيث يلتقى فتحى رضوان مع جده قابيل بن آدم.. يراه وهو يداعب فتاة الصورة العارية، والتى تتجسد له فيعتصرها بقبلاته ويغلق الباب ليغتصبها.. ويظل المشهد الروائى مسكوناً بتيارات الحضور المدهش لكيوبيد، السلطان سليم الأول، الأمريكى المعاصر لويس أبولونيا.. عبد الناصر وبيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ للإصلاح السياسى الذى لم ينفذ فيه شيئاً حتى الآن.. تلك الحالة التى تكشف أبعاد شخصية فتحىرضوان، وتنطلق الى إطار أكبر يصير جدلاً مع الماضى والحاضر والمستقبل.

ففى الجامعة فى كلية الآداب ظل فتحىثورياً وهارباً تحت جلد النساء.. ضيع عمره بين شقاوة الجميلات، وضيع قلبه فى وطن هُزم فى ست ساعات، وأصبح يرتبك كلما قرأ

تاريخ مصر المزدوج.

أخبرنا المؤلف أن فتحى رضوان سيكون حبيب سهر بعد خمس عشر عاما.. ورغم بساطة الفكرة الا أنها تؤكد أن الفن هو لحظة استثنائية، ووجود افتراضى منظم بعيد عن الخلل والعشوائية.. وحين تعود الأحداث الى سورية، يدخل عالم سهر حيث أبيها المحارب القديم الذى يمتلك كبرياءً عنيداً ، ويؤمن أنه سيدخل الجنة، أمها الجميلة، وشداد التاجر الثرى الذى لفحه عطر سهر وأراد أن يتزوجها.. فهو يشترى النساء كما يشترى الفاكهة.. وفى الليل ينخلع قلب العصفور عندما شاهد جسد سهر المنحوت بيد القدر.. فخبأ عينيه بجناحيه خجلاً لكنها ضمته الى حضنها ونامت. ولم نكن تدرى أن فى عينيها حلم وحكمة لم تولد بعد، ولم تدر أيضاً أن عطرها قد سحر شداد وأنه الليلة لن تنام، وأن كاظم مدرس اللغة العربية يحتاج سيف روميو ورمح دون جوان حتى يتمكن من جسدها ألف ليلة وليلة، فهو يشتاق الى كتابة الأشعار على نهديها.. يحتاجها كموج بحر وزلزلة ويريد أن ينهى هذه المهزلة.

تميزت تقنيات السيد حافظ بالرشاقة والحرفية المدهشة فى السيطرة على أبعاد الزمان والمكان وجاء استدعاء الماضى إلى قلب الحاضر ليبعث مفارقات الوعى والإدراك وتحول تاريخنا الفعلى غير الرسمى إلى تيار من الوهج الكاشف عن بشاعة الحقيقة ووجهها العنيد فتاريخ الوطن بالفعل فى المقاهى لا يجمعه أحد.. ويذكر أن وجهة نظر المؤلف قد تبلورت عبر الرؤى الدالة لمذكرات محمد فريد وسعد زغلول والشيخ محمد عبده، لتصنع نسيجا روائيا مركبا شديد الدقة والتماسك.

رفض والد سهر أن يزوج ابنته للعريس الغنى شداد.. رفع من وجهه البارودة وطرده مؤكداً أن ابنته ستتزوج من رجل يسافر بها الى بلاد الذهب.. وفى المدرسة جاء العصفور العاشق ووقف على النافذة.. اندفعت سهر بفرح برئ وفتحت، فدخل وقفز على صدرها وتمنى أن نأخذه بين نهديها، وعاش كاظم المدرس الشاعر لحظة مثيرة حين لمح قلب العصفور يذق مثل قلبه بعشق سهر.

جاءت شهرزاد خبيئة الجن الجميل.. جاءت الى بيت سهر.. قررت أن تكشف لها الأسرار.. وقالت لها.. أنت الروح السابعة لنفر.. التناسخ سبعة أرواح وروحك الأولى نفر كانت فى مصر، وكانت روحها تعطر جسدها.. مثلك تماماً وروحك الأولى نفر كانت فى مصر، وكانت روحها تعطر جسدها.. مثلك تماماً فمن هى نفر...؟؟ هذا ما سوف ترويح شهر زاد فى الجزء الثانى من الرواية...

الجزء الثانى

حكاية إخناتون مع نفر

فى مزج مثير بين شهر زاد الأسطورة وشهر زاد الخيال، ينطلق صوت المؤلف السيد حافظ ليأخذنا إلى الجزء الثانى من رواية "قهوة سادة"، الذى جاء بعنوان حكاية إحناتون مع نفر، وفى هذا الإطار يأتى الارتباط بين الجزأين ليخترق منطقة جديدة تموج بالشفافية والخيال والنورانية، وبالبحث العنيد عن الجذور والأسرار حيث الروح والزمن والجمال، وبصمات المعنى ونِفر الروح الأولى لسهر يمتلك هذا الجزء أهمية خاصة على مستوى الرواية المصرية والعربية فهو يأتى كإنجاز إبداعى متميز يضم وثائق فرعون ونفرتيتى وإخناتون، يشتبك بحرارة مع الضمير الجمعى، يطرح علاقة البشر والسلطة ورجال الدين بالأنبياء حين ُيلقى بها على قارعة الطريق.. لنصبح أمام كشف متوهج لبذور الفساد العميقة الممتدة عبر التاريخ..

وعلى مستوى آخر استطاع السيد حافظ فى روايته الساحرة أن يلملم أبعاد ووقائع حكاية إخناتون بأسلوب جدلى لطرح وجهات النظر المختلفة، ليمنحنا إجابات إنسانية لأسرار ما جرى فى مصر فى زمن إخناتون حين بحث عن آتون باعتباره إلها لا شريك له..

قالت شهر زاد.. كان يا ما كان فى سالف العصر والأوان.. فى زمن إخناتون، بنت إسمها نفر.. أحلى بنات طيبة، طيبة القديمة، مدينة المعابد والآلهة.. أسطورة عشق مختومة بالمسك وأجنحة الأحلام المنكسرة على ضفاف النيل.. طيبة التى توشوش الليل والنيل والبحر، ونفر عشيقة القمر وأحلى بنات هذا الزمن، عندما تسير كل صباح بين

الأكواخ الفقيرة، كان جسدها يفوح عطراً .

كان أبوها نجار السفن الى تسير فى النيل، تسكن معه فى كوخ بسيط، وأخوها الأكبر "كى" يريد الالتحاق بكهنة المعبد فى طيبة، لأن سلطتهم أقوى من كل السلطات وحينذاك سينام فى بيت كبير على النيل سيهديه له أحد التجار الأثرياء ، وعبر سحر اللغة وبساطة الصياغة يضعنا المؤلف فى قلب أحداث خطيرة، ناعمة يائسة ومثيرة لكنها مرسومة بلغة النقد والجروتك وحرفية الدراما التى منحت الشخصيات أطرها الاجتماعية والنفسية، وحتى تكتمل الأبعاد، يدخل القارئ عالم إخناتون.. نراه جالساً بجوار نفرتيتى يداعب شعرها ، يهمس لها أنه هو نجمها المشع، زفير العشق وشهيق الشهوة، وكان من الجائز أن يوزع قلبه على الفقراء أو يبعث روحه هدية لها.. فهى أم بناته الجميلات وقد تأتيه بالصبى..

وكان الفرعون أمنحتب الثالث والد إخناتون ،نمروداً جباراً على الناس أن يصلوا ويعبدوه لأنه هو الإله.. هو الله.. وكان يجعل المصريين ينحنون لقصره الأبيض ما داموا قد شاهدوه، علمهم أيضاً النحت والزراعة وبناء المعابد.. ليدخلوا الجنة يوم الحساب، هكذا كل المصريين يبحثون عن العدل فى الخفاء حتى ولو فى عبادة خنفساء ، جعران، قطة أو زهرة اللوتس.. كل مصرى إختار لها فى السر..، كموقف مقاومة ضد النمرود الذى حكمهم بالحديد والنار.

ويأتى اشتباك المؤلف السيد حافظ مع تفاصيل المشهد السياسى والاقتصادى والدينى فى زمن النمرود ليواجهنا بمفارقة شديدة التكثيف والدلالة تنطلق الى قلب الحاضر، الذى لا يزال مقيداً بالجهل والزيف والتسلط والقهر، تلك الحالة التى جاءت صياغتها بأسلوب ساحر مبهر ومشوق، وحين نتعرف على إخناتون (أمنحتب الرابع). يجده كياناً مختلفاً فهو لا يدعى أنه إله، ولا يحب أن يعبد التماثيل، يرى أن الله قوة أكبر من كل شئ، وأن الحرية هى الوجود، كان يحلم بأن يعرف لغة الطير والحشرات وكل الكائنات؛ فمستنقعات النشوى تنبع أزهارها بإشعاع أتون الآخاذ الذى تنشر الطيور أجنحتها فيه.

أصبحت نفر حديث رجال ونساء طيبة.. فتاة ينز جسدها عطراً.. أنثى خرافية أسطورية وواقعية.. عندما قابلها المدرس "باكا" على النيل وقع فى غرامها وشعر أنها ومضة تسللت إلى الحشا، وكما عشق كاظم فتاته سهر كان هناك عشق سائف بين الُمعلم "باكا" والجميلة نفر، أما الفتى "كى" فقد باع أخته نفر للنيل للكهنة ليدخل المعبد ويعيش السلطة والثراء.. أخبرهم أن أخته هى أجمل فتيات طيبة، عطرها يخلب العقول، وستكون للنيل عروساً منيرة.

تتوقف حكاية شهر زاد وينتقل الحدث برشاقة من طيبة فى زمن الفراعنة إلى القاهرة فى السبعينيات حيث فتحى رضوان الضائع بين الثورى والكاتب هزمه موت "جيفارا" وبابلونيرودا.. يبكى بحرارة على صدر "ناهد" ويتساءل فى ألم: يبكي الأنبياء كلهم وآخرهم سيدنا محمد.؟؟ ألم يبك الزعماء كلهم وآخرهم عبد الناصر.. وسألته ناهد لماذا يكتب؟؟ أجابها لكى يحرر ذاته.. فالكتابة عندى خبل وهذيان وحمى الأنبياء، كأنه فى رحلة خارج الزمان والمكان ليكتشف أنه إنسان..

وعبر امتداد الحوار الممتع نتعرف على شئ من تفاصيل تاريخ مصر، وحقيقة أسماء والشوارع التى تسمى أحياناً بأسماء القاتل والمقتول مثل طومان باى البطل، وسليم الأول العثمانى القاتل..

هكذا تنطلق إيقاعات الوعى وتتصاعد حرارة الرقص على هزائم وأسرار الإنسان ونعود الى قصر إخناتون فى طيبة.. نراه يراقب قرص الشمس فى الغروب ويسجد تراه نفرتيتى فتخرج غاضبة، وتأتى الأم الملكة تى.. ترفع رأسه المقدس وتقبل جبينه.. نسأله ماذا يفعل.. يخبرها أنه يصلى الى أتون إلها واحدا ولا شريك له.. فتؤكد أنه لا يخرج من بطانة عقيدة أبيه، وهذا سيفتح أبواب الشر..

فى هذا السياق يتبلور صراع نارى مخيف بين إخناتون الذى يلعب بنار العقيدة المقدسة وبين كهنة المعبد؛ فالدولة مكونة من أربعة أضلاع: الفرعون والجيش والكهنة والشعب، وإذا فقد ضلع تسقط الدولة من قلب التاريخ الى هامشه.

أخذ اخناتون يبكى فى سجوده.. أخذته أمه الملكة الجميلة تى الى صدرها، حذرته من الكهنة.. وحدثها عن نفرتيتى زوجته التى تهاجمه، عن مشاعره بالخوف من الطعنة التى ستأتى من داخل أسرته وليس من الكهنة، ونصحته بأن يتزوج امرأة تؤازره وتدعمه عندما تجد امرأة غيرها معه. ورغم أن نفرتيتى كانت جميلة الجميلات تعشق ذاتها وحياتها، إلا أن الشعب لم يكن يشعر بها ولا يحبها لزوجها ولا للعرش.. وحين ذهبت تشكو زوجها لأخيه، أخبرها أن البلاد مهددة من الداخل بالتفتت من كثرة الآلهة، ومهددة من الخارج من الحيثيين، لذلك يحاول إخناتون بناء عاصمة جديدة للبلاد هى أخيتاتون. فى عناق مدهش لتيارات الوعى قال إخناتون أن الكهنة يفعلون كل شئ باسم الآلهة.. ومصر تعبد أكثر من ٤٧ إلهاً.. النيل هو الحضارة والحياة.. والكهنة يقولون أن النيل ذكر ويجب أن نهديه أجمل الإناث كل عام حتى لا يقطع عنا الماء.. الكهنة يقولون أن الخنفساء والجعران والقطة آلهة.. المصريون يبتعدون عن حقيقة الله.. ويعلن إخناتون أنه يرفض الكهنة ولن يتعامل معهم.. لن يكون بوقاً ولا نفيراً.. هو نبوءة من هذه الشمس الزمز الإله الواحد آتون الذى يمنح الحياة والخبز والحب.

هكذا كانت ثورة إخناتون أخطر ثورات التاريخ، فقد عشق مصر المحاصرة بين الكهنة والجيش وآلهة زائفة، وقرر أن يعلن على الرعية أنه ألغى الآلهة ليصبح آتون هو إله واحد.. وهناك فى المعبد كانت نفرتيتى تسترضى الكهنة بالذهب واللؤلؤ وتدافع عن زوجها.. لكنهم طلبوا منها أن تستعد لتولى الحكم، وفى تلك اللحظة علمت أن إخناتون سيتزوج الآن من الأميرة كيا؛فسقطت مغشياً عليها.

تمتد الإيقاعات ويتوازى السرد وتشتبك الحكايات والأحداث.. فى سورية كانت سهر تفكر بعمق فى روحها الأولى نفر.. العريس منقذ الذى سيأخذها إلى بلاد الذهب يجلس مع أبيها ليخطبها والزغاريد ترتفع، فسوف تذهب معه الى دبى بعد شهور.. هكذا ظل كاظم مدرس اللغة العربية معذباً باندفاعات القدر بينما كانت وردة الأنثى الجميلة زميلة سهر، مأخذوة بجنون الرغبة فى امتلاك كاظم الذى حرك فى أعماقها نيران الوهج.

لا تزال القهوة السادة هى قبلات للروح كى تنهض.. فتحى رضوان فى الإسكندرية يشربها بجنون، ويسحر ناهد بكلماته عن الوطن والسياسة والزعماء، الثقافة ونجيب سرور ولطفى الخولى واليسار.

ذهبت نفر الى المعبد تبحث عن أخيها "كى" رأتها نفرتيتى وشمت عطرها المثير.. توقفت وسألت الجميلة التى تشبهها عن حياتها، وقررت أن تأخذها الى القصر لتكون وصيفتها، وذات فجر خرج إخناتون ليرى إشراق الشمس.. كانت نفر تراقبه.. سارت خلفه.. سجد الفرعون وبكى.. وبكت خلفه نفر.. سمع صوتها وسألها عمن تكون؟؟ حدثها عن الشمس والإله الواحد آتون.. فآمنت به وبكت..

وفى هذا السياق تظل الرواية كاشفة عن إيقاعات الوعى والخبرة والجمال، وتتخذ الصراعات مسارات مدهشة تتبلور عبر الحضور الأنثوى المقدس، فقد أشعلت كيا الغيرة فى قلب نفرتيتى ودفعتها الى الإيمان بالإله آتون.. وصلوا جميعاً له.

حور محب هو قائد المحاربين فى طيبة وثقة الفرعون إخناتون.. صارحه برغبته فى هدم التماثيل ونشر عبادة آتون، وحين رأى القائد نفر قفز قلبه من الجليد، وشاغبه الحنين الى النساء.. وحين اقترب موعد وصول حابى بالفيضان أمر الكهنة بإحضار نفر لتكون عروس هذا العام.. لكنها رفضت الموت.. فقد آمنت مع إخناتون بآتون الذى فى السماء. وفى هذا السياق يتخذ الصراع مساراً جامحاً ليصنع لحظة درامية عالية، تشتبك بقوة مع وقائع ما تشهده مصر بعد الثورة..

أشباح السقوط تتراقص حول أحلام الصعود. وتجار طيبة صناع تماثيل الآلهة يجتعون مع الكهنة اللصوص مغتصبى أهالى طيبة ليعلنوا الحرب والنقمة على آتون الإله الواحد الذى يدعو له الفرعون أمنحتب الرادع، وقرروا ضرورة التخلص من الفرعون الذى رفض أن يلقى سهماً الى السماء ليجرح الرب العظيم، ولم يكتف الكهنة بذلك وقرروا أن يشوهوا إخناتون، ويجعلوه عبرة فى التاريخ.. وصنعوا له تماثيل فيها ثدى أنثى.

استطا ع المُعلم باكا ان يلتقى بالفرعون ويطلب الزواج من نفر.. كان حفل الزفاف

أسطورياً حضرته الملكة نفرتيتى والملكة تى والملكة كيا وإخناتون وكبير الكهنة الملعون.. وفى تلك الليلة لم ينم حور حب قائد الجيش وقرر الانضمام الى كبير الكهنة سوات ضد إخناتون، فرح الكاهن بجنون، فقد أصبح الجميع يداً واحدة ضد الفرعون الذى علم أن نفرتيتى تتآمر ضده فأمر بتحديد إقامتها فى قصر بعيد واكتشف أيضاً أن حور محب يخونه ويفرط فى البلاد.. تلك الحالة التى تنذر بانتهاء العالم وانتصار الشر بالقصر صامت وحزين والملك يصلى ويسأل آتون.

قبل الضربة القاضية كان فتحى رضوان فى القاهرة، التى يراها مدينة عاهرة تسكن خلف المآذن والكنائس لتدارى إثمها.. يلتقى بأصدقائه فى مقهى إيزائيفتش ومقهى ريش بينما كاظم الذى تزوج وردة يعيش مشاعر جديدة، تخلص من سهر وشعر أن وردة أنثاه الجميلة وتذوق شفتيها فى شغف، وأحست لأول مرة بمياه عشق تسرى داخلها.

تأتى الضربة القاضية لتمنحنا إحساساً عارماً بالإعجاب بالمؤلف الجميل الثائر الشاعر المتميز؛ فقد تحددت ساعة الصفر لقتل إخناتون فى احتفالات عيد الفصح عند شروق الشمس والصلاة.. بعد خمس دقائق خرج "كى" من الصف وتجاوز الكاهن الأعظم، وبينما يسجد إخناتون طعنه الفتى فى ظهره وقلبه طعنتين.. والتفت الى الكاهن وهو يمسك بالخنجر من يده بطعنه.. فيسقط جثة هامدة.

هكذا مات الفرعون العظيم إخناتون، وعاش الفرعون العظيم سمنغ كارع.. وبكى كبير الكهنة سوات بحرقه وحرارة لكن قلبه كان يرقص فرحاً.

عند دفن إخناتون لختفت الجثة، لم يهتم الكاهن وقال إن قبراً بلا جثة مثل قبر به جثة، وظل السؤال حول إخناتون حائراً؛ فهل صعد إلى السماء أم سرقت جثته.. أما نفر فقد عادت إلى العاصمة القديمة وهى مريضة لا تستطيع الكلام.. زوجها وحبيبها بعيد فى جنوب مصر، وذات صباح جاءت العصافير واندفعت هى الى النيل استجابة لبحر الحنين.. قفزت فيه ولم تخرج، ومات زوجها حزناً عليها بعد شهور.

تمضى الحياة، ويتولى الحكم الأمير الصغير توت غنخ آمون ابن الملكة كيا.. فحكمت

نفرتيتى وتى بالوصاية مع الكاهن الأعظم وحور محب، وقبض على كل من يصلى للإله الواحد، فبلادنا تقتل الأنبياء وتمحو تاريخ النبلاء

أخيراً .. مرت شهرزاد على بيت سهر فسألتها فى شغف.. من هى الروح الثانية يا خالتى شهرزاد، فضحكت وقالت هى بنت جميلة عاشت فى عهد النبى موسى.. اسمها نور.. وغداً نبدأ الحكاية....

ببليوجرافيا الكاتب السيد حافظ وأهم أعماله في المسرح والرواية

- من مواليد محافظة الإسكندرية جمهورية مصر العربية ١٩٤٨
- خريج جامعة الإسكندرية قسم فلسفة واجتماع عام ١٩٧٦/ كلية التربية.
- أخصائى مسرح بالثقافة الجماهيرية بالإسكندرية من ١٩٧٤/١٩٧٦.
- حاصل على الجائزة الأولى في التأليف المسرحى بمصر عام ١٩٧٠.
- مدير تحرير مجلة (الشاشة) (دبى مؤسسة الصدي ٢٠٠٦– ٢٠٠٧).
- مدير تحرير مجلة (المغامر) (دبى مؤسسة الصدي ٢٠٠٦– ٢٠٠٧).
- مستشار إعلامى دبى مؤسسة الصدى (٢٠٠٦– ٢٠٠٧).
- مدير مكتب مجلة أفكار بالقاهرة (الكويت).
- مدير مركز الوطن العربى للنشر والإعلام (رؤيا) لمدة خمسة سنوات.
- حصل على جائزة أحسن مؤلف لعمل مسرحى موجه للأطفال في الكويت عن مسرحية سندريلا عام ١٩٨٠.
- حصل على جائزة التميز من اتحاد كتاب مصر ٢٠١٥
- كتب عنه أكثر من ٥٣ رسالة جامعية بين مشروع تخرج أو ماجستير أو دكتوراة.

عرض له في مسرح الطفل

- مسرحية سندريلا (الكويت - سلطنة عمان - البحرين) ١٩٨٣ إخراج /منصور المنصور.
- مسرحية الشاطر حسن (الكويت - دبى - أبوظبى) ١٩٨٣ إخراج /أحمد عبد الحليم.
- مسرحية سندس (الكويت - البحرين - قطر) ١٩٨٥ إخراج /محمود الألفى.
- مسرحية على بابا (الكويت - دبى) ١٩٨٥ إخراج/ أحمد عبد الحليم.
- مسرحية اولاد جحا (الكويت - البحرين) ١٩٨٦ إخراج / محمود الألفى.
- مسرحية حذاء سندريلا (الكويت - بغداد) ١٩٨٧ إخراج /دخيل الدخيل.
- مسرحية بيبى والعجوز (الكويت - بغداد) ١٩٨٨ إخراج / حسين مسلم.
- مسرحية فرسان بنى هلال (الكويت) ١٩٨٩ إخراج / محمد سالم.
- عنتر بن شداد (الكويت) ١٩٨٩ إخراج/أحمد عبد الحليم

- مسرحية اولاد جحا (مصر) ١٩٨٩ إخراج / المؤلف.
- مسرحية سندس ١٩٨٩ إخراج / خمسة مخرجين.
- مسرحية حكاية لولو وكوكو ١٩٩٠ إخراج / المؤلف.
- مسرحية قميص السعادة – القاهرة ١٩٩٣ إخراج / محمد عبد المعطى

فرقة تحت ١٨ القطاع الاستعراضى بطولة وجدى العربى - عبد الرحمن أبو زهرة عائشة الكيلانى - علاء عوض ١٩٩٦ إخراج / حسام عطا

- مسرحية حب الرومان وخيرزان (القاهرة)
- فرقة تحت ١٨ القطاع الاستعراضى.. بطولة : مى عبد النبى - لمياء الأمير - محمد عبد المعطى .أحمد الحجار.
- مسرحية (سفروتة في الغابة) ١٩٩٨ إخراج د. محمد عبدالمعطى

من إنتاج المؤلف .. وتم عرض المسرحية في (مهرجان قرطاج المسرحى بتونس) بطولة / وفاء الحكيم. محمد عبد المعطى

كتب العديد من الروايات منها :

١- مسافرون بلاهوية ١٩٩٧
٢- نسكافيه ٢٠١٠
٣- قهوة سادة ٢٠١١
٤- كابتشينو ٢٠١٢
٥- شاي أخضر - شاي بالياسمين ٢٠١٤
٦- كل من عليها خان ٢٠١٥
٧- حتى يطمئن قلبى ٢٠١٦
٨- ما أنا بكاتب (تشظى منها روايتان : وهمت به – شط إسكندرية يا شط الهوى) ٢٠١٧
٩- نوروموسى الحبل السري للروح ٢٠١٨
١٠- نيروزي والبنت وجد ٢٠١٨
١١- شهر زاد تحب القهوة سادة ٢٠١٨
١٢- كرس على البحر ٢٠١٨
١٣- هل ما زلت تشرب السيجار ٢٠١٨

١٤- الحاكم بأمر الله وشمس ٢٠١٨

١٥- وتحممت بعطرها ٢٠١٩

١٦- حكاية البنت لامارو قراقوش ٢٠١٩

١٧- لو لم أعشقها ٢٠١٩

١٨- كل هذا الحب ٢٠١٩

١٩- نسيت أحلامى في باريس ٢٠١٩

٢٠- أنا وفاطمة ومارك ٢٠١٢ – رواية رقمية تفاعلية ط ٢٠٢٠

٢١- أنا ومارك ويوسف ٢٠١١ - يوميات رجل يضاجع الوطن والتاريخ – ط ٢٠٢١

٢٢- زينب ومارك وأنا ٢٠١٤ - طبعة ٢٠٢٢

٢٣- الدولاب – مثلث الحب – تنويعات تقنية على محور واحد – ط ٢٠٢٢

٢٤- الفلاح عبد المطيع في ثلاث رؤى – تنويعات تقنية على محور واحد – ط ٢٠٢٢

٢٥- سنابل وأحلام – تنويعات تقنية على محور واحد – قصة – فيلم – تليفزيون - ط ٢٠٢٢

مشاريع السيد حافظ الفنية للمسرح

١. الغجرية والسنكوح
٢. وسام من الرئيس
٣. رحلات ابن بسبوسة
٤. أنا ما ليش حل
٥. عريس الغفلة
٦. حكاية الفلاح عبد المطيع
٧. حكاية مدينة الزعفران
٨. الحوش
٩. الراجل اللى لعبها صح
١٠. امسكوا سالم حشيشة
١١. ملك الزبالة

١٢. حرب الملوخية
١٣. الرقص على النار
١٤. عوانس ٢٠٠٠
١٥. بيت الحبايب

كتب مشروعاً مسرحياً للقضية الفلسطينية وحرب أكتوبر والاستنزاف تضمن :

١. رجال في معتقل
٢. يا زمن الكلمة الكدب الكلمة الخوف الحانة الشاحبة العين
٣. والله زمان يا مصر
٤. الأقصى في القدس يحترق
٥. أحبك يا مصر

كتب لمسرح الطفل مشروعا به مسرحيات

١) سندريلا
٢) الشاطر حسن
٣) أبو زيد الهلالى
٤) سندريلا والأمير
٥) سندس
٦) علي بابا
٧) أولاد جحا
٨) بيبى والعجوز
٩) سندباد سواح في البلاد
١٠) قطر الندى
١١) عنتر بن شداد
١٢) فستق وبندق
١٣) القطة يويو
١٤) أحلام بابا نويل

١٥) حمدان ومشمشة
١٦) سفروته في الغابة
١٧) حب الرمان وخيزران
١٨) الوحش العجيب

قدم مشروعا للمسرح التجريبى به

١) كبرياء التفاهة في بلاد اللامعنى
٢) حدث كما حدث ولكن لم يحدث أي حدث
٣) هم كما هم ولكن ليسوا هم
٤) علمونا أن نموت وأن نحيا
٥) الطبول الخرساء في الأودية الزرقاء
٦) حبيبتى أنا مسافر والقطار أنت والرحلة الإنسان
٧) حبيبتي أميرة السينما
٨) إشاعة
٩) أجازة بابا
١٠) الميراث
١١) سيمفونية المواقف ٥ مسرحيات تجريبية فصل واحد وهى
١٢) إيقاع في رحم الكلمات العذرية
١٣) نغم في الحلم الفوضوى
١٤) تقسيمات مختزنة للشمس
١٥) سقوط حضارة لوط
١٦) الخادمة والعجوز (٦ مسرحيات تجريبية)
١٧) المفتاح
١٨) الخلاص يا زمن الكلمة الكذب الكلمة الخوف
١٩) سيزيف القرن العشرين
٢٠) الأشجار تنحنى أحيانًا (مسرحيات تجريبية) وهي
٢١) رجل ونبي وخوذة

٢٢) امرأة وزير وقافلة
٢٣) طفل وقوقع وقزح
٢٤) لهو الأطفال في الأشياء شيىء
٢٥) تكاثف الغثاثة على الخلق موتًا
٢٦) خطوة الفرسان في عصر اللاجدوى.. كلمة
٢٧) محبوبتي محبوبتي قمر الخصوبة في شرنقة حبنا ميلادًا
٢٨) تعثر الفارغات في درب الحقيقة.. بحث
٢٩) ياله من عالم مظلم بارد متخبط
٣٠) بوابة الميناء
٣١) قدم مشروعًا للمسرح النسوي يحتوي على (٥) مسرحيات للنساء تحت عنوان إكسبريسو ومعها
٣٢) امرأتان
٣٣) ليلة ليلاء
٣٤) ليلة الخميس
٣٥) ليلة اختفاء الحاكم بأمر الله
٣٦) ليلة اختفاء إخناتون
٣٧) ليلة اختفاء فرعون موسى
٣٨) المنشار
٣٩) التحقيق
٤٠) صراع الألوان مشروع مسرحيات قصيرة جدًا يضم ٣١ مسرحية بين دقيقة ونصف دقيقة.
٤١) المسافر ٢٠١٨
٤٢) الجراد ٢٠١٨

أخرج للمسرح

- مسافر ليل (لصلاح عبد الصبور) عام ١٩٧٠ من بطولة ٢٥ طفل وطفلة (أصغرهم ٦ سنوات وأكبرهم ١٢ سنة) عرض غنائى موسيقى (ألحان حمدى رؤوف وكورال ٤٠

طفل وطفلة) المسافر ٦ شخصيات والراكب ٦ شخصيات عشري السترة ١٠ شخصيات.

- (الحبل) إيوجين أونيل ١٩٦٨ بطولة مهدي يوسف (المؤلف الشهير الحالي) – معهد إعداد الفنيين التجاريين.
- الزوبعة لمحمود دياب، كلية التربية عام ١٩٧٣.
- الخروج من ساحل المتوسط قصيدة محمود درويش عرض بطولة ١٢٠ ممثل وممثلة من الشباب.
- آه يا وطن ١٩٧٣ قصائد سيد حجاب، مجدي نجيب،عبد الرحمن الأبنودي-فؤاد حداد.
- حديقة الحيوان لإدوارد أولبي ترجمة على شلش بطولة "أحمد آدم" نجم الكوميديا حاليًا، صفاء غراب قصاص معروف حاليًا.
- كوكو ولولو، تأليف الكاتب ١٩٨٩ إنتاج خاص.
- أولاد جحا، تأليف الكاتب ١٩٨٩ إنتاج قصر ثقافة مصطفي كامل.
- نال جائزة أحسن مخرج في مراكز الشباب عام ١٩٧٠ عن مسرحية (جواز سفر) إعداد / عن أشعار محمود درويش وسميح القاسم.

أسس جماعات تجريبية للمسرح

- فرقة الصعاليك – فرقة ألف باء مسرح – جماعة الاجتياز – وكان ضمن هذه المجموعة الفنان/ فاروق حسنى وزير الثقافة السابق، ود/ مصطفي عبد المعطى وكيل وزارة الثقافة السابق. والفنان مسعد خميس وعلى الجندى ومحمد نوار وقد أخرج يوسف عبد الحميد مسرحية كبرياء التفاهة في بلاد اللامعنى بطولة مسعد خميس ونازك ناز ومسرحية سيزيف بطولة على الجندى.. ومسرحية إيقاع في رحم الكلمات العذرية بطولة محمد أنور .
- جماعة المسرح الطليعي التي قدمت مسرحية (آه يا وطن) لمدة ١١٠ يوم وكانت أول فرقة للهواة في تاريخ مصر تقدم عرضًا متواصلاً دون أجازة – عام ١٩٧٣.

أعماله في فرق الأقاليم والمحافظات

م	المكان	المسرحية	المخرج	سنة العرض
١	بيت ثقافة أبو تشت	رحلات ابن بسبوسة	فريد عبد الحميد	١٩٩٤
٢	بيت ثقافة السنبلاوين	رحلات ابن بسبوسة	رجائى فتحى	١٩٩٥
٣	قصر شبرا الخيمة	ملك الزبالين	محمد الخولى	١٩٩٦
٤	ميت غمر	ملك الزبالين	على عزب	١٩٩٦
٥	العائم	ملك الزبالين	محمد الخولى	١٩٩٦
٦	القليوبية	ملك الزبالين	ماهر سليم	١٩٩٦
٧	أبو حمص	قراقوش والأراجوز	سيد هنداوي	١٩٩٧
٨	العريش	النديم	عبد الستار الخضري	١٩٩٧
٩	غزل المحلة	خطفونى ولاد الإيه	مجدي مجاهد	١٩٩٧
١٠	بلبيس	رحلات ابن بسبوسة	إبراهيم شكري	١٩٩٧
١١	المسرح العائم	قراقوش والأراجوز	محمد الخولى	١٩٩٧
١٢	بيت منشية ناصر	عاشق القاهرة	أحمد عبد الباقى	١٩٩٨
١٣	قصر	حكم قراقوش	أسامة شفيق	١٩٩٨
١٤	بيت النصر	ملك الزبالين	فوزي شنودة	١٩٩٩
١٥	أبو حمص	ملك الزبالين	عادل شاهين	٢٠٠١
١٦	الجيزة	حرب الملوخية	أشرف فاروق	٢٠٠٢
١٧	أبنوب	حرب الملوخية	عادل بركات	٢٠٠٢
١٨	الغنايم	وسام من الرئيس	محمد المصري	٢٠٠٤
١٩	زفتى	وسام من الرئيس	السيد الحسينى	٢٠٠٤

أشهر ما أخرج السيد حافظ من مسرحيات للمسرح

١) بنطلون روميو تأليف أبو السعود الأبيارى

٢) الغربان - تأليفه

٣) مسافر بلا متاع لجان انوى.

٤) الخواجة لامبو مات لعبد الرحمن الأبنودي

٥) شرق المتوسط لمحمود درويش

٦) الزوبعة لمحمود دياب

٧) الحبل لجان أنوى

٨) حديقة الحيوان لإدوارد أولبي بطولة أحمد آدم

٩) هم كما هم وليسوا هم الصعاليك تأليفه وبطولة مهدي يوسف المؤلف الشهير

حاليًا مؤلف يوميات ونيس

١٠) ليالي الحصاد لمحمود دياب

١١) أحبك يا مصر تأليفه

١٢) سندس تأليفه

١٣) الخطوبة لتشيكوف

١٤) المخبأ تأليفى

١٥) والله زمان يا مصر تأليفه

١٦) أحبك يا مصر تأليفه

١٧) مصطفى كامل تأليفه

١٨) عبد الله النديم تأليفه

١٩) مسافر ليل لصلاح عبد الصبور كاملة من بطولة ٣٠ طفلاً ألحان حمدى رؤوف

٢٠) أولاد جحا تأليفه

٢١) ومن أشهر ممن ساعده في الإخراج لسنوات

الأستاذ عادل شاهين
الأستاذ محمد غباشي النجم المعروف الآن
المخرج ناجي أحمد ناجي
المخرج سيد شعبان
المخرج رمضان عبد الحفيظ

أخرج مسرحياته المؤلفة للمسرح من مصر الأساتذة المخرجون

أحمد عبد الحليم أخرج ٤ مسرحيات
محمود الألفي مسرحيتان
مجدى عبيد مسرحيتان
فاروق زكي مسرحية
دكتور محمد عبد المعطي مسرحيتان

دكتور حسام عطا مسرحية
فاروق زكي مسرحية
سمير حسني مسرحية
محمد متولي مسرحية
عبد الرحمن الشافعي مسرحية
أشرف فاروق مسرحية
أحمد إسماعيل مسرحية
سمير زاهر مسرحية
عادل شاهين مسرحية
أسامة شفيق مسرحيتان
مجدى مجاهد مسرحينان
محمد سالم مسرحية
علي سرحان مسرحية
عباس أحمد مسرحية
إميل شوقي مسرحية
بالإضافة لحوالي ٣٠ مخرجًا من أشهر مخرجي المحافظات

أخرج مسرحياته من العراق الأساتذة

د وليم يلدا مسرحية الطبول الخرساء في الأودية الزرقاء
دكتور سعدي يونس مسرحية حكاية الفلاح عبد المطيع
دكتور عباس التاجر العراق بابل مسرحية حكاية مدينة الزعفران
دكتور بشار عليوى مسرحية اختفاء أبي ذر الغفارى
المخرج هشام عبد الرحمن (إعداد وإخراج) مسرحية (سيمفونية العصافير) الفلسطيني المقيم في بغداد معدة عن مسرحية (حبيبيتي أنا مسافر والقطار أنت والرحلة الإنسان) للكاتب المصري السيد حافظ مع مجموعة من أشعار معين بسيسو ومحمود درويش عرضت في معهد الفنون الجميلة في بغداد عام ١٩٨٧ على خشبة المسرح الدوار في المعهد وهي ضمن أطروحات الطلبة للتخرج في المعهد وكانت الممثلة زهرة بدن تمثل أحد أدوار المسرحية الرئيسة فيها ..

من الكويت أخرج مسرحياته

منصور المنصور (مسرحية سندريلا)
دخيل الدخيل (مسرحية سندريلا والأمير الجزء الثاني)
د حسين مسلم (مسرحية بيبي والعجوز)
عبد الله عبد الرسول (مسرحية مدينة الزعفران وحكاية الفلاح عبدالمطيع)

أشهر من أخرج له في الإمارات

جاسم عبيد الساحر حمدان

أشهر من أخرج له من تونس

الطيب السهلي المخرج التونسي أخرج مسرحية الفلاح عبد المطيع مرة في فرقة جزائرية باسم " الليلة نحكى " ونالت جالزة افضل عرض ٢٠١٠ ومرة في تونس لفرقة تونسية تونس باسم "ثورة الصبار"

كتب ودراسات مسرحية قدمت عن أعماله في مسرح الطفل :

- **كتاب بحث رسالة الحكاية الشعبية في مسرح الطفل في الكويت - دراسة في مسرح السيد حافظ للباحثة آمال الغريب-المعهد العالي للفنون المسرحية ١٩٨٤-الناشر مركز الوطن العربي ١٩٨٧.**
- **كتاب بحث رسالة في الشخصية التراثية وظيفتها الفنية والفكرية في مسرح السيد حافظ - سميرة أوبلهي - مكناس المغرب ١٩٨٦-الناشر مركز الوطن العربي ١٩٨٨.**
- **الشخصية التراثية الشعبية في مسرح الطفل عن السيد حافظ - نموذجًا علي بابا-نزيهة بن طالب (الناشر - العربي للتوزيع).**
- **مسرح الطفل عن السيد حافظ – نموذجًا " مسرحية الشاطر حسن " فاطمه حاجى - المغرب ١٩٩١.**
- **مسرح الطفل عند السيد حافظ نموذجًا مسرحية " قميص السعادة " نعيمة عبد اللاوي ١٩٩٦-١٩٩٧. (المغرب).**
- **مسرح الطفل عند السيد حافظ نموذجا مسرحية "سندريلا والأمير - وقميص السعادة" د. عبد العزيز خلوفة - جامعة محمد بن الله - فاس – المغرب ٢٠٠٢-٢٠٠٣.**

- دور مسرح الطفل في ترسيخ بعض القيم الأخلاقية عن طريق الحكاية الشعبية نموذج " سندريلا " للالسيد حافظ ـ سناء جلال أحمد علي – جامعة المنوفية – قسم الإعلام التربوي – جمهورية مصر العربية ٢٠٠٢- ٢٠٠٣.
- مسرح الطفل ـ دكتور على عاشور الجعفر– الكويت
- مسرح الطفل في الكويت – د. نرمين الحوطى – الكويت
- خصوصية التأليف لمسرح الطفل في الوطن العربي (نموذجاً السيد حافظ) – م.م. حيدر على الأسدى – العراق.
- مفهوم الثورة في مسرح الطفل في أعمال السيد حافظ – د. رشا دياب كلية التربية النوعية – جامعة طنطا – جمهورية مصر العربية.

<u>كتب ودراسات مسرحية عن أعماله في المسرح التجريبي والمسرح والتراث العربي :</u>

- بحث في اللغة الشعرية في مسرح السيد حافظ- موسكو- تحت إشراف المستشرق فلاديمير شاجال.
- كتاب إشكالية التأهيل في المسرح العربي ـ صليحة حسني ـ بحث- كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ المغرب. الناشر مركز الوطن العربي ١٩٨٧.
- كتاب الفلاح في المسرح العربي ـ نموذجًا حكاية الفلاح عبدالمطيع ـ للالسيد حافظ – خديجة الفلاح ـ جامعة محمد الأول -المغرب الناشر مركز الوطن العربي ١٩٨٨.
- كتاب البطل الثوري في مسرح السيد حافظ ـ نموذجا ظهور واختفاء أبي ذرالغفاري- منصورية مباركي ـ وجدة ـ المغرب. الناشر مركز الوطن العربي ١٩٨٩.
- كتاب القضية الفلسطينية في مسرح السيد حافظ -نموذجًا ٦ رجال في معتقل شنايف الحبيب ـ المغرب. الناشر مركز الوطن العربي ١٩٩٠.
- مفهوم الإرشادات المسرحية ومسألة التجريب في المسرح العربي.
- السيد حافظ نموذجًا من خلال مسرحية " طفل وقوقع وقزح " حقون حميد ـ المغرب ١٩٩٢.
- التجريب في مسرح السيد حافظ الحانة الشاحبة العين تنتظر الطفل العجوز

الغاضب- نموذجا- عائشة عابد - جامعة محمد الأول -١٩٩١.

- التجريب والعبث في المسرح العربي من خلال مسرحية سيزيف للالسيد حافظ – حليمة حقوقى ١٩٩٢.
- التجريب في مسرح السيد حافظ نموذجًا ١ " حبيبتي أنا مسافر و القطار أنت والرحلة الإنسان " ١٩٩٢-١٩٩٣ بنيونس الهواري. (المغرب)
- المسرح السياسي عند السيد حافظ من خلال مسرحية " ملك الزبالة أو الزبالين " رزوق أحمد – جامعة محمد الأول- وجدة- المغرب - ١٩٩٦.
- إشكالية التجريب في مسرح السيد حافظ أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا بنيونس الهواري ١٩٩٩-٢٠٠٠ (المغرب).
- المسرح التجريبي عند السيد حافظ نموذجًا مسرحية " سيزيف " سميرة لمسايح ٢٠٠٢-٢٠٠٣ (المغرب).
- التراث والمسرح مسرحية " حلاوة زمان " للالسيد حافظ - نموذجًا - فاطمة زكاوي ٢٠٠٢-٢٠٠٣.
- السيد حافظ والمسرح التجريبي د. ليلى بن عائشة – الجزائر.

المسلسلات التليفزيونية :

- مبارك	(١٥ حلقة) إخراج /كاظم القلاف.
- العطاء	سهرة (الكويت) إخراج / عبد العزيز منصور.
- الحب الكبير	سهرة (الكويت) إخراج / حسين الصالح.
- الغريب	سهرة ٣ أجزاء (الكويت) إخراج /يوسف حمودة.
- صغيرات على الحب	مسلسل ١٥ حلقة (تليفزيون الكويت) بطولة: حياة الفهد- إخراج / محمد عيسى.
- صدى الأيام	سهرة (تليفزيون الكويت) إخراج /كنعان حمد- بطولة : منصور المنصور- هدى حمادة.
- الدرب الجديد	سهرة تليفزيونية بطولة : جلال الشرقاوي - ياسر جلال - طارق دسوقي - إخراج / سيد عبيدو - (التليفزيون المصري).
- منين أجيب ناس	مسلسل ١٥ حلقة بطولة معالي زايد - محمد وفيق - حنان شوقي - محمود الجندي - إخراج كريم ضياء الدين (التليفزيون المصري).

- أنا وبناتي في الزحام	مسلسل ١٥ حلقة بطولة زيزي البدراوي - أحمد خليل - سيد عبد الكريم - أحمد سلامة إخراج محمد عبد السلام (التليفزيون المصري).
- علاء الدين والأميرة ياسمين	مسلسل أطفال _ يقع المسلسل في ٢٦ حلقة بطولة / نوال أبو الفتوح - أحمد عبد الوارث - ضياء المرغني - هشام عبد الله - ناصر سيف - هالة فاخر إخراج / أيمن عبيس (إنتاج التليفزيون المصري).
- عصفور تحت المطر	مسلسل في ٣١ حلقة بطولة / أحمد عبد العزيز - تيسير فهمي - أحمد ماهر - وجدي العربي - سيد عبد الكريم - عزة بهاء - تهاني راشد - غسان مطر - هشام عبد الله - ضياء المرغني - مخلص البحيري ومن إخراج / محمود بكري (إنتاج التليفزيون المصري).
- همام وبنت السلطان	مسلسل أطفال _ يقع المسلسل في ٢٨ حلقة بطولة / هالة فاخر - علا رامي - وجدي العربي - غسان مطر - عايدة عبد العزيز - حنان سليمان .. ومن إخراج / أحمد مجدي (ومن إنتاج التليفزيون المصري).
- وبحلم بيك يا وطن	مسلسل أطفال - يقع المسلسل في ٣٠ حلقة - بطوله احمد سلامه ونوال أبو الفتح ومحمد وفيق وممدوح وافي وإخراج محمد دنيا.

المسلسلات الإذاعية :

مسلسل البيت الكبير	٩٠ حلقة/ إذاعة قطر مدة الحلقة ١٥ق
مسلسل غرباء في الحياة	البحرين / إذاعة ٣٠ حلقة.
٥ مسلسلات إذاعة –الكويت	المسلسل ٣٠ حلقة .
٩٠ حلقة برنامج كتاب خليجى	إذاعة قطر .
٣٠ حلقة إغاثة الأمة	إعداد وسيناريو - انتاج إذاعة قطر إذاعة قطر .
٣٠ حلقة مسلسل جنون وفنون التاريخ	إذاعة أبو ظبى - إخراج / حبيب غلوم
٣٠ حلقة مسلسل علاء الدين والأميرة ياسمين	إذاعة الكويت إخراج / أحمد مساعد بطولة محمود يس
٣٠ حلقة مسلسل سندباد	إذاعة الكويت .إخراج أحمد مساعد
٣٠ همام وبنت السلطان	إذاعة البحرين - إخراج/ إبراهيم عيسى

من أهم الكتب التى كتبت عن السيد حافظ

١- الفعل الدرامى في مسرح السيد حافظ - دكتور مصطفى رمضانى (مغربى) و٦ باحثين معه.

٢- التشظى وتداخل الأنواع الأدبية (تجربة السيد حافظ في المسرواية) "جزءان" د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٣- التنوع الدلالى في مسرح الطفل ما بين التناص والتراث والإخراج د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٤- رؤية النقد لعلامات النص المسرحى لمسرح الطفل في الوطن العربى د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٥- تمظهر التجديد في بنية السرد في القصة القصيرة د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٦- المسرح التجريبى بين المراوغة اضطراب المعرفة د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٧- إشكالية الحداثة والرؤى النقدية في المسرح التجريبى د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية

٨- السيد حافظ في عيون الباحثين والنقاد الجزائريين د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية.

٩- السيد حافظ في عيون نقاد المغرب د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية

١٠- المشاكس د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية

١١- انحطاط العالم د. إبراهيم بوخالفة – الجزائر.

١٢- تمثيل العالم د. إبراهيم بوخالفة – الجزائر.

١٣- التأثيث المكانى في رواية ليالى دبى شاى بالياسمين – د. محمد زعترى - الجزائر.

١٤- أعمال السيد حافظ المسرحية من الفهم والتفسير إلى صناعة الوعى إعداد الدكتور: مفتاح خلوف – الجزائر – ط ٢٠٢٠م.

١٥- الحب الملكى – سحر التنهيد والعشق – مقتطفات من سباعية السيد حافظ الروائية – د. نجاة صادق الجشعمى – عراقية ٢٠٢٠م

١٦- السيد حافظ والذاكرة المسرحية في حوارات – إعداد الكاتب : أحمد حافظ - مصر - ط٢٠٢٠م

١٧- امبراطورية المسرح – دراسات نقدية في مسرح السيد حافظ - د.ناديه سعدونى ،الجزائر ط ٢٠٢٠م.

١٨- جمالية الكتابة المسرحية والسردية عند السيد حافظ أ.د. كمال الدين عيد ، مصر ،ط. ٢٠٢٠م.

١٩- الهجنة الأجانسية في أعمال السيد حافظ الإبداعية - د. نادية سعدونى – الجزائر – ط ٢٠٢٠م.

٢٠- مملكة السرد " دراسات نقدية في سرديات السيد حافظ " د. إبراهيم بوخالفة – الجزائر – ط٢٠٢٠م

٢١- معارك المسرح " دراسات في النقد المسرحى لنصوص السيد حافظ " د. إبراهيم بوخالفة – الجزائر – ط٢٠٢٠م

٢٢- بلاغة التعبير عن فكر الكاتب السيد حافظ السياسى في إبداعه الروائى – رسالة ماجستير – مى جمال الشربينى – ط ٢٠٢٠م

٢٣- ثورة الإبداع في المسرح والسرد - نموذجًا الكاتب السيد حافظ - الدكتورة وفاء كمالو – إعداد د. نجاة صادق الجشعمى – العراقية – ط ٢٠٢٠م

٢٤- ثنائية المخاتلة بين النص الغائب والصورة الذهنية في مسرح السيد حافظ - إعداد : "أسمهان سعودى و سناء نويوية " اشراف د . محمد زعيتري – الجزائر - ط ٢٠٢٠م.

٢٥- التجريب فى المسرح العربى مسرح السيد حافظ نموذجًا – إعداد : عبد الحق قرطيط – إشراف الدكتور / يونس لوليدي – المغرب – ط ٢٠٢٠ م

٢٦- صور المرأة وأبعاد توظيفها فى مسرحيات السيد حافظ – إعداد عفاف صغيرة و نادية زوالى – إشراف الدكتور / مفتاح خلوف – الجزائر – ط ٢٠٢٠م.

٢٧- التشاكل الأجناسى فى سباعية السيد حافظ – د. أمل درويش – القاهرة

٢٨- إستراتيجية النص وتفاعل المتلقى في الخطاب الأدبى رواية "كابتشينو" للسيد حافظ – د.ربيعة حنيش – الجزائر

٢٩- عمالقة على المقهى مع السيد حافظ – الكاتب والناقد أحمد حافظ – ط ٢٠٢١.

٣٠- التجريب وجماليات البناء السردي في الرواية العربية - ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب." - ط ٢٠٢١.

٣١- معمارية البناء وجماليات السرد ما بين الزمانكية وعولمة النقد – ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب." - ط ٢٠٢١.

٣٢- العنونة ما بين الصورة والزمانكية في الرواية – ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب." - ط ٢٠٢١.

٣٣- شرنعة العشق ما بين البراجماتية والدوجماطيقية - ضمن مشروع ورشة النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء السادس - نموذجًا رواية "ما أنا بكاتب". - ط ٢٠٢١.

٣٤- الشخصيات ما بين المرئى واللامرئى والثابت والمتغير في السرد الروائى - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الرابع - نموذجًا رواية "كل من عليها خان. ط ٢٠٢١.

٣٥- السرد الروائى ما بين خلخلة التأريخ وتجاوز الذاكرة - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الرابع - نموذجًا رواية "كل من عليها خان". - ط ٢٠٢١.

٣٦- التجريب وانحرافات السرد في الرواية - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الخامس - نموذجًا رواية "حتى يطمئن قلبى". - ط ٢٠٢١.

٣٧- التمرد على نمطية السرد في بنية الرواية - ضمن مشروع النقد للسرد الروائى "السباعية" الجزء الثانى - نموذجًا رواية "كابتشينو". - ط ٢٠٢١.

٣٨- تجليات التناص في رواية "أنا وفاطمة ومارك" – د. حنان حطاب – ط ٢٠٢١.

٣٩- بناء البطل التراجيدي في مسرح السيد حافظ – إشراف: دكتور / عزوز ختيم
إعداد الطالبين بن حافظ عائشة ـ بوزيدي زكريا - جامعة محمد بوضياف المسيلة – الجزائر ط ٢٠٢١.

٤٠- السيد حافظ في عيون كتاب ونقاد وأدباء الكويت – ط ٢٠٢١

٤١- فنيات الكتابة المسرحية " مسرحية إمرأتان نموذجًا" للكاتب السيد حافظ– دراسة بقلم بسمة حرود ـ نورة حبيب ـ تقديم الدكتور محمد زعيتري– الجزائر - طبعة ٢٠٢١م.

٤٢- البنية السردية في الرواية العربية الحديثة رواية "ما أنا بكاتب" للسيد حافظ رسالة ماستر - الجزائر بقلم بلقليل دلال و بن صوشة كنزة – ط ٢٠٢٢

٤٣- المرأة والبعد الاجتماعى والعقائدي في رواية "كل من عليها خان" للسيد حافظ - إعداد : حمريط زهيرة - خلفة إيمان – ط ٢٠٢٢

٤٤- البعد السياسى التحريضى في نصوص السيد حافظ المسرحية بقلم ايمان خالد مهدي عمران – ط ٢٠٢٢

٤٥- البناء الفنى في الرواية المسرحة نموذجًا رواية كل من عليها خان للسيد حافظ دراسة بقلم أ. فضيلة طايبى و أ. آسيا خيتوس – ط ٢٠٢٢

٤٦- تشكيل النّص غير الملفوظ فى مسرحيات السّيد حافظ رسالة ماجستير بقلم زهرة هبوب وصفية زلوف - إشراف البروفسور مفتاح خلوف – جامعة محمد بوضياف – الجزائر – ط٢٠٢٢

٤٧- السيد حافظ في عيون نقاد وأدباء فلسطين –ط ٢٠٢٢

<u>قائمة بكتب الدراسات النقدية عن أعمال الكاتب / السيد حافظ</u>

١- السيد حافظ في عيون نقاد وأدباء فلسطين - مجموعة نقاد من فلسطين
(د. إبراهيم طه - أ. عبد الله الشيتى - أ. حسن عبد الهادي - د. نادر القنة - أ. وليد أبو بكر
أ. عبد القادر كراجة - أ. ناصر العودة (سليمان الشيخ - أ. ماجد الشيخ)

٢- البناء الفنى للحكاية الشعبية على بابا والأربعين حرامى بين الموروث الشعبى
أ. يوسف عبد الرحمن إسماعيل

٣- البناء الفنى في الرواية المسرحة نموذجًا رواية كل من عليها خان للسيد حافظ
أ. فضيلة طايبى - أ. آسيا خيتوس

٤- إعادة كتابة التاريخ في مسرح الطفل العربى. مسرحية . أبوزيد الهلالى. للسيد حافظ
إعداد سعاد مدانى - نصيرة بن زموري

٥- السيرة الشعبية في مسرح الطفل - السيد حافظ نموذجا - د. طارق الحصري.

٦- المرأة والبعد الاجتماعى والعقائدي في رواية "كل من عليها خان" للسيد حافظ
زهيرة حمريط - إيمان خلفة

٧- تشكيل النّص غير الملفوظ في مسرحيات السّيد حافظ - رسالة ماستر : صفية زلوف - زهرة هبوب

٨- هندسة الشخصيات في رواية ليالى دبى للكاتب السيد حافظ - فاطمة صغيري

٩- البعد السياسى التحريضى في نصوص السيد حافظ المسرحية - إيمان خالد مهدي

١٠- البنية السردية في الرواية العربية الحديثة - السيد حافظ نموذجا - دلال بلقليل - كنزة بن صوشة

١١- الحاكم بأمر الله ما بين بن باكثير والسيد حافظ و سالم بن حميش - ا.د . محمد عبازه

١٢- السيد حافظ في عيون كتاب وفنانين ونقاد العراق - إعداد. نجاة صادق الجشعمى

د. نجاة صادق الجشعمى - د. خلود جبار عبيد - د. نزار شبيب العبادي م.م. حيدر على الأسدي
أ. سحر الجابري - د. ستار عايد العتابى - م.م. زينب نوري لعيوس - أ. صالح البدري - د. خلود محمود عبود أ. أحمد سعدون البزونى - أ. يوسف عبود جويعد)

١٣- "السيد حافظ في عيون كتاب ونقاد وأدباء الكويت"
إعداد : د. نجاة صادق الجشعمى (د. محمد المنصور ،د. نرمين يوسف الحوطى ،د. محمد مبارك الصوري ،
أ. آمال الغريب ،أ. عبد الله عبد الرسول ،أ. عماد منصور المنصور ،أ. صالح الغريب ،
أ. عبد المحسن الشمري ،أ. أحمد الرقعى ،أ. فيصل السعد ، أ. خليل الوادي.)

١٤- بناء البطل التراجيدي في مسرح السبد حافظ - زكريا بوزيدي. عائشة بن حافظ

١٥- حضور الفاطميين في مسرحيات السيد حافظ - د. نزار شبيب كريم العبادي

١٦- السرد الروائى ما بين خلخلة التأريخ وتجاوز الذاكرة - د. نجاة صادق الجشعمى
(أ.د. هاجر مباركى - د. وفاء كمالو - د. سعيدة خلف - د. داليا بدوي - أ. شيماء أحمد رُميح
أ. رضوى جابر شعبان - أ. حسن الجوخ - أ. بسنت حسين - أ. مى جمال الشربينى
أ. طايبى فضيلة - أ. خيتوس آسيا)

١٧- الشخصيات ما بين المرئى واللامرئى والثابت والمتغير في السرد الروائى - السيد حافظ نموذجا
إعداد : د. نجاة صادق الجشعمى (أ.د. فايزة محمد سعد - أ.د. سيد على إسماعيل - د. عايدي على جمعة - د. كاميليا عبد الفتاح - أ. إيمان الزيات - أ. رضوى جابر - أ. أحمد حنفى - أ. أمل سالم)

١٨- التجريب وانحرافات السرد في الرواية - السيد حافظ نموذجا
إعداد : د. نجاة صادق الجشعمى (د. نجاة صادق الجشعمى - أ.د. هاجر مباركى
د. أفكار أحمد زكى - د. سعيدة خلف - د. وفاء كمالو - د. كاميليا عبد الفتاح - د. محمد مخيمر
د. داليا بدوي - د. رائدة العامري - أ. إيمان الزيات - أ. احمد محمد الشريف - أ. سحر الجابري
أ. بسنت حسين - أ. فاديا سلوم - أ. رضوى جابر)

١٩- التجريب ومكونات البنى السردية في الرواية - السيد حافظ نموذجا - إعداد : نجاة صادق الجشعمى.

٢٠- العنونه ما بين الصورة و الزمانكية في الرواية - السيد حافظ نموذجا - د. نجاة صادق الجشعمى

٢١- تجليات التناص في الخطاب السردي. رواية أنا وفاطمة مارك للسيد حافظ نموذجا
(سميحة بايفوح - والزهرة خنوش - وراضية كبور)

٢٢- عمالقة على المقهى مع السيد حافظ - إعداد أحمد حافظ

٢٣- معمارية البناء وجماليات السرد ما بين الزمانكية و عولمة النقد - السيد حافظ نموذجا
إعداد : د. نجاة صادق الجشعمى

٢٤- التجريب وجماليات البناء السردي في الرواية العربية - السيد حافظ نموذجا - د. نجاة صادق الجشعمى

٢٥- التشاكل الأجناسى في سباعية السيد حافظ - د. أمل درويش

٢٦- إستراتيجية النص وتفاعل المتلقى في الخطاب الأدبى رواية "كابتشينو" للسيد حافظ - د. ربيعة حنيش

٢٧- الحب ما بين الاصطلاح والرمزية - روايات السيد حافظ نموذجا - د. نجاة صادق الجشعمى

٢٨- تجليات الحداثة في الخطاب السردى المعاصر كل من عليها خان للكاتب السيد حافظ نموذجا - د. فايزة محمد سعد

٢٩- صورة المجتمع في نصوص مسرح الطفل المستلهمة من التراث عند السيد حافظ

د. هدى سعيد عبد العليم

٣٠- فنيات الكتابة المسرحية "مسرحية امرأتان" نموذجًا للكاتب للسيد حافظ
بسمة حرود و نورة حبيب

٣١- المسرح والتراث والتاريخ تجربة السيد حافظ - سميرة أوبلهى

٣٢- التجريب في المسرح العربى مسرح السيد حافظ نموذجًا - عبد الحق قرطيط

٣٣- صورة المرأة وأبعاد توظيفها في مسرحيات السيد حافظ "نماذج مختارة"
عفاف صغيري و نادية زوالى

٣٤- ثنائية المخاتلة بين النص الغائب والصورة الذهنية في مسرح السيد حافظ
أسمهان سعودي و سناء نويوة

٣٥- بلاغة التعبير عن فكر الكاتب السيد حافظ السياسى في إبداعه الروائى
د. مى جمال محمد محمود الشربينى

٣٦- بناء البطل التراجيدي في مسرح السيد حافظ - بن حافظ عائشة - بوزيدي زكريا

٣٧- ثورة الإبداع في المسرح والسرد نموذجًا الكاتب السيد حافظ - د. وفاء كمالو

٣٨- جمالية الكتابة المسرحية و السردية عند السيد حافظ - د. كمال الدين عيد

٣٩- مملكة السرد - دراسات نقدية في سرديات السيد حافظ - بوخالفة إبراهيم

٤٠- الهجنة الأجناسية في أعمال السيّد حافظ الإبداعية - د. نادية سعدونى

٤١- إمبراطورية المسرح - دراسات نقدية في مسرح السيد حافظ - د. نادية سعدونى

٤٢- مفهوم الثورة في مسرح الطفل في أعمال السيد حافظ - رشا دياب

٤٣- السيد حافظ والذاكرة المسرحية في حوارات - أحمد حافظ

٤٤- خصوصية التأليف في مسرح الطفل في الوطن العربى - السيد حافظ نموذجا
حيدر على الأسدي

٤٥- التأثيث المكانى في رواية ليالى دبى شاي بالياسمين للكاتب السيد حافظ
سليم ميرة - خالد ربعى

٤٦- تمثيل العالم حفريات في الأدب الروائى للكاتب السيد حافظ - د. إبراهيم أبو خالفة

٤٧- أعمال السيد حافظ المسرحية من الفهم والتفسير إلى صناعة الوعى - د. مفتاح خلوف

٤٨- السيد حافظ في عيون نقاد المغرب - الجزء الأول - إعداد : نجاة صادق الجشعمى
(أ.د. مصطفى رمضانى - أ.د عبد الرحمن بن زيدان - د. شنايف الحبيب
أ. محمد السعيدى - أ. نصيرة يعقوبى - أ. عبد السلام بوسنينه - أ.د. عبد الكريم برشيد - أ. الهوارى بن يونس - أ. نعيمة عبد لاوى - أ. محمد المحراوى
أ. ثوريا ماجدولين - أ. سعاد درير)

٤٩- السيد حافظ في عيون نقاد المغرب - الجزء الثانى - إعداد د. نجاة صادق الجشعمى
(أ. صفاء درويش - أ.د. عبد العزيز خلوفه - أ. نزيهة بن طالب - د. نادية فضمى
أ. فاطمة حاجى - أ. سميرة أوبلهى - أ. سميرة لمسايح - أ. يمينة الراوي - أ. سعاد درير - أ. زروق أحمد - أ. أحمد مرزاق - أ. حميد حقون - أ. فاطمة زكاوى - أ. حليمة حقونى)

٥٠- انحطاط العالم والسرد العربى السيد حافظ في عيون الباحثين والنقاد الجزائريين

د. إبراهيم بوخالفة

(أ. د. / ابراهيم بوخالفة - أ / ليلى بن عائشة - أ / هاجر مباركى - د / نادية سعدونى - أ / وافية بولفعة - أ / عائشة حمادو - أ / نصيرة علاك - أ / كلثوم باجى - أ/ هيدتش اسماعيل - أ/ عبد النّاصر بن بناجى - أ/ عبد القادر سرير عبد الله)

٥١- تمظهر التجديد في بنية السرد في القصة القصيرة- السيد حافظ نموذجا
إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

(أ.د. إبراهيم بوخالفة الجزائر — د. وفاء كمالو مصر — أ.د. السعيد الورقى مصر
د. ليلى بن عائشة الجزائر — د. هاجر مباركى الجزائر — د. إبراهيم طه فلسطين
د. منيرة مصباح أمريكا — د. عبد العزيز خلوفة الجزائر — د. نادية سعدونى الجزائر
د. أمال شوقى مصر — د. عائشة حمادو الجزائر — د. ماهر عبدالمحسن مصر
د. وافيه بو لفعه الجزائر — د. نصيرة علاك الجزائر — أ. عبد الله الشيتى فلسطين
أ. فيصل صوفى اليمن — أ. إيمان الزيات مصر — أ. شوقى بدر يوسف مصر
أ. يوسف عبد المسيح العراق — أ. سعيد فرحات لبنان — أ. شاهيناز الفقى مصر
أ. عبد الله هاشم مصر — أ. شفيق العمروسى مصر — أ. سمير عبدالفتاح مصر
أ. محمود قاسم مصر — أ. السيد الهيبان مصر — أ. أحمد محمد الشريف مصر)

٥٢- التنوع الدلالى في مسرح الطفل - السيد حافظ نموذجا - إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

٥٣- رؤية النقد لعلامات النص المسرحى في مسرح الطفل في الوطن العربى - السيد حافظ نموذجا .. إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

٥٤- التشظى وتداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية - السيد حافظ نموذجا - الجزء الأول إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

٥٥- التشظى وتداخل الأجناس الأدبية في الرواية العربية - السيد حافظ نموذجا - الجزء الثانى - إعداد : نجاة صادق الجشعمى

٥٦- التجريب في مسرح السيد حافظ - د. ليلى بن عائشة

٥٧- المسرح التجريبى بين المراوغة واضطراب المعرفة - السيد حافظ نموذجا
إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

٥٨- إشكالية الحداثة والرؤي النقدية في المسرح التجريبى الجزء الثانى - السيد حافظ نموذجا - إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

(أ.د. سعد أردش مصر — أ. د. عبد الكريم برشيد المغرب
أ.د جميلة مصطفى الزقاي الجزائر — أ. بنيونس الهواري الجزائر
د. سميرة أوبلهى المغرب — أ. فاطمة زكاوى المغرب
د. أحمد العشرى مصر — أ. عادل النادى مصر
د. مازن الماحى مصر — أ. أحمد غانم مصر
أ. حليمة حقونى المغرب — أ. عبد الغنى داود مصر
أ. نصيرة يعقوبى المغرب — أ. محمود قاسم مصر
أ. محمد يوسف مصر — أ. أحمد الشريف مصر

د. ليلى بن عائشة الجزائر | أ. جبارى عبد الرازق الجزائر
أ. نادية فضمى المغرب | أ. أحمد فضل شبلول مصر
أ. شنايف الحبيب فلسطين | د. مصطفى عبد الغنى مصر
أ. محمد صدقى مصر)

٥٩- إشكالية ملامح الحب ما بين التمجيد بالمقدس والاستلحاق بالمدنس - السيد حافظ نموذجا - إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

٦٠- انعكاس الثقافات تجانسها وتناقضاتها ما بين التجريب والحتمية في النص الروائى - السيد حافظ نموذجا - إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

(د. طالب عمران المعموري - د. رشا غانم - أ. سحر الجابري - د. نجاة صادق الجشعمى – د. سعيدة خلف - د. مصطفى بوخال - أ. محمد عطية محمود - أ. سليم ميرة – أ. خالد ربعى - د. وفاء كمالو - أ. أحمد حنفى - د. رياض موسى سكران– أ. أشرف دسوقى على - د. داليا بدوي - د. محمد مخيمر - أ. فهمى إبراهيم د. خالد البوهى - د. أدهم مسعود القاق - أ. فاديا سلوم)

٦١- جدلية الأنساق والدلالات الرمزية المضمرة في السرد الروائى - السيد حافظ نموذجا

إعداد د. نجاة صادق الجشعمى

(أ.د. كمال الدين عيد - أ. فاديا سلوم - د. جميلة رحمانى - د. حنان حطاب – د. ستار عايد العتابى – د. لبلبة فتحى خليفة - د. وفاء كمالو - د. أمجد ريان – د. إبراهيم بوخالفة - أ. دينا نبيل عبد الرحمن - أ. عواطف الزين - أ. فهمى إبراهيم - أ. أحمد فضل شبلول - أ. معتز العجمى - أ. أمين بكير - أ. محمد الدسوقى – أ. سحر الجابري - أ. بسنت حسين)

٦٢- كتاب بحث رسالة الحكاية الشعبية في مسرح الطفل في الكويت - دراسة في مسرح السيد حافظ للباحثة آمال الغريب - المعهد العالى للفنون المسرحية ١٩٨٤- الناشر مركز الوطن العربى ١٩٨٧.

٦٣- كتاب بحث رسالة في الشخصية التراثية وظيفتها الفنية والفكرية في مسرح السيد حافظ - سميرة أوبلهى - مكناس المغرب ١٩٨٦- الناشر مركز الوطن العربى ١٩٨٨.

٦٤- بحث في اللغة الشعرية في مسرح السيد حافظ - موسكو - تحت إشراف المستشرق فلاديمير شاجال.

٦٥- كتاب إشكالية التأهيل في المسرح العربى - صليحة حسنى - بحث - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المغرب. الناشر مركز الوطن العربى ١٩٨٧ .

٦٦- كتاب الفلاح في المسرح العربى - نموذجا حكاية الفلاح عبد المطيع - للسيد حافظ - خديجة الفلاح - جامعة محمد الأول - المغرب الناشر مركز الوطن العربى ١٩٨٨.

٦٧- كتاب البطل الثوري في مسرح السيد حافظ - نموذجا ظهور وأختفاء أبو ذر الغفارى - منصورية مباركى - وجدة - المغرب. الناشر مركز الوطن العربى ١٩٨٩.

٦٨- كتاب القضية الفلسطينية في مسرح السيد حافظ - نموذجا ٦ رجال في معتقل شنايف. الحبيب - المغرب. الناشر مركز الوطن العربى ١٩٩٠.

٦٩- مفهوم الإرشادات المسرحية ومسألة التجريب في المسرح العربى . السيد حافظ نموذجا من خلال مسرحية " طفل وقوقع وقزح " حقون حميد - المغرب ١٩٩٢.

٧٠- التجريب في مسرح السيد حافظ الحانة الشاحبة العين تنظر الطفل العجوز الغاضب - نموذجا - عائشة عابد - جامعة محمد الأول - ١٩٩١.

٧١- الشخصية التراثية الشعبية في مسرح الطفل عن السيد حافظ - نموذجا على بابا - نزيهة بن طالب (الناشر - العربى للتوزيع).

٧٢- مسرح الطفل عن السيد حافظ–نموذجا "مسرحية الشاطر حسن" فاطمه حاجى - المغرب ١٩٩١.

٧٣- التجريب والعبث في المسرح العربى من خلال مسرحية سيزيف للسيد حافظ - حليمة حقوقى ١٩٩٢.

٧٤- التجريب في مسرح السيد حافظ نموذجا ١ " حبيبتى أنا مسافر و القطارانت و الرحلة الإنسان " ١٩٩٢- ١٩٩٣ بنيونس الهواري . (المغرب)

٧٥- المسرح السياسى عند السيد حافظ من خلال مسرحية " ملك الزبالة أو الزبالين " رزوق أحمد – جامعة محمد الأول _ وجدة _ المغرب _ ١٩٩٦.

٧٦- مسرح الطفل عند السيد حافظ نموذجا مسرحية " قميص السعادة " نعيمة عبد اللاوي ١٩٩٦- ١٩٩٧. (المغرب).

٧٧- إشكالية التجريب في مسرح السيد حافظ أطروحة لنيل دبلوم الدراسات العليا - بنيونس الهواري ١٩٩٩- ٢٠٠٠ (المغرب).

٧٨- مسرح الطفل عند السيد حافظ نموذجا مسرحية " سندريلا والأمير وقميص السعادة د. عبد العزيز خلوفة.

٧٩- جامعة محمد بن الله - فاس – المغرب ٢٠٠٢- ٢٠٠٣ .

٨٠- المسرح التجريبى عند السيد حافظ نموذجا مسرحية " سيزيف " سميرة لمسايح ٢٠٠٢- ٢٠٠٣ (المغرب).

٨١- التراث والمسرح مسرحية " حلاوة زمان " للسيد حافظ - نموذجا - فاطمة زكاي ٢٠٠٢- ٢٠٠٣ (المغرب).

٨٢- دور مسرح الطفل في ترسيخ بعض القيم الأخلاقية عن طريق الحكاية الشعبية نموذج " سندريلا " للسيد حافظ سناء جلال أحمد على – جامعة المنوفية – قسم الإعلام التربوي –مصر ٢٠٠٢- ٢٠٠٣ .

٨٣- اللغة الشعرية في مسرح السيد حافظ - د. مفتاح خلوف

٨٤- الفضاء الدرامى وآلية إنتاج المعنى في مسرح السيد حافظ - علياء علاء رمضان عباس

٨٥- العتبات وبعثرة التيمات للسرد المهجن في المسرواية - السيد حافظ نموذجًا – إعداد د. نجاة صادق الجشعمى (دراسات نقدية لمجموعة من النقاد)

٨٦- شرنعة العشق ما بين البرجماتية والدوجماطيقية - السيد حافظ نموذجًا– إعداد د. نجاة صادق الجشعمى (دراسات نقدية لمجموعة من النقاد)

٨٧- مقامات التجريب وبنيات التشكيل في الرواية - السيد حافظ نموذجًا– إعداد د. نجاة صادق الجشعمى (دراسات نقدية لمجموعة من النقاد)

مشاركات

- شارك في مهرجان
- قرطاج (تونس)
- مهرجان بغداد (العراق)
- مهرجان مسرح الطفل – الأردن
- مهرجان أبو ظبي
- مهرجان القاهرة
- مهرجان الإسكندرية
- مهرجان مطروح
- مهرجان بيجاية (الجزائر)
- مهرجان مدينة وجدة المسرحي (المغرب)
- مهرجان مسرح الطفل (الكويت)
- مهرجان المونودراما الأول في البصرة – العراق.

العنوان : ١٢ش طارق يحيى عبد الغنى – التعاون – الهرم – الجيزة موبايل ٠٠٢٠١٢٨١١١١٨٧٥ – ٠١١١٦٤٠٩٥٦٨ – ٠١٠٦٥٣٣٠٢٩٩
E-mail : Justhappy_man2000@yahoo.com
hafez66@live.com
مدونة الكاتب: http://sdhafez.blogspot.com
https://www.facebook.com/alsyd.hafz.7

الفهرس